جامعة قطر
QATAR UNIVERSITY
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
COLLEGE OF SHARIA AND ISLAMIC STUDIES

بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى

تدبر

تسوير السور القرآنية (١٩)

بصائر المعرفة القرآنية (٣٢)

التفسير الوسيط

سورة آل عمران

عمود السورة (موضوعها الكلي)

تكوين أمة شهادة الوحدانية لتكون خير أمة تدعو إلى الخير وتستثمر سنن الانتصار بعد الانكسار في التفاعل مع العالم وخصوصا الحضارة النصرانية

الجزء الثاني

(من المحور الخامس حتى الخاتمة)

تفسير وبصائر الآيات (١٢١-٢٠٠)

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

دار بصائر المعرفة

بصائر المعرفة القرآنية

قرآن يتلى لإنسانية ترقى

سورة آل عمران

التفسير الوسيط

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير الوسيط

سورة آل عمران

الجزء الثاني

عبد السلام مقبل المجيدي

خضع هذا الكتاب للتحكيم العلمي

راجعه

القسم العلمي بمؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

تصميم

محمد عبدالحميد عبدالله الزبيدي

+905551520522

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ويجوز نشر الكتاب، ويفضل إخبار المؤلف

وحدة البحوث والدراسات

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية / جامعة قطر

الطبعة الأولى

1447 هـ - 2026 مـ

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية : ٢٠٢٦/١١٥

الترقيم الدولي ISBN : ٩٧٨٩٩٢٧٢٠٦٠٠٩

دار بصائر المعرفة

طبعت بمطابع الراية

بصائر المعرفة القرآنية (٣٢)

تنوير السور القرآنية (١٩)

التفسير الوسيط

سورة آل عمران

عمود السورة (موضوعها الكلي)

تكوين أمة شهادة الوحدانية
لتكون خير أمة تدعو إلى الخير
وتستثمر سنن الانتصار بعد الانكسار
في التفاعل مع العالم وخصوصا الحضارة النصرانية

الجزء الثاني

(من المحور الخامس حتى الخاتمة)

تفسير وبصائر الآيات (١٢١-٢٠٠)

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

كلية الشريعة/ جامعة قطر

القضية الكبرى الثانية

سنن الانتصار والانكسار التي يجب أن تعرفها أمة الخير؛ لتعالج أهم الأخطار الداخلية والخارجية، عبر تفصيل أحداث معركة أُحُد، لتكون أنموذجًا لغيرها [آل عمران 121-189].

جسر اتصال

عرفنا أن هذه السورة المباركة تكونت من مقدمة وقضيتين رئيستين وخاتمة، وأن المقدمة فصَّلت لنا أهمَّ الأسس الدستورية (الثوابت) التي يقوم عليها المجتمع المسلم، والتي تضمن له أن يكون خير أمة أخرجت للناس.

وأن الموضوع الذي دارت عليه القضية الكبرى الأولى هو: الشهادة الكبرى: شهادة الوحدانية، وأن دين إبراهيم وعيسى ومحمد وسائر الأنبياء عليهم السلام عند الله الإسلامُ، ولذا كانت أمة محمد ﷺ خيرَ أمة أخرجت للناس تدعو العالم إلى الخير، وامتدت معالجة هذا الموضوع في آيات المحاور الأربعة الأولى [آل عمران: ١٠-١٢٠]، فما القضية الكبرى الثانية التي تكونت منها هذه السورة؟

الجواب: يستبين ذلك في البصائر الآتية:

بَصِيرَة ١ — القضية الكبرى الثانية التي بصَّرتنا بها سورة آل عمران

هي سنن الفلاح والانتصار، وسنن الفشل والغم وتولية الأدبار والانكسار التي تعاملت معها الأمة التي تدعو العالم إلى الخير، وعالجت هذه السننُ أهمَّ الأخطار الداخلية النفسية والعملية في الصف المسلم مما ظهر في معركة أُحُد، وامتدت معالجة هذا الموضوع في الآيات [آل عمران: 121-189].

بَصِيرَة ٢ — ولكننا لا بد أن نسأل:

فَصَّل الله ﷻ أحوال أهل الكتاب وخصوصًا النصارى في القضية الكبرى الأولى من هذه السورة، ثم جاءت هذه الآيات تحدثنا عن معركة أحد، وهنا تواجهنا قضية من أغرب القضايا القرآنية: فمعركة أحد لم تكن مع أهل الكتاب بل مع المشركين الوثنيين، فما وجه الاتصال بين القضيتين الكبريين اللتين تكوّنان السورة؟ لو كان الكلام عن معركة مؤتة أو عن معركة تبوك أو عن فتح خيبر أو هزيمة بني قريظة لكان الأمر واضحًا، لكن الكلام جاء عن معركة أحد مما يدفعنا للتساؤل عن وجه الاتصال.

الجواب:

الخصم الاستراتيجي المستقبلي لخير أمة تدعو العالم إلى الخير هم فاسقو أهل الكتاب، فهم حملة العداوة المستمرة في دورات الصراع القادمة بعد أُحد:

بصَّرنا الله ﷻ في الآية 10 ثم في الآية 116 باغترار الكفار بثرواتهم المالية، وقواتهم البشرية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [آل عمران: 10، 116]، والمحرك الرئيس للمعتدين من هؤلاء الكفار هم فاسقو أهل الكتاب، والوثنيون في الغالب تابعون لهم، وانظر كيف تحرك التتار الوثنيون على بلاد الإسلام لأسباب كان منها دعوة الصليبيين لهم لاجتياح العالم الإسلامي، وهنا ندرك أن معركة أُحُد كانت مع الوثنيين لكنها مؤشر هائل على أن سنن الفلاح والانكسار فيها تجري في غيرها، كما ندرك أن معركة أُحُد تمثل البداية الحقيقية لمواجهة فاسقي أهل الكتاب وحلفائهم من الوثنيين، ولذا لم يكن غريبًا أن يدعو النبي ﷺ على المعتدين من أهل الكتاب بعد معركة أُحُد في حديثه المشهور الذي جاء فيه: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي»، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ: «اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ، وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَنَا، اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ، وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، إِلَهَ الْحَقِّ» (أحمد: 15492، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: 10114: رِجَالُ أَحْمَدَ رِجَالُ الصَّحِيحِ).

بَصِيرَة ٣ يا لجمال القرآن لو نظرتْ إليه بعظيم التبصر العينان، وامتلأ من معين هدايته القلبُ والوجدان!!

فبعد أن بيَّن الله تعالى الدمار الرهيب الذي يُحْدِثه المسلمون في مجتمعاتهم و أنفسهم عندما يتخذون بطانة السوء: ردَّ الله تعالى على الذين يصرون على اتخاذ بطانة السوء خوفًا من الواقع المحلي أو الدولي أو إظهارًا للمرونة في التعامل مع أشرار العالم حتى لا يتم استئصال المسلمين، وأراد الله تعالى أن يبين أنه ﷻ الذي ينبغي أن يتولاه المسلمون ويستمدوا نصره طاعةً له، وثقةً به، وتطبيقًا لشرعه، وضرب لهم المثل بأحداث "أُحُد" التي رزقهم الله ﷻ نصره في أولها عندما تخلصوا من المنافقين الذين انسحبوا قبل بدء المعركة، وكانوا يمثلون بطانة السوء، فلَا يَجُوزُ اتّخَاذُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ بِطَانَةً. (تفسير الرازي 8/ 345)، فصفَّى الله ﷻ معسكر المسلمين. ثم فاجأت الهزيمة المسلمين بسبب إيثار المصلحة الفردية والإصرار على الفهم الذاتي بعيدًا عن نور الشريعة وأوامر النبي ﷺ.

بَصِيرَة ٤ لما بيَّن أن حجر الزاوية في دفع المضار المتوقعة من قبل المجرمين

الذين يحاولون أن يهيئوا فِرَقًا لتكون بطانة سوء للمؤمنين هو الصبر والتقوى فقال: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران: 120] أَتْبَعَهُ بِمَا يَدُلُّهُمْ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ فِي بَابِ النُّصْرَةِ وَالْمَعُونَةِ وَدَفْعِ مَضَارِّ الْعَدُوِّ إِذَا هُمْ صَبَرُوا وَ اتَّقَوْا. (تفسير الرازي 8/ 345)، ولذا تكرر هذان الشرطان في أول تفصيل دلالات المعركة وآخرها فقال الله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: 125]، ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران: 186].

بصائر حول معالجة السورة لهذه القضية:

بَصِيرَة ١

عالجت السورة تزيين حب الشهوات في القضية الأولى، وبينت خطرها في القضية الثانية؛ إذ تكون سببًا للهزائم والنكبات:

ذكر الله ﷻ الشهوات المزينة في الآية (14)، وتركَّز الكلام هنا حول أهمِّ الأخطار الداخلية الذاتية التي تعتري النفسية المسلمة، وفي مقدمتها الخوف من الموت، والخوف على فوات شيء من شهوات الحياة الدنيا، وهذان الخوفان يسببان الخوف من مواجهة المعتدين، وينتج عنهما الخَبَل والخلل والفشل، لذا ذكر الله تعالى سنن الفوز والانتصار، وسنن الهزيمة والاندحار.

بَصِيرَة ٢

علاج السورة للنفسية المسلمة لتتحرر من أغلال الهوى وترتقي إلى أنوار التقوى:

بيَّنت هذه الآيات أن المعارك الحربية ليست معارك ميدان فحسب، بل إن ميدانها أكبر من ميدان القتال، فهو ميدان النفس البشرية حيث تُعالِجها الآيات بأجمل الأدوية، وألطف الأشفية، وأشدها فعالية، فتعالج تصوراتها ومشاعرها، وأطماعها وشهواتها، ودو افعها وكو ابحها.

فهذه الآيات تعالج نفوسًا جاءها النصر أولًا ثم حلت بهم الهزيمة ثانيًا، فكان توظيف هذه المو اقف لمعالجة الاختلالات، وتقويم الخطوات لتستقيم على الجادة، هو النصر الأكبر.

بَصِيرَة ٣

الاعتراف بالأخطاء بداية النصر وأساس تحويل الإحباط إلى رجاء:

تصور أن تنزل على أصحاب النبي ﷺ آيات يرتلونها، وهي تتكلم عن أخطائهم، تصورهم وهم يقرؤون:

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: 122].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 135].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: 142].

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: 144].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: 149].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ﴾ [آل عمران: 152].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: 155].

الأجمل والأجل والأعظم أن الصحابة رضي الله عنهم نقلوها لنا، لم يحرفوها ولم يغيروها، لم يشعروا أنها طعنٌ في عدالتهم، وغضٌّ من عظمتهم، بل نقلوها بأمانة ليعلموا العالم ضرورة المحاسبة على الأخطاء التي تمس الشأن العام، وأن الآيات تصحيح لمسيرتهم وليس طعنًا فيهم ولا تشهيرًا بأخطائهم.

إنه الانتصار الكبير الحقيقي: انتصار النفوس الكبيرة المتجردة للحق ذات المعرفة الواضحة والرؤية المستنيرة على الأخطاء التي ترتكبها.

بصيرة ٤

ثمرة ذلك: تعزيز مسؤولية الإنسان لمحاسبة نفسه، و إنشاء مؤسسات محاسبة لما يتعلق بالشؤون العامة للمجتمع:

أثمرت هذه الآيات المباركة حصيلة ضخمة من العبرة، والتربية، والوعي والنضج، والتمحيص والتمييز، والتنسيق والتنظيم، وتجلّتْ كل هذه القيم المرشدة المقوِّمة في مسيرة الأجيال المسلمة المتعاقبة؛ إذ الطبيعة البشرية ذاتها لم تتبدل، والنفس هي النفس ألهمها الله عز وجل فجورها وتقواها، وتجلت المحاسبة العامة أعظم التجلي في عهد الخلفاء الراشدين والصحابة الماجدين رضي الله عنهم أجمعين، ثم قلَّ ذلك وتضاءل حتى صارت النفوس من تغليبها لنوازع الهوى تسمي كل نصحٍ لإصلاح الاعوجاج: طعنًا. إنها النفوس التي قال عنها الحسن البصري رحمه الله: "اقدعوا هذه النفوس فإنها طُلَعة، واعصوها، فإنكم إن أطعتموها تنزع بكم إلى شرِّ غاية". (البيان والتبيين 245/1، وا"قدعوا": أي كُفُّوا).

بصيرة ٥

ظهرت آيات مركزية، تؤسس لانتصار أمة الخير سواء أرادت أن تحقق النصر ابتداء أم أرادت العودة لتحقيقه بعد هزيمة طارئة مثل:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [آل عمران: 137].

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: 164].

﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165].

بصَّرتنا هذه الآيات أن بداية الانتصار:

انتصار الإنسان على نوازع نفسه السيئة، فالنفس لا تنتصر في المعركة الحربية إلا حين تنتصر في المعارك الشعورية والأخلاقية، والذين تولوا يوم التقى الجمعان في «أُحُد» إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا من الذنوب، والذين انتصروا في معارك العقيدة وراء أنبيائهم في الميدان هم الذين بدؤوا المعركة بالاستغفار من الذنوب، والالتجاء إلى الله علام الغيوب، والالتصاق بركنه الركين، واللوذ بحصنه المتين، وسلطانه المكين.

بَصِيرَة ٦

طبيعة عرض آيات معركة أحد في سورة آل عمران وفوائده:

١ ذكر الله تعالى ما يتعلق بمعركة أُحدٍ كأنموذج واجب الدراسة من قِبَل قادة المسلمين، والقيادات السياسية والتوجيهية، وممن لهم أدوار في صناعة القرارات المصيرية سِلمًا وحربًا.

٢ فَصَّل الله تعالى ما يتعلق بهذه المعركة الخطيرة من السُّنن التي تدير حياة الإنسان، ويظهر فيها عوامل النجاح، وأسباب الفشل.

٣ عولجت أسباب الفشل، ومنها: الخوف من الموت، معالجةً ظهرت فيها الصراحة الصادقة المتناهية في إظهار الأخطاء التي وقع فيها المسلمون قبل المواجهة وفي أثنائها وبعدها، فلم يُغَطَّ على الأورام، ولم تُستر المعاصي المؤثرة على وضع الجماعات والفئات المكونة للمجتمع، ولم يُتَحَسس من النقد، ولم يُمنع بحجة عدم إخراج عيوبنا للآخرين، أو نشر غسيلنا.

٤ أسلوب معالجة أسباب الفشل في السورة يُظهِر لنا بقوة أن من أهم أسباب الانتصار بعد الانكسار أن يكون الأصلُ الإعلانَ في المحاسبة للفئات المسلمة ولقيادتها، وذلك بخلاف المعاصي الفردية.

٥ على الرغم من أن الكلام في هذه الآيات المباركة عن معركة أحد فإن الله تعالى لم يُسَمِّ هذه المعركة في بداية الأمر؛ ليبين سبحانه أن ما يقرره في هذا السياق هو مما تشتد حاجة المسلمين إليه في كل المعارك بين الحق والباطل، والعدل والظلم، والعبودية والحرية.

بصيرة ٧

وقد فُصِّلت هذه القضية الكبرى من السورة في ثلاثة محاور هي المحاور الأخيرة من السورة:

المحور الخامس

سنن النصر في الاستعداد للمعركة قبل المواجهة العسكرية، وتطبيق ذلك على معركة أحدٍ

[آل عمران:121-136].

المحور السادس

أهم السنن الإلهية في النصر والهزيمة عند الالتحام العسكري من خلال معركة أحد

[آل عمران: 137-165].

المحور السابع

دور الأعداء الخارجيين في إحداث الفتنة وإيقاع المسلمين في سنن الفشل، وإبعادهم عن سنن الانتصار

[آل عمران: 166-189].

بصيرة ٨

في هذا الترتيب الحكيم العجيب للكلام عن معركة أُحد وجعلها درسًا من أعظم دروس الحياة:

ترى ترتيبًا حكيمًا «منطقيًا»، فقد بدأ الكلام عن معركة أُحد بذكر الاستعدادات اللازمة قبل المعركة، وسنن النصر المتعلقة بذلك، وهذا كان المحور الخامس من السورة، وهو المحور الأول من قضية معركة أُحد، ثم انتقل بصورة سلسلة حكيمة عليمة إلى الكلام عن سنن النصر والهزيمة عند الاشتباك العسكري، وكان ذلك في المحور السادس، وهو الثاني من قضية معركة أُحد، وفي هذين المحورين السابقين كان الحديث منحصرًا في سنن الهزيمة التي نصنعها نحن داخل الصف المسلم، ثم انتقل في المحور السابع وهو الثالث من قضية معركة أُحد إلى الكلام عن سنن الهزيمة المتعلقة بالأعداء الخارجيين، فانظر كيف جعل نصيب المحاسبة الداخلية أكثر من نصيب الكلام عن المؤامرات الخارجية!

المحور الخامس

سنن النصر في الاستعداد للمعركة قبل المواجهة العسكرية في معركة أُحدٍ

[آل عمران: ١٢١-١٣٦]

المحور الخامس

يحدثنا عن سـنـن النصر في الاستعداد للمعركة قبل المواجهة العسكرية في معركة أُحدٍ

[آل عمران: 121-136]

وتكوَّن هذا المحور من قِسمين:

- فالقسم الأول: سنن للنصر في إعداد الجبهة الميدانية قبل المعركة، ويؤسس ذلك لوضع خطة محكمة لسد الثغرات الواقعة والمتوقعة [آل عمران: 121-129]

السُّنة الأولى: المشاركة الميدانية للقيادة المسلمة أحد أهمِّ أسباب النصر
﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ [آل عمران: 121].

السُّنة الثانية: وضع الخطة المناسبة، وتوزيع المهام والأدوار، واستيعاب جميع الطاقات
﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ﴾ [آل عمران: 121].

السُّنة الثالثة: الشعور بصحبة الله ﷻ للأحداث، والإكثار من ذكره
﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾ [آل عمران: 121].

السُّنة الرابعة: تقييم الصف المسلم، والتأكد من عدم وجود شيء من الخلل النفسي
﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا﴾ [آل عمران: 122].

السُّنة الخامسة: معالجة نزعات الهمِّ المُحبِط المؤدية إلى الفشل
﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا ...﴾ [آل عمران: 122-123].

السُّنة السادسة

الاستحضار الإيماني العقدي القلبي لمدد الملائكة المثبّتة للمسلمين ضد المعتدين ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ﴾ [آل عمران: 124-125].

السُّنة السابعة

ازدياد التأييد الإلهي يتم بعاملَين: الصبر، والتقوى

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ...﴾ [آل عمران: 125].

السُّنة الثامنة

الْإِعْرَاضُ عَنَ الأسباب بعد بذلها، وَالْإِقْبَالُ بِالْكُلِّيَّةِ على مُسَبِّب الأسباب

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: 126].

السنة التاسعة

تحديد الأهدافِ العسكرية للقتال ضد المعتدين، وإعلانها للناس لإدخال الرعب في العدو، و إيجاد قوة الردع ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ... فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: 127-128].

السنة العاشرة

الثقة الكاملة بالسيادةِ المطلقة لله ﷻ على كل شيء، وتدبيرِه العادل، مع الاجتهاد في اتخاذ الأسباب الشرعية والمادية ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ... وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران: 128-129].

القسم الثاني سنن النصر غير المباشرة، وهي السُّنن التي توجب المحافظة على أسس المجتمع المسلم والجبهة الداخلية في أثناء الحرب [آل عمران: 130-136]

السنة الأولى – اقتصادية

تحريم جمع المال من مصادر محرمة أساسٌ للفلاح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾ [آل عمران: 130].

السنة الثانية – إيمانية عَقَدية

تذكُرُ النجاة من النار الهدف الأعظم أهمية في الحياة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ [آل عمران: 131].

السنة الثالثة – اقتصادية

استنزال رحمة الله ﷻ يقتضي أن نطيعه ونطيع رسوله ﷺ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: 132].

السنة الرابعة – اجتماعية إيمانية

المسارعة إلى المغفرة والجنة لتحقيق مرتبةَ التقوى ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ ... وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: 133-136].

القِسم الأول

ذكر الله ﷻ فيه عشر سنن للنصر في إعداد الجبهة الميدانية قبل المعركة، ويؤسس ذلك لوضع خطة محكمة لسد الثغرات الو اقعة والمتوقعة [آل عمران: ١٢١-١٢٩]

آيات هذا القسم:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

السُّنة الأولى

المشاركة الميدانية للقيادة المسلمة أحد أهمِّ أسباب النصر، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: 121]، وفيها (4) بصائر:

بَصِيرَة ١

﴿وَ﴾ حرف عطف و اتصال، وصل ما بعده بما قبله

وكلمة ﴿وَإِذْ﴾ ظرفية عامة تعني: اذكروا حركة قائد المسلمين وهو النبي ﷺ غاديًا، واذكروا مكانه، وزمانه، ﴿غَدَوْتَ﴾ أي: تحركت في الصباح منطلقًا إلى أعظم الأعمال مشقةً في ميادين المواجهة.

بَصِيرَة ٢

﴿مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ أي: من بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

إذ كان عندها حين ذلك، و أبصر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ من ذلك أنها مُطَهَّرَةٌ مُبَرَّأَةٌ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ، فقد قال الله تعالى عن وَلَد نُوحٍ لَمَّا كَانَ كَافِرًا: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هُود: 46]. «تفسير الرازي» (8/ 347).

بَصِيرَة ٣

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾: تبصرنا بأن القيادة الناصحة لأمتها ومجتمعها لا بد أن تندمج فيه، وتلتحم به وتقودَه من الداخل إلى دروب العزة والانتصار، وترتقي به صُعُدًا في درجات المجد والفَخَار، ولا تجعل الإدارة عن بُعْد، فتكون في الفنادق وجنودها في الخنادق!

إنه النبي القائد الأعلى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يبق في الأبراج، أو القصور، أو الفنادق.

بَصِيرَة ٤

تبصّرنا الآيات هنا

بأنه لبدء المعركة بصورةٍ صحيحة ضامنةٍ للفوز والفلاح وتحقيق الانتصار لا بد من أن يتحكم القائد بظروف ما قبل المعركة.

السُّنة الثانية

وضع الخطة المناسبة، وتوزيع المهام والأدوار، واستيعاب جميع الطاقات بأن يُجعل كلُّ واحدٍ من أفراد الجيش في مكانه المناسب، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ﴾ [آل عمران:121]:

بَصِيرَة ١

﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

أي: تتخذ للمؤمنين بيئة مناسبة للنصر، فتستوعب طاقاتِهم، وتهيئ الخطة العسكرية اللازمة للمواجهة، وتجعل كل واحدٍ في مكانه المناسب.

بَصِيرَة ٢

ما وجه الجمال في تسمية مواضع الجنود والتقسيمات العسكرية في الجيش ﴿مَقَٰعِدَ﴾؟

الجواب:

١

ليثبتوا فيها كأنهم فيها قاعدون، فمن أهم عوامل النصر الثبات والانضباط، وحمايةُ كل واحدٍ مكانه في المعركة. الزم ثغرك لا يُؤْتَيَنَّ المسلمون مِنْ قِبَلِك.

٢

يكمنوا فيها، ويَهُبُّوا منها عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الْمُحَارَبَةِ.

«تفسير الرازي» (8/ 347).

السُّنة الثالثة

الشعور بصحبة الله ﷻ للأحداث، والإكثار من ذكره واستشعار المدد الرباني، والمعية الإلهية، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾ [آل عمران: 121]، وفيها بصيرتان:

بَصِيرَة ١

لا بد من إبراز الجانب العقدي في الخطاب العسكري والسياسي

والشعور بسمع الله وعلمه سبحانه، وليس التهرب منه، فهو ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم و أقوال أعدائكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم و أفعال أعدائكم.

بَصِيرَة ٢

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾

تبصرنا بأن من أعظم عوامل رفع المعنويات لدى الجُند، وتثبيتهم في مقاعد الجهاد ومواطن الرباط: استشعارهم معيةَ الله ﷻ لهم، ومددَه إياهم، وعلمَه بجميع أحوالهم والظروف المحيطة بهم.

السُّنة الرابعة

تقييم الصف المسلم، والتأكد من عدم وجود شيء من الخلل النفسي كالجبن والضعف والخوف، أو التأثر باختراق الأعداء

ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: 122]، وهذا يعني عدم تبرئة المؤمنين من أمراض البشر المعتادة، وفيها (٧) بصائر:

بَصِيرَة ١

﴿إِذْ﴾ أي: اذكر إذ، أو: والله سميع عليم إذ همت ﴿طَّآئِفَتَانِ﴾ أي قبيلتان

يطوف أفرادهما بعضهم على بعض في التعاضد والتناصر، ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أي: أن تصنعا ما يؤدي إلى الفشل، فتضعفا وتجبنا، وقد يكون من أسباب الفشل الوسوسة بأن هناك حلولًا دبلوماسية بديلة عن المواجهة في وقتٍ تحتمت فيه المواجهة، ويستبين لك جمال هذا التقعيد القرآني بصورة أكبر عندما تقرأ عبارة لخوسيه مارتي -وهو سياسي ومفكر وصحفي وشاعر وفيلسوف كوبي- يقول فيها:

«مجرمٌ من يخوض حربًا يمكن تفاديها، ومجرمٌ من لا يخوض حربًا لا يمكن تفاديها».

بَصِيرَة ٢

﴿أَن تَفْشَلَا﴾: عبر بالنتيجة ومآل الأفعال عن الواقع، فما وجه الجمال في التعبير عن الجبن والضعف بالفشل؟

الجواب:

لأن الإنسان يستبشع النتيجة، ويستعظم أن يقال عنه: فاشل، فانظر كيف تعالج الآيات مكامنَ النفوس، فلو قيل: أن تَجْبُنا أو تضعفا ربما ردوا بأن إظهار الضعف قد يكون حكمة في وقته، لكن الله ﷻ ذكر نتيجة فعلهم هو الفشل، ويستنكف الإنسان منه استنكافًا شديدًا.

بَصِيرَة ٣

﴿هَمَّت﴾ هل يأثم الإنسان إذا همَّ بالمعصية همًّا نفسيًّا؟

الجواب:

١

الهم الأوّلي بالمعصية لا يأثم المرء عليه؛ لأنه داخل في قوله ﷻ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: 286]، وداخل في قوله ﷺ قـال: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَتَكَلَّمْ». (البخاري: 5269).

٢

إذا تحوَّل الهمُّ إلى عزمٍ مصمِّم، وترتَّب عليه إعداد خططٍ لتنفيذ ما يتعلق به، فهنا يبدأ العتاب عليه، فإذا لم ينصرف عنه إلا بسبب أمرٍ خارجي عنه فإنه يأثم عليه، وإن و اقَعَ فعلَ السوء بسببه أثِم إلا أن يتوب أو يغفر الله ﷻ له.

بَصِيرَة ٤

الآية تعلمنا أن الاعتراف بو اقعنا أولُ سبيلٍ لقلب الفشل إلى نجاح، ويبصرنا بذلك أن نسأل: هل عرفنا الطائفتين اللتين همَّتا بالفشل؟

الجواب:

نعم! ولم يقلل هذا من بلائهما في الإسلام، فهاهو أحد المنتمين إليهما وهو جَابِرِبْن عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما يقول: فِينَا نَزَلَتْ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٢٢﴾ قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ بَنُو حارثَة وَبَنُو سَلِمة، وَمَا نحب أَنَّهَا لَمْ تَنزلْ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. (البخاري: 4558).

بَصِيرَة ٥

هل ذِكرُ الطائفتين هنا حط لمنزلتهما؟

الجواب:

ليس في ذكر الطائفتين حط لمنزلتهما على الإطلاق، فالله ﷻ له أن يذكر من يشاء من خلقه مدحًا أوذمًّا، بل ذكرُهما هنا تتضمن مدحًا لهما؛ وذلك لأنه أصابهما ما يصيب البشر من منازعة النفس بين الهوى والتقوى، ثم ثبتهما الله ﷻ، وهذا غايةٌ في المدح، فما بال بعض الناس يستنكف عن محاسبته علنيًا مع أنه يقود كثيرًا من المؤسسات بصورة علنية.

بَصِيرَة ٦

ما معنى ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾؟

الجواب:

أي: إن الله تَعَالَى متولي شؤونهما بالنصرة والتثبيت، فَلَوْلَا تَوْفِيقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَسْدِيدُهُ لَمَا تَخَلَّصَ أَحَدٌ من ظُلُمَاتِ الْمَعَاصِي. «تفسير الرازي» (8/ 347).

بَصِيرَة ٧

وهنا نسأل: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا﴾ قدمت لنا أنموذجًا فريدًا في الاعتراف بوجود خلل نفسي وأخطاء فعلية في الصف المسلم، فما الفوائد التربوية التي نكسبها من ذلك؟

الجواب:

١- يفيد هذا بصورةٍ ضخمة في التخطيط الاستراتيجي للأمة المسلمة، فيساعد في الإعداد المسبق لمواجهة مثل هذه الخواطر والاختلالات.

٢- ينبغي استحضار أن الخلل ليس محصورًا في فرد أو أفراد بل قد يمتد ليشمل طائفة أو طوائف، وهذا من أسرار التعبير بالطائفتين.

٣- إذا تسلل الخلل إلى طائفتين من المؤمنين المعاصرين للنبي ﷺ فمن باب أولى يمكن أن يوجد الاختلال وبأكثر من صورة في جموع الأمة وأجيالها بعد عهد النبوة، فيجب الاعتراف بذلك، ووضع جميع الاحتمالات والتنبؤ بمواطن الخلل لمعالجتها وسد الثغرات في أوانها.

٤- ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا﴾ تبصرنا بوجوب القراءة الواعية للمزاج العام، والحالة النفسية في المجتمع المسلم عامة، ولدى الجند المسلمين خاصة، ورصد أي مؤثرات أو تغيرات نفسية من شأنها أن تؤثر على سير المعركة وتحقيق أهدافها.

السُّنة الخامسة

معالجة نزعات الهمِّ المُحبِط المؤدية إلى الفشل يكون بثلاثة أمور:

الأول

وجود مؤسسات للرقابة والمحاسبة، فقد حاسب الله ﷻ هاتين الطائفتين ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ...﴿١٢٢﴾﴾:

وهذا يعني وجود آلية واضحة وصريحة للمحاسبة على الأخطاء التي يقع فيها المسلمون سواء أكانوا جماعة واحدة أم جماعات، فينبغي إظهار الشفافية التامة في الحديث عن الزلزال الشيطاني الذي يعتري بعض المؤمنين قبل المواجهة مما يجعلهم يفكرون بالتقهقر والانهزام، وهذا هو الذي ظهر من هذا العتاب الصريح في هذه الآية المباركة، وإظهار ذلك يُعدُّ تزكيةً للصف، وتربية للمسلمين، وتخطيطًا استراتيجيًّا لاستدراك الأخطاء، وإعدادًا حقيقيًّا لنصر قادم، فانظر إلى الصراحة العجيبة في الحديث عن هاتين الطائفتين، ولم يقل: ينبغي ألا ننشر غسيلنا أمام الناس، بل كانت هذه الشفافية والصراحة المتناهية من عوامل تعظيمهم أمام الخلق.

الثاني

العزم والحزم بالتوكل على الله ﷻ والإقدام وليس بالتقهقر، وهذا الذي ظهر من قوله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

فكشف الله ﷻ ما خبأته ضمائرهم، وأعاد عليهم أحداث المعركة، وصوَّر خلجات نفوسهم، ووجَّههم إلى الوجه الأوحد: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ فبدأ بمتعلَّق الفعل ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: ليحصر التوكل عليه، ويمنع المؤمنين من الاعتماد على غيره، فليس لهم إلا التوكل عليه، والتوكل عليه هو السند المتين.

الثالث

استحضار التاريخ لتثبيت اليقين بنصرة الله للمتوكلين ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ...﴾

﴿أَذِلَّةٌ﴾: جمع "ذليل"، لأنهم كانوا أقل عددًا وأضعف قوة؛ فكانوا في بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا والمشركون يومئذ ألفٌ، فمن توكل عليه نصره وكفاه وأغاثه وآواه وإن كان قليلًا لذا قال بعدها: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢٣﴾ أي: لَعَلَّ اللَّهَ ﷻ يُنْعِمُ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً أُخْرَى تَشْكُرُونَهَا، فوضع الشكر مكان الإنعام لأنه طريق له. «تفسير الكشاف» (1/411)، والتقوى هنا طريق للشكر الذي لا يصل إليه بكماله إلا القليل.

اللهم اجعلنا منهم.

قال عمر رضي الله عنه لأمراء اليرموك لما طالبوه بمدد:

«قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكُمْ تَسْتَمِدُّونِي، وَإِنِّي أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ نَصْرًا وَأَحْضَرُ جُنْدًا: اللهُ ﷻ، فَاسْتَنْصِرُوهُ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ نُصِرَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي أَقَلَّ مِنْ عِدَّتِكُمْ، فَإِذَا أَتَاكُمْ كِتَابِي هَذَا فَقَاتِلُوهُمْ وَلَا تُرَاجِعُونِي».

(أحمد: 344، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: 10369: ورجاله رجال الصحيح).

بصيرة

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ١٢٣﴾

تبصرنا بأن أعظم ما يلهم المسلمين الثقة في الله ﷻ ونصره تذكُّرهم التاريخ ففيه مِنَن الله السابقة بإعزاز دينه ونصرة جنده وتأييد أوليائه.

السُّنة السادسة

الاستحضار الإيماني العقدي القلبي لمدد الملائكة المثبِّتة للمسلمين ضد المعتدين، فينبغي أن يكون حاضرًا في أنفسنا، فنشعر به ونستلذ به

ويبصرنا بذلك قوله تعالى:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ﴾ [آل عمران: 124-125]

وفيها (5) بصائر:

بَصِيرَة ١ ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الظاهر أن المراد بهذه الآية وما بعدها يوم أُحد

وليس يوم بدر خلافًا لرأي الطبري و ابن عاشور وغيرهما رحمهم الله (تفسير الطبري 192/7، التحرير والتنوير 78/4)، فالِلّحاق يدل على ذلك، إذ ما بعدها ينبغي أن يؤول بما وقع في أُحد، وإن كان السِّباق يذكر بدرًا، والتقدير: والله سميع عليم؛ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم.... فوعد الرسول ﷺ المؤمنين يَوْمَ أُحُدٍ أن يمدهم ربهم ﷻ بثلاثة آلاف من الملائكة تتنزل عليهم، فتكون حاضرة المشهد على عدد القوات المشركة.

بَصِيرَة ٢ ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ تؤكد أن النصر مُحَتَّمٌ بناءً على ذلك

فالمعنى أن الله ﷻ سيكفي عباده بهذا المدد، فصار العدد: ثلاثة آلاف من الملائكة تقابل ثلاثة آلاف من المشركين، يضاف إلى الملائكة سبعمائة من المسلمين، والمراد: أليس هذا كافيًا لسدِّ خلَّتكم، وتعزيز قوتكم؟

بَصِيرَة ٣ ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ تبصرنا بأنه ينبغي ألا تحاولوا الاستكثار من الحلول البديلة التي لا تزيدكم إلا ضعفًا

ومن هذه الحلول التي غالبًا ما يوسوس الشيطان لإلقائها في نفوس المسلمين: البحث عن الحلول الديبلوماسية التي تزيد قضايا المسلمين ميوعةً، وواقعهم انهزامًا، ووحدة صفهم فرقةً و انقسامًا، ولذا قال الله ﷻ: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ أي: يغنيكم عن غيره، فلا تحتاجون معه إلى مدد آخر، ولا تحتاجون معه إلى أدوات أخرى للانتصار على الكفار، وهذا لا يعني عدم إعداد الأسباب المادية اللازمة للنصر.

بَصِيرَة ٤

﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ تبصرنا بأن الله عز وجل هو أصل الإمداد بالثروات والطاقات

والْإِمْدَادِ: إِعْطَاءُ الشَّيْءِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ، قَالَ بعض علماء اللغة: مَا كَانَ عَلَى جِهَةِ الْقُوَّةِ وَالْإِعَانَةِ قِيلَ فِيهِ: أَمَدَّهُ يُمِدُّهُ، وَمَا كَانَ عَلَى جِهَةِ الزِّيَادَةِ قِيلَ فِيهِ: مَدَّهُ يَمُدُّهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ [لُقمان:27]. «التفسير البسيط» (5/571).

بَصِيرَة ٥

الجواب على سؤال: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ هو قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾

فتولى الجواب عنهم لتحقق الكفاية دون أدنى شك.

السُّنة السابعة

ازدياد التأييد الإلهي يتم بعاملَين: الصبر، والتقوى في ظل وجود التهديد المجرم من العدو

ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عمران: 125]:

العامل (١)

﴿تَصۡبِرُواْ﴾

والمراد به الصبر الإيجابي الذي يؤدي إلى الالتحام، وليس السلبي الذي يؤدي إلى الفرار أو الاستسلام.

العامل (٢)

﴿وَتَتَّقُواْ﴾

والتقوى هنا شاملةٌ لنوعين:

1

تقوى الله عز وجل باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

2

ويلزم من تقوى الله عز وجل اتقاء العدو بالتخطيط الجيد، والتنفيذ المتقن المتوكّل.

وفي هذه السُّنَّة (٥) بصائر:

بَصِيرَة ١
﴿وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾

الضمير في ﴿وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ﴾ يعود على القوات المعادية، فتبصرنا بأن هجوم القوات المشركة يعني نزول إمداد الله ﷻ إنْ نازَلَ المجاهدون العدوَّ في الميدان، وتصدوا للبغي والعدوان، وامتشقوا السيف والسنان، وحينها يمدهم الله ﷻ بعددٍ كبيرٍ من الملائكة: ﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، ولا يستحق هذا الإمدادَ من آثر السلامة، وطلب الأمان، وراحة الأبدان.

بَصِيرَة ٢
﴿فَوۡرِهِمۡ﴾ الْفَوْرُ مَصْدَرٌ مِنْ: فَارَتِ الْقِدْرُ إِذَا غَلَتْ

قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: 40] قِيلَ: إِنَّهُ أَوَّلُ ارْتِفَاعِ الْمَاءِ مِنْهُ، ثُمَّ جَعَلُوا هَذِهِ اللَّفْظَةَ اسْتِعَارَةً فِي السُّرْعَةِ. «تفسير الرازي» (8/ 353)، ومقتضى هذا أن يتوقع عباد الله المجاهدون مواجهةَ العدووحدَّةَ هجمتِه في أيِّ وقتٍ، فليبقوا على حذرٍ ويقظةٍ واعتصامٍ بالله ﷻ وقوته.

بَصِيرَة ٣
مشهدان يوضحان هيئة الملائكة عند نزولها

أظهرتهما القراءتان في قوله تعالى ﴿مُسَوَّمِينَ﴾ بفتح "الواو"، بمعنى أن الله سوَّمها، وبكسر "الواو" ﴿مُسَوِّمِينَ﴾، بمعنى أن الملائكة سوَّمتْ لنفسها، فإما أن يُسَوِّموا أنفسَهم، ثم يظهروا مسوَّمين، وإما أن يكونوا نوعين من الملائكة: نوعٌ سومت نفسها أي: علَّمت نفسها بعلامة، ونوعٌ وضع الله ﷻ عليها علامة فهي مسومة من قبل الله تعالى، والمقصود بالعلامة أي: الشارات المميَّزة لهم أنهم يريدون القتال، وقد جُهِّزوا لذلك أو جهزوا أنفسهم.

بَصِيرَة ٤
لمدد الملائكة هدفان: التبشير، والاطمئنان بالشعور بقوة التغيير والتحرير

وبصَّرنا بذلك قول الله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ...﴾ ﴿١٢٦﴾

الأول: ﴿بُشۡرَىٰ﴾ البشرى:

خَبَرٌ بِحُصُولِ مَا فِيهِ نَفْعٌ وَمَسَرَّةٌ لِلْمُخْبَرِ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ لَمَّا وَعَدَهُمْ بِالنَّصْرِ أَيْقَنُوا بِهِ، فَكَانَ فِي تَبْيِينِ سَبَبِهِ -وَهُوَ الْإِمْدَادُ بِالْمَلَائِكَةِ- طَمْأَنَةٌ لِنُفُوسِهِمْ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ تَرْكَنُ إِلَى الصُّوَرِ الْمَأْلُوفَةِ. «التحرير والتنوير» (4/ 78).

يعني أنه لو كانوا أُمدوا بملَكٍ واحد لكفى كما فعل جبريل عليه السلام مع قرى قوم لوطٍ عليه السلام، ولكن النفوس تألف ما اعتادته، فمما اعتادت الأُنسَ به في الحرب: العددُ الكثير، وأن يكون أصحاب هذا العدد على هيئة المحاربين المستعدين، فلذلك ذكر الله ﷻ هذا العدد، وهيئتهم (مسومين).

الثاني: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ...﴾ ﴿١٢٦﴾ الطمأنينة:

هي السكون المستلَذ بعد انزعاجٍ مادي أو فكري.

وقد تسأل: هل حدث الإمداد في أُحد؟

الجواب:

هذا وعد، ولا يوجد عندنا دليلٌ صريحٌ صحيحٌ قائمٌ خالٍ من المعارض والمقاوم، يدل على أنهم أُمِدُّوا بهذا العدد أو لم يُمَدُّوا.

بَصِيرَة ٥

لماذا عطف قوْلَهُ: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ﴾ وهو فِعلٌ على قوْله: ﴿بُشۡرَىٰ﴾ وهو اسْمٌ

الجواب:

لأن الْمَطْلُوبَ الْأَقْوَى حُصُولُ الطُّمَأْنِينَةِ، فَلِهَذَا أَدْخَلَ حَرْفَ التَّعْلِيلِ، فَقَالَ: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ﴾، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ﴾ [النَّحل: 8]. «تفسير الرازي» (8/ 354).

السُّنة الثامنة

الْإِعْرَاضُ عَنَ الأسباب بعد بذلها، وَالْإِقْبَالُ بِالْكُلِّيَّةِ على مُسَبِّب الأسباب

ويبصرنا بذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ [آل عمران: 126]

﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾

أي: القوي القاهر الذي لا يمكن أن يُغلب، ولا يمتنع عليه شيء

﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾

الذي يدبر الأمر، ويديره، فيضعه في مواضعه المناسبة العادلة

فإبراز هذه الحقيقة وتأكيدها ليَكُونَ تَوَكُّلُهُمْ عَلَى اللَّهِ ﷻ لَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ، ولا على تدبيرهم وخططهم وسياساتهم، ثم هو سبحانه العزيز الحكيم، فَالْعَزِيزُ إِشَارَةٌ إِلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَالْحَكِيمُ إِشَارَةٌ إِلَى كَمَالِ عِلْمِهِ، فيعطي النصر من شاء وفق حكمته الكاملة.

السُّنة التاسعة

تحديد الأهدافِ العسكرية للقتال ضد المعتدين، وإعلانها للناس لإدخال الرعب في العدو، و إيجاد قوة الردع

ويبصرنا بذلك قوله تعالى:

﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران: 127-128]

وقد تقتضي الحكمةُ عدمَ الإعلان، فذكر الله ﷻ هنا خمسة أهداف عسكرية ينبغي أن يطلب الجيش تحقيقها في معركة أُحد:

هدف [1]

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ تدمير جزءٍ من قوة العدو البشرية والمادية:

بصيرة ١

كيف ظهرت قوة التعبير القرآني، وجماله هنا؟

الجواب:

بصرتنا الآية بأن العدو جسد مجتمع كجسد الإنسان بأطرافه، وكجسد الأرض، ولا بد من إيجاعه بالتخلص من عددٍ منهم، فعند ذلك كأننا قطعنا طرفًا من هذا الجسد، وقد قُتِلَ من المشركين في بداية معركة أُحُدٍ ثمانية عشر رجلًا، كثيرٌ منهم من أصحاب الرايات، وذِكْرُ الطَّرَف يصورلنا أننا لا يمكن أن نصل إلى الوسط بدون التخلص من الطرف.

بصيرة ٢

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ تبصرنا أيضًا بعدَّة دلالات ومعانٍ، منها:

١- أن ينقص من عددهم بالقتل.

٢- أو ينقص من أرضهم بالفتح.

٣- أو ينقص من سلطانهم بالقهر.

٤- أو ينقص من أموالهم بالغنيمة.

٥- أو ينقص من فاعليتهم في الأرض بالهزيمة.

بصيرة ٣

لماذا قال ﴿كَفَرُوٓا۟﴾ ولم يقل اعتدوا؟ وما وجه قوة التصوير القرآني هنا؟

الجواب:

لأن من أهم الأسس المجتمعية العقدية التي يقررها القرآن في النفسية المسلمة أن المعتدي على المؤمنين لا يُتَصَوَّر أن يكون مؤمنًا، ولا يُتَصَوَّر انتماؤه لمجتمع المسلمين.. واأسفاه كم أضاع المسلمون مثل هذه الجواهر والدرر؟!

هدف [2]

﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾ الهزيمة الحقيقية والمعنوية، إذ المعنى: أو يدحرهم، ويضعف قواهم مما يترتب عليه توهينُ معنوياتِهم، و انقلابُهم خاسرين:

أي: يصيبهم بغمٍّ وكَمَدٍ، وأَصْلُ كَبَتَ: كَبَدَ بِالدَّالِ؛ إِذَا أَصَابَهُ فِي كَبِدِهِ. (تاج العروس: 53/5).

وحينها يرجعون إلى ديارهم وقد استقرت الخيبة في نفوسهم.

هدف [3]

﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ التوبة على المعتدين، وهو هدفٌ عسكريٌ عجيب يوضح عظمةَ الإسلام، وبُعدَه عن الثارات والحميات الجاهلية:

بَصِيرَة

﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾

يبصرنا مجيئُها في سياق الكلام عن أعداءٍ محاربين بوجوب فتح باب التوبة واستيعاب العائدين إلى رشدهم من معسكر الخصم، فكما وسعهم الله ﷻ برحمته يجب أن يسعهم معسكر الإيمان إن تابوا ورجعوا عن اعتدائهم.

هدف [4]

﴿أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران: 128] تعذيب المعتدين:

بَصِيرَة ١

هذه أربعة أهداف للانتصار عليهم جمعتها الآيتان

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا اجتماع هذه الأهداف في الآيتين: "ليقطع طرفًا من الذين كفروا، أويكبتهم، أويتوب عليهم، أويعذبهم، فإنهم ظالمون، ليس لك من الأمر شيء". (تفسير الطبري: 194/7).

بصيرة ٢

﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ تبصرنا بكمال عدله ورحمته سبحانه

فإن عذبهم فذلك لظلمهم أي: ظالمون لأنفسهم ولغيرهم؛ لِأَنَّ الشِّـرْكَ ظُلْمٌ من العبد لنفسه ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لُقمان:13]، وهم معتدون على غيرهم مالًا ونفسًا، فهم بذلك ظالمون لغيرهم.

بصيرة ٣

تحققت أحوال الانتصار الأربعة على الجيش الغازي الذي جاء به أبو سفيان في أُحُد

فَإِنَّ فَرِيقًا منهم قُتِلُوا فَقُطِعَ بِهِمْ طَرَفٌ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَفَرِيقًا كُبِتُوا وَ انْقَلَبُوا خَائِبِينَ، وَفَرِيقًا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمُوا، وَفَرِيقًا عُذِّبُوا بِالْمَوْتِ عَلَى الْكُفْرِ، أَوْعُذِّبُوا فِي الدُّنْيَا بِالذُّلِّ، وَ«أَوْ» بَيْنَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ لِلتَّقْسِيمِ. «التحرير والتنوير» (4/79)، وعلى الرغم من أن ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ ربما عنى أن ذلك وقع في بدر مع أن الصحيح أن هذه الآيات تكلمنا عن أحد، فإن إيراد كلامه هنا لنبين النتائج المتوقعة لأي معركة يسلك فيها المسلمون سنن النصر، ومن أعظمها الشعور بالصحبة أو المعيَّة الإلهية.

هدف [5]

إشاعة مبدأ عدم قتل الكافر لكفره، بل قتاله وقتله إنما يكون لعدوانه، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ... ١٢٨﴾

بصيرة ١

هذا الهدف أبصرنا عندما أدخل الله ﷻ هذه القاعدة العظيمة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾

بين أحوال الهزيمة الأربعة، فالمعنى كما قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس إليك، يا محمد، من أمر خلقي إلا أن تُنْفِذ فيهم أمري، وتنتهيَ فيهم إلى طاعتي، و إنما أمرهم إليَّ، والقضاء فيهم بيديَّ دون غيري، أقضي فيهم وأحكمُ بالذي أشاء، من التوبة، أو العذاب». «تفسير الطبري» (7/194).

بَصِيرَة ٢

يوضح سببُ نزول هذه الآية أنها في أُحد

وأن البعد الدعوي لا ينبغي أن يغيب حتى مع المقاتلين المحاربين سواء ترتب عليه أن يقبلوا الإسلام، أو أن يكفوا عن العدوان، ويعيشوا ملتزمين ضمن الإطار العام للسلام وَفق الشروط الإسلامية التي تضمن الحقوق للجميع.

بَصِيرَة ٣

تبصرنا الآية بأن الحكم حكم الله ﷻ، والأمر أمره

وليس لنا الانتقام على اعتداء سابقٍ للمعتدين عندما يمكن أن يعود المعتدي إلى رشده، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. (مسلم:: 1791).

بَصِيرَة ٤

يؤيد استحضار البعد الدعوي حتى مع أشد الأعداء تطرفًا

ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنَ الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا» بعد ما يقول: "سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران: 128]. (البخاري: 4069).

وكان رسول الله ﷺ يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ- فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران: 128]. (البخاري: 4070)، وكل هؤلاء أسلموا برحمة الله.

بَصِيرَة ٥

ومن الواقع الذي يدل على أن النبي ﷺ -على عظيم منزلته- ليس له من الأمر شيء

جراحهُ في أُحُد، حتى أوقف النزيف مالكٌ والد أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، فمَصَّ الْجُرْحَ حَتَّى أَنْقَاهُ وَلَاحَ أَبْيَض، فَقِيلَ لَهُ: مُجَّهُ، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَمُجُّهُ أَبَدًا، ثُمَّ أَدْبَرَ يُقَاتِل، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»، فَاسْتُشْهِدَ. (سنن سعيد بن منصور: 2573، بسند مرسل).

السُّنة العاشرة

الثقة الكاملة بالسيادةِ المطلقة لله ﷻ على كل شيء، وتدبيرِه العادل، مع الاجتهاد في اتخاذ الأسباب الشرعية والمادية

ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٩﴾ [آل عمران: 128-129]، وهذا يعني السعي لتحقيق النصر دون التعلق بالنتائج، وفيها (10) بصائر:

بصيرة ١
عندما بلَّغ رسولُ الله ﷺ هاتين الآيتين فإنه يعلن بذلك عقيدةَ التوحيد والتمجيد

فَهذا البيان مِنْ أَقْوَى دَعَائِمِ التَّوْحِيدِ فِي الْقُرْآنِ، وَدَلَائِلِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ إِذْ لَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُؤَسِّسَ مُلْكٍ، وَزَعِيمَ سِيَاسَةٍ يُدِيرُهَا بِالرَّأْيِ لَمَا قَالَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ. «تفسير المنار» (4/ 98).

بصيرة ٢
هذا البيان الإلهي عجيبٌ حقًّا

فهو: تذكيرٌ لمن يلجأ إلى الأموات من أصحاب القبور بأن اللجوء إلى الرب الملك الكبير القدير.

بصيرة ٣
وتذكيرٌ للسياسيين أصحاب الانسحاب «التكتيكي»

الذين ظنوا جواز استعمال دهائهم بعيدًا عن ضوابط الدين، والصدق مع رب العالمين.

بصيرة ٤
وتذكيرٌ للمسلمين الذين بذلوا الأسباب المادية التي تؤدي إلى الانتصار

وربما غفلوا عن أن أمر النتائج في يد الملك القهار.

بصيرة ٥
فالله ﷻ يقول لكل واحدٍ منهم ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾

وهو أجدر أن يكون جوابًا لأولئك الذين ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ [آل عمران: 154].

بَصِيرَة ٦

تدل الآية على ضرورة الإعداد، ومع كَمَالِ الاِسْتِعْدَادِ يَكُونُ الذِّكْرُ وَالاِسْتِمْدَادُ. «تفسير المنار» (98/4)

لا يغني شيء من ذلك عن الآخر، ثم لله ﷻ الأمر من قبل ومن بعد، و إنما أكتب ذلك لمآسينا التي تأكل أيامَنا وأجسادَنا وقلوبَنا، فإن كثيرًا ممن احترف السياسة رمى أحكام القرآن وراء ظهره كأنه لا يعلم، كما أن كثيرًا ممن يزعم الإسلام صار صابرًا على كل الآثام بزعم أن السياسة هي فن الممكن، ولا ممكن عنده إلا التوقيع والاستسلام.

بَصِيرَة ٧

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾

هذه الآية العظيمة بمعناها الرائع ترتبط ارتباطًا محكمًا بالآية السابقة، فهي تقرر أن المشيئة المطلقة تستند إلى المَلَكية والمالكية المطلقة.

بَصِيرَة ٨

بالإضافة إلى ما سبق يتجلى لنا معنىً أبدع وأروع، ودلالة أبعد وأوسع

كما قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس لك يا محمد، من الأمر شيء، ولله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها، دونك ودونهم، يحكم فيهم بما يشاء، ويقضي فيهم ما أحب، فيتوب على من أحب من خلقه العاصين، ثم يغفرله، ويعاقب من شاء منهم على جرمه، فينتقم منه". (تفسير الطبري 203/7).

بَصِيرَة ٩

خَتَمَ الْكَلَامَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾

لبيان أَنَّ جَانِبَ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ غَالِبٌ لَا عَلَى سَبِيلِ الْوُجُوبِ. «تفسير الرازي» (358/8) بَلْ على سبيل الفضل والإحسان. والمغفرةُ والتعذيبُ يحدثان لمن شاء الله تعالى من عباده وَفْق سننٍ محكمة، والمغفرة: الستر على السيئات، والرحمة: الإنعام بالفضل والخيرات.

بَصِيرَة ١٠

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ هذا في سياق الكلام عن فريق الكفر

الذي حارب الإسلام ورسولَ الله ﷺ والعصبة المؤمنة، وهو يبصرنا بوجوب فتح باب التوبة والعودة حتى لمن كفر وعاند الإسلام وتآمر عليه، فإذا كان الله ﷻ يُطمعُ هؤلاء في كريم عفوه وواسع مغفرته، فمن بابٍ أولى أن يتسع المسلمون لمن أقبل عليهم مسلمًا موحدًا منيبًا.

جسر اتصال

بصَّرنا الله ﷻ في هذه الآيات بالمحور الخامس من محاور هذه السورة، وهو المحور الأول من قضية معركة أُحد، وفصَّل لنا فيه سنن النصر في الاستعداد للمعركة قبل المواجهة العسكرية، وتطبيق ذلك على معركة أُحدٍ [آل عمران121-136]، وتكوَّن هذا المحور من قسمين، فالأول: القسم الأول: ذكر الله ﷻ فيه عشر سنن للنصر في إعداد الجبهة الميدانية قبل المعركة، ويؤسس ذلك لوضع خطة محكمة لسد الثغرات الو اقعة والمتوقعة [آل عمران: 121-129]، فما القسم الثاني؟

الجواب:

القسم الثاني

ذكر الله ﷻ لنا فيه سنن النصر غير المباشرة، وهي السُّنن التي توجب المحافظة على أسس المجتمع المسلم والجبهة الداخلية في أثناء الحرب، فالحشد القتالي والتعبئة العامة وحالات الطوارئ لا تلغي هذه الأسس، ووجود المعركة الحربية في أُحد لا يعني عدم المحافظة على الجبهة الداخلية في المجتمع، وامتد الكلام في هذا القسم في الآيات [آل عمران: ١٣٠-١٣٦]

وذكر الله تعالى فيه أربع سنن كلية اقتصادية وعقدية وتشريعية واجتماعية:

آيات هذا القسم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ
ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ
وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ
ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥
أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

تتمة جسر الاتصال

فإننا عند قراءة هذه الآيات لا بد أن نسأل: ما المناسبة والاتصال بين هذه الآيات وبين ما قبلها وما بعدها؟ فإن ما قبلها كلامٌ عن الإعداد لمعركة أُحد، وما بعدها كلامٌ عن تفصيل ما وقع في معركة أُحد، فكيف ظهر الإحكام بوجود هذه الآيات؟

الجواب: تتجلى المناسبة بين القسمين من عدة وجوه:

1

أراد الله تعالى ألا يلجأ المسلمون إلى إلغاء تشريعات دينهم تحت زعم حالات الطوارئ الحربية، ولذا ذكَّرهم بأهمِّ الأسس الاقتصادية والاجتماعية والعقدية.

2

تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين، أنهم إذا صبروا و اتقوا نصرهم على أعدائهم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران: 120]، وقوله: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم﴾ [آل عمران: 125]، فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة أبرز خصال التقوى، ففصلها الله ﷻ هنا، وذكر لفظ "التقوى" ثلاث مرات: مرة مطلقةً وهي قوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾، ومرتين مقيدتين، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: 130]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [آل عمران: 131].

3

هذه التوجهات تقدمتِ الكلامَ عن تفاصيل المعركة الحربية؛ للتأكيد على أن الشريعة تشمل مناحي الحياة، والانتصار في المعركة الحربية مقترنٌ بالانتصار في معركة البناء الحياتي وَفْق أرقى النظم التشريعية وهو النظام الرباني، وليؤكد على الجمع بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية وبين تطهير النفوس ونقاء القلوب، والسيطرة على الأهواء والشهوات، وإشاعة الود والسماحة في الحياة.

4

المجتمع المسلم هو الجبهة الداخلية، والحاضنة والسند لقوات الأمن والجيش ممن يدافعون عن بيضة الإسلام تجاهَ العدو، وعلى قدر تماسك الجبهة الداخلية والتزامها بشرع الله ﷻ ونهجه يكون دعمها ومساندتها للجيش المسلم، وتكون بيئة صالحة مُصَدِّرَة للعناصر المؤهلة لمهام الدفاع عن حياض الأمة وثغورها.

ولتحقيق ذلك ذكر الله تعالى أربع سنن كلية:

اقتصادية - وعقدية - وتشريعية - واجتماعية

السنة الأولى: اقتصادية

تحريم جمع المال من مصادر محرمة أساسٌ للفلاح، فالربا محرم مهما بدت الحاجة إليه ملحة سواء في الموازنة العامة أو الخاصة، حتى في أوقات الحرب، وبصَّرنا الله ﷻ بها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾ [آل عمران: 130]، وفيها 12 بصيرة:

بصيرة ١: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تبصرنا بأن نتذكر تميز الهوية الإيمانية عن كل هوية أخرى

فهي الهوية العظمى التي ينبغي أن تدور القوانين والتشريعات حولها، وهي الهوية التي تقدم الفلاح، وتحقق النصر، وتوفر التنمية الحقيقية.

بصيرة ٢: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ﴾ تصورلنا بشاعة الربا

فلم يقل: لا تأخذوا الربا، مع أن المرابي قد يستعمل الربا في غير الأكل؛ لتصوّرَه لنا وهو يأكل الزيادة الربوية حتى لو كانت ذهبًا أو أوراقًا نقدية.

بصيرة ٣: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ تبصرنا برحمة الله ﷻ بالإنسانية

إذ حرَّم الربا ليوثق روابط المجتمع بالتعاون والإحسان، فالربا استغلالٌ بشعٌ لحاجة الإنسان، وهذا هو الربا هو "ربا النسيئة".

بَصِيرَة ٤

﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ تصورلنا بشاعة الربا

إذ يزيد المقرِض نسبة 10% مثلًا على المقترض، وعندما لا يتمكن من القضاء يمهله فرصة جديدة، ويضاعف النسبة، كما يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيقول له الذي عليه المال: أخِّرعنى دَيْنك وأزيدك على مالِك. (تفسير الطبري 204/7)، وربما وصلت إلى ضِعف الدَّيْن الأصلي، وسئل الْإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَنِ الرِّبَا الَّذِي لَا يُشَكُّ فِيهِ فقَالَ: "هُوَ أَنْ يَكُونَ لَهُ دَيْنٌ، فَيَقُولُ لَهُ: أَتَقْضِي أَمْ تُرْبِي؟ فَإِنْ لَمْ يَقْضِ زَادَهُ فِي الْمَالِ، وَزَادَهُ هَذَا فِي الْأَجَلِ". (جامع المسائل 281/8).

بَصِيرَة ٥

علاقة الربا بمعركة أُحد واضحة عظيمة

فالربا ينافي مبدأ الجسد الواحد الإيماني، ولذا لا بد من إبطاله حتى يتقدم المؤمنون في معركةٍ يشعرون فيها بحب بعضهم، وتعاونهم، وذلك لا يتحقق إلا إذا انعدم الربا، وصار الأغنياء "يُقْرِضُونَ الْعَادِمِينَ قَرْضًا حَسَنًا، وَيَتَصَدَّقُونَ عَلَى الْبَائِسِينَ وَالْمُعْوِزِينَ، وَيَكْتَفُونَ بِالْكَسْبِ مِنْ مَوَارِدِهِ الطَّبِيعِيَّةِ كَالزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ وَالشَّرِكَاتِ". (تفسير المنار: 106/4).

بَصِيرَة ٦

ذكر الله ﷻ تحريم الربا عند كلامه عن الوضع العسكري لمعركة أُحُد

ليبين شدة حرمته في أثناء المعركة وقيامِ الاحتياجات العسكرية، فضلًا عن تحريمه أيام الاستقرار، فبعض المسلمين ربما أباحوه زمن الاستضعاف أو الطوارئ، ولذا أشار الْقَفَّالُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنه يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا أَنْفَقُوا عَلَى تِلْكَ الْعَسَاكِرِ أَمْوَالًا جَمَعُوهَا بِسَبَبِ الرِّبَا، فَلَعَلَّ ذَلِكَ يَصِيرُ دَاعِيًا لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى الْإِقْدَامِ عَلَى الرِّبَا حَتَّى يَجْمَعُوا الْمَالَ، وَيُنْفِقُوهُ عَلَى الْعَسْكَرِ فَيَتَمَكَّنُونَ مِنَ الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ، فَلَا جَرَمَ نَهَاهُمُ اللَّهُ ﷻ عَنْ ذَلِكَ. (تفسير الرازي: 363/9).

بَصِيرَة ٧

وذكر رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجهًا رائعًا أيضًا في اتصال هذا القِسم بما قبله

فأشار إلى أن التَّرْتِيب فِي الْآيَاتِ هَكَذَا:

"نَهَاهُمْ عَنِ اتِّخَاذِ الْبِطَانَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِشُرُوطِهَا الَّتِي هِيَ مَثَارُ الضَّرَرِ

ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ بِهِ ضَرَرَهُمْ وَشَرَّ كَيْدِهِمْ وَهُوَ تَقْوَى اللهِ ﷻ وَطَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ

ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ بِمَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ ذَلِكَ طَرْدًا وَعَكْسًا بِذِكْرِ وَقْعَةِ بَدْرٍ وَوَقْعَةِ أُحُدٍ

ثُمَّ نَهَاهُمْ عَنْ عَمَلٍ آخَرَ مِنْ شَرِّ أَعْمَالِ أُولَئِكَ الْيَهُودِ وَمَنِ اقْتَدَى بِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَشَدِّهَا ضَرَرًا وَهُوَ أَكْلُ الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً". (تفسير المنار: 101/4).

بَصِيرَة ٨

تحريم الربا من أعظم محاسن الشريعة

فيقرر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن: "مِنْ رَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ وَحِكْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ أَنْ حَرَّمَ الرِّبَا وَلَعَنَ آكِلَهُ وَمُوكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ، وَآذَنَ مَنْ لَمْ يَدَعْهُ بِحَرْبِهِ وَحَرْبِ رَسُولِهِ، وَلَمْ يَجِئْ مِثْلُ هَذَا الْوَعِيدِ فِي كَبِيرَةٍ غَيْرِهِ، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ". (إعلام الموقعين: 103/2).

بَصِيرَة ٩

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾

تبصرنا بأن تحريم الربا من أهم تطبيقات التقوى، والتقوى تصنع الفلاح الحقيقي الذي يعني تحقيق النصر، وتحقيق التنمية، فالفوائد الربوية تؤدي إلى سحب السيولة من السوق، وتدمير الاقتصاد.

بَصِيرَة ١٠

الفلاح يتحقق للفرد وللمجتمع في الأرض بتحريم النظام الربوي

لأنه يفسد الحياة النفسية والخلقية والاقتصادية والسياسية في كل زمان ومكان، وتحريم الربا يحقق مقصدين من مقاصد الشريعة:

المقصد ١

التعاضد والتكامل بين فئات المجتمع بالقرض بدلًا من الربا، فالقرض أفضل من الصدقة، ففي الحديث: «دخل رجلٌ الْجنَّة فَرَأى مَكْتُوبًا على بَابِهَا: الصَّدَقَةُ بِعشر أَمْثَالِهَا، وَالْقَرْضُ بِثَمَانِيَة عشَر» (الطبراني في الكبير: 7976، وحسنه بطرقه الألباني في الصحيحة: 3407).

المقصد ٢

الْبُعْد بِالْمُسْلِمِينَ عَنِ الْكَسَلِ فِي استثمار المَال، والجاؤهم إِلَى التَّشَارُكِ والتعاون فِي شؤون الدُّنْيَا، فَيَكُونُ تَحْرِيمُ الرِّبَا، وَلَوْكَانَ قَلِيلًا، مَعَ تَجْوِيزِ الرِّبْحِ مِنَ التِّجَارَةِ وَالشَّرِكَاتِ، وَلَوْكَانَ كَثِيرًا؛ تَحْقِيقًا لِهَذَا المقصد.

«التحرير والتنوير» (4/ 87).

بَصِيرَة ١١

هل قوله تعالى: ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ صفة تأسيسية، فتفيد مفهومًا هو جواز أكل الربا إذا لم يكن أضعافًا مضاعفة، وهذا يعني أن المحرم هو الأضعاف المضاعفة فقط، أم أنَّ التحريم يشمل كل نسبةٍ ربوية مثل 1% ونحوها؟

الجواب:

الصفة هنا إيضاحيةٌ كاشفة تبين الواقع الشنيع للتعامل الربوي، وليست لإفادة أن ما لم يكن ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ من الربا غير حرام؛ لأن الله ﷻ في سورة البقرة حرم أصل الربا بلا قيد فقال: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: 278] أيًّا كان مقدار الفائدة.

بَصِيرَة ١٢

انتصار الأمة ومجدُها مقترن بتحريم الربا

والربا ليس ضرورة اقتصادية كما يحاول بعض المخذولين أن يسوّق له ويروِّجه في الوسط الاقتصادي الإسلامي، فيقول ابن عاشور رحمه الله: "قَضى الْمُسْلِمُونَ قُرُونًا طَوِيلَةً لَمْ يَرَوْا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا مُحْتَاجِينَ إِلَى التَّعَامُلِ بِالرِّبَا أَزْمَانَ كَانَتْ سيادة الْعَالم بيدهم... وَتَحْرِيمُ الرِّبَا فِي الْآيَةِ صَرِيحٌ، وَلَيْسَ لِمَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عزوجل مُبِيحٌ. وَلَا مُخَلِّصَ من هَذَا الْمضيق إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ الدُّوَلُ الْإِسْلَامِيَّةُ قَوَانِينَ مَالِيَّةً تُبْنَى عَلَى أُصُولِ الشَّرِيعَةِ فِي الْمَصَارِفِ، وَالْبُيُوعِ". (التحرير والتنوير 4/87).

جسر الاتصال

بصرتنا الآيات بالسُّنة الأولى التي لا ينبغي نسيانها زمنَ الحرب، وهي سُنة اقتصادية تتمثل في تحريم جمع المال من مصادر محرمة، سواء في الموازنة العامة أو الخاصة، و أبرز المعاملات المالية المحرمة القروض الربوية. وبصَّرنا الله ﷻ بذلك في الآية (130)، فما السُّنة الثانية؟

الجواب:

السنة الثانية | إيمانية عَقَدية

تذكُّر النجاة من النار، فهو الهدف الأعظم أهمية في الحياة. فلا ينبغي أن يكون النصر في ميدان المعركة هو الهدف الأوحد والمقصد الأسمى، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ [آل عمران: 131]، وفيها 4 بصائر:

بَصِيرَة ١

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ الواو تصل الآية بما قبلها

أي لا تأكلوا الربا لا لدماره الاقتصادي فقط بل لتتقوا بذلك النار، أي: اجعلوا -أيها المؤمنون- بينكم وبين النار وقاية، لئلا تَصْلَوْها بمخالفتكم أمر الله تعالى في الحرب والسلم، ومن مخالفة أمر الله ﷻ: أكل الربا، وكرر هذا الهدف الضخم في آخر السورة، فقال: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185]، فالهدف الأعلى هو اتقاء النار بطلب رضا الملك الغفار، ولو اقتضى ذلك بذل الروح وهلاكَ الديار.

بَصِيرَة ٢

﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾

كَوْنهَا مُعَدَّةً لَهُمْ لَا يَدُلُّ عَلَى الْحَصْرِ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ فِي الْجَنَّةِ: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: 133] لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا سِوَاهُمْ مِنَ الصِّبْيَانِ. «تفسير الرازي» (9/ 364)، ووصفها بذلك ليتخوف المؤمنون أن يَصْلَوا دارًا هي في الأصل لمن يغطون الحقائق، ويجحدون الخالق، لينزجروا عن الربا وسائر المعاصي.

بَصِيرَة ٣

سبب ذكر هذه السُّنة:

الرغبة العارمة التي ربما سيطرت على بعض المؤمنين في الوصول إلى النصر الدنيوي ونسيان النصر الأُخروي ولو كان ذلك بالتفريط في أحكام الله ﷻ أو على حساب التزام بعض شرائعه، وقد يترتب على ذلك الإغراق في الأسباب الدنيوية المؤدية إلى النصر، ومن ذلك استباحة ما حرم الله ﷻ كالربا، لذا قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معناها: "اتَّقُوا أَنْ تَجْحَدُوا تَحْرِيمَ الرِّبَا فَتَصِيرُوا كَافِرِينَ". (تفسير الرازي: 363/9).

بَصِيرَة ٤

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾

تذكيرٌ بمركزية الآخرة في الرؤية القرآنية، وتقوية معياريته في اتخاذ القرارات والإقدام على التصرفات الحياتية وحساب مآلاتها، ومن ذلك القرارات العسكرية والتصرفات الحربية، خلاف خطة المغالين في الخطاب المدني المادي الذين يعظمون معيارية الإنجازات الدنيوية على حساب النجاة والفوز الأخروي.

جسر الاتصال

ننتقل إلى الآية (132)، فقد ذكر الله ﷻ قبلها السُّنة الثانية، وهي (سنة عقدية): ذكَّرنا الله تعالى فيها بأن الهدف الأعظم أهميةً هو النجاة من النار ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ [آل عمران: 131]، فلا ينبغي أن يكون النصر في ميدان المعركة هو الهدف الأوحد والمقصد الأسمى، فما السُّنة الثالثة؟

الجواب:

السنة الثالثة تشريعية

استنزال رحمة الله ﷻ يقتضي أن نطيعه ونطيع رسوله ﷺ، ويبصرنا الله ﷻ بها في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: 132]

وفيها 5 بصائر:

بَصِيرَة ١

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾

أي: انقادوا ونفذوا ما يأتيكم من تشريعات ذكرها الله ﷻ ورسوله ﷺ بالائتمار لما أمرَا، وتنفيذ ما شرعا.

بَصِيرَة ٢

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٣٢﴾

تبصرنا بأن طاعة الله ﷻ والرسول ﷺ يحققان نزول الرحمة، ومن الرحمة تحقق النصر؛ فثمرة الطاعة اكتساب الخيرات والبركات، وإبعاد السيئات والهلكات.

بَصِيرَة ٣

روى أبو داود أَنَّ عَمْرَو بْنَ أُقَيْشٍ، كَانَ لَهُ رِبًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ

فَكَرِهَ أَنْ يُسْلِمَ حَتَّى يَأْخُذَهُ، فَجَاءَ يَوْمُ أُحُدٍ، فَقَالَ: أَيْنَ بَنُو عَمِّي؟ قَالُوا بِأُحُدٍ، قَالَ: أَيْنَ فُلَانٌ؟ قَالُوا بِأُحُدٍ، قَالَ: فَأَيْنَ فُلَانٌ؟ قَالُوا: بِأُحُدٍ، فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ (اللأمة الدرع)، وَرَكِبَ فَرَسَهُ، ثُمَّ تَوَجَّهَ قِبَلَهُمْ، فَلَمَّا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ، قَالُوا: إِلَيْكَ عَنَّا يَا عَمْرُو، قَالَ: إِنِّي قَدْ آمَنْتُ، فَقَاتَلَ حَتَّى جُرِحَ، فَحُمِلَ إِلَى أَهْلِهِ جَرِيحًا، فَجَاءَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه، فَقَالَ لِأُخْتِهِ: سَلِيهِ حَمِيَّةً لِقَوْمِكَ، أَوْ غَضَبًا لَهُمْ أَمْ غَضَبًا لِلَّهِ ﷻ؟ فَقَالَ: بَلْ غَضَبًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَمَاتَ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَا صَلَّى لِلَّهِ صَلَاةً.

(أبو داود: 2537. وحسّنه الأرناؤوط والوادعي في الصحيح المسند: 1393).

بَصِيرَة ٤

سبب ذكر هذه السنة:

١

تبرز الدعوات المتسيسة في أثناء الصدام العقدي والحضاري، فيتجوز بعض السياسيين المسلمين في تصرفاتهم، فربما تركوا نصرة إخوانهم بمبرراتٍ واهية كما في حال فلسطين وغيرها من قضايا المسلمين، ويظنون أن في هذا رحمةً لأنفسهم وشعوبهم، فبين الله ﷻ أن الرحمة في طاعته، وطاعة رسوله ﷺ، وليس في تبرير معصية الله ورسوله بلوازم المعركة.

٢

لمعاتبة الذين عصوا رسوله ﷺ حين أمرهم بالذي أمرهم به في يوم أحُد.

بَصيرة ٥

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾

تبصرنا بأن الشريعة رحمة في كل تنظيماتها:

- فتَنَزُّلها رحمة
- والعمل وفقها رحمة
- ومآل الأخذ بها رحمة تشمل الدنيا والآخرة

فقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]

وكلمة

﴿لَعَلَّكُمۡ﴾

تدفع المرء دفعًا لتنفيذ ما قبلها؛ لأنها تُطمِعه في تحقق ما بعدها.

جسر الاتصال

ننتقل إلى الآية (133)، فقد ذكر الله ﷻ قبلها السنة الثالثة، وهي تشريعية تتمثل في استنزال رحمة الله ﷻ بطاعته وطاعة رسوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: 132]، فما السنة الرابعة؟

الجواب:

السنة الرابعة — **اجتماعية إيمانية**

المسارعة إلى المغفرة والجنة لتحقيق مرتبةَ التقوى، فاضبطوا أنفسكم وحياتكم في ميادين الحياة الجماعية والفردية على المسارعة إلى المغفرة والجنة لتحققوا مرتبةَ التقوى [آل عمران: 133-136]، فبصرتنا هذه الآيات بثلاثية التقوى التي تصنع النصر الجماعي:

ركيزة [1]

دعوة عامة إلى المسارعة العظمى، وفيها 9 بصائر:

بصيرة ١

لأن التقوى مطلوبة لتحقيق النصر الجماعي

فقد حث الله ﷻ على المسارعة إليها ببيان نتيجتها النهائية الضخمة، وهي نَيْلُ المغفرة والجنة:

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾.

بصيرة ٢

﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾، تحمل دلالات تشجيعية كبيرة للحركة

فلم يقل: اطلبوا أو اذهبوا، والخطاب للمؤمنين، ومن خلالهم للعالمين: سارعوا. ليست المسألة للتفكير بل انتهبوا الأرض انتهابًا، والمتقون سمعوا إعلان (سارِعوا)، فكَسَلَهم مانَعُوا، وشهواتِهم دافَعُوا، ورحمةَ ربهم طالَعوا. فسارَعوا، وسارَعوا، وسارَعوا يبتغون رضا الملك الوهاب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر: 18].

بصيرة ٣

قرأ نافع و ابن عامرو أبو جعفر ﴿سَارِعُوٓاْ﴾ دون واو

لجعل الأمر الإلهي بالمسارعة مستقلًا عما سبق، كأنه يقول لهم: سواء نفَّذتم كلَّ ما سبق أم تركتم بعضه، فهناك أمرٌ يجب أن تستقيموا عليه، وهو: سارعوا إلى مغفرة وجنة.

بصيرة ٤

وقرأ الجمهور بالواو لجعل المسارعة مقترنة بما سبق

أي اتركوا الربا، واستقيموا على الأوامر السابقة، ولا تنسوا أن تقرنوا ذلك بالمسارعة في تنفيذ التوجيهات الإلهية لتحصلوا المغفرة والجنة في أسرع وقتٍ ممكن.

بَصِيرَة ٥

أمر الله ﷻ بالمسارعة لتحقيق هدفين عظيمين:

الهدف 1

﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

فـ﴿إِلَىٰ﴾ تعني الوصول، و﴿مَغْفِرَةٍ﴾ تعني أن يتحقق بها ستر ذنوبكم، وجعَلَها نكرةً؛ ليفخمها ويعظمها، و انظر إلى الجمال: صوَّر المغفرة في صورة الهدف المادي المحسوس الذي ينبغي أن يوصل إليه بأسرع حركة ممكنة. نسأل الله من فضله ورحمته.

الهدف 2

﴿وَجَنَّةٍ﴾

وهي المكان المعروف الذي تطمح إليه آمال المتنافسين على أفضل حياة يجدونها في المستقبل الحقيقي القادم، وسُمِّيت بذلك لأنها اشتقت من جنَّهُ الليل أي غطَّاه، والجنة: الحديقة المملوءة بالشجر الذي تغطي خضرته وارتفاعه ما تحته، فيجد الإنسان فيها كل الملذات والمشتهيات التي يعرفها، والتي لا يعرفها.

بَصِيرَة ٦

جمع الله -جلَّ مجده- بين المغفرة والجنة لأمرين:

١ - لِأَنَّ الْغُفْرَانَ مَعْنَاهُ إِزَالَةُ الْعِقَابِ، وَالْجَنَّةُ مَعْنَاهَا إيصال الثواب، فجمع بَيْنَهُمَا لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْمُكَلَّفِ مِنْ تَحْصِيلِ الْأَمْرَيْنِ. «تفسير الرازي» (9/ 365).

٢ - لأن الفائز بالمطالب قد لا يُوقَى من المعاطب، فلا بد منهما.

بَصِيرَة ٧

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بيَّن الله ﷻ لنا مصدر المغفرة:

إنه ربكم المربي لكم على أحسن ما تحتاجون من التربية، وأراد النبي ﷺ أن نشعر بضخامة هذا المعنى حينما علَّم أبا بكر رضي الله عنه الدعاء العظيم في آخر الصلاة، وفيه:

«فَاغْفِرْلِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ» (البخاري: 834)

قال ابن دقيق العيد في قوله «من عندك»: «يحتمل وجهين:

١ أحدهما الإشارة إلى التوحيد المذكور، كأنه قال: لا يفعل هذا إلا أنت، فافعله لي أنت.

٢ والثاني -وهو الأحسن- أن يكون إشارةً إلى طلب مغفرةٍ متفضَّلٍ بها من عند الله تعالى، لا يقتضيها سبب من العبد، من عملٍ حسنٍ ولا غيره». «إحكام الأحكام» (1/ 313).

بَصِيرَة ٨

معنى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ما قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

تُقرن السموات السبع والأرضون السبع، كما تُقرن الثياب بعضها إلى بعض، فذاك عرض الجنة. (تفسير الطبري 207/7)، والمراد وصفها بالسعة والبسطة فشُبِّهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه و أبسطه، وخصَّ العرض؛ لأنه في العادة أدنى من الطول للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرَّحْمَن: 54]، فذكر البَطَائِنَ لِأَنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهَا تَكُونُ أَقَلَّ حَالًا مِنَ الظِّهَارَةِ، فَإِذَا كَانَتِ الْبِطَانَةُ هَكَذَا فَكَيْفَ الظِّهَارَةُ؟! قال ﷺ: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ». «تفسير الرازي» (9/ 366). والحديث في «البخاري: 2790»

اللهم إنا نسألك الفردوس الأعلى من الجنة.

بَصِيرَة ٩

﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ تعني الأكوان المتعددة، ولكن ليس وفق النظرية الغربية الفاسدة

ويوضح لنا ذلك أن ما روي أن هرقل ملك الروم أرسل إلى النبي ﷺ يسأل: «إِنَّكَ كَتَبْتَ تَدْعُونِي إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، فَأَيْنَ النَّارُ؟» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ! فَأَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ؟» (تفسير الطبري بسند ضعيف 209/7، وورد بسند صحيح موقوفًا على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وكذلك أجاب ﷺ اليهود، فقرَّب النبي ﷺ الصورة كما يقرر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: فلَا يلزمُ مِنْ عَدَمِ مُشَاهَدَتِنَا اللَّيْلَ إذَا جَاءَ النَّهَارُ أَلَّا يَكُونَ فِي مَكَانٍ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْلَمُهُ، وَكَذَلِكَ النَّارُ تَكُونُ حَيْثُ يَشَاءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. «تفسير ابن كثير» (2/ 118).

ركيزة [2]

الخصال الخمس التي تؤهل أصحابها لمرتبة التقوى ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾

أي: خلقها الله ﷻ، وجهزها، وأمر الملائكة أن تهيئها لصنفٍ مباركٍ خاص هم المتقون، ثم ذكر خمس خصالٍ تحقق التقوى غير التي سبقت في سورة البقرة: أربعًا منها اجتماعية متعدية (تتعلق بالآخرين)، وواحدة ذاتية تتعلق بالنفس أي بصلة الإنسان بربه:

خصلة 1 ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وفيها 3 بصائر:

بَصِيرَة ١

﴿يُنفِقُونَ﴾ فعل مضارع يصور استمرارهم في الإنفاق

﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ﴾ أي في حالات الرخاء ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي في حالات الضيق والشدة، أي: ينفقون دائمًا لا يمنعهم من ذلك الشعور بالنعمة، ولا القلق الاقتصادي، وحذف نوع المنفَق منه، ليَدْخُلَ فِيهِ كلُّ نافع، ومنه إنفاقُ المال والعلم والوقت.

بَصِيرَة ٢

لم يحدد مقدار ما ينفقون ليناسب ميزانيةَ كل واحد بحسبه

وكان أبو الخير مَرْثَد بن عبد الله اليَزَني رَحِمَهُ اللَّهُ يروح إلى المسجد ومعه شيء يتصدق به، فيأتي بالخبز والفلوس حتى الكعك والبصل إن لم يجد شيئًا، ويحدّث عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ». «أحمد: 17333، وقال محققو المسند: إسناده صحيح، وصححه الوادعي في الصحيح المسند: 928».

بَصِيرَة ٣

جعل الله ﷻ الإنفاق أولَ صفات المتقين لسببين:

١

لتناسبَ السياق؛ فبعد ذكر وحوش المرابين ذكر الله ﷻ الرحماء من المحسنين، فالربا والصدقة وجهان متقابلان للعلاقات الاجتماعية في النظام الاقتصادي، فالربا نظامٌ متوحش، والإنفاق نظامٌ متعاون متراحم.

٢

لأن الإنفاق أساس لتحقيق الاستقلال عن الآخرين، وتوفير الكفاية من السلاح والعتاد للجهاد، فناسب أن يقترن بالحديث عن معركة أُحُد العسكرية.

خصلة 2 ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ وفيها 3 بصائر:

بَصِيرَة ١ ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ تصويرٌ بديع لحالهم

كما تكظم القِربةَ المملوءةَ بخيطٍ قوي حتى لا تخرج منها قطرات الماء، ووصفهم بالجمع المذكر السالم مع «ال» التعريفية؛ ليبين أنهم يدربون أنفسهم باستمرار على كظم الغيظ حتى رسخوا فيه.

بَصِيرَة ٢ ربَّى النبي ﷺ أُمَّته على هذا الخُلق الرائع

فقال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ تبارك وتعالى عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ شَاءَ». «أحمد: 15637، وحسَّن إسناده محققو المسند، والألباني في صحيح الجامع: 6522»، وقال: «الصُّرَعَةُ كُلُّ الصُّرَعَةِ، الصُّرَعَةُ كُلُّ الصُّرَعَةِ: الرجل يَغْضَبُ فَيَشْتَدُّ غَضَبُهُ، وَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ، وَيَقْشَعِرُّ شَعْرُهُ، فَيَصْرَعُ غَضَبَهُ»

«أحمد: 23115 وقال محققو المسند: صحيح لغيره».

بَصِيرَة ٣ واسمع إلى قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في تربيةٍ عجيبةٍ لسامعيه يقول:

«قومٌ أنفقوا في العُسْرِ واليُسْرِ، والجَهْدِ والرخاءِ. فمَن استطاعَ أن يَغْلِبَ الشرَّ بالخيرِ فليفعَلْ، ولا قوةَ إلا باللهِ، فَنِعْمَتْ -واللهِ- يا بنَ آدمَ: الجَوْعَةُ تَجترعُها من صبرٍ، و أنت مَغيظٌ، و أنت مظلومٌ».

(تفسير الطبري 7/215).

خصلة 3 ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ وفيها بصيرتان:

بَصِيرَةٌ ١ ﴿وَٱلۡعَافِينَ﴾ أي: الراسخين في العفو

والعفوُ: تركُ المعاتبة على ذنبٍ حتى يمحى فكأنه لم يكن، ويقابله تنميةٌ لحالٍ جديدة خيرة في التعامل مع الناس، وجعل العفو عن الناس عامًّا للمسلمين ولغيرهم، وهاهو عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسأل النبي ﷺ عن فواضل الأعمال، فيقول: «يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ». (أحمد: 17452. وحسَّن إسنادَه محققو المسند، وصحح إسنادَه الألباني في الصحيحة: 2861).

بَصِيرَةٌ ٢ ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ منزلةٌ أشرف من ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾

إذ ربما كظم المرء غيظًا ثم أنفذه في قابل أيامه، لكنه إن ضم إليه العفو ذهب الغيظ من صدره، وجمع الخصلتين الحسنتين.

خصلة 4 ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: 134] وفيها 4 بصائر:

بَصِيرَةٌ ١ يظهر لي أن هذه التكملة خصلةٌ رابعةٌ

قرنها الله بمحبته عَزَّ وَجَلَّ لبيان مكافأة صاحبها؛ فَإِنَّ مَحَبَّةَ الله عَزَّ وَجَلَّ للعبد أعمُّ درجات الثواب، والمحسنون هم الراسخون في هذا الخُلق.

بَصِيرَة ٢

الإحسان نوعان:

١

الإتقان والإجادة للأفعال، فهم المتقنون للإنفاق، وكظم الغيظ، والعفوعن الناس، يفعلون ذلك بأسلوبٍ أقوى و أقوم.

٢

والْإِحْسَانِ إِلَى الْغَيْرِ:

بِإِيصَالِ النَّفْعِ

مثل الإنفاق، ولكن الإحسان أقوى من مجرد الإنفاق

وبدَفْعِ الضَّرَرِ

مثل كَظْمِ الْغَيْظِ عن المسيء بعدم عقوبته في الدنيا، والعفوعنه في الآخرة، وبدفع الضررعمومًا.

بَصِيرَة ٣

رتب هذه الخصال الأربع ترتيبًا حكيمًا محكمًا

فبدأ بالإنفاق على الآخرين عمومًا، و انتقل إلى كظم الغيظ عن المسيئين، ثم ارتقى بالمتقين ليكونوا من العافين عن الناس، وذلك أعلى من كظم الغيظ، ثم ارتقى بهم إلى أعلى من ذلك، وهو الإحسان.

بَصِيرَة ٤

لماذا بدأ بهذه الخصال الأربع قبل الخصلة الخامسة وهي التوبة؟

الجواب:

لأنها أساس إقامة الإسلام بمعناه الشامل لتنمية حس الجماعة، إذ لا يقام الإسلام بمعناه الشامل إلا في وسط دولة وشعب، تطبق فيهم هذه الأخلاق الاجتماعية الجميلة لحفظ مبدأ الأمة الواحدة بينهم، ولأن ضبط النفس في التعامل الجماعي في السلم، يكون مدخلًا لضبط النفس في الحرب.

خصلة 5: التوبة عند صدور الذنب وحدوث الخطأ

ويبصرنا بها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: 135]، وفيها 10 بصائر:

بصيرة ١: هذه الآية المباركة تبصرنا أن الوقوع في الذنوب لا ينافي صفة التقوى

والدخول في المتقين إذا أتبع المذنبُ ذنبَه بالتوبةِ التي يصحبها حب الله ﷻ.

بصيرة ٢: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ فرّق الله -جلّ مجده- هنا بين الْفَاحِشَةِ وظلمِ النفس:

فالفاحشة: مَا يفحش ذكرُه، ويستبشعُ الناسُ ذوو الفطرة السليمة أمرَه كالزنا.

وظلمُ النفس: ما يضعه المرء في غير موضعه سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا، وقد لا تظهر بشاعته للعالَم.

بصيرة ٣: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾

هذا عطفٌ بصفةٍ أخرى للمتقين الذين أعد الله ﷻ لهم جناته، وهذا يبصرنا ببشرية هذه الفئة الزاكية الراقية، فلا يبعد وقوعهم في الذنب بل في الفاحشة، لكنهم يعودون من قريبٍ، ولا يستمرؤون السوء من القول أو العمل، ويظهر تعظيمهم لله ﷻ، وخوفهم من ذنبهم، وإشفاقهم من ردّ أعمالهم الصالحة.

بصيرة ٤: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾

تبصرنا أنه هزَّهم التذكرُ بعد أن وقعوا في الذنب، فأرَّقهم التكدر، تذكروا فذكروا واستغفروا لذنوبهم

تذكر رحمة الغفار دومًا ... وعُدْ للحقِ إنْ زلَّتْ خُطاكَا

بَصِيرَة ٥

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ سؤالٌ لحصر المغفرة في الواحد الأحد

وهذا يعني أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وفي الحديث أن عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: حدثني أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وصدق أبو بكرٍ- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما مِن رجلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثم يقومُ فيَتطهَّرُ، ثمَّ يُصلِّي، ثم يَستَغْفِرُ اللهَ إلَّا غفرَ له»، ثمَّ قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى آخر الآيةِ [آل عمران: 135]». (الترمذي: 406، وحسَّنه، وحسنه ابن حجر في فتح الباري 98/11) كأن الواحد منهم يقول لنفسه: أو ما علمت أن معالي الأُمور لا تُنال بالفتور، و إنما تُنال الأمجاد بالجد والاجتهاد، والتشميرِ ليومِ المعاد.

بَصِيرَة ٦

﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ هذه من أعظم آيات الرجاء إن لم تكن أعظمَها

فهي تصور أنه لا يشترط فيك أن تكون معصومًا من الذنوب لتدخل في المتقين، بل الشرط هو عدم الإصرار على فعل الأوزار، فالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ -وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ-: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، واغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ، وَيْلٌ لأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرون عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». «أحمد: 6541، وحسَّن إسناده ابن حجر في فتح الباري 112/1.. و أَقْمَاعُ الْقَوْلِ: هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ وَلَا يَعُونَهُ وَلَا يَفْهَمُونَهُ. الآداب الشرعية لابن مفلح 305/1».

بَصِيرَة ٧

أتى بها بعد ما سبق من ذكر خصال الخير والإحسان

ليبين أن صفات المتقين السابقة ليست لملائكةٍ لا يذنبون، بل لبشر يقعون في الخطأ لكنهم لا يصرون بل يستغفرون، وها هو قتادة رحمه الله يربينا على تذوق حلاوة هذه الآية، فيقول: «فإياكم والإصرار، فإنما هلك المصرُّون، الماضون قُدُمًا، لا تناهاهم مخافة الله عَزَّ وَجَلَّ عن حرامٍ حرَّمه الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم، ولا يتوبون من ذنبٍ أصابوه، حتى أتاهم الموتُ وهم على ذلك». (تفسير الطبري: 223/7).

بَصِيرَة ٨

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾ تُصوِّرُ حالَهم

والمعنى: وهم يعلمون كل ما سبق من فتح باب التوبة للتائبين، ويدخل في ذلك أنهم ليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها، وبالنهي عنها وبالوعيد على فعلها، ويعلمون أن الذنب يدمر النفس والجسد والبلد؛ لأنه قد يُعذَرُ من لا يعلم قُبْحَ القبيح.

بَصِيرَة ٩

بصرتنا الآية بثلاثة أركانٍ للتوبة ذكرها الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَهيَ عِلْمٌ، وَحَالٌ، وَفِعْلٌ:

فقوله: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ إشارةٌ إلى عِلْم الإنسان بضرر الذُّنُوبِ، وَكَوْنِهَا حِجَابًا عن ربه علام الغيوب، وهنا يأتي الحال: فيتألم قلبُه عند فعلها، ويندم راجعًا لربه عزوجل، فتنبعث عنده الإرادة إلى فعلٍ:

يعالج حالَه	ويعالج ماضيَه	ويعالج مستقبلَه
بالإقلاع عن الذنب، والاستغفار ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾	بالندم والادّكار	بالعزم على عدم العودة إلى الأوزار، وهذا معنى (نَفْي الْإِصْرَارِ). (إحياء علوم الدين: 3/4).

وفي البخاري (7507) قال ﷺ:

«إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا. قَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ، فَاغْفِرْلِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُالذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَفَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُالذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ آخَرَفَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُالذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي -ثَلَاثًا- فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ».

بَصِيرَة ١٠

هذه من آيات الرجاء العظيمة

فتدخل الأمل في نفوس البريات، فعن ثابتٍ البناني قال: بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية بكى.

(تفسير الطبري: 7/220).

جسر الاتصال

إذا كانت الركيزة الثانية التي تصنع النصر الجماعي هي تحقيق الخصال الخمس التي تؤهل أصحابها لمرتبة التقوى، فقد تسأل: ما جزاء من اتصف بهذه الصفات؟

الجواب: هنا تأتي:

ركيزة [3] الجزاء الفائق لمن يحقق الصفات الخمس من الخلائق

ويبصرنا به قوله -عز مجده-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أيْ: مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشْرُوبَاتِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران:136]، وفيه بصيرتان:

بصيرة ١ جمع بين الجزاء في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم﴾، والأجر في قوله: ﴿أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

لأن الأجر جزاءُ العمل كما يقول الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ. (العين 173/6)، وبه يكون مجازاة الإنسان على ما قدَّم في الزمان عملًا وصبرًا، وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والأجر يقال فيما كان عن عقد وما يجري مجرى العقد، ولا يقال إلا في النفع دون الضر، والجزاء يقال فيما كان عن عقدٍ وغير عقد، ويقال في النافع والضار، فالجزاء يترتب على عمل، والأجر استحقه من بذل. (المفردات: 11).

بصيرة ٢ كل ذلك للتحضيض على العمل والبذل، فيدفعهم هذا إلى ألَّا ييأسوا بسبب العتاب

الذي سيأتي ذكره مما حدث منهم في أُحُد بعد هذا تفصيلًا، وما أجمل مجيء هذه الآيات قبل ذكر مصيبتهم في أُحُد، فالعتاب الشديد لا يعني عدم انتظار الرحمة من الرب الوهاب المجيد، وعن شهر بن حوشب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: طلب الجنة بلا عملٍ ذنب من الذنوب، و انتظار الشفاعة بلا سببٍ نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة ممن لا يُطاع حمقٌ وجهالة.(طبقات الصوفية للسلمي ص 84).

وعن رابعة البصرية أنها كانت تنشد:

ترجو النَّجاةَ ولم تَسْلُكْ مَسالِكَها ... إنَّ السَّفينةَ لا تَجرى عَلَى اليَبَسِ

(الكشاف: 417/1، وينسب لأبي العتاهية كما في روضة العقلاء ص285).

المحور السادس

يفصل أهمَّ السـنن الربانيـة في النصر والهزيمـة عند المواجهة المباشـرة [آل عمـران: ١٣٧- ١٦٦]، وهـذه السـنن تدخل ضمن منظومة الأمن القومي، ينبغي أن تدرس في المراحل التعليمية.

جسر الاتصال

يحدثنا عن سنن النصر في الاستعداد للمعركة قبل المواجهة العسكرية في معركة أُحدٍ [121-136]، فما تفاصيل سنن النصر والهزيمة عند المواجهة المباشرة؟

الجواب:

المحور السادس

يفصل أهمَّ السنن الربانية في النصر والهزيمة عند المواجهة المباشرة [آل عمران: ١٣٧- ١٦٦]، وهذه السنن تدخل ضمن منظومة الأمن القومي، ينبغي أن تدرس في المراحل التعليمية.

وتكون هذا المحور من 7 أقسام:

- **القسم الأول:** تأسيس قوانين ابتدائية مهمة في فَهْم سنن النصر والهزيمة، وامتد ذلك في [آل عمران: 137-138].
- **القسم الثاني:** السنن المتعلقة بمعالجة الآثار المترتبة على الهزيمة العسكرية [آل عمران: 139-142].
- **القسم الثالث:** السنن التي تعالج وقوع قتل القيادات والأفراد في الصفوف المؤمنة، واستيعاب الصف المؤمن لمثل هذه النكبات التي تحل بهم في أثناء المواجهات [آل عمران: 143-148].
- **القسم الرابع:** العامل الحاسم الذي يقلب النصر خسارة، والخسارة نصرًا، فحدد سنن النصر والخسارة بين ولاية الله الملك القهار عز وجل وطاعة الكفار [آل عمران: 149-151].
- **القسم الخامس:** أخطاء قاتلة: سنن الهزيمة التي تقلب النصر إلى فشل عند الالتحام العسكري في أثناء المعركة [آل عمران: 152-155].
- **القسم السادس:** من أهم السنن الكبرى للفشل والانكسار: تقليد الكفار، والتأثر السلبي بثقافتهم الدنيوية المادية [آل عمران: 156-158].
- **القسم السابع:** سنن النصر المتعلقة بفنِّ القيادة الناجحة، واستيعاب الأتباع، وتعامل الأتباع مع قيادتهم [آل عمران: 159-166].

القسم الأول

يؤسس لنا قوانين ابتدائية مهمة لفهم سنن النصر والهزيمة، وامتد ذلك في

[آل عمران ١٣٧-١٣٨]:

وذكر الله ﷻ في هذا القسم ثلاثة قوانين:

١ القانون الأول: سنن النصر والهزيمة عامة مطردة

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾

٢ القانون الثاني: سِيرُوا في الأرضِ، و انظُروا في العواقب

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾

٣ القانون الثالث: القرآنُ بيانٌ للدروب هدايةٌ للقلوب

﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾

آيتا هذا القسم:

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾

١ القانون الأول ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾

تبصرنا هذه الكلمات القليلة بأن سنن النصر والهزيمة عامة مطردة تجري على كل من أخذ بأسبابها أو وقع في موجباتها، فمن أخذ بأسبابها نال غاياتها، ومن غفل عنها حصد عواقبها، وفي هذا القانون تتجلى 4 بصائر ربانية:

بصيرة ١ ارتباط ماضي البشرية بحاضرها

يربط القرآن ربطًا عجيبًا بين أزمنة التاريخ، فيجعل الماضي مرآة للحاضر، والحاضر امتدادًا للماضي، فما جرى على السابقين ليس مجرد قصص فحسب، بل هي نماذج ستتكرر، فالتاريخ يعيد نفسه، وإن اختلفت الوجوه والأقنعة، فإن الجوهر واحد، والحقيقة ثابتة.

وتأمل كيف افتتح الله ﷻ بيانه بـ{قَدۡ} وهي ليست مجرد حرف

بل هي ختم التوكيد الإلهي على أن هذه السنن قد ﴿خَلَتۡ﴾ أي: مَضَتْ وَسَلَفَتْ، ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ جمع "سُنَّة"، أي: طرائق ثابتة، قد وقعت واستقرت، وما جرى في غير زمانكم، سيجري مثله في زمانكم إن تشابهت الأحوال والأعمال.

بصيرة ٢ عموم السنن وشمولها للجميع

سنن النصر والهزيمة عامة مطردة تسري على الجميع مؤمنهم وكافرهم، وقد لخص هذا المعنى العميق الإمام مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «الْمُرَادُ سُنَنُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَا بَقِيَتْ لَا مَعَ الْمُؤْمِنِ وَلَا مَعَ الْكَافِرِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَبْقَى لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ الثَّنَاءُ الْجَمِيلُ فِي الدُّنْيَا، وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ فِي الْعُقْبَى، وَالْكَافِرُ بَقِيَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ فِي الدُّنْيَا، وَالْعِقَابُ فِي الْعُقْبَى». «تفسير الرازي 9/370».

بصيرة ٣

هدم فكرة العنصرية والتفاضل بالأنساب

هذا الذكر للسنن من أبلغ الرد على عنصرية العابثين الذين يزعمون أنهم مفضَّلون لجنسهم، أو لأنسابهم، فسنن الله تعالى لا تحابي بني إسرائيل كما لا تحابي المسلمين إن هم قصّروا وتركوا الأسباب، إنما القاعدة الخالدة هي: من طبَّق هذه السنن بوعي وعمل، حصد ثمرتها يقينًا، فالجزاء من جنس العمل.

بصيرة ٤

فتح باب "علم السنن" للمسلمين

في هذه الآيات يبيِّن الله تعالى أهم سنن النصر والهزيمة في السلم والحرب، وبهذا، تفتح الآيات للمسلمين أفقًا معرفيًّا رحبًا، وتضع بين أيديهم أساس علمٍ جليل لم يكن معروفًا من قبل: "علم السنن" أو ما يسمى اليوم بـ"علم الاجتماع والعمران". إنه فقه حركة المجتمعات، الذي يرتقي بعقول الأمة، ويمكّنها من فهم الو اقع، ويصبح عونًا لها على نشر نور الله ﷻ في العالمين.

ولم يكن هذا الإرشاد إلا إرشادًا إلهيًّا خالصًا

وخاصية فريدة من خصائص القرآن الكريم، كما أشار صاحب "تفسير المنار": «والإرشاد إلى هذا العلم إِرْشَادٌ إِلَهِيٌّ، لَمْ يُعْهَدْ فِي كِتَابٍ سَمَاوِيٍّ، وَلَعَلَّهُ أُرْجِئَ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ الْإِنْسَانُ كَمَالَ اسْتِعْدَادِهِ الِاجْتِمَاعِيِّ، فَلَمْ يَرِدْ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ، الَّذِي خَتَمَ اللهُ ﷻ به الْأَدْيَانَ». «تفسير المنار4/116».

٢ القانون الثاني: سِيرُوا في الأرضِ، و انظُروا في العواقب

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ تبصرنا بضرورة رصد سنن النصر، والتركيز على سنن الهزيمة بالذات لوقاية المجتمع المسلم منها، ويقتضي ذلك إنشاء صروح علمية ومراكز بحثية متخصصة تغوص في تفاصيل التاريخ، لتستخرج لنا كنوزه ودروسه، وفي رحاب هذا القانون، تتجلى لنا 6 بصائر، تضيء لنا الطريق:

بصيرة ١: معنى السير في رحاب الزمان والمكان

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: امشوا في الأرض مشيًا حسيًّا أو معنويًّا في أزمنتها وأمكنتها بأن تدرسوا تاريخ الأمم السابقة، وتعرفوا أحوالهم، فهو سيرٌ حسيٌّ، حين نطأ بأقدامنا أطلال الغابرين، ونشاهد بأعيننا آثار ديارهم، لنتأمل بعمق ما حلّ بهم، كما فعل النبي ﷺ حين مرّ بصحبه الكرام رضي الله عنهم على مدائن صالح عليه السلام، فوصف لهم بأسلوبٍ مؤثر ما أصاب قوم ثمود.

وهو أيضًا سيرٌ معنويٌّ

حين نبحر في كتب التاريخ ونستمع لأخبار الماضين ممن أدركهم أو قرأ عنهم، فنجعل من عقولنا مسرحًا لأحداثهم، ومن قلوبنا وعاءً لعبرهم. «ينظر: تفسير ابن عرفة 3/192».

بصيرة ٢: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾

فالأرض "كلها مسرحٌ للحياة البشرية، والأرض والحياة فيها كتاب مفتوح تتملاه الأبصار والبصائر"، ففي كل شبرٍ منها قصة، وفي كل أثرٍ منها عظة، والآية تدل عَلَى أَهَمِّيَّةِ عِلْمِ التَّارِيخِ؛ لِأَنَّ فِيهِ فَائِدَةَ السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ، ومعرفة صَلَاحِ الْأُمَمِ وَفَسَادِهَا، والوقوف على أسباب نهضتها أو سقوطها. «التحرير والتنوير 4/97».

بَصِيرَة ٣

جمال كلمة ﴿عَـٰقِبَةُ﴾ وجلالها

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ يظهر جمال كلمة ﴿عَـٰقِبَةُ﴾، فهي الخاتمة الحتمية التي تُنسج خيوطها من صميم أعمالهم، فلا يغرنّك ما تراه اليوم من قوة للمكذبين أو سيطرة للظالمين، فإنما هي لحظاتٌ عابرة في عمر الزمن، أما العاقبة، تلك النهاية المتصلة بأفعالهم، فهي قادمة لا محالة. ومعنى الآية: قد مضت فيمن كان قبلكم من الأمم يا أهل الإيمان سنن هي عادة الله ﷻ في الخلق سِيرَبها فهم، حتى بلغ الكتابُ فيهم أجلَه لإدالة المؤمنين عليهم، فأحللت بهم عقوبتي، و أنزلتُ بساحتهم نِقْمتي.

بَصِيرَة ٤

أمرنا الله ﷻ أن ننظر في عاقبة المكذبين، فلماذا لم يذكر عاقبة الصالحين؟

الجواب يأتيك في لطائف ثلاث:

١- لأن ذكر أحد المتقابلين يغني عن ذكر الآخر، ففي الحديث عن مصير ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ إشارةٌ ضمنية مشرقة إلى حسن عاقبة المصدقين المتقين.

٢- لأن سياق الآيات جاء بعد غزوة أُحد، ليربت على قلوب المؤمنين ويواسي جراحهم، وليعلموا أن انكسارهم اللحظي ليس نهاية المطاف، وأن تفوق أعدائهم مؤقت. فالسير في الأرض يكشف لهم أن سنن الله ﷻ ماضية، وأن النصر له أسبابه والهزيمة لها أسبابها

٣- في هذا رسالةٌ مدوية لمعسكر الشرك آنذاك، ولكل مكذبٍ في كل زمان، أن لا يغتروا بنصرٍ زائف أو قوةٍ عارضة، فالله ﷻ ليس بتاركهم، وعاقبة السوء تنتظرهم، والخزي والهزيمة هي مصيرهم المحتوم.

وهو ما لخصه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بحكمته البالغة: «إِنِّي لَا أَرَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ إِلَّا ظَاهِرِينَ عَلَيْكُمْ لِتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ». (مصنف ابن أبي شيبة 7/ 463).

بصيرة ٥

من هم المكذبون في ميزان القرآن ؟

الجواب:

إن كلمة ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لا تقتصر على فئة واحدة، بل تشمل صنفين من الناس، كلاهما على خطرٍ عظيم:

١- الكفار والمنافقون المكذبون لآيات الله سبحانه، والتكذيبُ بآيات الله كفر.

٢- من انتسب إلى أمة الإسلام، ولكنه يكذب إما نظريًّا وإما عمليًّا بسنن الله في النصر والهزيمة

فمثلًا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، فيأتي هو ليجعل رابطة الدم أو الحزب أو الوطن فوق أخوة الإيمان التي أرادها الله ﷻ. والنتيجة هي هذا الهوان الذي نراه بأم أعيننا، فهذا نوعٌ فظيع من التكذيب، لا ينطق به اللسان، بل تصرخ به الأفعال والمواقف.

بصيرة ٦

لماذا أمر بالسير في الأرض دون قراءة الأسفار، وتتبع الأخبار؟

الجواب:

لتعليم هذه الأمة الناهضة الأصولَ العلميةَ للبحث عن الحقيقة، فكم من كتب التاريخ قد زُوِّرت! وكم من الحقائق قد طُمست! وكم من باطلٍ أُلبس ثوب الحق!، ولا أدلَّ على ذلك مما نشهده من حركة تزويرٍ تاريخيٍّ ضخمة جدًّا لجعل أهل الحق هم أهل الضلال، كالذين يزيفون تاريخ الصحابة رضي الله عنهم، فالركون إلى المكتوب وحده دون تحقيق ونظر، قد يوقعنا في شراك التضليل والتزييف.

٣ القانون الثالث

القرآنُ.. هدايةٌ للقلوب وبيانٌ للدروب

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران: 138] تبصرنا الآية بأن القرآن هو مصدر المعرفة الحقيقية، فهو يقدم البيان الصادق الذي يحتاجه الناس، ويوضح معالم الهدى التي تقود العالم إلى الفلاح، والموعظة التي ترق بها قلوب المتقين الذين يتقون المكاره والمخافات في المستقبل، ومن ذلك البيان لحقيقة ما وقع في معركة أُحد من انتصار ثم انكسار، وذكر ثلاث خصائص للقرآن أنه بيان وهدى وموعظة للمتقين، تتجلى فيها أنوار 6 بصائر:

بَصِيرَة ١: سرُّ الإشارة بـ ﴿هَٰذَا﴾

تأمل أولًا إشارة القرب في قوله: ﴿هَٰذَا﴾، فكأن هذا النور حاضرٌ بين يديك، قريبٌ إلى قلبك. إنها إشارة إلى القرآن العظيم، وبشكل أخص إلى هذه الآيات التي بين أيدينا، بما حَوَتْهُ من منهج تربوي رباني فريد، يفصِّل أسباب النصر وقوانين الانكسار، ويقدم عتاب المحب لمجتمع الصحابة المبارك على أخطاءٍ لم تكن لتُنقِصَ من أقدارهم شيئًا، بل لتزيدهم صفاءً وكمالًا.

بَصِيرَة ٢: جلالُ معنى: ﴿بَيَانٌ﴾

فالقرآن بيان إلهي عالمي أنزله الله ﷻ أي: إرشاد بائن منفصل عنهم كأنهم عندما يتلونه يرونه مشاهَدًا، فلا يخفى عليهم، ففيه بيانٌ للقواعد الكونية والسنن السياسية والعسكرية التي تحكم حياة الأمم، وهو دستورٌ مفتوحٌ للناس أجمعين، ولكن مفاتيح كنوزه لا تُمنح، والانتفاع به لا يتحقق، إلا للمتقين الذين يطبقونه ويصبرون عليه.

بَصِيرَة ٣: شمولية النداء: ﴿لِّلنَّاسِ﴾

أي: نزل لأجلهم، فهو الذي يصنع عظمة الإنسان، يطهر الناس من أخطائهم وخطيئاتهم الفردية والجماعية، ويرقيهم في صفاتهم الجميلة، فالقرآن ينقل البشر نقلة عظيمة، ويبصرهم السبل القويمة، والطرق المستقيمة كما في موضوع تحرير الأرقاء، وإعطاء المرأة حقوقها، وهي قضايا لم يستفق ضمير العالم الشارد عن وحي الله ﷻ لها إلا بعد قرون طويلة.

بَصِيرَة ٤

﴿وَهُدًى﴾

أي: يأخذ بأيديهم، فيدلهم على الطريق حتى يوصلهم إلى الهدف الحقيقي.

بَصِيرَة ٥

﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨﴾

يرقق قلوبهم حتى لا يقعوا في المآسي المستقبلية، ولكنه لا يكون كذلك إلا للمتقين، فهم صناع الحياة السعيدة الحقيقيون.

فبعد أن يستنير العقل بالبيان، ويستقيم الدرب بالهدى، تأتي لمسة الحنان وهمسة التذكير {وموعظة للمتقين} لتكون الدرع الذي يقي القلب من سهام الغفلة، والحصن الذي يحميه من مآسي المستقبل.

بَصِيرَة ٦

خصوصية الانتفاع ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨﴾

خص المتقين لأنهم وحدهم الذين يفتحون نو افذ قلوبهم لهذا النور، فهم المنتفعون به، المطبقون له، وفي هذا تعريض لطيفٌ بأن من لا يفهم السنن ويعمل بمقتضياتها فليس من المتقين، فالكلمة الهادية لا تجد مستقرها إلا في القلب التقي، والموعظة الصادقة، يقبل عليها القلب الزكي، وليست أزمة البشرية غالبًا في غياب المعرفة، بل في غياب الرغبة الصادقة في اتباع الحق، وفي ضعف المجاهدة لإكراه النفس عليه، وذلك هو ميدان المتقين الحقيقي.

جسر الاتصال

بعد أن أرسى القسم الأول من المحور السادس القواعد الكلية لفهم سنن النصر والهزيمة [آل عمران: 137-138]، ينتقل السياق من التأسيس إلى البناء. فما السنن التي بصرتنا بها آيات القسم الثاني؟

الجواب:

القسم الثاني

يبصرنا بالسنن المتعلقة بمعالجة الآثار المترتبة على الهزيمة العسكرية [آل عمران: ١٣٩-١٤٢]

وفي هذا القِسم 5 سنن:

السنة الأولى

المواساة قبل العتاب ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: 139].

السنة الثانية

أنت الأعلى بالإيمان وإن كنت مثخنًا بالجراح

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: 139].

السنة الثالثة

حين يمسُّكم القرح، فإن في الألم جبرًا

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: 140].

السنة الرابعة

المداولة بين الأحوال المتعددة هي سنة الحياة الكبرى:

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 140].

السنة الخامسة

استيعاب الحِكَمِ الستِّ العظيمةِ من سنة المداولة يبني النفسَ القويةَ المجاهدةَ

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا... وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: 140- 142].

آيات هذا القسم:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحۡزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُوا۟ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾

وهذا قسم مثير جدًّا؛ إذ يقف المتدبر أمام سؤالٍ عميق ومثير: لماذا قدَّم الله ﷻ هذا العلاج النفسي والترميم المعنوي على ذكر تفاصيل معركة أُحُد؟ مع أن منطق العرض قد يقتضي ذكر وقائع المعركة أولًا، ثم الحديث عن آثارها!

والجواب يتلألأ في ثنايا السنن الإلهية التي تبصرنا بها هذه الآيات:

السنة الأولى: المواساة قبل العتاب

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩﴾ تبصرنا بأن نتعلم استيعاب صدمة الانكسار في الحياة فجاءت هذه الآية قبل الكلام عن تفاصيل المعركة، وهذا يعني أن نستوعب النتائج المؤلمة لو وقعت، وأن نعالج آثارها، وفي رحاب هذه السنة الأولى، تتكشف لنا 5 بصائر، تضيء لنا حكمة هذا الترتيب الإلهي:

بصيرة ١: جاء هذا القسم قبل الكلام عن تفاصيل ما وقع في أحد

ليستبق إلى وضع العلاجات الناجعة والوصفات المضمونة لترميم الانكسارات والشروخ الظاهرة والباطنة، الحسية والمعنوية في الصف المسلم إن لحقته سنن الهزيمة، ويرشدنا الله ﷻ إلى المنهج الأقوم للتعامل مع الظروف المؤلمة، إنه المنهج الرباني الأقوم في التعامل مع أقسى الظروف.

بصيرة ٢: عدم استيعاب الصدمة أعظم من الصدمة نفسها

تبصرنا الآية بأن الأسوأ من المصيبة عدمُ استيعابها، والغرق في حيرتها، والانهيار تحت وطأتها، وعدمُ القدرة على فهم وقوعها في الكون، وتبصرنا بأن الأعظمَ من الخطأ والخطيئات هو العجز عن التعامل مع آثارها بعد حدوثها، فقد يستولي عليهم الجزع واليأس والوهن والقنوط بعد الانكسار، فأراد الله ﷻ معالجة الآثار السلبية، والمشاعر والأفكار الخاطئة التي ترتبت على النتيجة المأساوية قبل ذكر الأخطاء.

بصيرة ٣

عتاب المحبِّ دليلُ الصدق

هذه الآية افتتحت آياتٍ يكلمنا الله سبحانه وتعالى فيها عن العبر المستلهمة مما حدث في غزوة أحد، ولولم يوجد في القرآن الكريم إلا هذه الآيات لكانت كافية للدلالة على أن القرآن موحى به من عند الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعاتب الصحابة الكرام وهم أفضل الخلق بعد الأنبياء، وذلك يدل على صدقهم وأمانتهم في النقل، فالآيات تصوب مسيرتهم وتبين عظمتهم التي تتقبل التصويب وتزداد به سموًا.

بصيرة ٤

منهجية المحاسبة بين الستر والإعلان

تقدم لنا هذه الآيات منهجًا قويمًا في معالجة أخطائنا، وهذه الأخطاء لا تخلو من أن تكون أحد أمرين:

١. إما أن تكون خطأ فرديًا فيما بين الإنسان وربه ﷻ، فستره أولى، والنصيحة فيه سرًا أوجب.

٢. وإما أن تكون أخطاء عامة تتعلق بمصلحة الأمة وقضاياها العامة، فينبغي أن تكون المحاسبة علنية كما في هذه الآيات، وذلك لضمان عدم الوقوع في الخطأ مجددًا أو استمراره، ولصناعة قادة واعين يتعلمون من عثرات من سبقوهم.

بصيرة ٥

ترميم المعنويات ضرورة إيمانية:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحۡزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ تُبَصِّرنا بحاجة المجتمع المسلم عامةً والجند المجاهدين خاصةً إلى ترميم المعنويات، والتسلية عن المصاب بعد وقوع الانكسارات.

فالمعركة الحقيقية تبدأ وتنتهي في ميدان القلب، والوهن والحزن هما أخطر الأعداء بعد الهزيمة.

السنة الثانية: أنت الأعلى بالإيمان وإن كنت مثخنًا بالجراح

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ تبصرنا بأن وقوع الهزيمة العسكرية في معركةٍ لا ينبغي أن يجلب الهوان ولا الأحزان؛ لأن صدق الإيمان يلازمه الشعور بأن صاحبه هو الأعلى أمام العدوان، وفيها 7 بصائر ترسم طريق النهوض بعد السقوط:

بصيرة ١: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ الواو وصلت ما بعدها بما قبلها

كما نبه الرازي (371/9)، فجعل قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ معطوفًا على ما سبقه من آيات كـ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ...﴾ و﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾؛ ليكون الأمر بعدم الوهن نتيجة للبحث والاطلاع على أحوال الأمم الماضية. والتقدير: فسيروا في الأرض معتبرين بسنن الأولين، ولا تهنوا عندما تواجُهكم المصائب أو المآسي، ولا تغرقوا في بحر الأسف على ما فات، ولا تجعلوا من ألم الفقد سجنًا تعيشون فيه، والوهن: الضَّعْفُ في النفسِ والعملِ والرأيِ والحركةِ، فلا تخوروا، ولا تضعفْ إرادتُكم، ولا تيأسوا.

بصيرة ٢: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أَيْ: عَلَى مَنْ قُتِلَ مِنكُمْ أَوْ جُرِحَ

والْحُزْنُ: أَلَمٌ يَعْرِضُ لِلنَّفْسِ إِذَا فَقَدَتْ مَا تُحِبُّ، فهو شِدَّةُ الْأَسَفِ الْبَالِغَةُ حَدَّ الْكَآبَةِ وَالِانْكِسَارِ. «التحرير والتنوير 98/4».

بصيرة ٣: احذروا من منحدر اليأس

فالْوَهَنُ وَالْحَزَنُ حالتان نفسيتان سببهما الشعور بوقوع مصيبة، ويترتب عليهما الاستسلام، والكآبة. فالوهن ضعف النفس، والحَزن ألمٌ محسوس، وكلاهما يؤدي إلى الجزع، والجزع يؤدي إلى التسخط على القَدَر وعلى القدير سبحانه، وقد يؤديان إلى الانتحار؛ لهذا جاء النهي الإلهي قاطعًا، ليقيم سدًا منيعًا أمام هذا السيل المدمر.

بصيرة ٤

إعلان العلو الإيماني في أحلك اللحظات ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾

قد يسأل سائل: كيف نكون الأعلين وجراحنا لم تندمل بعد، ودماؤنا لم تجف؟ فيأتيه الجواب: أنتم الأعلون بمنهجكم وعقيدتكم، و أنتم الأعلون بعاقبتكم ومآلكم، و أنتم الأعلون في انتصاراتكم إذا راجعتم أخطاءكم وتخلصتم منها بشرط ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾، فالعلو ليس مرتبطًا بنتيجة معركة، بل بصدق الإيمان.

و أثار النبي ﷺ هذا المعنى العظيم في أُحُدٍ

حين افتخر أبو سفيان قائدُ المشركين، فقال: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ-يعني صنمه الذي يعبده-. فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ». قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعُزَّى، وَلَا عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ». «البخاري: 4043». قال النبي ﷺ ذلك أثناء الشعور بألم الخسارة في أحد، ولم تمنعه الخسارة من أن يقول ذلك.

بصيرة ٥

استعد زمام المبادرة: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾

إن هذا العلو ليس شعارًا يُرفع، بل هو مسؤوليةٌ ودافعٌ للعمل. فالمعنى: لا تضعفوا عن قتال عدوكم وتدبير أمركم بسبب ما أصابكم، بل كونوا أسرع الناس نهوضًا بعد العثرة، و أقواهم إفاقةً بعد المصيبة. تعلموا من أخطائكم، وتخلصوا من نقاط ضعفكم، وعودوا إلى الميدان بروحٍ أقوى من ذي قبل.

بصيرة ٦

القرآن هو أعظم دواء للمكلومين

تبصرنا هذه الآية وما بعدها بأن معالجة الوهن والحَزَن من أعظم أسباب القدرة على استعادة زمام الأمور وقلب الهزيمة نصرًا: يقول الإمام الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كَثُرَ في أصحاب محمد ﷺ القتلُ والجراحُ، حتى خَلَص إلى كلِّ امرئ منهم اليأسُ، فأنزل الله ﷻ القرآنَ، فآسَى فيه المؤمنين بأحسن ما آسى به قومًا من المسلمين كانوا قبلهم من الأمم الماضية. فقال: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ إلى قوله: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾ [آل عمران: 139-154]. (تفسير الطبري 234/7).

فكانت هذه الآيات البلسم الشافي، والمواساة التي لا تضاهيها مواساة، والترياق الذي أعاد الحياة إلى الأرواح، و أقام العزائم من جديد.

بَصِيرَة ٧

فقه التعامل مع المشاعر

هل النهي عن الحزن يعني قمع المشاعر الإنسانية؟ بالطبع لا. فالمراد هو النهي عن الاستسلام للمشاعر التي تشل الحركة، والغرق في الأحزان التي تمنع من العمل. أما الألم الطبعي العابر فلا مفر منه. لكن المؤمن لا يسمح له بالبقاء، بل يدفعه بقوة الإيمان، ويتكلف النهوض، ليحقق مكانة "العلو" التي وعده الله بها.

تعبير آخر عن بصائر هذه السنة العظيمة

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩﴾

حين تشتد عليك العواصف، وتترك الهزيمة في نفسك أثرًا، تأتيك هذه الآية كنداء من السماء، تحمل إليك وصفة العزة، وتخط لك طريق المجد والعُلا، في (6) بصائر تضيء لك الدرب، وتنفض عنك غبار اليأس:

بَصِيرَة ١

لا تسمح لروحك أن تنكسر!

قد تباغتك المصائب، فهذه طبيعة الحياة وتقلباتها. لكن صوت الحق يناديك: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾، فلا تستسلم لضعف الروح، ولا تقبل بالهوان، فالمؤمن قد يكبو، ولكنه ينهض وعزيمته أشد، وإصراره أقوى.

بَصِيرَة ٢

لا تدع الحزن يسيطر عليك!

فالحزن على الفقد أمر طبيعي، لكن المؤمن لا يغرق في الأحزان، ولا يتركها تعيق تقدمه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

بَصِيرَة ٣

تذكّر من أنت حقًّا... أنت الأقوى والأعلى شأناً!

فالإيمان يمنحك القوة والعزيمة لمواجهة التحديات وتحقيق النصر في النهاية ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾.

بَصِيرَة ٤

استَعِدْ زمام الأمور!

تعلَّم من أخطائك، تخلص من نقاط ضعفك، والتزم بمبادئ الإيمان لتصبح أقوى من أي وقتٍ مضى ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾.

بَصِيرَة ٥

ارتشف من نبع المواساة الأعظم

في آيات القرآن الكريم، وكلام الودود الرحيم أعظمُ التسلية وألطف التخفيف على المنكوبين، والمصابين في أنفسهم أو أموالهم أو أهليهم.

بَصِيرَة ٦

اجعل الإيمان ترياقك الدائم

﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ تبصرنا بأن الإيمان أنجعُ ترياق لليأس، وأعظمُ علاج للوهن، وأكبرُ محفِّزٍ لاستئناف المسار، وللنهوض بعد الانكسار.

السنة الثالثة

حين يمسُّكم القرح، فإن في الألم جبرًا:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: 140]

تبصرنا بأن الجراحَ والنكباتِ مشتركةٌ بين المسلم والكافر، والمظلوم والظالم، فالابتلاء طبيعة الحياة، لكن تأملْ لطف الله ﷻ في كلمة ﴿مسَّ﴾ فهي تصور لك أن الابتلاء -مهما عظم- مسٌّ عابرٌ، واختبارٌ للقلوب يوشك أن ينقضي، ويظهر من خلاله المفلح والخاسر، وفي رحاب هذه الآية، تتجلى لنا (7) بصائر هادية شافية:

بصيرة ١: رِفقُ كلمة ﴿يَمْسَسْكُمْ﴾

تصور هذه الكلمة بجمالٍ ظاهرٍ أن المصائب عندما تنزل بالإنسان، يكون لها تأثيرٌ محدود مثل تأثير المس، وهو وقوع اليد على جسمٍ آخر بصورةٍ سريعة، وقد تكون عميقة، لكنها أبداً لن تكون دائمة. فحتى لو طال ليل الابتلاء، وامتدَّ أمله كالسجن والتعذيب، فإن فجر الموت يوشك أن يقطع حبال أمله، لينتقل المؤمن بعدها إلى نعيم مقيم.

بصيرة ٢: الجراح والألم.. سنة الحياة، فالمصائب لا تفرق بين مؤمنٍ وكافر

ولكن في ميدان ردود الأفعال يتجلى الفارق العظيم بين قلبٍ عامر بالإيمان يستقبل الألم بالصبر والرضا، وقلبٍ خواء يستقبله بالجزع والسخط. فالألم واحد، لكن الاستقبال يجعله إما رفعةً في الدرجات أو دركةً في الهوان.

بصيرة ٣: بوارق أملٍ في قلب الألم: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾

ليست مجرد مواساة عابرة، بل هي بوارق أمل وقوى مثبتات. إنها تذكير دائم من الله ﷻ لك بأن مسّ القرح ليس نهاية الطريق، بل هو بداية مرحلة جديدة من الصبر والتقوى، وتطهير للنفس، وتهيئة للروح. فكن بالله قويًا، وفي وعده واثقًا، وتعلَّم من هذه التجربة لتنهض من جرحك و أنت أشد عزمًا و أكثر صلابة.

بَصِيرَة ٤

﴿قَرْحٌ﴾ و﴿قُرْحٌ﴾: قراءتان توضحان مشهد الألم الكامل

ولنغُصْ في بحر الكلمة القرآنية لنرى كيف تصف الآية المشهد من زاويتين عبر قراءتين متواترتين:

١

فتح القاف ﴿قَرْحٌ﴾

وهي قراءة الجمهور، تصور لك الجرح المادي المؤلم في الجسد؛ كالكسر والقتل، لتشعر بألم المعركة الحسي.

٢

بضم القاف ﴿قُرْحٌ﴾

وهي قراءة شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر، لتضيف إلى المشهد الألم النفسي والمعنوي الذي يصاحب الجراح، ومكان ذلك الوجع من الجسد والروح معاً، فتكتمل صورة الألم بكل أبعاده.

بَصِيرَة ٥

سيد الخلق ﷺ يمسّه القرح:

وهل هناك أصدق من الواقع ليجسِّد هذا المعنى؟ ينقل لنا سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مشهداً يرتجف له القلب من أُحد، فيقول: "جُرِحَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ -يعني بعض أسنانه-، وَهُشِمَتِ البَيْضَةُ -أي الدرع- عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ تَغْسِلُ الدَّمَ، وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْكُبُ عَلَيْهَا بِالْمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ المَاءَ لاَ يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةً مِنْ حَصِيرٍ، فَأَحْرَقَتْهَا حَتَّى صَارَتْ رَمَادًا، ثُمَّ أَلْصَقَتْهَا بِالجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ". «البخاري:2911».

توقف هنا وتأمل! إذا كان هذا هو حال سيد الخلق وحبيب الحق ﷺ، يمسُّه القرح بهذا العمق، فلماذا تجزع أنت إن نالك شيء من ذلك؟ وفي صبره لك أعظم أسوة.

بَصِيرَة ٦

يومٌ بيوم بدر!

لم يكن هذا القرح خاصًّا بالمؤمنين وحدهم، بل ذاق مرارته أعداؤهم أيضاً، ويصور الْبَرَاء بْنُ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا القرح المشترك الذي يمس المسلمين والكفار، فيقول عن جيش المشركين في أُحُد: فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِئَةً: سَبْعِينَ أَسِيرًا، وَسَبْعِينَ قَتِيلًا.. حتى قَالَ أبو سفيان قائد قوات المشركين: «يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ». «البخاري: 3986».

فكما تألمتم، تألموا، وكما جُرحتم، جُرحوا.

بَصِيرَة ٧

ثمراتٌ يانعة من شجرة الابتلاء:

ومن رحم هذه السنة الإلهية، تُقطف ثلاث ثمرات عظيمة ودروس خالدة:

١ - أن الهزيمة العسكرية المؤقتة قد تحل بصفوف المؤمنين - ولو كان فيهم أشرف الخلق - بسبب خللٍ بشري أو معصية وقعت من بعضهم.

٢ - أن الهزيمة في معركة لا تعني أبداً هزيمة المبدأ أو سقوط الراية. فالمبادئ الربانية أعظم وأخلد من نتائج الجولات الأرضية.

٣ - أن هزائم اليوم الظاهرة ودماء الصالحين المسفوكة، ليست سطور النهاية، بل هي ثمنُ التمحيص، وكيرُ الصقل الذي تُسبَكُ فيه النفوسُ لتكون أهلاً لنصر الله عَزَّ وَجَلَّ في جولات الحق القادمة.

السنة الرابعة

المداولة بين الأحوال المتعددة هي سنة الحياة الكبرى

ففي خضمّ الألم وقسوة الجراح، وبعد أن ذاق المؤمنون طعم الانكسار كما ذاق عدوهم طعم النصر، تأتي هذه الآية، لا لتمسح الدمع فحسب، بل لتغسل القلوب بحقيقة كبرى، وتسكب في الأرواح بصيرة أبدية، فيقول جلّ مجده: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 140]

وفيها (4) بصائر:

بصيرة ١

التَّقَلُّبِ في لغة القرآن

﴿وَتِلْكَ﴾ تأمّل كيف استهل الله ﷻ بيانه بالواو، كأنها تربط جرح الهزيمة بحكمة القدر، وتصل السبب بالنتيجة؛، فبيَّن الله ﷻ أن مس القرح للفريقين سببه كبرى السنن الحياتية، وهي: مداولة الأيام، هنا ليست مجرد تعاقبٍ للشمس والقمر، بل هي سجلات الدهر، وصفحات الحياة بما تحمله من أحوالٍ جسام: من نصرٍ وهزيمة، وقوة وضعف، وغنى وفقر، و﴿نُدَاوِلُهَا﴾ أي: نَنقُلُها مِنْ وَاحِدٍ إِلَى آخَرَ، فلَا يَدُومُ مَسَارُّهَا وَلَا مَضَارُّهَا على واحدٍ أو على دولة أو على أمة، وذلك كما قيل:

فيوم علينا ويوم لنا ويومًا نُساءُ ويومًا نُسَرّ

بصيرة ٢

تداول الأيام سُنّةٌ إلهيةٌ تُبطِلُ غُرورَ الطُّغاة

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾ فالأحوال تتغير، والنصر والهزيمة يتعاقبان على الأمم، فهذه السنة تكذب أسطورة "نهاية التاريخ" التي أشاعها المغرورون، وكتبها فرانسيس فوكوياما مغترًا بأن حضارة الولايات المتحدة هي نهاية التاريخ، مع أنها الآن تركع بصورة فاضحة أمام التحدي الصيني، ويخاف المتكبرون فيها من طفلٍ فلسطيني.

بَصِيرَة ٣

الغالب أن يكون سبب المداولة سببًا ماديًّا محضًا

فيفوزُ مَنْ أعد الأسباب المناسبة للنصر، فالْمُدَاوَلَةُ مَنُوطَةٌ بِالْأَعْمَالِ الَّتِي تُفْضِي إِلَيْهَا كَالِاجْتِمَاعِ، وَالثَّبَاتِ، وَصِحَّةِ النَّظَرِ، وَقُوَّةِ الْعَزِيمَةِ، وَأَخْذِ الْأُهْبَةِ، وَإِعْدَادِ مَا يُسْتَطَاعُ مِنَ الْقُوَّةِ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَقُومُوا بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ وَتُحْكِمُوهَا أَتَمَّ الْإِحْكَامِ. «تفسير المنار 4/ 122»، وقد يقوم المسلمون بالإعداد المادي والإعداد الإيماني ثم قد يحدث انكسارٌ لحكمة إلهية، وهذا يقتضي:

١

الاستعداد والعمل.. مفتاح النجاح، ونتيجة الرجاء والأمل، فالأيام لا تتغير إلا بفعل الأسباب. فاجتهد، وثابر، وأحسن التدبير وصابر، تكن من المنتصرين.

٢

لا تيأس فمقاليدُ الأمر بيد الله ﷻ: فالأيام دولٌ تجري بقَدَر، والله ﷻ قادر على تغيير الأحوال في لمح البصر. فاصبر واحتسب، وثق بأن الله معك ولن يضيعك.

٣

لا تفهم الآية خطأ، فهي نداءٌ للصانعين لا الخاملين: إن قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ ليست دعوةً للكسل والاستسلام، بل هي أساس للعمل بنظام، فكن ممن يصنعون الأيام بإذن ربهم، ولا تكن من الذين تستهلكهم الأيام وهم غافلون.

بَصِيرَة ٤

بَلْسَمٌ شافٍ لقلوب الحائرين

هذه الآية تجيب عن أسئلة الحائرين الصالحين، والملحدين الذين يتساءلون عن الحكمة من وجود الشر، وعدم المعاقبة العاجلة للظالمين، فانظر بلاغة الآية في الإجابة على هذا السؤال الكبير.

جسر الاتصال

هنا يشرق في العقل سؤالٌ جديد: ما الحكمة من وجود هذه السنة الكبيرة (تداول الأيام)؟

الجواب: هنا تأتي:

السنة الخامسة: استيعاب الحِكَمِ الستِّ العظيمةِ من سنة المداولة يبني النفسَ القويةَ المجاهدةَ

يكشف لنا القرآن عن الثمرات اليانعة التي تُجنى من شجرة الابتلاء. إنها ستُّ حكمٍ ربانية، كل واحدة منها تبني في النفس صرحًا من اليقين، وتصقل في الروح جوهرًا من القوة، حتى تصبح نفسًا مجاهدة، تليق بحمل الأمانة، وهذه الحِكَم هي:

حكمة [١]: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: 140]

أي: جعل الله ﷻ المداولة سنة دائمة ليُفرز المؤمنون حقًّا عن المؤمنين ادعاءً، وليُعلم الإيمانُ الحق الذي يرسخ كالجبال أمام العواصف، من إيمان الزيف الذي تذروه أول نسمة امتحان، فالإيمان الحقيقي لا يتزعزع أمام المحن والابتلاءات، وهنا تشرق بصيرتان:

بصيرة ١: سرُّ التكليف في غياب النصر الدائم

يُنبهنا الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى حكمة بالغة: أن راية النصر لو لم تُغادر سماء المؤمنين لحظة، «لَحَصَلَ الْعِلْمُ الِاضْطِرَارِيُّ بِأَنَّ الْإِيمَانَ حَقٌّ، وَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ، فيبطلُ التَّكْلِيفُ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ.» تفسير الرازي 9/ 372»، والمعنى: وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ لِيتم الابتلاء الذي هو أساس الخلق، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الذين آمنوا علمًا يظهر أثره في الوجود.

بَصِيرَة ٢

قد يسأل سائل: وكيف يقول الله عزوجل: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ وهو العليم بما كان وما سيكون؟

الجواب:

هذا أسلوبٌ عربي معروف، أي: ليعلم علمَ وقوعٍ وظهورٍ كَمَا كَانَ يَعْلَمُ علم ما سَيَقَعُ من قبل، وعلم الوقوع هو الذي تقوم به الحجة على الناس، فالْمُجَازَاةُ تَقَعُ عَلَى الْوَاقِعِ دُونَ الْمَعْلُومِ الَّذِي لَمْ يُوجَدْ، فعلمه السابق من علم الغيب بالنسبة لنا، ووقوع المعلوم من علم الشهادة، أي ليعلم الله علمَ شهادة ووقوع بالنسبة لنا تصديقًا لما كان يعلمه غيبًا بالنسبة لنا، وهذا كقول إِيَاسِ بْنِ قَبِيصَةَ الطَّائِيِّ:

وَ أَقْبَلْتُ والخَطِّيُّ يخْطِر بَيننا ... لِأَعْلَمَ مَنْ جبَانُهَا مِنْ شُجَاعِهَا

أَيْ: لِيَظْهَرَ الْجَبَانُ وَالشُّجَاعُ (ينظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص 153)، فَأَرَادَ -تَعَالَى- أَنْ يُرْشِدَنَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ إِلَى أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَكُونُ عِلْمًا وَالْإِيمَانَ لَا يَكُونُ إِيمَانًا إِلَّا إِذَا صَدَّقَهُمَا الْعَمَلُ وَظَهَرَ أَثَرُهُمَا بِالْفِعْلِ.

«تفسير المنار4/ 123».

حكمة [٢]

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾ [آل عمران: 140]

أي: ونداول الأيام ليكرم الله ﷻ قومًا بِالشَّهَادَةِ في سبيله، لأن الشهادة تقديمٌ للنفس في سبيل الحق، فبالشهادة تستعاد الحقوق، وتُبنى البلدان ويحرر الضعفاء، ويندحر الظلم، وفيها بصيرتان:

بَصِيرَة ١

الشهيد شاهدٌ خالد

الشهيد فعيل بمعنى فاعل، فهو شاهدٌ يوم القيامة مع النبيين والصديقين على لزوم الحق، ولو كان الثمنُ حياته في الدنيا، فَإِنَّ كَوْنَهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ مَنْصِبٌ رفيعٌ وَدَرَجَةٌ عَالِيَةٌ. «تفسير الرازي9/ 374».

بَصِيرَة ٢

جمال تعبير "الاتخاذ" ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾

يُظهِرُ ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ جمال هذا التعبير في تفسيره (التحرير والتنوير: 104/4)، فعبّر عن تقدير الشهادة لهم بالاتّخاذ؛ لأنّ الشهادة فضيلة من الله، واقتراب من رضوانه، وهو تعبير عجيب عن معنى عميق، فالشهداء مختارون يختارهم الله من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه- سبحانه- فما هي رزيةٌ إذن ولا خسارة أن يُستشهد في سبيل الله من يُستشهد. إنما هو اختيارٌ وانتقاء، وتكريم واختصاصٌ بقربه.

حكمة [٣]

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾

تداول الأيام وسيلةٌ تفضح الظالمين، فإذا كان الله عزوجل لا يحب الظالمين فإن العالمين يبغضونهم، وهنا تظهر قيمة بذل المؤمن نفسه وجهده عندما يجاهد الظالمين الذين لا يحبهم الله عَزَّوَجَلَّ، ويكرههم الخلق.

بَصِيرَة

الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فيدخل فيه معنيان:

المعنى الأول

الكفر، وهنا يسأل سائل: إذا كان الله لا يحب الظالمين وهم الكافرون، فلماذا يمكنهم؟

الجواب: لأنَّهُ تَعَالَى يُديل الْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أو يمكنهم لهذه الحِكَم، لَا لِأَنَّهُ يُحِبُّهُمْ. «تفسير الرازي 9/ 374»، وفي «البخاري: 4477» عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ. فالكفر هو الظلم.

المعنى الثاني

اعتداء الإنسان على نفسه أو على المخلوقين سواء أكان من المسلمين أم من الكفار، فيدخل فيه أن يشارك المسلم المتخاذل في الاعتداء على المستضعفين بسبب عدم دفاعه عنهم مع قدرته، فكيف بالمشارك في الاعتداء عليهم؟ بخلاف الشهداء الذين بذلوا أنفسهم في سبيل الحق، ولذا روى الطبري عن ابن إسحاق رحمه الله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ أي: المنافقين الذي يُظهرون بألسنتهم الطاعة، وقلوبهم مصرَّةٌ على المعصية. (تفسير الطبري 244/7).

حكمة (٤)

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: 141]

أي: ليُطَهِّرَهم الله عَزَّوَجَلَّ وينقيَهم ويخلِّصهم من الآفات والزلات التي وقعوا فيها، من خلال الصبر على ما يصيبهم من همٍّ أو كدر، وفيها بصيرتان:

بَصِيرَة ١

هذه الكلمة ﴿يمَحِّصُ﴾ من مَحَّصَ الله الشَّيْءَ تَمْحِيصًا: إذا خَلَّصَهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ.

«تفسير المنار: 124/4»، وهي كلمة قرآنية فريدة، ترسم صورة حية لعملية التخليص من الشوائب. فكما أن النار هي التي تمحص الذهب، فتُخرج زيفه وخبثه ليبقى جوهره النقي لامعًا، كذلك تفعل الشدائد بقلوب المؤمنين.

بَصِيرَة ٢

التمحيص درجةٌ تأتي بعد الفرز والتمييز

وهي عمليةٌ تتم داخل النفس، فيحاسب الإنسان نفسَه، ويُخرِجُ أمراضَها ليتركها نقيةً قائمةً بالحق وللحق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حكمة الله وسنَّتُه في رسلِه و أتباعِهم جرت بأن يدالوا مرةً ويُدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة. فإنهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المسلمون وغيرهم، ولم يُمَيَّز الصادق من غيره. ولو انتُصِر عليهم دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة. فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به، ممن يتبعهم لمجرد انتصارهم وكون الدولة لهم. «زاد المعاد: 197/3».

حكمة [٥]

﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤١﴾

وكلمة ﴿يَمْحَقَ﴾ ترسم صورة الإزالة البطيئة، وتصوّرُ الواقع بصورة قوية أي: ويُذهب الكافرين إذهابًا يُنقِصُ قوتهم إما باستئصالهم، وإما بإضعاف قوتهم، فالمَحْقُ هو الاستئصال والإزالة الجزئية أو الكلية.

بَصِيرَة

تداول الأيام تمحيصٌ ومحقٌ للكافرين

ف"جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَسَّ الْقَرْحِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارَ فَاعِلًا فِعْلًا وَاحِدًا: هُوَ فَضِيلَةٌ فِي جَانِبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَزِيَّةٌ فِي جَانِبِ الْكَافِرِينَ". «التحرير والتنوير: 104/4».

حكمة [٦]

مَعْرِفَةِ ثَمَنِ الجَنَّةِ

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ تبصرنا أن من حكمة تداول الأيام ظهورُ مَنْ يستحق دخول الجنة، وهو الذي يثبتُ على المبادئ ويضحي في سبيلها، ويلتزم بمقتضيات الطاعة المطلوبة، فيظهر المجاهد، والصابر على الجهاد، وفيها 6 بصائر:

بَصِيرَة ١

السؤال يستفز السامعين، فهو إنكاريٌّ تبكيتيٌّ،

فيصححُ القرآن التصورَ، ويبين أن طريق الجنة محفوفٌ بالمكاره، فلا بد فيه من بذل الجهد، والصبر، وحينها يبادر الطامحون إلى الجمع بين الجهاد والصبر.

بَصِيرَة ٢

﴿لَمَّا﴾ حَرْفُ نَفْيٍ أُخْتُ «لَمْ» لتوقع ثبوت ما بعدها،

والمعنى: أَمْ حَسِبْتُمْ أن تدخلوا الجنة دون أن يعلم الله علم إظهارٍ يحاسبكم به: مَن التزم صفتي الجهاد، والصبر، ويُتوقع بعد السؤال أن يتصفوا بهاتين الصفتين، قال الزَّمَخْشَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَزَّلَ نَفْيَ الْعِلْمِ مَنْزِلَةَ نَفْيِ مُتَعَلِّقِهِ؛ لِأَنَّهُ مُنْتَفٍ بِانْتِفَائِهِ. يَقُولُ الرَّجُلُ: مَا عَلِمَ اللهُ فِي فُلَانٍ خَيْرًا، يُرِيدُ مَا فِيهِ خَيْرٌ حَتَّى يَعْلَمَهُ». (الكشاف: 420/1).

بَصِيرَة ٣

اتصف المهاجرون بالصبر والجهاد، وكذلك الأنصار

ولكن السؤال هنا يستفزهم ليستمروا على هاتين الصفتين العظيمتين، فاختبار الحياة ممتدٌ إلى الموت، والاختبار بعد العطاء أشدُّ منه قبله.

بَصِيرَة ٤

قال أبو حيان رحمه الله:

"هذه الآية وما بعدها عتبٌ شديدٌ لمن وقعت منهم الهفوات يوم أحد. واستفهم على سبيل الإنكار أنْ يظنَّ أحد أنْ يدخل الجنة، وهو مخلٌّ بما افتُرِضَ عليه من الجهاد والصبر". (البحر المحيط: 51/3).

بَصِيرَة ٥

﴿جَٰهَدُواْ﴾

الجهاد: بذل الجهد مع احتِمَال الْمَشَـقَّةِ في مُكَافَحَةِ الشَّدَائِدِ لإقامة الحقوق في جميع شؤون الحياة، وجعل الله ﷻ السعادةَ في الدنيا والآخرة بترك الراحة والمشتهيات، ولذلك قال علماؤنا: «لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ» (مسلم: 175)، ومن أراد السعادة هجر الوسادة، وسئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَتَى يَجِدُ العَبْدُ طَعْمَ الرَّاحَةِ؟ قَالَ: عِنْدَ أَوَّلِ قَدمٍ يَضعُهَا في الجَنَّة». (طبقات الحنابلة 290/2).

بَصِيرَة ٦

الصبر مفتاح الشجاعة

لا بد من الجمع بين الجهاد والصبر، فسبب هزيمة يوم أحد ضعفُ صبر بعض الرماة، وقيل لبعضهم ما الشَّجَاعَةُ؟ فَقَالَ: «صَبْرُ سَاعَةٍ» (الصبر والثواب عليه، ص 44)، وَقَالَ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ الْكِلَابِيُّ، يَعْتَذِرُ عَنِ انْتِصَارِ أَعْدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ:

سَقَيْنَاهُمُ كَأْسًا سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا ... وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبَرَا

(كذا في شرح حماسة أبي تمام للفارسي 125/2، وهو كذلك للنابغة الجعدي في ديوانه، ص 88).

جسر الاتصال

عرفنا أن القسم الثاني من المحور السادس قد بصَّرنا بالسنن المتعلقة بمعالجة الآثار المترتبة على الهزيمة العسكرية [آل عمران 139-142]، ومن أعظم المظاهر التي قد توجد الهزيمة قتل القيادات التي في مقدمة الصفوف ولا تختبئ في القصور، فهل عالجت السورة هذا الموضوع؟

الجواب: هنا يأتي:

القسم الثالث

يحدثنا هذا القِسم عن السنن التي تعالج وقوع قتل القيادات والأفراد في الصفوف المؤمنة، وبيَّن الله ﷻ فيها كيف يستوعب الصف المؤمن النكبات التي تحل بهم أثناء المواجهات [١٤٣-١٤٨]:

السنة الأولى

مِنْ وهج الشِّعَارِ إلى مَحَكِّ الحَقِيقَة

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ...﴾ [آل عمران: ١٤٣].

السنة الثانية

استيعاب الصدمة عند قتل القادة:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ ...﴾ [آل عمران: ١٤٤].

السنة الثالثة

الأجل المكتوب: سر الثبات في وجه الخطوب

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ [آل عمران: ١٤٥].

السنة الرابعة

استيعاب وقوع المصائب المتتابعة على الأمة

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ...﴾ [آل عمران: ١٤٦].

السنة الخامسة

تربية الربيين الذين يخلفون النبيين، ويحافظون على صلاح العالمين، وإعدادهم للتعامل مع المصائب ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ...﴾ [آل عمران: ١٤٦].

السنة السادسة

تكثير الأتباع قدر الإمكان

﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ...﴾ [آل عمران: ١٤٦].

السنة السابعة

تطبيق الخطوات الخمس للاستيعاب النفسي للمصائب الو اقعة ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

السنة الثامنة

الدعاء الصادق قبل بذل الأسباب وبعد بذلها، يستنزل النجاح المحقق المبين، وهو زاد المجاهدين، وسلاح الفاتحين ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا...﴾ [آل عمران: ١٤٧].

السنة التاسعة

اجتماع هذه السنن والعمل بها هو مفتاح النتيجة الحتمية: وهي اكتساب الثواب سواء تخلَّله الفتح الدنيوي أم لا ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٨].

آيات هذا القسم:

﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن
قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي
ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ
مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا
وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ
لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا
وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

السنة الأولى

مِنْ وهج الشّعَارِ إلى مَحَكِّ الحَقِيقَة

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾:

فالانتصارات تصنع بالثبات في المواجهات، وتحقيق البطولات لا بمجرد الشعارات، وفيها 9 بصائر تهز الوجدان:

بَصِيرَة ١ — شرفُ الأمنية: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾

تمني الموت دفاعًا عن الحق ليس ضعفًا بل هو قمة الشوق إلى حياةٍ أسمى، إنه شرفٌ ما بعده شرف، تمنّاه خير الخلق ﷺ، والصالحون من بعده، قَالَ ﷺ: «وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ»، وَقَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ» (البخاري: 36).

بَصِيرَة ٢ — لحظة الاختبار: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

بصرنا بأن الحياة ميدان اختبار، فإذا رُفِعت الشعارات، فلا بد من الاختبار للنظر في صدق أصحابها وكذبهم؛ إذ يتغنى البعض بشعارات الثبات في وجه الموت، فتصورلنا الآية الانتقال من التمني إلى المواجهة، فالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ هي الْفَصِيحَةِ تفصح عن كلام محذوف، والتقدير: تتمنون الموت دفاعًا عن الحق، فقد أُجبتم إلى ما تمنيتم، فهاهو الموت يأتيكم و أنتم ترونه، فماذا أنتم فاعلون؟ أين الصلابة التي تغنيتم بها؟

بَصِيرَة ٣ — وزن الكلمة ووزن الحقيقة

في الآية تصويرٌ عجيبٌ لبيان عظمة الاختبار لما يزعمه الأبرار ليختبروا وزن الكلمة التي يقولها اللسان، ووزن الحقيقة التي يواجهها الإنسان في الميدان، فالأمة المسلمة التي تريد قيادة البشرية الحائرة المثخنة بجراح الظلم والآلام لا بد أن تصدق في الكلام.

بَصِيرَة ٤

كشف صفحة من التاريخ: تزيح الآية ستارًا عن قصة و اقعية

يرويها لنا الإمام الطبري عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن رجالاً قومًا من أصحاب رسول الله ﷺ ممن لم يشهد بدرًا، كانوا يتمنون قبل أُحُدٍ يومًا مثل يوم بدر، فيُروا الله من أنفسهم خيرًا، وينالوا من الأجر مثل ما نال أهلُ بدر. فلما كان يوم أحدٍ فرّ بعضهم، وصبرَ بعضهم. (تفسير الطبري: 7/248).

بَصِيرَة ٥

هذه الآية المباركة تكشف أربع مراتب للنفس الإنسانية

المرتبة [١] نفسٌ خائرة

ألا ترجو النفس معالي الأمور، بل تمتنع من مجرد الرجاء كرهًا لتبعاتها، وخوفًا من الموت، فقوله: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ يشير إلى أن هناك من لا يتمنى الموت كرهًا له، وخوفًا منه.

المرتبة [٢] نفسٌ قائلة

أن ترجو النفس معالي الأمور، ولكنها تتمنى نصرة الحق بقولها فحسب.

المرتبة [٣] نفسٌ مترددة

أن ترجو النفس معالي الأمور، وتتمنى نصرة الحق ثم تتراجع عند المواجهة، فهذا يشير إليه قوله: ﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣﴾ أي فماذا فعلتم؟ وأخبرنا الله ﷻ أن منهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ من ثبت، ومنهم من حدث له الفشل.

المرتبة [٤] نفسٌ ثابتة

أن ترجو النفس معالي الأمور، وتتمنى الموت نصرة للحق، وتثبت مهما كانت الآلام.

بصيرة ٦

طلحة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أنموذج الثبات

وخير مثال للمرتبة الرابعة هو طلحة بن عبيد الله رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، فقد ثبت في مواجهة كتيبةٍ من المشركين في أُحدٍ دفاعًا عن الرسول الأمين ﷺ حتى قُطِعَتْ أصابعه، فقال: حسِّ -وهي كلمة يقولها من سال دمه، وأراد تخثيره بشيء حار- فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون»،

(النسائي: 3149، وجود إسناده ابن حجر في فتح الباري 7/360).

بصيرة ٧

هل الآية تخبرنا بأن المسلمين يتمنون الموت لأنهم لا يريدون الحياة؟

الجواب:

المسلمون يتمنون الموت ليبنوا الحياة لا ليهدموها، ولينصروا المستضعفين، وينشروا الرحمة للعالمين، فقد قال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ». «البخاري: 2966».

بصيرة ٨

مدحٌ في ثوب العتاب

﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ﴾ قد يبدو العتاب في الآية قاسيًا، ولكن في طياته مدحٌ لطيف، فتمنّيهم الموت يعني أنهم قد تجاوزوا أخطر أمراض الهزيمة، وهو الوهن، فقد قال النبي ﷺ عنه: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا». فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ». فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ». «أبو داود: 4297، وحسنه الأرناؤوط»، فالآية تمدح فيهم هذا الأصل النبيل، ثم تعاتب من ضعف منهم في لحظة الاختبار.

بصيرة ٩

ظهر التمني في الآية متعلقًا بأمرٍ تحقق

فهذا يُضعف قول من قال: إن التمني للمستحيل، والرجاء لغيره، فالذي يظهر أن التمني يكون لأمرٍ مستحيل أو شاقٍ لكنه يتحقق، والرجاء لخير يتحقق ابتداء، أو بعد الأمر الشاق.

جسر الاتصال

عرفنا أن القسم الثالث من المحور السادس يحدثنا عن السنن التي تعالج وقوع قتل القيادات والأفراد في الصفوف المؤمنة، وبيَّن الله فيها كيف يستوعب الصف المؤمن النكبات التي تحل بهم أثناء المواجهات [143-148]؛ وأن السنة الأولى في الآية [143] تبصرنا بأن الانتصارات تصنع بالثبات في المواجهات لا بمجرد الشعارات، وهنا نسأل: هل قتل الأفراد أو القيادات يخل بالثبات، أو يكون مبررًا للتراجع؟

الجواب: هنا تأتي:

السنة الثانية: استيعاب الصدمة عند قتل القادة

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ١٤٤﴾:

تبصرنا بأن من سنن النصر: استيعاب صدمة وقوع القتل أو الموت لأعظم قيادات العالم وهو النبي ﷺ، فكيف بغيره؟ فلا يعني هذا الحدثُ الضخم عدم إكمال المعركة، لأن: العقائدَ قبل القائد، والمبادئَ قبل الأشخاص، والإيمان قبل الأبدان، وفيها 17 بصيرة:

بصيرة ١: شجاعة القائد الأنموذج

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ﴾

تبصرنا بأن أبرز من أظهر الثبات في المواجهات هو الرسول ﷺ، ويظهر ذلك عندما نراجع الملابسات التي نزلت فيها هذه الآية، فقد ثبت النبي ﷺ حتى أشاع أولياء الشيطان أنه قُتِل. سبحان الله! هذه الإشاعة أظهرت خصلة من أعظم خصال القيادة النبوية، وهي الشجاعة والثبات.

بَصِيرَة ٢

القائد بشرٌ فهل بعد رحيله ينهار البنيان؟!

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾

يضعنا وجود هذه الآية في سياق معركة أُحد أمام حقيقةٍ مُزلزلة، وهي أنه حتى أعظم القادة يظلون بشرًا، فالنبي الخاتم ﷺ بشرٌ يموت. فماذا بعد رحيل القائد؟ هل ينهار البنيان؟ هل يتلاشى الإيمان؟ كلا! فالرسول قد يموت، ولكن الرسالة باقية، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فعظِّموا الرسول، والرسل، ولكن لا تنسوا أن التعظيم الأكبر يكون للمرسِل سبحانه، وضرب الله عَزَّوَجَلَّ مثلًا بأعظم الأنبياء ﷺ ليكون الدرس أبلغ وأعمق.

بَصِيرَة ٣

حكمة التربية على الفطام

فقد تسأل: ما الحكمة من هذا التعبير العجيب ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ والنبي ﷺ لا يزال حيًّا بين أظهرهم؟

الجواب: الحكمة تكمن في تربيةٍ إلهيةٍ لطيفة، قد تعلق المسلمون بالنبي ﷺ تعلقًا شديدًا لدرجة أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنكر موت النبي ﷺ، وعندما قرأ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الآية مع أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحفظها، إلا أنه سقطت قدماه فلم تحمله، فأراد الله عَزَّوَجَلَّ في وقت مبكر أن يفطم المسلمين عن التعلق الذي فيه غلو، و أنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية والنبي محمد ﷺ حَيٌّ ليومئ لهم أنه سيأتي يومٌ يموت فيه، فلا ينبغي أن يسيطر عليهم هول المفاجأة، بل ينبغي أن يثبتوا.

بَصِيرَة ٤

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾

فالعقائد قبل القائد، ولو كان أعظمَ العظماء، فيجب عند ذلك أن يموت الناس على ما مات عليه قائدهم، أي: فمحمد ﷺ كسائر رسله إلى خلقه الذين مضوْا قبله، وماتوا عند انقضاء مدة آجالهم أو قُتِلوا.

بَصِيرَة ٥

﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ تصور بشاعة الردة، وتحذر منها:

فكلمة ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾ تعني: رجعتم إلى الوراء، وَالْأَعْقَابُ: جَمْعُ عقب وَهُوَ مؤخَّر الرِّجلِ، أي انصرفتم إلى الخلف كأنكم انتكستم، وصرتم تمشون على الأعقاب لبشاعة الصورة، وذلك عندما تتركون الثبات على الإيمان الذي كان عليه نبيكم ﷺ.

بَصِيرَة ٦

﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾

تبصرنا بأن شياطين الإنس والجن يحاولون ربط الإسلام والمسلمين بقياداتهم لجعلهم يتناسون عقائدهم، فيصبح الحرص على القائد الإنسان لا على الإيمان، فذكر الله تعالى هنا أن البشر إلى فناء، والعقيدة إلى بقاء.

بَصِيرَة ٧

﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾

تبصرنا بأن التعلق دائمًا بالله الحي الذي لا يموت، لا بالحلول العسكرية ولا السياسية، ولا بالقيادات، حتى لو تبوأت أعظم مراتب العبودية وهي مرتبة النبوة، ومَن أعظمُ مِن خليل الحق وسيد الخلق ﷺ؟

بَصِيرَة ٨

موت القيادة لا تعني انتكاسة المبادئ

بل هو فخرٌ يدل على صدق ثبات هذه القيادات على الإيمان الحق.

بَصِيرَة ٩

﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾

تبصرنا بأن الردة إفسادٌ لحياة الإنسان، فهذا وعيدٌ شديدٌ أي: ومن يرتدد منكم عن دينه ويرجع كافرًا بعد إيمانه، أو من ينهزم في مكانٍ كان لا بد أن يثبت فيه ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ مهما كان هذا الشيء ولو قليلًا، والمعنى: فلن يوهِّن ذلك عزةَ الله ولا سلطانه، ولا يدخل بذلك نقصٌ في ملكه، لأنه في الأصل غير محتاج لكم، بل سيضر المنقلب نفسه.

بَصِيرَة ١٠

مدرسة الثبات المتمثلة في أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عظماء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم ينقلبوا، ومن حاول الشيطان أن يضلهم منهم رجعوا إلى الحق، فلما شُجَّ رأس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأدمى المجرمُ ابن قمئة وجهَه الشريف، وكسر عتبةُ بن أبي وقاص رَباعيته، و انتشرت شائعةٌ بين المسلمين: إن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد مات، جاء أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرجالٍ من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم، فقال: ما يُجلِسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. فقال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا، فموتوا على ما مات عليه. (سيرة ابن إسحاق: ص 330).

بَصِيرَة ١١

البشر إلى فناء، والعقيدة إلى بقاء

ومنهج الله عَزَّ وَجَلَّ للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس، فلا ينبغي أن يربط الدعاة صلاح الدعوة ببقائهم.

بَصِيرَة ١٢

الدعوة أقدم من الداعية

وهي أكبر من الداعية، و أبقى من الداعية، فدعاتها يجيئون ويذهبون، وتبقى هي على الأجيال والقرون، ويبقى أتباعها موصولين بمصدرها الأول، الذي أرسل بها الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو باق- سبحانه- يتوجه إليه المؤمنون.

بَصِيرَة ١٣

﴿وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

تبصرنا بأن الثبات شكرٌلله عزوجل، وتبصرنا بهذا الوعد الأكيد بعد الوعيد الشديد، فتبصرنا أن الثابت على دينه يشكر الله عَزَّ وَجَلَّ على أن ثبته، ويجهر بذلك، فهو أعظم الشاكرين أي: سيثيب الله عَزَّ وَجَلَّ من شكره على توفيقه بثباته على ما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إن هو مات أو قتل.

بَصِيرَة ١٤

يتعلق بالآية إظهار مكانةٍ عظيمةٍ لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فهو سيدُ الثابتين الشاكرين الذين حفظوا الدين، فروى البخاري (3667) موتَ النبي ﷺ عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: فَقَامَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: وَاللهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.. وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَبَّلَهُ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ. فَجَلَسَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَحَمِدَ اللهَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ. وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزمر: 30]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ ...﴾ [آل عمران: 144]، فقرأ الآية، فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ.

وروى الطبري في تفسيره (252/7) عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه، فكان عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمين الشاكرين، وأمين أحباء الله، وكان أشكرهم وأحبهم إلى الله.

بَصِيرَة ١٥

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾

تبصرنا بأن الْمَصَائِب الشَّخْصِيَّة لا تدل على أن الذي أصابته على حقٍّ أو على باطل، بل قد يُبْتَلَى صَاحِبُ الْحَقِّ بِالْمَصَائِبِ وَالرَّزَايَا، وقد يُبْتَلَى صَاحِبُ الْبَاطِلِ بِالنِّعَمِ وَالْعَطَايَا، كَمَا أَنَّ عَكْسَ ذَلِكَ جَائِزٌ وَوَاقِعٌ. «تفسير المنار» (4/ 133).

بَصِيرَة ١٦

مَعْرِفَةُ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ ليست وقفًا عَلَى وُجُودِ الْمُعَلِّمِ

بِحَيْثُ نَتْرُكُهُمَا بَعْدَ ذَهَابِهِ أَوْ مَوْتِهِ. «تفسير المنار» (4/ 133).

بَصِيرَة ١٧

قد يقول قائل: ورد أن النبي ﷺ لا يُقتَل، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: 67]
بل يموت كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزمر: 30] فلِمَ قال ﴿أَوۡ قُتِلَ﴾؟

الجواب من وجهين:

١

العصمة من الناس لا تعني دفعَ الأجل الذي حدده الله ﷻ للرجوع إليه سواء كان بالموت أو القتل، ولكن الله ﷻ يعصمه حتى يكمل تأدية ما أمره الله ﷻ به مما يحتاج إليه الناس.

٢

الموت المذكور في آية الزمر أعم من أن يكون موتًا معتادًا أو قتلًا، فلا تناقض، والصحيح أن النبي ﷺ نال رتبة الشهادة بسبب السمِّ الذي تناوله في خيبر، فمنع الله عزوجل أثره إلى قرب وفاته ﷺ.

قال ﷺ في مرض موته:

«مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ» «البخاري: 4428»،

فكان موته شهادةً، وتحقق فيه كلا الأمرين: الموت والشهادة التي هي نوعٌ من القتل.

جسر الاتصال

عرفنا أن السنة الثانية في الآية [144] تبصرنا بأن من سنن النصر: استيعاب صدمة وقوع القتل أو الموت لأعظم قيادات العالم وهو النبي ﷺ، فكيف بغيره؟ فلا يعني هذا الحدثُ الضخم عدم إكمال المعركة، لأن: العقائدَ قبل القائد، والمبادئَ قبل الأشخاص، والإيمان قبل الأبدان، فما السنة الثالثة؟

الجواب:

السنة الثالثة

الأجل المكتوب: سر الثبات في وجه الخطوب

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

تبصرنا بأن من سنن النصر: استيعاب أن الموت بيد الله ﷻ يقع في أجله المحدد سلفًا، سواءً نزل بنفسٍ كافرة أو مسلمة، وأن ذلك يقتضي النظر إلى العمل لا الخوف من نزول الأجل، وفيها 8 بصائر:

بَصِيرَة ١

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾

تبصرنا بأنك عندما تُحلل الأحداث لا تفزع، وتذكر أنها لا تخرج عن إحاطة الله ﷻ بالخلق، فكل نفسٍ لا يمكن أن تموت أو تُقتَل إلا بأمرين:

أولهما

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

والإِذْنُ هُوَ قَضَاءُ اللَّهِ وَقَدَرُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَحْدُثُ شَيْءٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ كما قال ابْنُ عَبَّاسٍ. (تفسير الرازي: 378/9)، فإذا مات رجلٌ صالحٌ بإذن الله ﷻ، فلماذا يفزع المؤمنون، ولماذا يُرجِفُ الكافرون؟

ثانيهما

﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾

أي: ما كان لنفسٍ أن تموت إلا حال كون موتها مكتوبًا في كتاب القَدَر، وحال كونه مُقَدَّرًا بأجلٍ محدد، فيبصرنا ذلك بضرورة مواصلة المواجهة مع العدو، وعدم التردد في مواجهته حذر الموت، فالأجل مكتوبٌ والقدر نافذ

"وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِحِفْظِ حَيَاتِهِ، إِلَّا فِي سَبِيلِ الله، فتعيَّن عَلَيْهِ فِي وَقْتِ الْجِهَادِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْحَقِيقَةِ وَهِيَ أَنَّ الْمَوْتَ بِالْأَجَلِ". «التحرير والتنوير» (114/4)، ويُنسب للشجعان منهم عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره:

أيُّ يوميَّ من الموتِ أفِرُّ... يومَ لا يُقدَرُ أم يوم قُدِرْ
يومَ لا يُقدَرُ لا أرهبُهُ ... ومنَ المقدورِ لا ينجو الحَذِرْ (العقد الفريد 96/1)

فما دام أجلُ رسول الله ﷺ لم يحضر، فالله ﷻ حافظه وناصره، وإن حان الأجل، فهل يليق بمن آمن به أن ينقلب على عقبيه؟!

بَصِيرَة ٢

﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾

تبصرنا بأن بذل الأسباب البشرية والشرعية لا يعني بالضرورة وجودَ النصر الدنيوي، فالحذر لا يدفع القدر:

و انظر بقلبك إلى سيد الخلق ﷺ في غزوة بدر، وقد أعدَّ للأمر عدته، وبذل كل ما في وسعه من أسباب، ثم تراه يرفع يديه إلى السماء يستغيث بربه ﷻ في استغاثة تهتزلها القلوب، فيا لروعة تلك العبودية الخاشعة، ويا لعظمة ذلك الإخبات والتضرع!

بَصِيرَة ٣

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾

تبصرنا بأن عقيدة الإيمان بالقدر تدفع إلى نبذ الخوف والجبن والتردد في مدافعة المجرمين، فإذا كان هناك كتابٌ قد حدَّد الآجال، فلِمَ الخوف والتردد والأوجال؟ و أين المبادرة إلى طاعة الكبير المتعال؟ و أين دَفْعُ المفسدين في البحر والبر بالأجساد والأموال؟

بَصِيرَة ٤

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾

تبصرنا بأن موت النفس لا يكون إلا في وقتها المحدد، وسيجد كلُ واحدٍ نتيجة ما يطلبه، والمعنى كما يقرر البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ أَقْدَمَ شَكَرْتُهُ ولم يضره الإقدام، ومن أحجمَ وهاب وخاف ذَمَمْتُهُ، ولم ينفعه الإحجام، ولا يؤخر في قدره». «نظم الدرر: 84/5»، وسيجد الإنسان عاقبة عمله للدنيا أو للآخرة.

بَصِيرَة ٥

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾

تبصرنا بأن هزيمة أُحُد ليست دليلًا على أن المسلمين ليسوا على حقٍّ، فالحق لا يتعلق بالانتصار في الدنيا، بل الانتصار فيها يقوم على القاعدة العامة التي تشمل المسلمين وغيرهم، فلِنَيْلِ ثَوَابِ الدُّنْيَا سُنَنٌ، وَلِنَيْلِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ سُنَنٌ، فَمَنْ سَارَ عَلَى سُنَنٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَصَلَ إِلَيْهَا. «تفسير المنار» (4/ 138)، فلما خالف بعض المسلمين أمر قائدهم ﷺ، وهرب بعضهم من المواجهة حدث الفشل، وهذه النتيجة طبيعية تحدث للمسلمين والكافرين.

بصيرة ٦

قيمة المرء في إرادته

﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾

تبصرنا بأن بناء المصير على الإرادة، وبأن قيمةَ الإنسانِ يحددها ما يريده:

والإرادة تقتضي التخطيط والعزم والقدرة على الفعل، لذا قال الناجحون: أردنا فقدرنا، لا قدرنا فأردنا، "فالْإِرَادَةُ تُصَغِّرُ الْكَبِيرَ، وَتُكَبِّرُ الصَّغِيرَ، وَتَرْفَعُ الْوَضِيعَ، وَتَضَعُ الرَّفِيعَ". «تفسير المنار» (4/ 140)، كما قال المقنع الكندي:

وما المرءُ إلا حيثُ يجعلُ نفسَه ..... ففي صالحِ الأعمالِ نفسَك فاجعلِ

بصيرة ٧

﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾

تبصرنا بأن شكر الله ﷻ على نعمة الإرادة يكون باستخدامها استخدامًا صحيحًا في اختيار ثواب الدنيا؛ ليكثر به ثواب الآخرة، لا في الاكتفاء بثواب الدنيا.

و أتى بنون العظمة ﴿وَسَنَجۡزِي﴾، ولم يبين نوع الجزاء ليُعَظِّم أفعالهم، ويُعَظِّم جزاءهم، فلا يمكن أن يتصوروا مقداره لضخامته.

بصيرة ٨

من أصحاب الإرادات الحقة القوية التي أحيت الأمة

وجعلتها وسيلة لنيل أرفع المراتب، الصحابي الجليل أنس بن النضر رضي الله عنه؛ فقد صدق اللهَ وثبت في معركة أُحُد، وقاتل بشجاعة حتى قُتل. فتلك هي الإرادة حينما تصدق، وذلك هو الشكر حينما يتجسد.

جسر الاتصال

عرفنا أن الآية [145] تبصرنا بالسنة الثالثة من سنن النصر، وهي: استيعاب أن الموت بيد الله ﷻ يقع في أجله المحدد سلفًا، سواءً نزل بنفسٍ كافرةٍ أو مسلمة، وأن ذلك يقتضي النظر إلى العمل لا الخوف من نزول الأجل، فهذا ما يتعلق بالموت، فكيف نصنع بالمصائب المتتابعة التي تحل على الطرف المسلم في المعركة؟

الجواب: هنا تأتي:

السنة الرابعة: استيعاب وقوع المصائب المتتابعة على الأمة

يبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾، وأهم هذه المصائب: ثلاث: قتل الأنبياء، وقتل كبار القيادات بعد الأنبياء، وتتابع الأزمات على البقية المؤمنة:

مصيبة [١]: قتل الأنبياء

ويبصرنا بذلك قراءة: ﴿قُتِلَ﴾ بما لم يسم فاعله في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُۥ﴾ وهي قراءة نافع و ابن كثير وأبي عمرو البصري ويعقوب، إن جعلنا نائب الفاعل هنا ضميرًا عائدًا على كلمة: ﴿نَّبِيٍّ﴾، ونقف في التلاوة عند كلمة: ﴿قُتِلَ﴾، والمعنى: وكَمْ من نبي قُتِل، فكلمة ﴿كأين﴾ تفتح أمام الخيال بابًا واسعًا لتكثير عدد الأنبياء الذين نالوا هذا الشرف، كأرمياء وَحَزْقِيَال وَأَشْعِيَاء، وغيرهم. (التحرير والتنوير: 117/4)، وتكون الجملة بعدها ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ مستقلة، وهي مبتدأ مؤخر ﴿رِبِّيُّونَ﴾، وخبر مقدم ﴿مَعَهُۥ﴾، والتقدير: ربيون كثير معه.

والمعنى الذي يتردد صداه في وجدان الأمة: حتى لو وصل الحال إلى أن يُقتَل النبي الذي يقود الأمة المسلمة فلا يعني أن ينقلب المؤمنون على أعقابهم، وألا يستوعبوا كيفية التعامل مع عدوهم بعده.

وطالما فاخَرَ الأماجد بالموت في مواطن العز، وفي هذا يقول السَّمَوْأَل بن عادياء:

وما ماتَ منَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أنفِهِ... ولا طُلَّ منّا حيثُ كان قتيلُ

تسيلُ على حدِّ الظُّباتِ نفوسُنا... وليس على غير الظُّباتِ تسيلُ (ديوان السموأل: ص91).

مصيبة [٢] قَتْلُ كثيرٍ من الربيين أتباع الأنبياء من القيادات وغيرهم

ويبصرنا بذلك قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ على قراءة ﴿قُتِلَ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله، مع وصلها بما بعدها وعدم الوقف عليها، أي: ومهما أرسل الله ﷻ من نبي قُتِل ربيون كثيرٌ حال كونهم معه.

مصيبة [٣] توالي الأزمات على أي نبي و أتباعه الربيين كحدوث جراحات أو هزائم أو حصار

ويبصرنا بهذا قراءة: ﴿قَـٰتَلَ﴾ بالبناء للفاعل في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي قراءة الباقين، أي: وكم من نبي قاتل المعتدين المجرمين، و اتخذ قرار المواجهة، وخاض غمار الصراع، ومعه أولئك الربيون الكثر، فماذا كانت النتيجة الحتمية للمعركة؟ أصابهم ما يصيب البشر من جراحات ونكبات وهزائم وحصار، ولكنَّ المعدن الأصيل يظهر عند الامتحان ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، كما قال الدكتور سعيد بن دحباج -وفقه الله-:

لله قومٌ قَدْ مَضَوا ما غَيَّرُوا ... بل ماجدٌ في الدَّربِ يتلو ماجدَا
الفردُ منهم أمَّةٌ في واحدٍ ... أو سَيِّدٌ في الفضلِ يَقْفُو سَيِّدا
ذلوا النُّفوسَ لذي الجلالِ، فأفلحوا ... وتبوَّؤوا عند الثُّريَّا المقعدَا
وتمحَّضوا للحقِّ حتى صارَ هُم ... وَهُمُ لَهُ صاروا الحمى والموردَا

جسر الاتصال

عرفنا أن الآية [146] تبصرنا بالسنة الرابعة ونصها: من سنن النصر استيعاب وقوع المصائب المتتابعة على الأمة، وأهمها: ثلاث: قتل الأنبياء، وقتل كبار القيادات بعد الأنبياء، وتتابع الأزمات على البقية المؤمنة، فكيف نضمن بقاء الدعوة إلى الخير في العالم، مع وجود هذه المصائب؟

الجواب: هنا تأتي:

السنة الخامسة: تربية الربيين الذين يخلفون النبيين، ويحافظون على صلاح العالمين، وإعدادهم للتعامل مع المصائب

ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ...﴿١٤٦﴾﴾

وفيها 4 بصائر نورانية:

بصيرة ١: نهوض الربيين مع نبيهم وبعده

فالمعنى: وكم من نبي اتخذ قرارًا خطيرًا بمواجهة المجرمين على قراءة ﴿قَٰتَلَ﴾، وربما آخر نال شرف الشهادة فـ﴿قُتِلَ﴾، وهي القراءة الأخرى، فالضمير يرجع إلى النبي، فنهض معه وبعده تلاميذ مميزون، وأصحابٌ متفردون، وهم الربيون، فمضوا على سبيله، وعرفوا كيف يتعاملون مع النكبات، وهذا هو المعنى الأول للآية إن وقفنا عند كلمة ﴿قَٰتَلَ﴾.

بصيرة ٢: تقديم الربيين جهدهم وتضحياتهم

فيكون المعنى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: وكم من نبي، ويكون ما بعده جملةٌ تصف حال هذا النبي تتكون من فعل هو: ﴿قَٰتَلَ﴾، وفاعل هو ﴿رِبِّيُّونَ﴾، والتقدير: قاتل ربيون كثيرٌ معه، أو الجملة مكونةٌ من فعل هو ﴿قُتِلَ﴾، ونائب فاعل هو ﴿رِبِّيُّونَ﴾، والتقدير: قُتِلَ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ معه.

وهنا، تتجسد أمامنا صور الربيين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، أولئك الذين رباهم النبي على عينه، فقاتلوا معه كتفًا بكتف، وسقطوا شهداء على دربه، كما فعل أسد الله حمزة، وسفير الإسلام مصعب بن عمير رضي الله عنهما. فما وهن الذين ارتقوا شهداء قبل أن يستشهدوا، وما وهن الذين بقوا أحياءً بعدهم.

بصيرة ٣: اللقب الفخم المميز ﴿رِبِّيُّونَ﴾

يبصرنا بأن من أعظم سنن الانتصار: جذب أتباعٍ ليكونوا "ربيين" أي: منسوبين إلى الرب، وذلك من خلال تربيتهم تربيةً إيمانيةً نوعيةً تستهدف الكيفَ، ولا تكون قائمةً على العبث السياسي والأوهام، فـ(الرِبِّيُّ) هو ذلك العبد الذي بلغ من عبادته لربه عز وجل مبلغًا عظيمًا، حتى صار يُنسب إليه حبًّا وتشريفًا

بصيرة ٤

تبصرنا هذه الآية المباركة بأن الربانية والرِّبِّيَّة اتصالٌ عظيم بربنا المتعال

وتعني في الوقت نفسه المواجهةَ للفساد، حتى لو اضطر الأمر إلى القتال، والمقارعة للأبطال، والجولات في مواطن النزال، وليست انطواءً على الذات، و انسحابًا من مسرح الحياة، وطلبًا للسلامة والنجاة.

السنة السادسة

﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ١٤٦﴾

تبصرنا بأن من سنن النصر: تكثير الأتباع قدر الإمكان، فوصف الله ﷻ الربيين بأنهم ﴿كَثِيرٌ﴾، فالاهتمام بالكيف لا يعني إهمالَ الطرق المناسبة لجذب كمٍّ كبير من المفلحين، والاهتمام بتكثير القيادات في الصف الثاني والثالث (القيادات الأولى والوسطى)، على أن تقيد هذه السنة بما قبلها، وهي إشاعة الربانية في هؤلاء القيادات، والكثرة تقتضي التنوع في التخصصات، لتكون قوة فاعلة، لا رقمًا صامتًا.

السنة السابعة

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾

تبصرنا بأن من سنن النصر: تطبيق الخطوات الخمس للاستيعاب النفسي للمصائب الواقعة:

خطوة (١)

﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ عدم الوهْن مما نزل وينزل:

فالمصائب والهزائم التي تحل بالربيين أثناء مدافعتهم لقوى الشر، وإرهابها، ودنس المؤامرات الدولية التي تحيط بهم، كل ذلك لا يؤثر فيهم، فلا تُضعِف عزيمتَهم؛ لأنهم يشعرون بأجرها في سبيل الله ﷻ.

ويظهر جمال هذا الوصف، لأن الوهْن ضعفٌ طارئ مع وجود أصل القوة، والوهن نوعان:

١
الوهن الحسي

فيضعف تماسك البدن (الخَلْق)، ويرتخي، ويفتر طبعًا أو تضعضعًا، كالعظم يهن مع الكبر، والمرأة تهن مع الحمل، أو تهن تكاسلًا واسترخاءً.

٢
الوهن النفسي أو المعنوي

كالوهن في الرأي، فهو وَهَنٌ في (الخُلُق)، فيُفقِدُ العزيمة أو يُضعِفها نتيجة الكيد

ولذلك قال النبي ﷺ:

«وَيَجْعَلَ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ» قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الْحَيَاةِ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ».

«أحمد 22397. وحسَّن إسناده محققو المسند».

خطوة (٢)

﴿لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فينبغي أن يستوعبوا أن كونهم ربيين لا يعني ألا تحدث لهم المصائب:

وهذا يعني تعويد المسلمين على حتمية وقوع الهزيمة عليهم أحيانًا لتركهم سننًا إلهية أخلوا بها، فهزيمة «أحد» أولُ هزيمة صدمت الذين نصرهم الله ﷻ ببدر، كأنهم ظنوا أن النصر سيكون حليفَهم دائمًا، فصحح لهم التصورَ بما وقع في أحد.

خطوة (٣)

﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ والضعف يعني اختِلَالَ قوة الجسد البدنية.

خطوة (٤)

﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ والاستكانة: إظهار الخضوع النفسي والعقلي للعدو ليتحكم بالمشهد، وإظهار المسكنة أمام الآخرين.

الفرق بين الثلاثة ﴿فَمَا وَهَنُوا-وَمَا ضَعُفُوا- وَمَا اسْتَكَانُوا﴾:

الْوَهْن

انْكِسَارُ الْجَسَدِ وَنَحْوِهِ بالخوف النفسي عند حلول المصيبة مثل قتل قياداتهم، وقتل بعضهم مع وجود أصل القوة، وضعفُ العزم والرغبة في المواجهة، فهو ضَعْفٌ يَلْحَقُ الْقَلْبَ، ويمكن أن يُفَسَّر بأنه ضعف يطرأ على إيمانهم، فتقع الشكوك والشبهات في قلوبهم.

وَالضَّعْفُ

نُقْصَانُ الْقُوَّةِ البدنية أي: وما ضعفت قواهم عَنْ مدافعة عَدُوِّهِمْ، وكان النبي ﷺ يعلمنا أن نظهر القوة عند حلول المصيبة صغرت أو كبرت، فيقول: «هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ». «البخاري: 2802»، وقال خبيب بن عدي رضي الله عنه:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لله مَصْرَعِي

(البخاري:7402)

وَالِاسْتِكَانَة

إِظْهَارُ الضَّعْفِ وَالْخُضُوعُ لعدوهم، أي: لم يخشعوا ويذلوا بالدخول في شروط عدوهم، ولكن «مضوا قُدُمًا على بصائرهم ومنهاج نبيّهم، صبرًا على أمر الله عز وجل وأمر نبيهم ﷺ» كما يقول الطبري في تفسيره (7/ 269).

فَالْأَوَّلُ أَقْرَبُ إِلَى خَوَرِ الْعَزِيمَةِ، وَدَبِيبِ الْيَأْسِ فِي النُّفُوسِ وَالْفِكْرِ، وَالثَّانِي أَقْرَبُ إِلَى الِاسْتِسْلَامِ وَالْفَشَلِ فِي الْمُقَاوَمَةِ، وَالِاسْتِكَانَةُ: الْخُضُوعُ وَالْمَذَلَّةُ لِلْعَدُوِّ، وهي مُرَتَّبَةٌ واقعيًّا: فَإِنَّهُ إِذَا خَارَتِ الْعَزِيمَةُ فَشَلَتِ الْأَعْضَاءُ، وَجَاءَ الاستسلام، فتبعته الْمَذَلَّةُ وَالْخُضُوعُ لِلْعَدُوِّ. «التحرير والتنوير» (4/119).

خطوة (٥)

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ أي: وصبروا والله يحب الصابرين:

والصبر المقصود هو الصبر الإيجابي أي: دافعوا عدوَّهم صابرين، لا أنهم استسلموا صابرين فهذا صبرٌ سلبي، والتعبير بحب الله ﷻ لهم أعظمُ مُحَفِّزٍ، وأشفى بلسمٍ لقروحهم، فهو الحب الذي يشفي الجراح، كأنه يمسح الجسد المضنى بالماء الهنيء فيُذهِب الأتراح، ويجعل الكفاح مليئًا بالأفراح.

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ». (البخاري 3612).

السنة الثامنة

الدعاء الصادق قبل بذل الأسباب وبعد بذلها، يستنزل النجاح المحقق المبين، وهو زاد المجاهدين، وسلاح الفاتحين

ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾، وفيها 5 بصائر منيرة هادية:

بصيرة ١

حداء الموحدين دعاءٌ لا يفارق الألسنة ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾

تأملوا هذا التعبير القرآني البديع، إنه يرسم لنا صورةً حيةً لقلوبٍ أشرقت بالإيمان، ونفوسٍ استجابت لنداء الحق. كأنهم لا ينطقون بغير هذا الدعاء! أي إيمانٍ عميقٍ هذا؟! وأي يقينٍ راسخٍ جعل ألسنتهم تلهج بهذا الدعاء، معرضين عن كل قولٍ سواه، لقوة إرادتهم الإيمانية التي لا تلين؟!

بَصِيرَة ٢

تَكَوَّن الدعاء من أربع فقرات مترابطة

كأنها بناءٌ شامخٌ يقوم على أسسٍ متينة، كل ركنٍ منها يشد أزر الآخر، ليصنع لنا تحفةً من أدب الدعاء، ومدرسةً في فن التضرع:

الفقرة (١)

اعترافٌ بالذنب يفتح أبواب السماء

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ طلبوا المغفرة للذنوب التي مضت؛ سواء كانت فرديةً تشد المرء إلى الوراء، أم جماعيةً تضعف الأمة، أم أخلاقيةً تفسد الطباع، أم سياسيةً تعثر المسيرة. فـ"الذنب" في لغتنا الجميلة مشتقٌ من "الذَّنَب"، وهو ما يؤخر المرء عن بلوغ مراده، وعن تحقيق الفلاح المنشود. ولقد خصوا أنفسهم بالدعاء بالمغفرة ليؤكدوا عمق اعترافهم بتقصيرهم، ولينالوا التوفيق الخاص من ربهم ﷻ.

تصوَّرِ الأمر!

هذا دعاء المجاهدين في سبيل الله، الباذلين أرواحهم في طلب رضاه: إقرارٌ بالذنب، واعترافٌ بالخطيئة، فماذا يقول القاعدون المتخلفون عن الركب المتثاقلون إلى الأرض؟!

الفقرة (٢)

إقرار يصلح الخلل ﴿وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾

أي: واغفر إسرافنا، والإسراف هو: تجاوز الحد، وطلبوا أن يغفر الله ﷻ لهم إسرافهم:

١

لأن قولهم: ﴿وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ اعترافٌ بعد اعتراف، و إقرارٌ تلو إقرار، فالجهاد في سبيل الله ليس مبررًا للتنصل من مسؤولية القرارات الخاطئة، ولا يمنح المجاهد صكًا مفتوحًا لارتكاب الأخطاء والخطايا دون أدنى ملامةٍ أو وخزة ضمير. بل إن الجهاد الحق يوقظ في القلوب كمال المراقبة والوجل من الله ﷻ، ويُشعرها شهود الله على الظواهر والبواطن، فلا يخفى عليه خافية.

٢

لأن الإسراف في الأمر يتعلق بما طرأ على قراراتهم من خطإٍ أو جهل، مثل التقصير في الإعداد، والضعف في الشورى، والتخطيط، وعدم أخذ الحذر من العدو، وَهَذَا الظَّاهِرُ مِنْ كَلِمَةِ (أَمْرِ).

ما العلاقة بين هذين الدعاءين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾؟ وما سرُّ الجمع بين طلب المغفرة من "الذنوب" و"الإسراف في الأمر"؟

الجواب:

ظنوا أن هَزِيمَتَهُمْ -إن حدثت- ستكون لسَبَبَيْنِ: بَاطِنٍ وَظَاهِرٍ، فَالْبَاطِنُ هُوَ غَضَبُ اللَّهِ ﷻ عَلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الذُّنُوبِ، وَالظَّاهِرُ هُوَ تَقْصِيرُهُمْ فِي الِاسْتِعْدَادِ وَالْحَذَرِ، فابتدأوا بهذين الدعاءين. «التحرير والتنوير» (120/4).

الفقرة [٣] ثباتُ الجسدِ من ثباتِ الرُّوح

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي عند اللقاء، فلا نفِرُّ، حتى لو كانت الدائرة علينا، (وتثبيت الأقدام) استعيرت للتعبير عن الثبات في القتال، فثبات الأقدام ثباتٌ لكل الإنسان، وارتعادها زلزلة لبقية الأعضاء. إنه طلبٌ للثبات المادي في الميدان، النابع من ثبات القلب على الإيمان.

الفقرة [٤] النصر ثمرةٌ حلوةٌ للتَّضْحِيَةِ والثَّبَاتِ

أي: إن الانتصار الدنيوي مما نحبه فاجعله مترتبًا على تثبيت الأقدام، فظهرت العلاقة بين تثبيت الأقدام والنصر.

بَصِيرَة ٣ ترتيبٌ حكيمٌ للدعاء

من التوبة إلى النصر: ابْتَهَلُوا إِلَيْهِ -جلَّ مجده- عِنْدَ نُزُولِ الْمُصِيبَةِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ مَا أَصَابَهُمْ جَزَاءً عَلَى ذنوبٍ سابقة أصابوها، ثُمَّ سَأَلُوهُ النَّصْرَ وَأَسْبَابَهُ بعد ذلك، فَقَالُوا: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾، فَلَمْ يَصُدَّهُمْ مَا لَحِقَهُمْ مِنَ النكبات عَنْ رَجَاءِ النَّصْرِ، وطلبه. «التحرير والتنوير» (120/4).

بَصِيرَة ٤ عِتَابٌ رَقِيقٌ وَتَوْجِيهٌ بَلِيغٌ

إن هذه الآية الكريمة تحمل في طياتها عتابًا شديدًا لأصحاب النبي ﷺ فضلًا عمن بعدهم كما قال ابن إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: فقولوا كما قالوا، واعلموا أنما ذلك بذنوب منكم، واستغفروا كما استغفروا، وامضوا على دينكم كما مضوا على دينهم، ولا ترتدُّوا على أعقابكم راجعين، واسألوه كما سألوه أن يثبِّت أقدامكم، واستنصروه كما استنصروه على القوم الكافرين. فكل هذا من قولهم قد كان، وقد قُتل نبيهم، فلم يفعلوا كما فعلتم. «تفسير الطبري: 7/273».

بَصِيرَة ٥ فِقْهُ تَحْوِيلِ الانْكِسَارِ إِلَى انْتِصَارٍ

وهذه الآية وما قبلها وما بعدها تظهر لنا فقهًا عظيمًا لسنن النصر، وأساسًا كبيرًا في تحويل النكبات إلى انتصارات، وهذا الأساس هو: المراجعات للتاريخ والقرارات التي مضت وترتب عليها تلك النكبات.

فإذا كان هؤلاء الربانيون الأطهار يعترفون ويراجعون ويحاسبون أنفسهم بهذه الدقة، فكيف يأنف من ذلك غيرهم؟! وكيف يكتفي البعض بالاعتراف المجمل الذي لا يغير واقعًا، ولا يحاسب مقصرًا، ولا يُنحِّي قائدًا فشل في مهمته، ليظل جاثمًا على صدر الأمة؟

السنة التاسعة: اجتماع هذه السنن والعمل بها هو مفتاح النتيجة الحتمية

ويبصرنا بذلك قوله تعالى:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٤٨﴾، وفيها 3 بصائر:

بَصِيرَة ١ عَطَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَجَنَّةٌ فِي الأُخْرَى

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: النُّصرَةَ وَالْغَنِيمَةَ، وَقَهْرَ الْعَدُوِّ، وَالثَّنَاءَ الْجَمِيلَ، وَ انْشِرَاحَ الصَّدْرِ بِنُورِ الْإِيمَانِ، وَزَوَالَ ظُلُمَاتِ الشُّبهات، وتكفير المَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ﴾ أي: الجنة وما أعدَّ فيها. «تفسير الرازي: 9/382».

بَصِيرَة ٢

سِرُّ "الْحُسْنِ" فِي جَزَاءِ الآخِرَة

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ذكر الله ﷻ ثواب الدنيا ردًّا على الْغَالِينَ فِي الزُّهْدِ، وخصَّ تَعَالَى ثَوَابَ الْآخِرَةِ بِالْحُسْنِ تَنْبِيهًا عَلَى جَلَالَةِ ثَوَابِهِمْ، وَلمزية ثواب الآخرة، فكُلُّهُ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ، وَلَمْ يَصِفْ ثَوَابَ الدُّنْيَا بِذَلِكَ؛ لِقِلَّتِهَا وَامْتِزَاجِهَا بِالْمَضَارِّ والمنغصات، وَكَوْنِهَا مُنْقَطِعَةً زَائِلَةً. «تفسير الرازي» (9/ 382).

بَصِيرَة ٣

الإِحْسَانُ مِفْتَاحُ مَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ وَنُصْرَتِهِ

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٤٨﴾ فالإحسان يجمع أمرين: العطاء، والإتقان، وثمرةُ الوصول إلى الإحسان: محبة الرحمن، والمحبة تقتضي النصرة كما قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ». «البخاري: 6502».

جسر الاتصال

عرفنا أن القسم الثالث من المحور السادس قد بصّرنا بالسنن التي تعالج وقوع قتل القيادات والأفراد في الصفوف المؤمنة، وبيَّن الله ﷻ فيها كيف يستوعب الصف المؤمن النكبات التي تحل بهم في أثناء المواجهات [آل عمران: 143-148]؛ ولكننا نتساءل ما العامل الحاسم الذي يقلب النصر خسارة، والخسارة نصرًا؟

الجواب: هنا يأتي الجواب شافيًا:

القسم الرابع

يحدثنا عن العامل الحاسم الذي يقلب النصر خسارة، والخسارة نصرًا، فحدد سنن النصر والخسارة بين ولاية الله الملك القهار ﷻ وطاعة الكفار [آل عمران: ١٤٩-١٥٢]، وهي ٤ سنن:

السنة الأولى

سُنَّةُ الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ حِينَ تُطَاعُ كَلِمَةُ الْكَافِرِين

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾ [آل عمران: 149].

السنة الثانية

مَنْ كَانَ اللهُ مَوْلَاهُ، فَلَا يَخْشَى سِوَاه

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ۝١٥٠﴾ [آل عمران: 150].

السنة الثالثة

سِلَاحُ الرُّعْبِ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللهِ ﷻ

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران: 151].

السنة الرابعة

سُنَّة النصر بقذف الرعب من مقتضيات ولاية الله للمؤمنين

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ...﴾ [آل عمران: 152].

آيات هذا القسم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ
۝١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ۝١٥٠ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ
مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٥١ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾

السنة الأولى

سُنَّةُ الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ حِينَ تُطَاعُ كَلِمَةُ الْكَافِرِينَ

فيبصرنا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، أن من سنن الخسارة الماحقة: طاعة الكفار ومن يوالهم، والمبعوثين الدوليين المرسلَين منهم، فعدم طاعة الكافرين يساوي عدم الوقوع في نوعٍ خطيرٍ من أنواع الخسارة، وفيها 8 بصائر:

بَصِيرَة ١

سرُّ النداء الجديد: انتقالٌ من تضميد الجراح إلى تحديد طريق الفلاح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ما الحكمة من أنه بدأ هذا القسم بالنداء دون أن يعطف ما بعده على ما قبله؟

الجواب: ليظهر لنا -جلّ مجده- قوة الاتصال وجمالَ الانتقال:

فبعد أن بيَّن ﷻ في القسم السابق السنن التي تعالج وقوع قتل القيادات والأفراد في الصفوف المؤمنة، وبين فيها كيف يستوعب الصف المؤمن النكبات التي تحل بهم في أثناء المواجهات، انتقل إلى أخطر سنة لها دورها في النصر الحاسم القادم أو الخسارة الماحقة، وهي المتعلقة بالتردد بين ولاية خير الناصرين، وطاعة الكافرين، فذكرها الله ﷻ ليبين كيفية الحصول على النصر الحقيقي وليس الوهمي ولا العبثي، فينبغي على هؤلاء الذين يقودون المجتمعات سواء في الجانب الثقافي أو الاجتماعي أو السياسي أن يستفيدوا من هذا الهدي العظيم، وهذه الثروة المعرفية والعلمية والتدريبية والسلوكية الموجودة في سورة آل عمران.

بَصِيرَة ٢

نداءٌ يستفز الإيمان ويُوقظ الوجدان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾

يذكِّرهم بدعواهم أنهم مؤمنون ليستفز مشاعرهم، ويحرك عاطفتَهم الإسلامية ليذعنوا لما بعد الخطاب، وهو-جلَّ مجدُه- هنا يذكرلنا أهمَّ السنن المادية التي تسبب الفشل والخسارة في المعارك الحربية والسياسية.

بَصِيرَة ٣

من حديث الأنبياء إلى خطاب الأوفياء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾

إن تحويل الخطاب من الكلام عن حال النبيين و أتباعهم من الربيين إلى مخاطبة المؤمنين يبصرنا بضرورة استلهام التجارب السابقة، واستحضار التاريخ الماضي لأخذ العبر، وتحقيق النصر في المستقبل، وهذه تتمة كبيرة في تحقيق فقه المراجعات.

بصيرة ٤

شبح الطاعة الخفي حين تتسلل الهزيمة عبر المشورة ﴿إِن تُطِيعُوا۟﴾

الطَّاعَةُ تُطْلَقُ عَلَى امْتِثَالِ أَمْرِ الْآمِرِ، وَعَلَى الدُّخُولِ تَحْتَ حُكْمِ الْغَالِبِ. «التحرير والتنوير» (121/4)، فحذف متعلق الطاعة لتشمل كل صورها، أي: إن تطيعوهم في البرامج والخطط والربط الاستراتيجي، وفي التعامل السياسي والاقتصادي، وفي كل أمرٍ صغيرٍ أو كبير تحل بكم الخسارة المستقبلية.

وهنا نستحضر مشاورة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمن كان حاضرًا في بقية المعارك الفاصلة مع فارس

فأشار عليه الْهُرْمُزَانُ بشيء، فخالفه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «قَالَ الْهُرْمُزَانُ: إِنَّ فَارِسَ الْيَوْمَ رَأْسٌ وَجَنَاحَانِ، قَالَ: فَأَيْنَ الرَّأْسُ؟ قَالَ: بِنَهَاوَنْدَ مَعَ بَنْذَاذِقَانَ، فَإِنَّ مَعَهُ أَسَاوِرَةَ كِسْرَى وَأَهْلَ أَصْفَهَانَ، قَالَ: فَأَيْنَ الْجَنَاحَانِ؟ فَذَكَرَ الْهُرْمُزَانُ مَكَانًا، فَقَالَ الْهُرْمُزَانُ: فَاقْطَعِ الْجَنَاحَيْنِ تُوهِنِ الرَّأْسَ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللهِ، بَلْ أَعْمِدُ إِلَى الرَّأْسِ فَيَقْطَعُهُ اللهُ، وَإِذَا قَطَعَهُ اللهُ عَنِّي انْفَضَّ عَنِّي الْجَنَاحَانِ...» «صحيح ابن حبان» (67/7)، وأصله في البخاري.

بصيرة ٥

أقنعة الكفر المتعددة وفخ التعاون المسموم:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لفظ عام يشمل كل أصنافهم، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من المشركين أو المنافقين، وهم يسلكون أسلوبًا خبيثًا لإيقاع المسلمين في الخسائر، فهم لا يطلبون منهم طاعتهم بصورة صريحة، بل يستدرجونهم للتعاون معهم في مجالات محددة بصورة ظاهرها الخير، ثم يجرونهم شيئًا فشيئًا إلى وحل التعاون على الإثم والعدوان، والبغي والبهتان، كما حدث في الأندلس؛ إذ تسابق ملوك الطوائف على التعاون والتنسيق مع الافرنج ضد إخوانهم، فكانت عاقبة أمرهم خسرًا.

بَصِيرَة ٦

صورة الخذلان الارتداد المُقزِّز على الأعقاب

﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾

يا لها من صورة منفرة مهينة! تصور حال من يطيع الكافر كمن يُدفع بقوة إلى الخلف، فيرتد على عقبيه خزيًا وعجزًا، أو يسقط على ظهره ذلاً وهوانًا. فتنقلب كل المكاسب التي تحققت، وكل الأمجاد التي شُيدت إلى خسائر فادحة، في مشهد مقزز للارتداد والانتكاس.

بَصِيرَة ٧

ثمار الخسارة المُرَّة حين يُبهَر الضعيفُ بقوة عدوه

﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ تصور لنا مظهر الخسارة الدينية والدنيوية المروعة المهلكة في المجالات العلمية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، وإذا أردنا الإفادة من خبراتهم، لا بد من وجود الرقابة للأجهزة المهيمنة المشرفة على كل مسائل التواصل معهم، لأنهم يسرِّبون ما يؤدي إلى خسارة المسلمين بطرقٍ خفية، فقد يشعر البعض منا بالضعف وبالانبهار والانصهار أمام طغيان القوة التي يظهر بها الكفار، والتاريخ خير شاهد على أن التعاون مع الدول الكافرة كان سبب دمار كثيرٍ من الدول الإسلامية؛ إذ شاعت الفتن والطائفية، وتحول وجود الأقليات إلى أسلحة فتاكة ضد المجتمعات الإسلامية!

بَصِيرَة ٨

ذكر الله ﷻ هذه السُّنة في هذه السورة في أثناء الكلام عن معركة أُحد

لأن الكفار ينتهزون لحظات الضعف والانكسار التي تمر بها الأمة، ليبثوا سمومهم، ويزينوا لهم الانسحاب والاستسلام، ويشككوهم في جدوى الثبات على المبادئ. فحذر الله ﷻ المؤمنين من السقوط في هذا الفخ، ومن هذا الاستسلام المهين.

وما أخبر به الرئيس الأمريكي (ترومان) من أنهم صنعوا لأعدائهم مؤسسات دولية ليتحاكموا إليها، إلا صدى لهذه الحقيقة القرآنية، فهم يريدون أن يزيدوهم بالتحاكم إليهم خبالًا وهزيمة.

السنة الثانية

مَنْ كَانَ اللهُ مَوْلَاهُ، فَلَا يَخْشَى سِوَاه

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾، تبصرنا بأن أعظم سنن الانتصار: ولاية الله ﷻ الملك القهار، وعدم ولاية الله ﷻ يؤدي إلى أن نفقد النصير الأقوى الأكمل، وفيها بصيرتان:

بصيرة ١: شرطا النصر: تركُ ولاية الكافرين، وتحقيقُ ولاية رب العالمين

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ تبصرنا بأنه لكي يكتمل بنيان النصر لا بد من الجمع بين السنن المادية والسنن الشرعية، وأعظم هذه السنن ولاية الله ﷻ، وجاءت هذه الآية في أروع موضع و أنسب سياق:

١- فالطاعة تدل على أن المطيع يدين بالولاء للمطاع له، فبدلًا من طاعتكم للكفار، وتقديم الجزية والفدية لهم أطيعوا ربكم ﷻ ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾، فاتباع القواعد الشرعية التي أمر بها الله ﷻ سلمًا وحربًا، هو الذي يؤدي إلى النصر.

٢- لـمَّا حذر الله ﷻ من طاعة الكفار في الآية السابقة ربما نفذ بعض المسلمين ذلك فلم يطيعوهم، ولكنهم في المقابل لا يحققون ولاية الله كما ينبغي، فبين الله ﷻ لهم أن النصر لا يتحقق بمجرد عدم طاعة الكفار، بل لا بد من ولاية العزيز القهار.

بصيرة ٢: هذه الآية العظيمة ترد على الأوهام التي تقذف في نفوس النيام

من أنه يمكن أن يوجد خيرٌ في طاعة الكفار تحت أسماء مبهرجة في العصر الحاضر الذي يلعب فيه الأقوياء بالضعفاء تحت بريق الشعارات الأممية.

وقد قيل: لما حدثت هزيمة أُحُد قال بعضهم: «ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أبيٍّ فيأخذ لَنَا أَمَانًا مِنْ أَبِي سُفْيَانَ». (تفسير الثعلبي 176/3).

فهذه السُّنة تبين طريق النصر الحقيقي، فليس عن طريق الكفار، بل عن طريق الرحيم الغفار.

السنة الثالثة

سِلَاحُ الرُّعْبِ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللهِ ﷻ

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ۝١٥١﴾

تبصرنا بأن ولايةَ الله للعاملين تؤدي إلى الهزيمة النفسية للعدو وبأن يقذف الله ﷻ الرعب في قلوب الكافرين، فيسيطر الارتباك على خططهم ومكرهم، وفيها 12 بصيرة:

بصيرة ١

وعدٌ إلهيٌّ بالنصر السريع ﴿سَنُلْقِي﴾:

السين تظهر وعدًا إلهيًّا قويًّا بتغييرٍ في المستقبل لصالح المسلمين، ونون العظمة تصور لنا القوة الإلهية التي تحقق هذا الوعد، والتعبير بالإلقاء يرسم لنا مشهد الرعب وهو يهوي على قلوبهم بغتةً، في سرعة خاطفة.

بصيرة ٢

ضربةٌ في مركز القيادة

﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ تبصرنا بأن إلقاء الرعب سيكون في المكان المركزي الذي يتحكم بالعواطف والأفكار، وهو القلب، وهذا يعني بقاء ذلك الرعب مسيطرًا عليهم؛ فيشل قدرتهم على التفكير، ويربك قراراتهم، فتكون الهزيمة حتمية.

بصيرة ٣

﴿الرُّعْبَ﴾ كلمةٌ تختصر الحرب النفسية

فالرعب نوعٌ من الخوف، فتبصرنا هذه الكلمة بنوع الخوف الذي سيعاقب الله ﷻ به الكفار، وهو الخوف المزلزل الذي لا يجعل صاحبه متزنًا في مواجهة الأحداث، وتَحَقُّقُ النصر بالرعب من أهم استراتيجيات إدارة المعارك، وهو الذي يحقق استراتيجية الردع، ويقلل عدد الخسائر عند الأطراف كلها، و أكد عليه النبي ﷺ، فقال: «ونُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَقْذِفُهُ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِي».

«أحمد: 22137. وقال محققو المسند: صحيح لغيره».

بَصِيرَةٌ ٤ الشرك من أسباب الهزيمة ﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾

الباء تبصرنا بالسبب الذي استحقوا به عقوبة الرعب النفسي، وهو الشرك، فمهما تفوق المشركون في العدة والعتاد المادي، يبقى في بنيانهم ثغرة قاتلة، هي خواء القلب من الله ﷻ، بينما يتفوق المؤمنون عليهم بتحقيق الولاية لله ﷻ، فينزل النصر كما نزل في بدر واليرموك وملاذ كرد، وإذا انتصر الكفار في المواجهة فذلك إما لخلل عند المسلمين، وإما لخيانة يمارسها المنافقون يعقبها انتصار المسلمين.

بَصِيرَةٌ ٥ قلبٌ هشٌّ وصرحٌ منهار

﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ تبصرنا بهشاشة القلب المشرك بالله ﷻ، وسرعان ما يحل بساحة صاحبه الرعب والاضطراب إن واجه الحشود المجاهدة الموحدة المطمئنة بموعود الله ﷻ.

بَصِيرَةٌ ٦ الحجة النيّرة والبرهان القاطع ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾

السلطان هو الأمر القوي المسيطر، مشتقٌ مِنَ السَّلِيطِ وَهُوَ الَّذِي يُضَاءُ بِهِ السِّرَاجُ. «معاني القرآن وإعرابه للزجَّاج 76/3»، وهو الحجة القوية التي تضيء الحق، كما يضيء السراج، فالكافرون أشركوا بالله دون أي حجة أو برهان أو نور من الله ﷻ يتسلط على عقولهم فيقنعها، أو على قلوبهم فينيرها.

بَصِيرَةٌ ٧ جريمة الشرك العظمى: افتراء بلا برهان ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾

تبصرنا الآية بأن الشرك بالله ﷻ ظلم عظيم؛ لأنه انتهاك لأعظم حقوق الله ﷻ، وهو الإلهية، ولا يمكن لأحدٍ عاقل أن ينتهك هذا الحق إلا أن يكون عنده دليلٌ قوي واضح من الله ﷻ يتسلط عليه، ويوجه حياته، وهذا الدليل لم ينزله الله ﷻ، فمن أين جاؤوا بهذا الكذب وبهذا الافتراء؟! وهذا تنزل في الحوار معهم.

بَصِيرَة ٨

عقيدةٌ جوفاءُ تبيح سفك الدماء ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾

تبصرنا أن ما لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ لا يجوز إِثْبَاتُهُ، وهذا وصفٌ كاشفٌ لحقيقة عمل الكفار، فالشرك بالله ﷻ لا يمكن أن ينزل الله ﷻ به سلطانًا، والكفار يقاتلون ويبطشون باسم عقيدة خاوية من أي برهان، ولذا لا يتورعون عن قتل بني الإنسان.

بَصِيرَة ٩

المصير المحتوم ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾

تبصرنا بأنه إن لم يتحقق المصير الخاسر الدنيوي، فلا بد من تحقق المصير القادم الأخروي؛ إذ سيكون ﴿مَأۡوَىٰهُمُ﴾ أي: مقرهم الذي يضمهم بصورة دائمة هو النار نعوذ بالله منها.

بَصِيرَة ١٠

تبرز قوة كلمة (مأوى)

في أن المأوى هو المكان الذي يضم الإنسان ليبعده عن المخاوف والآلام والأحزان، فإذا كان هذا المكان ليس إلا النار، فكيف يمكن لآلامه أن تتوقف، ولجراحه أن تبرأ، ولشقائه أن يزول؟! نعوذ بالله من النار، وما قرب إليها.

بَصِيرَة ١١

عدلٌ إلهيٌّ في جزاء الظلم ﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾

تبصرنا بعدل الله ﷻ في جعل النار مأوى لهم؛ إذ بين سبب ذلك، وهو أنهم ظالمون يضعون الأمور في غير مواضعها زيادةً ونقصًا، وتعاملًا.

بَصِيرَة ١٢

شاهدٌ من أُحُد

كيف ألقى الله ﷻ الرعب في قلب أبي سفيان؟ لهذه الآية شاهد حيّ من معركة أحد، كما يروي الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (في تفسيره 401/7، 407) أن جيش الكفار بقيادة أبي سفيان لما رجعوا من أُحُد ندموا، فقالوا: بئس ما صنعتم، إنكم قتلتموهم، حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم! ارجعوا فاستأصلوهم! فقذف الله ﷻ في قلوبهم الرعب، فانهزموا، وهيأ الله مَعْبَدَ بْنَ أَبِي مَعْبَدٍ الْخُزَاعِيّ فحذَّرهم من كَرَّةِ المسلمين عليهم، فقَالَ: مُحَمَّدٌ قَدْ خَرَجَ فِي أَصْحَابِهِ يَطْلُبُكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطُّ، يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ تَحَرُّقًا، قَدْ اجْتَمَعَ مَعَهُ مَنْ كَانَ تَخَلَّفَ عَنْهُ فِي يَوْمِكُمْ.

السنة الرابعة: سُنَّة النصر بقذف الرعب من مقتضيات ولاية الله للمؤمنين

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ [آل عمران: 152]

تبصرنا بأن ولاية الله سبحانه وتعالى للمؤمنين العاملين ينتج عنها قذف الرعب في قلوب الكافرين، فيؤدي ذلك إلى أن يسيطر الارتباك على خططهم ومكرهم، فيتحقق وعد الله عزوجل بوقوع الهزيمة النفسية والعامة في صفوفهم، وفيها 4 بصائر:

بَصِيرَة ١: وعد الله ﷻ لا يُخلفه ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾

تبصرنا بأن الله ﷻ لا يخلف الميعاد، فعندما ينهض المسلمون لتطبيق سنن النصر التي أمربها، وأعظمها التحقق بولاية الله ﷻ والتزام أمره، فإن النصر يتجلى لهم في أولى مراحله، فالواو لوصل ما بعدها بما قبلها، واللام و﴿قد﴾ تأكيدٌ قاطعٌ على وقوع ما بعدهما، و﴿صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي: لم يكذبكم، ولم يخلفكم الموعد، بل حقق لكم ما وعد به، وهو النصر وقذف الرعب في قلوب الكافرين؛ "لِأَنَّ مَعْنَى الصِّدْقِ مُطَابَقَةُ الْخَبَرِ لِلْوَاقِعِ". «التحرير والتنوير: 4/127»، وقد قال النبي ﷺ لِلرُّمَاةِ –فيما رواه الطبري: «لا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ، إِنْ رأيتمونا قَدْ هَزَمْنَاهُمْ: فَإِنَّا لا نَزَالُ غَالِبِينَ مَا ثَبَتُّمْ مَكَانَكُمْ» «تفسير الطبري 3/457، ط: دار الحديث، وضعفه إسلام منصور». وهي وصيةٌ نبويةٌ محكمةٌ، تحمل في طياتها سر النصر وبدايته.

بَصِيرَة ٢: حسن اختيار الألفاظ المناسبة في وصف المعركة ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ﴾

أَيْ: تَقْتُلُونَهُمْ قَتْلًا كَثِيرًا، من قولهم: «حَسَّهُ» أي: أَبْطَلَ بِالْقَتْلِ حِسَّهُ، كَمَا يُقَالُ: بَطَنَهُ إِذَا أَصَابَ بَطْنَهُ. «تفسير الرازي: 9/386»، فلم يستعمل كلمة «تقتلونهم» هنا، بل استعمل «تحسونهم»، وبذا يبصرنا الاستعمال القرآني بضرورة المهارة في استعمال الألفاظ المناسبة في وصف المعركة؛ تلطفًا في بيان الأمر الشديد مع ضرورة ذكره ليُسَرَّ المؤمنون ويرتدع المعتدون، فذلك جزءٌ من الانتصار الإعلامي.

بَصِيرَة ٣

النصر ثمرة بذل السُّنن رغم اختلال الموازين

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ صدقُ وعدِ الله ﷻ يقوم على أساس بذل السنن المادية والشرعية، وقد كان تخطيط النبي ﷺ للمعركة ضخمًا بديعًا على الرغم من الفارق الهائل في موازين القوى؛ فالمسلمون سبعمائة رجل، وقريش ثلاثة آلاف، ومع ذلك نزل النصر من السماء.

لقد وصف ابن عباس رضي الله عنهما هذا النصر بكلماتٍ خالدةٍ، فقال:

ما نُصِر رسول الله ﷺ في موطنٍ كما نصر يوم أُحُد، فأنكروا ذلك، فقال: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله تبارك وتعالى. إن الله ﷻ يقول في يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾. «أحمد: 2609، وحسَّن إسناده محققو المسند»، وعند الطبري: فحسُّوهم بالسيوف حتى كشفوهم، وكانت الهزيمةُ لا شك فيها حتى قال الزبير رضي الله عنه: والله لقد رأيتُني أنظر إلى خَدَم هند ابنة عتبة وصواحبها -أي إلى خلاخل أرجلهن- مُشمِّراتٍ هوارب ما دون أخذِهنَّ قليلٌ ولا كثير. (تفسير الطبري 3/474، ط: دار الحديث، وقال إسلام منصور: صحيح، وهذا سند ضعيف).

بَصِيرَة ٤

استلهام العزائم من أمجاد الماضي: تذكُّرُ الانتصارات العظيمة السابقة يقوي العزائم، ويشحذ الهمم

ويدفع بعنفوان لتحقيق انتصاراتٍ جديدة، وبطولات أكيدة، فقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ تذكيرٌ للمسلمين، و إنعاشٌ لذاكرة الغافلين. يمكن اعتبار هذه البصيرة أصلًا ومُنطلقًا لدراسة تاريخنا الحربي والعسكري المجيد، واستلهام التجارب الناجحة التي حققها أسلافنا، وتحليل العوامل التي أسهمت في صنع هذه الانتصارات الباهرة، ودراسة تجارب الفشل، وتحليل عوامل حدوثها لتجنب الوقوع فيها مرةً أخرى.

جسر الاتصال

بينما كانت بصائرُ القرآنِ في القسمِ الرابع ترسمُ لنا الخطَّ الفاصلَ بين النصرِ والخسارة، وتكشفُ أن سرَّ الأمرِكلِّه يكمنُ في الاختيار بين ولايةِ اللهِ القهَّار، أو الركونِ إلى الذين كفروا، يَشْرَئِبُّ العقلُ والقلبُ إلى سؤالٍ مُلِحٍّ يطرقُ أبوابَ التاريخ: هل صدَقَ اللهُ وعدَه للمؤمنين في أُحُد؟ وإذا كان قد صدَق، فما تلك السننُ التي قلبت موازين النصر، ورسمت على وجه المعركة غبارَ الانكسار؟

الجواب هنا يأتي:

القسم الخامس

أخطاءٌ قاتلة: حين يُصنَع الانكسارُ بأيدي الأحبة، فيحدثنا عن سنن الهزيمة التي تقلب النصر إلى فشل في أثناء المعركة [آل عمران: ١٥٢-١٥٥]، وهي ٨ سنن تكشفُ كيف يمكنُ للخطأ البشري أن يحجبَ نورَ التوفيقِ الإلهي:

آيات هذا القسم:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ
وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ
صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ
تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ
لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم
مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ
يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ
ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى
صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ
إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

السنة الأولى

شمسُ النصرِ حينَ يُغطِّيها غبارُ الغَفلة

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: 152].

السنة الثانية

حين ينطفئ وهجُ النصرِ وتُكشَف أسرار القلوب

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ... ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: 152].

السنة الثالثة

في ظلال العفو الإلهي حين يغفرُ الله ﷻ زلَّة أوليائه

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: 152].

السنة الرابعة

الاهتمام بالنجاة الفردية والمصالح الشخصية، فعدم الاهتمام بالمجموع فَشَلٌ للجميع ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عمران: 153].

السنة الخامسة

سُنَّةُ التَّداوي بِالغَمِّ.. حينَ يكونُ الجُرحُ الأعمقُ بَلسَمًا

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ...﴾ [آل عمران: 153].

السنة السادسة

سُنَّةُ الهزيمةِ البَنَّاءة: كيف تُصنَعُ النخبةُ في قلبِ الأزمات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟﴾ [آل عمران: 154].

السنة السابعة

ظنُّ الجاهلية سرطان اليقين وبذرة الهزيمة

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ...﴾ [آل عمران: 154].

السنة الثامنة

العفو الإلهي: مفتاح تحويل الهزيمة إلى نصر

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ...﴾

[آل عمران: 155].

السنة الأولى

شمسُ النصرِ حينَ يُغطِّيها غبارُ الغَفلة

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: 152]

تبصرنا بأن من أخطر سنن الهزيمة: الغفلةَ عن نصرِ اللهِ الذي تحقق في بداية الطريق، ونسيانَ شهودِ قدرة الله ﷻ التي تجلَّت، وكيف أنَّ وعدَهُ الحقَّ قد لامسته أيديهم، وفيها 4 بصائر:

بَصِيرَة ١

مرآةُ الذات.. وعدَ الله فصدَق ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾

تأتي هذه الواو كجسرٍ من نور، تصلُ حاضرَ المشهدِ بماضيه القريب، فبعد أن عرض القِسم الرابع السابق لبيان العامل الحاسم في النصر قبل بذل السنن المادية وفي أثنائها وبعدها، وهو ولاية الله ﷻ تمضي الآيات لتبصرنا بأن وعد الله ﷻ تحقق، وأن الهزيمة لا تكون دومًا سهمًا يأتيك من جيشِ عدوِّك، بل قد تكونُ جُرحًا تنكؤُهُ في قلبِ جيشِكَ بيدِك، فتُربينا هذا البصائر المنائر لنبحث في كمائن نفوسنا ومكامنها عن الخفايا والخبايا، فالاعترافُ بالخطأ هو أولُ شعاعِ فجرٍ في ليلِ المراجعة، وأولُ خطوةٍ على طريقِ التصحيحِ والبناء.

بَصِيرَة ٢

يقينُ القلب حصنٌ من الانكسار ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾

اللام و(قد) تميزان أسلوب التأكيد، فأكد الله ﷻ لهم تحقق وعده بالنصر في بداية معركة أُحُد، وذلك ليعالج عاملًا من أهم عوامل صناعة الهزيمة والانكسار المعنوي والحسي، وهو فِقدان الثقة بوعد الله، فمن أسس الهزيمة أن يغيب عن نفس المسلمين استشعارُ تأييد الله ﷻ، فيضعفَ يقينهم وثقتهم بنصره في قابل الأيام، وتالله ليس فوق هذا الداء داء، ولا يعظم هذا البلاء بلاء.

بصيرة ٣

ذاكرةُ النصر وقودُ الثقة ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾

أخبرنا بالله ﷻ بأن المسلمين في أُحُد تمكنوا من حسّ المشركين أي قتل عددٍ مؤثرٍ منهم، خصوصًا أصحاب الرايات، فيبصرنا ذلك بالثقة بوعد الله ﷻ الذي لا يخلف، واليقين بتحقق كلمته التي لا تتبدل. فمن أخطر ما يصيب الأمة أن تُصابَ بذاكرةٍ مثقوبة، تنسى بها أيامَ نصرِها وسوابقَ فضلِ الله ﷻ عليها؛ فإن نسيانَ فضلِ اللهِ وسوابقِ نصرِه هو أولُ خطوةٍ نحو هاويةِ اليأس، وأولُ معولٍ لهدمِ الثقة بالقدرة على صناعةِ نصرٍ جديد.

بصيرة ٤

﴿تَحُسُّونَهُم﴾ كلمةٌ فريدةٌ انفردت بها سورة آل عمران

ولم تتكرر في بقية القرآن بهذا المعنى، إذ معناها: تقتلونهم قتلًا ذريعًا كما يقرر الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ (العين 15/3)، ولعل من بصائر ذلك: الحذر في استعمال الكلمات الدالة على هذا المعنى على مستوى الخطاب الإعلامي، في زمنٍ يتحكم بالإعلام فيه شياطين الإنس والجن، فبينما يتفاخر مجرم بال"قتل"، يُلطِّفه آخر بمصطلح "التحييد". كما تبصرنا هذه الكلمة بتمكن المسلمين منهم مع كثرة عددهم، فما احتاج المسلمون لرميهم من بعيد، بل كان الإثخان فيهم من قريب، فكأنهم حسوهم بأيديهم أو بملامستهم.

السنة الثانية

حين ينطفئ وهجُ النصر وتُكشَف أسرار القلوب

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: 152]

تبصرنا بأن النصر ينقلب إلى هزيمة في أثناء المعركة إذا ترك المسلمون العمل بمقتضى السنن الشرعية السابقة سواء أكانت إيمانية أم مادية، وذكر الله تعالى في هذه الآية 4 مظاهر للهزيمة وضمَّنها بيانًا بأسبابها:

المظهر (١)

الفشل بداية التصدُّع في جدار الثبات

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ [آل عمران: 152] تبصرنا بالمظهر الأول للهزيمة، وهو الفشل في مواصلة الطريق بنفس العزيمة، والتراخي عن تطبيق سنن النصر، سواءٌ كانت إيمانية كالصبر والتقوى، أم مادية كالانضباط العسكري والطاعة، وفيه (٣) بصائر:

بصيرة ١

﴿حَتَّىٰٓ﴾ كلمةٌ تقلب الموازين

يا لها من كلمة عجيبة! فقد ذكر الله سبحانه نصره لعباده بعد أن طبقوا سنن النصر، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، ثم ذكر تحول النصر إلى هزيمة كبيرة مدوية بعد الفرحة العارضة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، فـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرفٌ لانتهاء الغاية أي: وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ فنصركم، فقتلتم عدوَّكم متغلبين عليهم حتى ﴿فَشِلْتُمْ﴾ أي إلى أن ضعفت عزائمكم، وتسلل الوهن إلى نفوسكم. فجاءت هذه الكلمة لتعبر عن تحول مشهد النصر إلى بداية الهزيمة.

بصيرة ٢

انهيار العزيمة من الداخل ﴿فَشِلْتُمْ﴾

أي كَسِلْتُم وضَعُفتُم وتراخيتُم، وجَبُنْتُم، وفَزِعتُم، فلم تنجحوا في مواصلة مشوار النصر، فهذه كلمة مدهشة تصور الواقع، وتصف المقدمات والنتيجة أي: تركتم القيام بالواجب العام تراخيًا وكسلًا، وكانت النتيجة: تمكين الضعف العام من مجموعكم.

بصيرة ٣

يحدث لنا الفشل والانكسار إن تركنا شيئين:

١ - **بذل الأسباب المادية**

والمتمثل في الانضباط العسكري الصارم.

٢ - **القيام بموجبات الإيمان**

والمتمثل في مجاهدة هوى النفس ومقاومة إغراء الغنيمة.

لقد كان الفشل هو ذلك الضعف الداخلي أمام بريق الدنيا، وهو ما أصاب أربعين من الرماة الخمسين رضوان الله عليهم أجمعين.

المظهر [٢]

تمزُّق الصف الواحد

﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران: 152] أي: فشلت النفوس في مقاومة أهوائها، حتى انتقلت من الضعف الداخلي إلى الخلاف الظاهري، فنازعوا أميرهم عبد الله بن جبير الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الخطة العسكرية المحكمة التي وضعها النبي ﷺ:

فعن الْبَرَاء بْن عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ -وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا- عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»، فَهَزَمُوهُمْ. فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في منازعة لأمير الكتيبة-: الْغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ الْغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ «البخاري: 3039»، ولكن أكثر الرماة نازعوه في هذا الأمر، ولم ينضبطوا.

المظهر (٣)

العصيان.. حين يتحول الاجتهاد إلى خطيئة

﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 152]

بَصِيرَة ١

حقيقة العصيان التصلُّب في وجه الأمر

فكلمة ﴿عَصَيْتُم﴾ من العصيان: خلاف الطاعة، والعاصي: الْفَصِيلُ إِذَا عَصَى أُمَّهُ فِي اتِّبَاعِهَا، أي: تصلبتم، فلم تنقادوا لرأي أميركم، فغادرتم المكان الذي أُمِرتم ألا تبرحوه؛ طمعًا في الغنيمة، وإعمالًا لفقه المقاصد في غير موضعه؛ إذ ظننتم أن القصد قد تحقق بهزيمة المشركين، فاستغل الفرصةَ جيشُ المشركين بقيادة خالد بن الوليد، فاستولى على جبل الرماة بعد أن قتل الرماة العشرة الباقين عليه، واختل معسكر المسلمين، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا.

«البخاري: 3039».

بصيرة ٢

مَا الحكمة من ذكر النصر قبل المعصية في قوله تعالى:

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾؟

الْجَوَابُ: لتحقيق غرضين:

الغرض 1

لإظهار سنةٍ خطيرة خلاصتُها

الاغترار بظواهر البدايات، وعدم الانتباه إلى الثغرات مآله تضييع المكتسبات، وإهدار الإنجازات، والخيبة في النهايات.

الغرض 2

التمهيد للعفو

ففي هذا القول أيضًا لمسة حانية، فهو يوضح أن دافعهم للمعصية لم يكن جبنًا أو ضعف إيمان، بل كان اجتهادًا خاطئًا في سبيل غرض من أغراض الحرب (الغنيمة)، وهذا كله يمهد لرحمة الله القادمة في قوله: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ [آل عمران: 152].

المظهر [٤]

إرادة الدنيا

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [آل عمران: 152] أي: منكم من يريد الدنيا مُفَوِّتًا على نفسه الثبات على مقتضى الإيمان، وفيه (7) بصائر:

بصيرة ١

كشفٌ رباني: لا أحد معصوم من فتنة الدنيا

هنا الكشف الخطير عن أن الطبيعة البشرية التي ترتكب الخطأ يمكن أن تعتري أفضل الخلق بعد النبيين، ولماذا هذا الكشف؟ ليُشَرِّعَ لنا الله ﷻ الفريضة الغائبة في حياتنا، وهي: المحاسبةُ الفردية والعامة، السرية والعلنية، فكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: "ما شعرت أن أحدًا من أصحاب النبي ﷺ كان يريد الدنيا وعرَضَها، حتى كان يوم أحد". «تفسير الطبري: 294/7».

بَصِيرَة ٢

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾

تبصرنا بوجوب العدل في وصف و اقع المعسكر الواحد، فإن وجد منهم من أراد الدنيا، فهناك من يريد الآخرة.

بَصِيرَة ٣

هل هناك تناقضٌ بين إرادة الدنيا وإرادة الآخرة؟

الْجَوَابُ:

الأصل أن الدنيا وسيلة لبناء الآخرة، فلا تناقض بينهما، ولكن التناقض يحدث بين الإرادتين عندما يريد الإنسان الدنيا إرادةً تضيع الآخرة، وتنسيه مهمته الأسمى في الحياة، فيجعل الدنيا غاية بشعور أو بدون شعور، وليس المقصود أن إرادة الدنيا مضادة لإرادة الآخرة.

بَصِيرَة ٤

التأويل الخاطئ بابٌ خفيّ لهوى النفس

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ تبصرنا بأن التأويل قد يكون أسوأ الأبواب التي تدخل منها الدنيا المضيعة للآخرة، فأكثر الرماة تأولوا أمر النبي ﷺ بالبقاء في الجبل بأنه كان لأجل حماية ظهور المسلمين ونزول النصر، فرأوه قد حدث، وتحقق المقصد، فخالفوا الأمر، وغادروا أماكنهم، وكان ذلك منهم خطأ كبيرًا؛ لسببين:

١ - الأمر النبوي الصريح والقاطع بعدم المغادرة تحت أي ظرف.

٢ - طبيعة الحرب تقتضي الطاعة الجازمة للقيادة في غير تردد، تحسبًا لأي مفاجآت.

بَصِيرَة ٥

جمالٌ محذوف: أين جواب ﴿إِذَا﴾ في قول ربنا ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾؟

الْجَوَابُ:

جواب ﴿إِذَا﴾ محذوف دلَّ عليه السياق، وتقديره يحتمل أنواعًا من المعاني البديعة، منها:

1

حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مَنَعَكُمُ اللَّهُ نَصْرَهُ.

2

حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ، صِرْتُمْ فَرِيقَيْنِ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ، فَالْجَوَابُ: هُوَ قَوْلُهُ: صِرْتُمْ فَرِيقَيْنِ، إِلَّا أَنَّهُ أُسْقِطَ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ يُفِيدُ فَائِدَتَهُ، وَيُؤَدِّي مَعْنَاهُ، لِأَنَّ كَلِمَةَ «مِنْ» لِلتَّبْعِيضِ، فَهِيَ تُفِيدُ هَذَا الِانْقِسَامَ.

«تفسير الرازي: 9/ 387».

3

قد قيل: إن في الآية تقديمًا وتأخيرًا، ويكون معنى الآية كالآتي: حتى إذا تنازعتم في الأمر فشلتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فـ"الواو" دخلت في ذلك، وهي صلة، ولكن هذا التأويل ضعيف؛ لأن الأصل إعمال ظاهر الآية كما جاءت وفقًا لترتيب كلماتها.

بَصِيرَة ٦

تشريحٌ ربانيٌّ للنفس من الفشل إلى العصيان

الآية تُظهِرُ لنا تحليلًا عجيبًا للنفس الإنسانية، ولنظام الاجتماع، ونظام الدولة، فالمعصية قد يكون سببَها الفشلُ والتنازعُ: فهم فشلوا في اختبار المجاهدة لرغبات أنفسهم، وتنازعوا في الأمر، فكأن كل فريق صار دولة وأميرًا، وعند ذلك عصوا أمر الرسول ﷺ مباشرة، فلم يحققوا ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: 120، 186] بعد أن أراهم الله ﷻ بشائر النصر، وهذا توصيف دقيق عجيب لو اقع فشل النفس الإنسانية أمام الإغراء والإغواء للمال أو للشهوة أو للأهواء، وكيف ينقلها الفشل والتنازع إلى العصيان للأوامر الصريحة.

المعصية مبدؤها فشلٌ في امتحان الطاعة، وحقيقتها رسوبٌ في اختبار الانضباط الفردي أو الجماعي.

بَصِيرَة ٧

حكمة الهزيمة

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ تبصرنا بأن حلول الأمر القدري بهزيمة المسلمين إنما يكون للاختبار، فلا يعني ذلك أن هزيمتهم ستكون دائمة:

أي: صرفكم أيها المؤمنون عن المشركين بعد ما أراكم ما تحبون بأن أَزَالَ سبحانه مَا كَانَ فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ مِنَ الرُّعْبِ مِنكم لمعصيتكم، وفعل ذلك كله ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ أي: ليختبركم، فيتميز المخلص الصادق، وليعلن أن هزيمتكم لا تعني أنكم على باطل، وأن انتصار عدوكم لا يعني أنه على حق، إنما هي سنن الله ﷻ تجري، والابتلاء يكشف معادن الرجال.

السنة الثانية

في ظلال العفو الإلهي حين يغفرُ الله ﷻ زلَّة أوليائه

﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾ [آل عمران: 152]

تُشرقُ شمسُ هذه الآية الكريمة لتبدد ظلمة اليأس في القلوب، وتُعلِّمنا أن الزلل البشري لا يطفئ نور الولاية، وأن الله ﷻ ربَّ الأرض والسماء لا ينسى عباده الأولياء، وفي رحاب هذا العفو تتجلّى 6 بصائر نورانية:

بصيرة ١: عفوٌ يُزكّي ولا يُقصي

﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ تبصرنا بأنه يجب العفو التربوي عن المعاصي، فهو أحدُ أهم وسائل التزكية والاستيعاب للكفاءات المؤمنة ضمن الصف حتى لا تنفر، ولا يخسرها الصف المسلم. إنه العفو الذي يبني ويقوّي، لا العفو الذي يهدم ويُلغي.

بصيرة ٢: بين المحاسبة والمسامحة.. حكمة الإدارة الربَّانية

بصرتنا الآية بأسلوب إداري من أهم الأساليب، وهو أن نجمع بين أمرين:

١- أن نستحضر الأخطاء المؤثرة على المجموع، ونحاسب عليها

٢- أن نعفو عنها ما دام الأمر يتسع لذلك.

فعفا الله ﷻ عن آثار الذنب في الآخرة، وعفا عنهم بتقليل حجم خسائرهم في الدنيا، و إبقاء ولايته لهم، وعَجَّلَ لَهُمُ الْإِعْلَامَ بِالْعَفْوِ لِكَيْلَا تَطِيرَ نُفُوسُهُمْ رَهْبَةً وَخَوْفًا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى. «التحرير والتنوير 4/130».

بَصِيرَة ٣

حين تجتمع العقوبة مع الرحمة

العفو لا يعني عدم العقوبة المناسبة، والعقوبةُ المناسبة لا تعني عدمَ النظر إلى كون المؤمنين مهما أخطأوا فهم مؤمنون وذوو فضل.

لقد أبدع الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تصوير هذا المعنى حين سأل متعجبًا وصفَّق بيديه:

وكيف عفا عنهم، وقد قُتِلَ منهم سبعون، وقُتِلُ عمُّ رسول الله ﷺ، وكُسِرت رَبَاعيتُه، وشُجَّ في وجهه؟ قال مجيبًا عن سؤاله كاشفًا عن عمق البصيرة: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: «قد عفوت عنكم إذ عصيتموني، أن لا أكون استأصلتكم، هؤلاء مع رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله غِضابٌ لله، يقاتلون أعداء الله، نُهوا عن شيء فصنعوه، فوالله ما تُركوا حتى غُمُّوا بهذا الغم، فأفسق الفاسقين اليوم يَتَجَرْثَمُ كلَّ كبيرة، ويركب كلَّ داهية، ويسحب عليها ثيابه، ويزعم أن لا بأس عليه!! فسوف يعلم». «تفسير الطبري: 7/298».

بَصِيرَة ٤

من فيض فضل الله على المؤمنين

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾ تبصرنا بعظمة الرعاية الإلهية للمؤمنين، فمن فضله عليهم إبقاؤهم على الإيمان إن ارتكب أحدهم الذنوب كالفرار من الزحف، ودعوتهم للتوبة، وفتح أبوابها لهم.

بَصِيرَة ٥

مسؤولية الصف الواحد

الآية كلها تبصرنا بالمسؤولية الجماعية، فالذي عصى من الصحابة كانوا قلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، وكان يمكن ألا يعاقب الله عَزَّ وَجَلَّ المجموع على فعل القلة، ولكنه خاطب الجميع بقوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ﴾، ﴿تَحُسُّونَهُم﴾، ﴿فَشِلۡتُمۡ﴾، ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾، ﴿وَعَصَيۡتُم﴾ ﴿أَرَىٰكُم﴾، ﴿مِنكُم﴾، ﴿وَمِنكُم﴾، ﴿عَنكُمۡ﴾.

إنها رسالة لكل جيل: مصيركم واحد، وخطابكم واحد، ومسؤوليتكم واحدة.

بَصِيرَة ٦

في الأزمات الاحتواء أولى من الجفاء

﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ بصرنا بأن إعمال مبدأ العفو في أوقات الأزمات وحلول النكسات آكد؛ إذ المخطئ النادم المقر بخطئه أحوج ما يكون للاحتواء منه للجفاء والإقصاء.

السنة الرابعة

من سنن الهزيمة: الاهتمام بالنجاة الفردية والمصالح الشخصية، فعدم الاهتمام بالمجموع فَشَلٌ للجميع

ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ [آل عمران: 153] وفيها 3 بصائر:

بَصِيرَة ١

في معنى الصُّعُودِ والفرار

ترسم لنا الآية صورة الفرار بكل تفاصيلها المؤلمة. فقوله تعالى: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ يصور لنا سرعة الهروب في كل اتجاه، في بطون الأودية والشعاب، لا ارتقاءً منظمًا نحو قمة الجبل، بل فرارًا عشوائيًا تملؤه الفوضى، يُقَالُ: صَعِدَ فِي الْجَبَلِ إذا ارتقى عليه، وَأَصْعَدَ فِي الْأَرْضِ إذا أسرع في كل اتجاه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ يكمل المشهد المأساوي، فلا أحد يلتفت إلى أخيه، ولا ينعطف لمساعدة جريح؛ هربًا من عدوّكم مُصْعدين في الوادي.

بَصِيرَة ٢

من فواجع الفرار حين يقتل الأخ أخاه: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾

وصفٌ خطيرٌ لأخطاء فادحة وقع فيها بعضهم رضي الله عنهم حتى قتَل بعضهم بعضًا دون أن يشعروا، فروى البخاري (3290) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ هُزِمَ الْمُشْرِكُونَ، فَصَاحَ إِبْلِيسُ: أَيْ عِبَادَ اللهِ أُخْرَاكُمْ، فَرَجَعَتْ أُولَاهُمْ، فَاجْتَلَدَتْ هِيَ وَأُخْرَاهُمْ، فَنَظَرَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه فَإِذَا هُوَ بِأَبِيهِ الْيَمَانِ رضي الله عنه، فَقَالَ: أَيْ عِبَادَ اللهِ أَبِي أَبِي، فَوَاللهِ مَا احْتَجَزُوا حَتَّى قَتَلُوهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: غَفَرَ اللهُ لَكُمْ.

بَصِيرَة ٣

ثبات القائد في قلب العاصفة

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ [آل عمران: 153] تبصرنا بأنه ينبغي للقائد أن يُذَكِّرَ بسنن النصر، ويطلبَ الصبر والثبات، ويحاولَ إصلاح الخلل في الصفوف عند الاضطراب.

فكَانَ ﷺ يدعوهم ليعيدوا تنظيمَ صفوفهم وهجومهم، ويستوعبوا الصدمة التي وقعت لهم. إن وجوده في آخرهم دليل على ثباته ﷺ وشجاعته التي لا نظير لها، ونداؤه لهم تذكيرٌ يثير في نفوسهم الخجل من فعلهم، ولكنه أيضًا نداء الأب الحاني الذي يريد نجاة أبنائه.

وهنا يقف المرء متعجبًا من دقة المحاسبة الربانية التي لم تعفِ أصحاب الفضل العظيم من تحمل تبعات أخطائهم. والسؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح: إذا كان هذا حال ذلك الجيل الفريد، فلماذا لا نرى هذا الميزان الدقيق من المحاسبة والمراجعة في صفوفنا اليوم، خاصة مع كثرة القرارات الخاطئة، وتوالي النكسات في واقعنا المعاصر؟

السنة الخامسة: سُنَّةُ التَّداوي بِالغَمّ.. حينَ يكونُ الجُرحُ الأعمقُ بَلسَمًا

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ تبصرنا أن من سنن الهزيمة: عدم الإدارة الموفَّقة للانكسارات، فإن ذلك يطيل أمد الهزيمة، فالإدارة الموفَّقة تخفف وطأة الهزيمة، وتعالج آثارها، وتُرمِّم العزائم، وتقلل المغارم، وتوظف النكبات لاستئناف المحاولات، وتُعمِلُ "سنة الغم بالغم". تصوَّرْ! الغم هنا صار مصدرًا للتخفيف! وفيها 9 بصائر:

بصيرة ١ — معنى "الإثابة".. حين تكون العقوبة عودةً إلى الصواب

قولـه: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ أي: أرجعت إليكم المعصيةُ الطارئةُ غمًّا جمع الله عزوجل لكم فيه بين العقوبة، والتخفيف، فكلمة: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ مشتقة من قولهم: ثَابَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ، أَيْ رَجَعَ إِلَيْهِ رجوع الشيء لأصله (تفسير الرازي: 9/390)، فالمعنى: كافأكم بالغم الثاني المزيل للغم الأكبر الأول لأصل إيمانكم وسابق صالحاتكم، فالغم الثاني أنساكم الأول، ثم ظهر أن سببه غير موجود، و"الغم في اللغة: التغطية، ويوم غمٍّ وليلة غمَّة إذا كانا مظلمين. ومنه غُمَّ الهلال إذا لم يُر". (القرطبي: 4/240).

بصيرة ٢ — حرف الباء بحرٌ من المعاني

الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ للمعاوضة أو السببية، كَمَا يُقَالُ: هَذَا بِهَذَا، أَيْ هَذَا عِوَضٌ عَنْ ذَاكَ. (تفسير الرازي: 9/391)، فكل تعويض عن أمر يكون ثوابًا خيرًا كان أو شرًّا، أو تكون بمعنى (على) فتعطي معنى المجازاة، أي: جازاكم على غمكم إياه غمًّا، أو تعطي معنى الزيادة: فزادكم على غمكم غمًّا، أو غمًّا بعد غمٍّ، وغمًّا متصلًا بغمٍّ.

بصيرة ٣ — وجوه الغمَّين.. صورٌ من التأديب والتربية: أوجزت الآية أنواعًا للغمين بهذا الأسلوب الفريد:

فالنوع الأول منها:

لَمَّا أَذَقْتُمُ الرَّسُولَ ﷺ غَمًّا بِسَبَبِ عصيانكم أَذَاقَكُمُ الله تعالى غَمَّ الِانْهِزَامِ، وَقَتْلَ الْأَحْبَابِ الكرام، فقُتِل ستةٌ وستون رجلًا من الأنصار، وأربعةٌ من المهاجرين.

والنوع الثاني:

الغم الأول ما وقع لهم من الجراح التي أصابتهم، وظَفَرِ المشركين، وفوتِ الغنيمة، وذهابِ النصر، والغم الثاني: ما أُرجِفَ به من قتل رسول الله ﷺ، ثم استبان أن ذلك لم يحدث، فذهب عنهم الغَمَّان معًا، واستوعبوا العودة لترتيب صفوفهم، ورد معنى هذا عن قتادة. «تفسير الطبري: 7/ 306».

والنوع الثالث:

أثابكم غَمَّ يَوْمِ أُحُدٍ لِلْمُسْلِمِينَ بِغَمِّ يَوْمِ بَدْرٍ لِلْمُشْرِكِينَ، وَفْقَ سنة تداول الأيام، فلا يَبْقَى فِي قَلْبِكُمُ الْتِفَاتٌ إِلَى الدُّنْيَا، فَلَا تَفْرَحُوا بِإِقْبَالِهَا ولا تحزنوا بإدبارها. «التفسير البسيط 6/ 84».

بصيرة ٤

شهادةٌ من قلب المعركة

يصور ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حالة الاضطراب في معسكر المسلمين، فيقول: فلما غنمَ النبي ﷺ، و أباحوا عسكر المشركين، أَكَبَّ الرُّمَاةُ جَمِيعًا -يعني غالبهم-، فَدَخَلُوا فِي الْعَسْكَرِ يَنْهَبُونَ، وَقَدِ الْتَقَتْ صُفُوفُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَهُمْ هَكَذَا -وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدَيْهِ- وَالْتَبَسُوا، فَلَمَّا أَخَلَّ الرُّمَاةُ تِلْكَ الْخَلَّةَ الَّتِي كَانُوا فِيهَا، دَخَلَتِ الْخَيْلُ -أي خيل المشركين- مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَضَرَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالْتَبَسُوا، وَقُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَاسٌ كَثِيرٌ. (أحمد: 2609، وحسَّن إسنادَه محققو المسند).

بصيرة ٥

الحرب النفسية.. شائعةٌ كادت تكسر القلوب

يصور ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الكيدَ الإعلاميَ الوثنيَ الهائل؛ إذ صاح الشيطان: قُتِلَ محمد، فلم يُشَكَّ فيه أنه حقٌّ، فما زلنا كذلك ما نشك أنه قد قتل حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين، ففرحنا كأنه لم يُصبنا ما أصابنا، فرآه كعبُ بن مالك قال: عرفتُ عَيْنَيْه تَزْهَران (أي: تشرقان) تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: "يا معشر المسلمين: أبشروا، هذا رسول الله ﷺ"! (تفسير الطبري 309/7) فانقلب الحزن الأكبر إلى فرحٍ غامرٍ أنساهم كل ما أصابهم.

بصيرة ٦

بوارق الصمود.. محاولة استعادة الميدان:

حاول المشركون السيطرة على ساحة المعركة بعد أن تماسك المسلمون، ونهض رسول الله ﷺ نحو الشِّعب في رهطٍ من المسلمين؛ إذ علت عاليةٌ من قريشٍ الجبلَ، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا»! فقاتل عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورهطٌ معه من المهاجرين، حتى أهبطوهم عن الجبل. (سيرة ابن هشام 86/2).

بَصِيرَة ٧

صوت العقيدة يعلو فوق صوت الهزيمة

حاول المشركون النيل من عزائم المسلمين، فلما نهض رسول الله ﷺ إلى صخرةٍ من الجبل ليعلوها لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض حتى استوى عليها، ثم إن أبا سفيان قائدَ المشركين -قبل أن يسلم- صرخ: اعْلُ هُبَل، يومٌ بيوم بدر، فقال رسول الله ﷺ لعمر: "قم فأجبه، فقل: الله أعلى وأجل! لا سواء! قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار! نعم هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا! لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار!". «أحمد:2609، وحسن إسناده محققو المسند».

بَصِيرَة ٨

حكمة الغم.. لكيلا يبقى للحزن مكان

بَصَّرنا الله ﷻ بفائدتين ضخمتين لحدوث هذين الغمَّين:

الفائدة ١

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾

أي: من النصر الذي ظهرت بداياته، ثم تبخر وغاب، وتبخر ما يتبعه من السيادة والسعادة.

الفائدة ٢

﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾

أي: من الهزيمة وما تبعها من القتل والجراحات

فالحزن اللاحق الأكبر بسبب شائعة وفاة النبي ﷺ زال عندما ظهر كذب تلك الشائعة، وزال معه الألمُ المرهق الذي سيطر على الصحابة رضوان الله عليهم بسبب اختلال الصفوف، والفشل الطارئ، وبقي ألمٌ محدود يمكن تَحمُّله للاعتبار من الحدث.

بَصِيرَة ٩

كلمة السر للنهوض من الأحزان، وإصلاح الأخطاء قدر الإمكان

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٥٣﴾ [آل عمران: 153]، أي: لا يعتذر أحدكم أو يبرر، فإن الله - تعالَى - مُطَّلِعٌ عَلَى عَمَلِهِ، عَالِمٌ بِنِيَّتِهِ وَخَوَاطِرِهِ، فَيُحَاسِبُ نَفْسَهُ، فَإِنْ كَانَ مُقَصِّرًا تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَإِنْ كَانَ مُشَمِّرًا ازْدَادَ نَشَاطًا خَوفَ الْوُقُوعِ فِي التَّقْصِيرِ، وَأَنْ يَرَاهُ اللهُ حَيْثُ لَا يَرْضَى. «تفسير المنار 4/ 152».

السنة السادسة

سُنَّةُ الهزيمةِ البَنَّاءة: كيف تُصنَعُ النخبةُ في قلبِ الأزمات

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾ [آل عمران: 154]

تبصرنا بأن من سنن الهزيمة عدم تكوين الطائفة التي تستوعب الأحداث، فلا تدمرها العواصف العاتية مهما كانت، فالهزيمة تعطي فرصةً مواتية لتكوين الطائفة المطمئنة المتماسكة عند النوائب الثقيلة الكبار، وفيها 6 بصائر:

بَصِيرَة ١

في كلمة ﴿ثُمَّ﴾ نافذةُ أملٍ بعد الألم

تبصرنا ﴿ثُمَّ﴾ بأن السقوط في معركة لا يعني أبدًا الخسارة في الحرب كلها. فالله سبحانه لم يتركهم في غمِّهم، بل أتبع ذلك الغم بنعمةٍ كبرى، فكأن هذا النعاس الذي نزل في نهاية المعركة كان بمثابة هدنةٍ للروح، لتبدأ العقول والقلوب رحلة التفكير الهادئ، وتستخلص الدروس من عمق الجراح.

بَصِيرَة ٢

بلاغة الإنزال.. تفاصيلُ اللطفِ الإلهي

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾

تبصرنا باللطف الإلهي العظيم، فقدَّم كلمة ﴿أَنزَلَ﴾ لتصور أن هذا العطاء سماوي المصدر، لم يأتِ من الأرض، بل هبط من الأعلى كالغيث.

﴿عَلَيۡكُم﴾ تحديدٌ وتشريف فحدد نزوله المستعلي، ومكانه المتجلي، إذ نزل على الصحابة ﷺ لا غيرهم.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ﴾ يصور شدة الهم الذي أصابهم حتى أغمهم، فكأنه حجب عنهم رؤية الحياة، واستنشاقها.

بَصِيرَة ٣

نعاسُ السكينة: أمانٌ يغشى القلوب ورحمةٌ للمجهدين

﴿أَمَنَةً﴾ أي: أمانًا ضد الخوف يطمئن نفوسهم وقلوبهم، و اتخذ هذا الأمان شكلًا مميزًا، فنزل {مم } طرأ عليهم، فاستلذوه، وَهُوَ أول حالات النوم، فلا يكون ثقيلًا مسيطرًا، فقوّى أبدانهم، وصفّى تفكيرهم، فهو رحمةٌ ندية تُلِمُّ بالمجهدين المرهقين المتوجعين من الهزيمة يبعثهم خلقًا جديدًا، ويسكب في قلوبهم الطمأنينة والراحة. بطريقة مجهولة الكُنْهِ والكيف!

بَصِيرَة ٤

النُّعاس في بدر وأُحُد.. لكلِّ مقامٍ عطاء

للنعاس قصة خالدة مع المعسكر المسلم في مشهدين عظيمين لكل منهما حكمة مختلفة:

في بدر:

نزل النعاس قبل المعركة، ليطرد القلق ويربط على القلوب، ويثبت الأقدام استعدادًا للمواجهة، كما قال تعالى:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: 11].

في أُحُد:

نزل النعاس بعد الصدمة، ليهدئ النفوس الثائرة، ويثبّت اليقين في القلوب المكلومة، ويحشد طاقتهم من جديد بعد أن استنزفها الغم والخوف.

بَصِيرَة ٥

حين يكون النومُ برهانَ شجاعة

تأمل كلمة ﴿يَغْشَىٰ﴾ إنها تصور الهيئة النافعة القوية للنعاس النازل؛ إذ نزل عليهم، فغطاهم تغطية شاملة كثيفة في أشد المواقف الحياتية هولًا، ليدل وجوده على الشجاعة كما يدل على الثقة المطلقة بالله ﷻ، "فَإِنَّ النَّوْمَ لَا يَجِيءُ مَعَ الْخَوْفِ، فَمَجِيءُ النَّوْمِ يَدُلُّ عَلَى زَوَالِ الْخَوْفِ بِالْكُلِّيَّةِ". «تفسير الرازي: 9/ 393»، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «النعاس في القتال أمنة، والنعاس في الصلاة من الشيطان». «تفسير الطبري: 7/319».

بَصِيرَة ٦

نخبةُ الثباتِ وسرُّ التحوُّل

﴿طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾ تبصرنا بالطائفة المتماسكة التي بيدها قلبُ موازين الأمور، وقيادةُ حالة الهزيمة لتقلبها إلى نصر، فكلمة ﴿مِّنكُمۡ﴾ تصور نزول النعاس على مجموعة مخلصة مصطفاة دون غيرهم، فقد روى أبو طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُدٍ قَالَ: فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي -مرارًا- وَآخُذُهُ وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ. «البخاري: 4562».

السنة السابعة

ظنُّ الجاهلية سرطان اليقين وبذرة الهزيمة

﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران: 154]

تُبَصِّرنا بأن من أهم سنن الفشل: ظنَّ الجاهلية، الضباب الكثيف الذي يثمر توقع الفشل، ويجعل القلق والخوف يسيطران على النفس، ثم تنشغل بالهم الفردي والنجاة والسلامة الشخصية، فيترتب على ذلك الهزيمة المباشرة، وفيها 10 بصائر:

بَصِيرَة ١

في ساعة العُسرة حين يتمايز الصف

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [آل عمران: 154] تأمّلْ عُمق حرف العطف "الواو" هنا؛ فهو ليس مجرد وصلٍ للكلام، بل جسرٌ دقيق يربط بين حالتين متناقضتين في قلب المعسكر الواحد. فبعد أن وصف الله ﷻ الطائفة التي فازت باختبار الثقة وغشيها النعاس أمانًا منه، يعطف عليها ليُرينا صورة الطائفة الأخرى ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾، أي: ومنكم أيضًا أيها المؤمنون، طائفةٌ كانت في ذات الموقف لكنها سقطت في الامتحان.

وهنا تتجلى بصيرةٌ عظيمة أن كبار المؤمنين أنفسهم ليسوا معصومين من أن تطرق أمراضُ الجاهلية قلوبَهم في لحظة غفلة. لقد جذبهم الشيطان في تلك اللحظة الحرجة، فتملَّكهم الخوف والقلق، و انشغلوا بذواتهم عن مصير أمتهم، ليظهر لنا التباين العجيب في ردود الفعل الإيمانية حين تشتد الكروب.

بَصِيرَة ٢

وجهٌ آخر للتفسير: هل كانوا منافقين؟

الْجَوَابُ:

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [آل عمران: 154] على القول: إن المراد بهذه الطائفة مجموعة من المنافقين، فتبصرنا بما يصدر من المنافقين في وقت الشدة، وهو قول جمهور المفسرين، فقد قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والطائفة الأخرى: المنافقون، ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، أجبنُ قومٍ، وأرعبُه، وأخذلُه للحق، يظنون بالله غير الحق ظنونًا كاذبة، إنما هم أهل شك وريبة في أمر الله».

«تفسير الطبري 7/320».

بَصِيرَة ٣

الترجيح الأقرب: زلَّة مؤمن أم نفاقٌ دائم؟

الوصف هنا يصلح أن يكون عن المؤمنين وعن المنافقين مع اختلاف في مقدار هذا الصفات واستمرارها، فهي عارضةٌ طارئة للمؤمن كالغيمة العابرة، دائمة للمنافق متجذرة، وأرجِّح أن الآية في المؤمنين، أتاهم طيف من الشيطان، فارتبكوا في طريقة تفكيرهم وتقويمهم للهزيمة التي حدثت، ولا يطعن هذا في صدقهم، فأول خطوة لقلب الهزيمة انتصارًا الاعترافُ بالأخطاء.

بَصِيرَة ٤

برهان الترجيح

الذي يجعلني أرجح أن الطائفة من المؤمنين لا من المنافقين: ما هو معلومٌ يقينًا من أن المنافقين انسحبوا أول المعركة، فلا يجيء ذكرهم هنا، وسيذكرون في نهاية العتاب العظيم والحساب العجيب على الأخطاء التي وقع فيها المؤمنون في معركة أحد، حتى حدثت الهزيمة، فالسورة من بداية ذكر معركة أُحُد تعالج الخلل في نفوس المؤمنين، وأخرت الكلام عن البعد الخارجي الذين يمثله المنافقون والكافرون إلى آخر موضع من هذه المعالجة قبل خاتمة السورة، واختصرته هناك، بعكس الكلام عن خبايا النفوس، حتى نثق أن كل هزيمة يمكن أن نقع فيها فهو من عند أنفسنا، وليس لطبيعة التآمر الدائم.

وإلى الآن ترى الناس أسرى المؤامرة، يلقون كل هزيمة عليها، وبعضهم ينفيها، فينفي واحدة من أوضح الواضحات، فالصحيح أن المؤامرة قائمة لكنها ليست السبب الأساسي لهزائمنا.

بَصِيرَة ٥

صفات ظن الجاهلية

وصف الله ﷻ الذين اعتراهم ظنُّ الجاهلية بست صفات: ثلاث صفات نفسية، وثلاث صفات قولية فعلية، وكلها تدور حول محور واحد: غلبة المصلحة الشخصية، التي تؤدي إلى التماس المبررات الواهية للتخلّف عن نصرة الحق، وهذه الصفات هي:

صفة ١ الأنانية القاتلة ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

كلمة ﴿قَدۡ﴾ للتحقيق، فتبصرنا بسيطرة الأنانية الطارئة في الموقف الفاصل، فيدخل في هذه الصفة قوم أهمتهم أنفسهم في تلك الساعة، فيهتمون لأمر الأمة لكنهم يضعفون أحيانًا في الطوارئ والأحداث الصعبة، فيسيطر عليهم الهمُّ لأنفسهم، وهؤلاء مؤمنون طرأ عليهم الضعف، وقد تزيد هذه الصفة عند المنافقين، فتسيطر عليهم الأنانية الكاملة، فلا يهمهم دينهم ولا المسلمون، ولا البلدان، ولا النساء ولا الولدان، ولا ضير من أن نقول السياق في المؤمنين لكن تمكن صفة ﴿أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ حتى تسيطر على النفس يكون في المنافقين، وإن كان السياق لا يتعرض لهم هنا، وذلك مثل آيات المنافق كصفة الكذب؛ فإن وجودها في المؤمن عارض، وفي المنافق دائم.

﴿أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾

معيار لكشف حقيقة الإنسان هل يريد الله ﷻ أم يبحث عن المصلحة العاجلة لنفسه الأنانية، ولذلك أثَّرت هذه الآيات في المؤمنين من أصحاب النبي الأمين ﷺ، فلم يقعوا في الأمر نفسه مجددًا.

صفة ٢ ظن الجاهلية أساس الانحراف وسبيل الفشل

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: 154]

هذه الصفة سبب لما قبلها، فأهمتهم أنفسهم؛ لأنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، ويمكن أن تكون نتيجة، فأهمتهم أنفسهم، ونتج عن ذلك أنهم يظنون غير الحق، فَذَكَرَ أَوَّلًا أَنَّهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الظَّنِّ الْحَقِّ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُمُ اخْتَارُوا مِنْ أَقْسَامِ الْأَدْيَانِ الَّتِي هي غَيْرُ حَقَّةٍ أَكْثَرَهَا بُطْلَانًا، وَهُوَ ظَنُّ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ. «تفسير الرازي 9/ 395». فإن كانت الآية في مؤمنين غفلوا عن مقتضيات إيمانهم، فإن ظن الجاهلية عندهم لا يعني خروجهم عن الإيمان، بل يعني غفلتهم الوقتية عن مقتضيات الإيمان في ذلك الوقت.

ومن ظنِّ الجاهلية أن يظنوا أن الله ﷻ سيخذلهم، وسيُقتلون

أو أن يظنوا: أنه لو كان الإسلام حقًّا لما هُزِم أهله في مواطن، وينسوا حقيقة الابتلاء في الدنيا، فبعض المسلمين الآن يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، فلا ينصرون دينهم، بل ينصرون شهواتهم، ولا يقيمون فريضة الأخوة والوحدة، بل يوالون أعداءهم، ويتآمرون على بعضهم، فلا توجد سوقٌ إسلامية مشتركة، ولا غيرها من الفرائض الشرعية التي تجب على مستوى الأمة.

وهنا يبرز سؤال: هل يجوز للمسلم أن يظن بالله غير الحق؟ وهل يبقيه ذلك ضمن دائرة الإسلام؟

الجواب:

لا يجوز للمسلم أن يظن بالله غير الحق، ولكن يمكن أن يقع ذلك منه، ولا يخرجه عن دائرة الإسلام، فإن حدث له ذلك فليتب إلى الله ﷻ، وهذا مثل قول النبي ﷺ:

«إِذَا زَنَى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ كَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ، فَإِذَا انْقَطَعَ، رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ».

«أبو داود:4690، وصحح إسناده الأرناؤوط».

فإن كانت الطائفة المقصودة هنا من المؤمنين ممن ضعف إيمانه فهذا طيف شيطان، خطر على بال الإنسان، فعاتبه فيه الرحمن، وإن كانت هذه الطائفة من المنافقين فهو متأصل فيهم.

صفة ٣ التشكيك المتكرر في القدرة والإرادة

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران: 154]

فيرددون ما لا يليق بإيمانهم، فهذه صفة مبنية على ما قبلها، فلما أهمتهم أنفسهم، فظنوا بالله غير الحق قالوا هذا القول، و انظر قوة الوصف، فقد وصف الله ﷻ قولهم بالفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ ليصور لنا تكرر هذا القول على ألسنتهم بدلًا من أن يعالجوه عندما يخطر في نفوسهم.

صفة ٤ الاستنكار اليائس: ربط الحق بالنصر والاعتراض على القدر

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ [آل عمران: 154]

يربطون ربطًا خاطئًا بين كون الإسلام حقًّا وبين الانتصار في المعارك، أي يسألون مستنكرين: هَلْ لَنا مِنَ أمر النصر والقوة والغلبة شيء لأننا مسلمون؟

فشككهم الشيطان في صدق خطواتهم الإسلامية ليزلزل ثقتهم بالله ﷻ، «فَإِنَّهُمْ فَهِمُوا مِمَّا وَقَعَ يَوْمَ بَدْرٍ أَنَّ النَّصْرَ وَأَحَقِّيَّةَ الدِّينِ مُتَلَازِمَانِ، وَعَجِبُوا مِمَّا وَقَعَ فِي أُحُدٍ كَأَنَّهُ مُنَافٍ لِحَقِيقَةِ الدِّينِ، وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ». «تفسير المنار 4/ 153».

وهذا الفهم يوقع في هزائم أخرى؛ فإن كون الدين حقًّا لا يعني نصرة من ينتسبون إليه إلا أن يقوموا بسنن النصر، فالانتساب لا يعني الاكتساب للنصر دون القيام ببذل الأسباب.

بصيرة ٦

تبصرنا الآيات باثنين من الردود عليهم

فردَّ الله ﷻ عليهم هنا قبل أن يكمل الصفات لأهمية الرد في موضعه:

الرد الأول

وصم الفكرة لا الشخص

رد عليهم بنسبة تفكيرهم و أقوالهم إلى الجاهلية لتنفيرهم منه، فقال: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ [آل عمران: 154]، ولعل هذا الوصف من مبتكرات القرآن، وَصَفَ الله ﷻ بِهِ أَهْلَ الشِّرْكِ فِي مقام الذم تَنْفِيرًا مِنَ الْجَهْلِ، وَتَرْغِيبًا فِي الْعِلْمِ. كذا قرر ابن عاشور «التحرير والتنوير 4/ 136».

ولكن الكلام لا علاقة له بأهل الشرك، فوصف القائلين بأنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية مع أنهم مؤمنون لزيادة التخويف من الوقوع في فعل أهل الشرك، وذلك يشبه قول النبي ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ» «البخاري: 30»، الذي أورده البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبوب له بقوله: «باب المعاصي من أمر الجاهليَّة، ولا يُكَفَّرُ صاحبها بارتكابها إلا بالشِّرك».

وقال ﷺ:

«أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ...» «مسلم: 934».

الرد الثاني

إعادة البوصلة إلى الله ﷻ

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 154] أي: رد عليهم تعليمًا وتربية وإعلامًا فورًا، وأخبرهم مؤكدًا لهم أن من مقتضيات الإيمان أن نتيقن أن الأمر لله في النصر والهزيمة والعز والذلة. فالحكم له يقسم الأرزاق بحسب حكمته، فلا ينبغي أن تظنوا أنه يجب على الله ﷻ شيء، فالحكم حكمه والأمر أمره.

فذكّر بهذا المبدأ الإيماني الضخم النبيُّ أشرف الخلق وخليل الحق ﷺ فقال الله ﷻ له من قبل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: 128]، وهنا يذكّر الله ﷻ به الجميع.

فيجب أن تقوموا بما عليكم القيام به، ثم إن شاء الله ﷻ أن يحقق لكم النتائج، وإن شاء حجبها عنكم لحكمة يعلمها، «فَوُجُوهُ الْمَصَالِحِ مَخْفِيَّةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى، فَرُبَّمَا كَانَتِ الْمَصْلَحَةُ فِي إِيصَالِ السُّرُورِ وَاللَّذَّةِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ فِي تَسْلِيطِ الْأَحْزَانِ وَالْآلَامِ، فَلَمْ يَكُنْ عَلَى اللَّهِ ﷻ اعْتِرَاضٌ فِي شَيْءٍ مِنْ أَفْعَالِهِ». «تفسير الرازي 9/ 396».

صفة ٥ خفايا النفس: وساوس واعتراضات مبطنة

﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران: 154] إذ يتلاعب الشيطان بعواطفهم و أفكارهم في تلك اللحظات إن كانوا مؤمنين، وإن كانوا منافقين، فهذا يبصرنا أن نفوسهم «ملأى بالوساوس والهواجس، حافلة بالاعتراضات والاحتجاجات، وسؤالهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [آل عمران: 154] يخفي وراءه شعورهم بأنهم دُفعوا إلى مصيرٍ لم يختاروه! وأنهم ضحية سوء القيادة، وأنهم لو كانوا هم الذين يديرون المعركة ما لاقوا هذا المصير» هكذا قرر بعض أجلة المفسرين.

والذي يظهر لي أن العتاب للمؤمنين، و أنه يجوز أن يصدر مثل هذا عن مؤمنٍ أصابته غفلة فجأة، فنسي مقتضيات ما ينبغي أن يعتقده، وما أكثر ما يحصل لنا مثل هذا! لكنه يظل طائفًا من الشيطان.

صفة ٦ منطق "لو" المدمر

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: 154]

تكرر الفعل المضارع ﴿يقولون﴾ ليصور لنا أنهم -إن كانوا مؤمنين- استسلموا لعبث الشيطان في لحظتهم تلك بدلًا من أن يفكروا بالأمر بصورة أقوى، ويحاسبوا أنفسهم، فظنوا أن الهزيمة تنافي انتسابهم للإسلام، ويصور لنا -إن كانوا منافقين- بأنهم قد أُهملوا، ولم يؤخذ بآرائهم في أثناء الشورى قبل الخروج من المدينة، وبأن الإسلام لو كان حقًّا لما حلت الهزيمة، وهذه النفوس لا ترى حكمة الله ﷻ في حدوث الأحداث، بل تجعل حدوث الانكسار دليلًا على البوار والخسار.

وقد ورد أن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال:

والله إني لأسمع قول معتب بن قشير أخي بني عمرو بن عوف، والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا كالحلم حين قال: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: 154]. فإن ثبت هذا الحديث فلا يدل ذلك على النفاق، بل يدل على طيف الشيطان العارض. والأصل أن كل من كان في أُحُد مؤمنٌ بيقين، فالمنافقون انسحبوا في أول المعركة كما سيأتي في الكلام عنهم.

بَصِيرَة ٧

ثلاثة سهامٍ ربانية ترد على منطق "لو"

﴿قل﴾ تبصرنا بضرورة الرد عليهم، وعدم تجاهل أخطائهم أو عبث الشيطان بهم، فرد الله ﷻ عليهم بثلاثة ردود:

الرد الأول	الرد الثاني	الرد الثالث
حقيقة القدر	حكمة الابتلاء	غاية التمحيص
﴿لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: 154]، فيجب الإيمان بالتحديد المسبق لموعد الموت، فـ«الْحَذَرُ لَا يَدْفَعُ الْقَدَرَ، وَالتَّدْبِيرُ لَا يُقَاوِمُ التَّقْدِيرَ». «تفسير الرازي 9/ 397» أي: فأين إيمانكم بالقضاء والقدر؟ وَالْمَضَاجِعُ: جَمْعُ مَضْجَعٍ، وَهُوَ مَحَلُّ ضجعةِ الإنسان أي: استلقائه للنوم أو للموت.	﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ [آل عمران: 154]، فانكسار المسلمين في معركة أُحُد اختبار لكم لتخرج الحقيقة من صدوركم أمام العالم: هل أنتم صادقون في دعاوى الإيمان؟ «فَيَتَمَيَّزَ الْمُوَافِقُ مِنَ الْمُنَافِقِ». «تفسير الرازي 4/ 95»، والمقصود تحذير المؤمنين من أن يقعوا فيما وقع فيه المنافقون عند الاستجابة لخواطر السوء.	﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: 154]، أي: ليخلص ما في قلوبكم من السوء والخطأ لتصبح صافية مُسَلَّمة له لا اختلاط فيها.

بَصِيرَة ٨

؟

فرَّق الله ﷻ بين القلب والصَّدر في حدوث التأثُّر في قوله جل مجده: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: 154]، فمحلُّ الابتلاء الصُّدور، ومحلُّ التَّمحيص القلوب، وقد تتساءل عن الفرق بينهما؟

الجواب:

التَّمحيص مشتقٌّ من مَحَصَ، ويَدُلُّ عَلَى تَخْلِيصِ شَيْءٍ وَتَنْقِيَتِهِ ممَّا فيه من العيوب والنَّقائص، فالمَحْص كالفَحْصِ، لكن الفحص بحث عن العيوب والمناقب، والمحص إزالةٌ للعيوب والمثالب، يقال: مَحَصْتُ الذَّهب ومَحَّصْتُهُ: إذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث. (ينظر: مقاييس اللغة 300/5، المفردات الراغب ص: 464).

فالتَّمحيص يأتي بعد الابتلاء، والابتلاء يكون لِمَا في الصُّدور؛ لأن الابتلاء يُمثِّل المرحلة الأولى، ثم تأتي مرحلة التَّمحيص لِمَا في القلوب، أي ليختبر اختبارًا فيه بلاء ما في صدوركم، وبعد ذلك بقليل ويستمر معه ليمحص ما في قلوبكم أي لينقي ما فيها، ويخلصها من عيوبها وسيئاتها وخطيئاتها وخبثها، فيخرج القلب مُمَحَّصًا قد زالت عيوبه، وذنوبه، وأهواؤه، وزال كلِّ شيء رديء فيه.

فالوَسواس يوسوس في صدور الناس لا في قلوبهم؛ لأنه يحوم حول القلب في ساحته، لذا قال الله ﷻ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: 120]، ولم يقل «فيه» لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك، وأوصله إليه، فدخل في قلبه. (بدائع الفوائد 262/2)، هكذا قرر ابن القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولو أكمل فقال: يوسوس في الصدر إلى القلب، والقلب يقبل ذلك أو يرفضه.

فنخلص إلى عبارة واحدة جامعة بين الحروف الثَّلاثة التي تعدَّى بها فعل الوسوسة بأنه:

يوسوس للإنسان، في صدره، إلى قلبه.

بصيرة ٩

العلم الإلهي المطلق

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران: 154] تبصرنا بأن الابتلاء والتمحيص لا يعني أن الله ﷻ لا يعلم ما في صدوركم، بل هو عليمٌ بِالسَّرَائِرِ، ولكنه يبتليكم لتنكشف حقيقتكم أمام أنفسكم وأمام العالم، وتظهر حجة الله ﷻ عليكم في ثوابكم أو عقابكم، وهذه الخاتمة تبين معنى قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: 140]، فالله يعلم ما في الصدور، ولكن المعنى هنا، وليعلم علم إظهار وظهور، فيحاسب الناس عليه.

بصيرة ١٠

وفي الجهة المقابلة شموسٌ أشرقت في قلب الظلام

ممن صدق اللهَ في أُحد مجموعةٌ، منهم: طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، فقد روى مسلم (1789) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، فجاءت كتائب المشركين تريد اغتياله، فقَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ: هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ»، فتَقَدَّمَ السبعة واحدًا واحدًا حتى قُتلوا جميعًا، ثم قاتل طلحة رضي الله عنه قتال السبعة، ثم رد الله عز وجل المشركين، قال أبو بكر رضي الله عنه: ثُمَّ أَتَيْنَا طَلْحَةَ رضي الله عنه فِي بَعْضِ تِلْكَ الْجِفَارِ فَإِذَا بِهِ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ أَقَلّ أَوْ أَكْثَر مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ وَضَرْبَةٍ، وَإِذَا قَدْ قُطِعَتْ أُصْبُعه، فَأَصْلَحْنَا مِنْ شَأْنه (الطيالسي:6).

وروى البخاري (4059) عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: «مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم جَمَعَ أَبَوَيْهِ لأَحَدٍ إِلَّا لِسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ: يَا سَعْدُ ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي».

السنة الثامنة

العفو الإلهي: مفتاح تحويل الهزيمة إلى نصر

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١٥٥﴾ [آل عمران: 155]

تبصرنا بأن التولي -وهو الهروب- من المواجهة في المعركة من أعظم أسباب الهزيمة، ولكنه لا يعني أن الهارب ليس مؤمنًا، ولتحويل هذا التولي عن المواجهة إلى نصر قادم لا بد من الإعلان عن العفو عن مرتكبه بالنظر إلى تاريخه المجيد، وسيرته السابقة المشرقة، وسابق فضله، وجهاده، وفيها 8 بصائر تُضيء دروب قلوبنا وتصقل وعينا:

بَصِيرَة ١

الشيطان عدو لا يمل المطاردة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ [آل عمران: 155] تبصرنا بأن الانتصار على الشيطان في البداية لا يعني بالضرورة الثبات على ذلك حتى النهاية، فالآية تصور لنا طائفة صادقة من المؤمنين تشرفت بالمشاركة في أول معركة أحد، ولم تفشل كالمنافقين، فانتصرت على وساوس السوء، ولكن الشيطان حاول إيقافهم عن هذا التفوق، فزين لهم تأويلاتٍ باطلة لينسحبوا بعد التقاء الجمعين وظهور الهزيمة، فهذا تحذيرٌ شديد من الخطط الشيطانية التي لا تترك الإنسان لا قبل العمل ولا في أثنائه ولا حتى بعده، وهنا تظهر عظمة التربية القرآنية للنفوس البشرية.

بَصِيرَة ٢

الزلة مدخل الشيطان والخطيئة تتبعها الخطيئة

﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾ [آل عمران: 155] تُبصرنا هذه الآية الكريمة بحقيقتين قاسيتين تدفعان الإنسان نحو هوة المعصية:

١ الشيطان

﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [آل عمران: 155] أي: طلَب إيقاعهم في الزلل، فعمَلُ الشيطانِ الدؤوب لا يفتر.

٢ كامنة فينا نحن البشر

﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾ فالباء للإلصاق، فاكتساب الإنسان معاصي سابقة لم يتنبه لخطرها يساعد الشيطان على إيقاع الإنسان في الزلل

وهفوات النفس في الصغائر قد تجر إلى الكبائر كما قَالَ الرَّاغِبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى هذه الآية: «اسْتَجَرَّهُمْ حَتَّى زَلُّوا، فَإِنَّ الْخَطِيئَةَ الصَّغِيرَةَ إِذَا تَرَخَّصَ الْإِنْسَانُ فِيهَا تَصِيرُ مُسَهِّلَةً لِسَبِيلِ الشَّيْطَانِ عَلَى نَفْسِهِ». (المفردات: 214).

بَصِيرَة ٣

الهزيمة ليست دائمًا مؤامرة خارجية

﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ [آل عمران: 155] ما أكثر ما نعلق هزائمنا بالمؤامرة والتآمر العالمي علينا، والآية هنا تبصرنا بأن الهزيمة لا تكون بسبب التآمر الخارجي دائمًا، بل قد يسببها بعض الصادقين الذين يحدث منهم العصيان والتولي وترك الانضباط.

بَصِيرَة ٤

النفس المخطئة... كيف تفقد حصانتها؟

﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ [آل عمران: 155] تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة، فتفقد ثقتها في قوتها، ويضعف بالله ارتباطها، ويختل توازنها وتماسكها، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس، بسبب تخلخل صلتها بالله ﷻ وثقتها به! وعندئذ يجد الشيطان طريقه إلى هذه النفس، فيقودها إلى الزلة بعد الزلة، وهي بعيدة عن الحمى الآمن، والركن الركين.

بَصِيرَة ٥

عفو الله ﷻ بلسمٌ للجراح وشفاء للقلوب

﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾ [آل عمران: 155] جمع لهم بين العفو والمغفرة وسببهما وهو أنه غفور حليم، فتبصرنا بأن وقوع المؤمن في معصية حتى لو كانت كبيرة لا يعني أن ييأس من رحمة الله ﷻ، بل يعفو ربنا ﷻ عنه إن تاب و أناب؛ لأن الله غفور أي يُغَطِّي المعاصي ويحمي من شرها في الدنيا والآخرة كأن لم تكن، كما يغطي المِغْفَرُ -وهو الدرع- من الإصابات، و إنما غطاها وحمى من شرها لأنه ﴿حَلِيمٞ﴾ يتحبب للبشر بحِلمه، ومعنى الحلم هنا أنه لا يفضح بالعثرات، ولا يقيم العقوبات على أهل السيئات.

بَصِيرَة ٦

التوبة سبيل التقوى بعد الذنب

هذه السورة المباركة تبصرنا كيف نربي نفوسنا، فالذنب لا يمنع من البقاء على مرتبة التقوى إذا تيب منه كما قال تعالى في آيةٍ جامعةٍ تلامس شغاف القلوب: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾ [آل عمران: 135]، فمن الفعل الفاحش: التولي إذا التقى الجمعان، فقد قال النبي ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، وذكر منها: «وَالتَّوَلِّي يوم الزحف». «البخاري: 2766».

بَصِيرَة ٧

الاعتدال...لا عصمة لقائد ولا قطيعة لمخطئ

هذه الآية الكريمة، برسالتها الحكيمة، توجه خطابًا عظيمًا إلى فرقتين من المسلمين، لتضع الأمور في نصابها وتصوب مسار الفهم:

١

فرقة من المسلمين أصرت على معاملة قياداتها على أساس العصمة المستقرة في عقلهم الباطن لسابقةٍ إيمانية، كقيادات الجماعات والجمعيات، أو العلماء أو الحكام، فلم يحاسبوهم، مع أن المحاسبة لا تعني إخراجهم من الإسلام ولا نسيان مآثرهم الكريمة.

٢

فرقة جعلت وجود المعصية علامة على المفارقة لصاحبها ووصفه بأقبح الصفات، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ بصرنا هنا أن ارتكاب هذه الكبيرة -وهي التولي يوم الزحف- لا يعني سقوط الإنسان من مرتبة التقوى،

وقد قال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأُحَذِّرُكُمْ زَيْغَةَ الْحَكِيمِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ، وَلَا يُنْئِيَنَّكَ ذَلِكَ عَنْهُ». «أبو داود: 4611، وصحح إسناده الأرناؤوط»، والحكيم هو العالِم، أي: لا تتابعه على خطئه، وفي الوقت ذاته لا تبتعد عنه، وقد يراجع نفسه، ويعود إلى الحق.

بَصِيرَة ٨

المحاسبة... بين الستر والعلنية، سبيل الرقي

لقد أظهرت الآية مشهد المحاسبة العلنية لمن ارتكبوا معصية التولي يوم الزحف في أحد بعد بدء المعركة، فتبصرنا بأنه إذا كانت المعصية فردية فينبغي السترُ على صاحبها، ونصحُه سرًّا، أما إذا كانت متعلقة بالناس، أو كان صاحبها ذا مسؤولية جماعية، ومعصيته مؤثرة على غيره فلا بد من المحاسبة العلنية، وهي لا تعني إخراج المحاسَب من الدين، ولكنه لا بد أن يعلم أنه تحت المجهر، وكثير من الدول القوية ما سادت إلا بسبب المحاسبة العلنية، فالشكوى مصدر إلهام للتطور والتغير نحو الأحسن.

جسر الاتصال

عرفنا أن القسم الخامس من المحور السادس قد بصَّرنا بأخطاءٍ قاتلة حدثت في معركة أحد، فحدثنا عن سنن الهزيمة التي تقلب النصر إلى فشل عند الالتحام العسكري في أثناء المعركة [آل عمران: 152-155]، وهي 8 سنن، فهل هناك سنن خاصة تقلب النصر إلى فشل، وتورث الانكسار الدائم قبل الالتحام العسكري؟

الجواب هنا يأتي:

القسم السادس

شبح التقليد... هل تقودنا ثقافة الأعداء إلى الهزيمة؟

هذا القسم يبصرنا بأن من أهم السنن الكبرى للفشل والانكسار تقليد الكفار والتأثر السلبي بثقافتهم الدنيوية المادية [آل عمران: ١٥٦-١٥٨]، وهذا يعني أن تصحيح المفاهيم والتصورات الخاطئة، وغرس المبادئ والأصول الإيمانية الصحيحة جدارٌ حاجز من الوقوع في الهزيمة، وأعظم معين على تجاوزها ومعالجة آثارها، وفيه ١١ بصائر تُضيء دروبنا وتصقل فهمنا:

آيات هذا القسم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨﴾

بصيرة ١: نداء الإيمان حصنٌ من وهج الهزيمة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: 156] خاطب المؤمنين مجددًا مع أن الكلام معهم لأهمية التوجيهات التي سيسمعونها، فبعد أن ذكر حلول الفشل في مجريات معركة أحد حذرنا من تقليد الكفار في نظرتهم المادية عند تحليل الأحداث، وذلك لأن مواقف الانهزام تدفع الإنسان إلى التفكير الخاطئ، فربما قلد الكفار إذا رآهم علوا، وهنا يصحح الله ﷻ لنا التصورات الخاطئة، فيجب على الناصحين استثمار مواقف الفشل في بناء القيم والمبادئ، والاستعانة بها لتجاوز المحن والأزمات وتخفيف آثارها.

بَصِيرَة ٢

الإيمان هوية فوق كل الهويات

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: 156] يبصرنا تكرار هذا النداء المميز للمرة السادسة في سورة آل عمران بعظمة هذه الهُوية الضخمة في الأرض «هوية الإيمان»، إنه نداءٌ ينمي فينا الاعتزاز بهذا الانتماء الرباني، ويُعلي شأنه فوق كل الهويات الأخرى؛ نسبيةً كانت، أو جنسية، أو حزبية، أو اجتماعية. إنه تذكيرٌ متجددٌ بشرفنا العظيم حين نعمل بمقتضيات إيماننا.

بَصِيرَة ٣

أسباب الفشل ثلاثية قاهرة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: 156] تبصرنا بأن الفشل نتيجة حتمية لأحد ثلاثة أسباب:

الأول: الوقوع في فخ تقليد ثقافة الكفار الدنيوية

فالله ﷻ يحذرنا صراحة من محاكاتهم في هذا الجانب، قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: 156].

الثاني: التخذيل المفسد للعزائم

فالكفار يخذلون غيرهم، والله عزوجل يصف حالهم، فيقول: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا﴾ [آل عمران: 156]، فهم يخذِّلون غيرهم من الشجعان.

الثالث: خلط مفاهيم القدر

فهم قالوا: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: 156] مع أن قدر الإنسان لا بد أن يأتيه سواء كان في المعركة أم في بيته، فكم من قويٍّ كحمزة قُتل في أحد، وكم من ضعيف كابن مسعود بقي على قيد الحياة، وكلاهما كان شجاعًا رضي الله عنهما.

بصيرة ٤

التشبه فخٌ في الباطل وقوةٌ في الحق

﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: 156] تبصرنا بأن لا نتشبه بالكفار ولا نقلدهم في الأمور الباطلة، وأول ما يجب مفاصلتهم فيه تحليلُ الأحداث، وفهمها وفق الإطار الإيماني العقدي والرؤية القرآنية، ولكن ذلك لا يمنع أن نتشبه بهم في الأمور الصحيحة في المجمل كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إلا تكونوا مثلهم في الاتحاد، فيوالي بعضكم بعضًا أيها المؤمنون وتُكَوِّنوا وحدة إسلامية بينكم ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۝٧٣﴾ [الأنفال: 73].

بصيرة ٥

حصانة المجتمع المسلم درع ضد التصورات الجاهلية

﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: 156] تبصرنا بضرورة تقوية مناعة المجتمع المسلم والجبهة المسلمة روحًا وعقلًا وفكرًا من تسرب التصورات الجاهلية، والمعايير الكفرية في الحكم على الظروف والمجريات وتقييم مآلاتها، ووجوب الاعتماد في ذلك على التوجهات الربانية، والبصائر القرآنية.

بصيرة ٦

التخذيل سهمٌ مسموم في قلب العزائم

﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ [آل عمران: 156] الواو حالية تبصرنا بأحد الأحوال التي يحرم فيها أن نتشبه بالكفار في تفكيرهم وإدارتهم الخاطئة للحياة، ومن ذلك حال أولئك الذين إن رأوا من بعض إخوانهم جرأة على ركوب الأخطار، ومفارقة الأمصار، وتحصيل المصالح والتجارة في الأسفار، وجهوا إلى عزائمهم معاول التخذيل، وأكثروا لهم من قال وقيل، وثبطوهم عن مقاصدهم بأنواع التهويل، والمبالغة في التخييل، فجاء التحذير من الله المتعال من أن نقلدهم في هذه الحال.

بصيرة ٧

أهم طرق المعالي

﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ [آل عمران: 156] تبصرنا بأن أهم طرق المعالي، واكتساب الغوالي مفارقة الراحة والأهالي، ولها طريقان:

١

﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 156]

أي: تحريك الأقدام حتى تضرب بها الأرض، دلالة على الحركة وقوة العزيمة، والنشاط في السير، ومباشرة الأعمال بحيوية وجلَدٍ سواء أكان مداها قريبًا أم بعيدًا، في وطن الإنسان أم في أمصار أخرى، وسواء أكانت هذه الحركة للتجارة، أو العمارة، أو الزيارة. وهذا يعني وجوب تحقيق فرض الكفاية في تعلم التجارة وسائر الحِرَف، واكتساب العلاقات المفيدة.

٢

﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ [آل عمران: 156]

غزو العدو لإغاثة المستضعفين، وإقامة العدل في العالمين قبل أن يتمكن من الوصول والحصار للأرض والعرض، وهذا يعني توسيع مجالس الأمن القومي، وتعليم فنون الشجاعة والإقدام، وفنون الالتحام في الميدان.

والتعبير بالضرب في الأرض دعوة للحركة في أرض الله ﷻ، والتنقل في أرجائها -وإن تباعدت- لطلب خيراتها وتحصيل كنوزها وثمراتها؛ «لأن الضرب في الأرض يراد به الإبعاد في السفر، لا ما يقرب منه». (تفسير الرازي 9/45).

بصيرة ٨

فخ الخوف من الموت حجة شيطانية ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: 156]

تبصرنا بأن الحجة الشيطانية التي تمنع الإنسان من طلب رضا الرحمن، وإسعاد الأباعد والخِلَّان هي الخوف من الموت، وادعاء المحافظة على سلامة الأفراد وتأمين حياتهم، وأساس ذلك عدم فَهْم حقيقة الابتلاء، وعقيدة القضاء والقدر، فكأن الذي يمنع من الموت في هذا الفهم الخاطئ هو أن يبقى الإنسان في مدينته، ولا يتحرك لتجارته، ولا لتأمين أُمَّته.

بَصِيرَة ٩

دلالة الترتيب ... موتٌ محتوم وعقولٌ مختلة

لاحظ قالوا: ﴿مَا مَاتُواْ﴾، قبل أن يقولوا: ﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾، أي: لو أطاعونا فجلسوا معنا "مَا مَاتَ أُولَئِكَ الْمُسَافِرُونَ، وَمَا قُتِلَ أُولَئِكَ الْغَازُونَ". «تفسير المنار 4/159».

وفي تقديم ذكر الموت، دلالة على توزيع الأمرين –الموت والقتل- على حالتي: "الضرب في الأرض" (السفر والتجارة)، و"الغزو" (القتال). وفي هذا التقديم أيضًا ما يدل على خبال عقولهم؛ لأن الموت حقيقة لا مفر منها، فكيف يمكن للإنسان أن يحمي نفسه منه بمجرد البقاء في البيوت؟!

بَصِيرَة ١٠

الكفار أصنافٌ وعِظات

بصرتنا الآية بأن الكفار صنفان: صنف شجاع مقدام يضرب في الأرض، ويغامر للتجارة أو للغزو، وصنف عاطل بطَّال جبان خوَّاف لا يتحرك، فالله سبحانه وتعالى ينهى أن نكون كالصنف العاطل البطال، وإذا وُجِدَ الشجعان من الكفار لماذا لا تكونوا كذلك؟! وفي هذا تهييج للمسلمين، وإلهاب لعزائمهم.

بَصِيرَة ١١

علاج الأفكار الضالة: ردودٌ قرآنية حاسمة

لِمعالجة هذه الفكرة الضالة التي خلطوا فيها بين الإقدام وبين القضاء والقدر، جاءت (٧) من الردود القرآنية البليغة:

الرد الأول

أن نتذكر أن هَذَا الْقَوْل يقترن بِالْكُفْرِ

فقال الله ﷻ: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران:156]، ليشعر ذلك بقبح صدوره منكم، وبِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْدُرَ عَنْ مُؤْمِنٍ. «تفسير المنار 4/159».

الرد الثاني

الحسرة جزاء الفرار والجبن

﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [آل عمران: 156]، أي: الإصرار على الهروب من المواجهة خوفًا من الموت سببٌ عظيم للحسرة، والحسرة عقوبة دنيوية وأخروية. فاللام في قوله: ﴿لِيَجۡعَلَ﴾ للتعليل توجيهًا للنَّهي عَنِ التَّشْبيهِ بِهِمْ، أَيْ: فَإنَّكُمْ إنِ اعْتَقَدْتُمُ اعْتِقَادَهُمْ لَحِقَكُمْ أَثَرُهُ كَمَا لَحِقَهُمْ، وَقِيلَ: اللَّامُ لَامُ الْعَاقِبَةِ. «التحرير والتنوير: 142/4»، ومعنى كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى تخلفهم وقولهم الباطل، فسيكون حسرة أي: ألمًا يوجع قلوبهم، ويندمون على صدوره منهم لِما سيجدون من المهانة والذلة بسبب إيثارهم القعود على مراقي السعود جبنًا وهلعًا، كما قال زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ لمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ ... يُهَدَّمْ، وَمَنْ لَا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنَلْنَهُ ... وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

«ديوان زهير بن أبي سلمى: ص111»

الرد الثالث

حسرة الكفار بنصر المؤمنين وثباتهم

يمكن أن نفهم معنى آخر لقوله تعالى: ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ﴾ [آل عمران: 156]، فاسم الإشارة عائدٌ إلى اجتناب المؤمنين مقالةَ الكافرين وفكرهم، أي ليجعل الله ﷻ عدم تقليد المؤمنين لمقالة الكافرين حسرة في قلوبهم، فإن لم يفعل المؤمنون مثلَهم صاروا أقوياء، وحينها سيُصاب الكافرون بالحسرة.

الرد الرابع

الخالق الرازق بيده الحياة والممات

يمكن أن نفهم معنى آخر لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ [آل عمران: 156]، فالخوف من المواجهة الضرورية لمجرد الحفاظ على الحياة منافٍ لليقين بالله ﷻ ومبادئ الإيمان، فأين زعمكم أيها المؤمنون أنكم مصدقون بقضاء الله وتدبيره للكون، وتصريف أحوال الخلائق، و أنتم ربما جبنتم عن مواجهة عدوكم؟

الرد الخامس

عين الله ﷻ ترى كل خافية

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ١٥٦﴾ [آل عمران: 156]

بَصِيرَة ١

الحقيقة لا تخفى على البصير: يعني هذا الرد أن نقول لأنفسنا ولهم: إن التلاعب بالمفاهيم لتغيير الحقائق لا يخفى على الله تعالى فهو بما تعملون بصير، والخطاب للمخذلين

بَصِيرَة ٢

الخطاب للشجعان المضحين أي: إن كان مرادكم في الإقدام صادقًا، وحدث الموت أو القتل، ولم يتحقق لكم النصر فحسبكم أن الله بما تعملون بصير. [آل عمران: 137-165].

بَصِيرَة ٣

قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ أي: الله بما يعمل المخذلون والشجعان: بصير، فالله ﷻ يرى أعمال الفريقين، ويعلم ما في قلوبهم.

والمقصود: أن بعض الناس يُسَوّغُ باسم الواقعية أن نسلك سبيلَ الجبن والفشل، ويجعل الإقدام في سبيل الله ﷻ يؤدي إلى الهلكة، فلئن خفي مرادكم على الناس فلن يخفى على الله ﷻ الذي بما تعملون بصير؛ سواء أكانت أعمالكم ظاهرة أو خفية، وقد قال الحصين الفزاري:

تَأَخَّرتُ أَستَبقي الحَياةَ فَلَم أَجِد ... لِنَفسي حَياةً مِثلَ أَن أَتَقَدَّما

فَلَستُ بِمُبتاعِ الحَياةِ بِسُبَّةٍ ... وَلا مُرتَقٍ مِن خَشيةِ المَوتِ سُلَّما

(شرح حماسة أبي تمام للفارسي 2/142-143)

الرد السادس

المغفرة والرحمة خيرٌ من كنوز الدنيا

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝١٥٧﴾ [آل عمران: 156]، نقول لأنفسنا: القتل أو الموت ليس النهاية، بل بداية أحد أعظم النتائج المشرفة، وهو أن تنالوا مغفرة من الله ﷻ ورحمة:

بصيرة ١

عطاء الله ﷻ أعظم مما يجمع الناس

المغفرة والرحمة خير مما يجمع المخذلون الكافرون والمؤمنون على قراءة حفص بالغيب ﴿يَجْمَعُونَ﴾، وقراءة الجمهور بالخطاب ﴿تَجْمَعُونَ﴾ أي: خير مما تحققونه وتحوزونه من المصالح التي تظنون أنكم ستحققونها لو هربتم من المواجهة، وبقيتم أحياء في ظل حياة مهينة، بل هو خير من الانتصار في الدنيا لو تشجعتم فانتصرتم، لذلك قال النبي ﷺ: «مَوْقِفُ سَاعَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ». «ابن حبان 4603، وصحح إسناده الألباني في الصحيحة: 1068».

بصيرة ٢

القتل أقصى ما يخشى وأعلى ما يُرجى

قدَّم القتل على الموت لأنه أقصى ما يحذره الإنسان في المعارك.

الرد السابع

المصير الأوحد لقاء المحبوب

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ۝١٥٨﴾ [آل عمران: 156]، تبصرنا بالتربية على محبة الله ﷻ، فنتيجة الموت واحدة: الحشر إلى الله ﷻ لا إلى غيره، ولذا قدَّم الجار والمجرور:

بَصِيرَة ١

فرحة اللقاء وندم الحسرة: فالمؤمن المقدام يفرح بلقاء ربه، وبتركه لما كان يجد في الدنيا من الآلام، والمخذّل سيرجع إلى ربه بالموت أو بالقتل ملومًا محسورًا.

بَصِيرَة ٢

لا مفر من الحشر إليه: قدَّم الموت على القتل لبيان أن الذي يُؤْثِرُ الموت على الفراش في بيته لن يهرب من الحشر إلى الله، فهو مثل المقتول تمامًا.

بَصِيرَة ٣

الموت في سبيل أعظم من كل حياة كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» «البخاري 2790».

بَصِيرَة ٤

عمق البيان بين الخوف والرجاء والمحبة

يرى الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القوة البيانية لهذه الكلمات واضحة عظيمة، فقد قال الله ﷻ في الآية السابقة: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 157] وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى مَنْ يَعْبُدُهُ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى مَنْ يَعْبُدُهُ لِطَلَبِ ثَوَابِهِ، ثُمَّ قَالَ فِي خَاتِمَةِ هذه الْآيَةِ: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: 158] وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لأنه العبد الذي يخضع لربه بحكم الرُّبُوبِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ. «تفسير الرازي 9/ 404».

ويظهر لي أن المغفرة ترغيب عظيم في محو السيئات، وأن الرحمةَ ترغيب في جلب الخيرات، وبذلك يحصل النجاح في أعظم الاختبارات، وقوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ ترغيبٌ في لقاء رب الأرض والسموات، وعدم الأسف على دنيا المخلوقات.

جسر الاتصال

عرفنا أن القسم السادس من هذا المحور قد بصَّرنا بأن من أهم السنن الكبرى للفشل والانكسار تقليدُ الكفار والتأثر السلبي بثقافتهم الدنيوية المادية [آل عمران: 156-158]، وهذا يعني أن تصحيح المفاهيم والتصورات الخاطئة، وغرس المبادئ والأصول الإيمانية الصحيحة جدارٌ حاجز من الوقوع في الهزيمة، وأعظم معين على تجاوزها ومعالجة آثارها، فهل هناك سنن خاصة لها أثرها في تحقيق النصر تتعلق بفن القيادة العسكرية؟

الجواب هنا يأتي:

القسم السابع

سنن النصر المتعلقة بفن القيادة الناجحة، واستيعاب الأتباع، وتعامل الأتباع مع قيادتهم [آل عمران: ١٥٩-١٦٦] يا لقلب يتوق إلى النصر، ويا لروح تتطلع إلى الظفر! إن رحلة البناء والتقدم لا تستقيم إلا بقيادة حكيمة و أتباع أوفياء، يتشاركون دروب العزم ويحتضنون قيم التسامح.

تكشف لنا آيات هذا القسم كنوزًا من السنن الإلهية التي تُضيء دروب القيادة الرشيدة وتبني مجتمعًا متماسكًا لا تهزه الخطوب:

آيات هذا القسم:

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا
عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ
لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ
بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ
هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾

وفي هذا القسم نستلهم 11 سُنَّة، نُبحر في رحابها، لتكون لنا منارًا في دروب الحياة والقيادة:

السنة الأولى

سنة اللِّين سرُّ القلوب المجتمعة:

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: 159].

السنة الثانية

رِفْقُ القيادة: حصنُ الأمة وروحُ الانتصار

﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾

السنة الثالثة

العفو والاستغفار: جسرٌ للوحدة وطريقٌ للانتصار

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾

السنة الرابعة

الشورى: حبلُ النصر المتين وقوةُ الصفِّ المُتماسك

﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾

السنة الخامسة

العزم المقرون بالتوكل على الله ﷻ بعد الاستشارة

﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾

السنة السادسة

نصرُ الله ﷻ ثمرةُ نُصرتِهِ والتوكلِ عليه

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ ...﴾

السنة السابعة

سُنَّةُ الله ﷻ في الغُلُول: خِذلانٌ في الدنيا وفضيحةٌ في الآخرة ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ ...﴾ [آل عمران: 161].

السنة الثامنة

سنة التذكير بدار القرار ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ ...﴾ [آل عمران: 162، 163].

السنة التاسعة

رباعية الحياة والانبعاث مصدر النصر المتجدد

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ...﴾ [آل عمران: 164].

السنة العاشرة

سنة المحاسبة العلنية والاعتراف

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ...﴾ [آل عمران: 165].

السنة الحادية عشرة

سُنَّةُ المِيزَانِ الدَّقِيق: الجمع بين الإيمان بالقدر واختيار البشر

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٦٦﴾ [آل عمران: 166].

السنة الأولى

سنة اللِّين سرُّ القلوب المجتمعة

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 158]

تُبَصِّرنا بأن من سنن الانتصار: أن تجمع القيادة والأتباع بين اللين والحزم واستيعاب الصف بأجمعه، فهذا مبدأٌ قياديٌّ، ومطلبٌ عسكريٌّ، وتماسكٌ داخليٌّ، وفيها 8 بصائر ملهمة:

بَصِيرَة ١

تفريعٌ يربط الفوز بالاستيعاب ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾

الفاء تصورلنا اتصال ما بعدها بما قبلها، اتصالًا قائمًا على التفريع، فقد ذكر الله تعالى فيما سبق ما يتعلق بالسنن العامة في النصر والهزيمة عند الالتحام العسكري، وقُبَيله، وبُعَيده سواء تعلق ذلك بالجنود والأتباع أو بالقيادات، وهنا يذكر الله سبحانه سننًا تُعِين على إدارة الجند بكفاءة، وتحقيق النصر في المعارك.

بَصِيرَة ٢

الرحمة الإلهية تغلب الأهواء الشخصية

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾

تُبَصِّرنا بأن من أهم مظاهر ولاية الله تعالى أن يتجرد الإنسان عن أطماعه الشخصية، ويُغَلِّب صالح المجموع، فقد يلعب الشيطان ببعض القيادات، فيوهمه أنه بحذلقته السياسية يستطيع أن يكسب نصرًا سهل المنال، ولو على حساب طرد بعض الجند من الصف ممن لا مبرر لطردهم سوى الأهواء الشخصية، أو القرارات غير المدروسة، فتكون النتيجة زيادة الهزائم، ومضاعفة الخسائر.

بَصِيرَة ٣

لين القائد رحمة للأمة ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾

أي: أنت يا رسول الله، والخطاب له خطاب لغيره -إلا أن يدل دليل على الخصوصية- فيُبَصِّرنا بأنه ينبغي أن تستعمل القيادة الراشدة اللين المنبثق من الرحمة في التعامل مع أفراد الصف المسلم بغض النظر عن الأحزاب والألقاب، وفخَّم الله تعالى شأن الرحمة التي يجب أن تتصف بها القيادة، فجاءت كلمة:﴿فَبِمَا﴾ بالفاء للتفريع على أخطائهم المذكورة سابقًا، و أتى بباء السببية، و أتى بكلمة {ما} للتأكيد والتفخيم، فكأنه قال: بعض الصحابة ضعفوا أمام إغراء الغنيمة، وبعضهم وهنوا وتولوا يوم التقى الجمعان، ولم يسمعوا الرسول وهو ينادي، وتركوه مثخن الجراح، وهم لا يلوون على أُحُد، فقد عفا الله ﷻ عنهم، فَلَانَ لهم رسول الله ﷺ برحمة عظيمة، وهذا أسلوبٌ جميل ليزداد لينًا لهم.

بَصِيرَة ٤

تعجبٌ من عظم اللين مع عظم الخطأ

يجوز أن تكون ﴿ما﴾ سؤالًا «لِلتَّعَجُّبِ تَقْدِيرُهُ: فَبِأَيِّ رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّ جِنَايَتَهُمْ كَانَتْ عَظِيمَةً». «تفسير الثعلبي 9/ 353»، ولكنه ﷺ لم يظهر لهم تَغْلِيظًا فِي الْقَوْلِ، وَلَا خُشُونَةً فِي الْكَلَامِ.

بَصِيرَة ٥

حصرٌ وتخصيص للرحمة الإلهية

قدَّم الْمَجْرُور وهو قوله: ﴿رَحۡمَةٖ﴾ على متعلَّقِه، وهو الفعل ﴿لِنتَ﴾، فلم يقل: لنت لهم برحمة من الله، وذلك «لِلْحَصْرِ أَيْ: بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَا بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، وَهَذَا الْقَصْرُ مُفِيدٌ التَّعْرِيضَ بِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ كَانَتْ مُسْتَوْجِبَةً الْغِلَظَ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَانَ خُلُقَ رَسُولِهِ رَحْمَةً بِهِمْ، لِحِكْمَةٍ عَلِمَهَا اللَّهُ فِي سِيَاسَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ». «التحرير والتنوير 4/ 144».

إنها رحمة خالصة، لا تشوبها شوائب، نابعة من تقدير الله لحاجة الأمة إلى هذا اللين.

بَصِيرَة ٦

اللين خلقٌ راسخٌ وسجيةٌ ثابتة

يُبَصِّرنا الفعل الماضي ﴿لِنتَ﴾ أنَّ اللين حقيقة راسخة، فهو خُلُقه ﷺ فيما مضى من الزمان، وهو خلقه المستمر الآن بعد آلام معركة أُحُد، وهذا يُبَصِّرنا بضرورة تأهيل القيادات الميدانية واكتسابهم لهذه الأخلاق والمهارات اللازمة لاحتواء الأفراد وإدارتهم حتى تصير لديهم سجايا ثابتة، وقيمًا راسخة.

بَصِيرَة ٧

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾

تُبَصِّرنا بوجوب إعداد القيادات العسكرية والميدانية إعدادًا خُلُقيًّا ربانيًّا يستلهمون بمقتضاه السداد والرشاد من الله الرحمن الرحيم العزيز الحكيم، فلا أحسن من استمداد عون الله ﷻ في التخلق بأحسن الأخلاق وأطيب الخصال.

بَصِيرَة ٨

خُلُق اللين يقتضي ألَّا نهجر العاصي أو المخطئ في عمل جماعي

بل أن نستوعبه إذا كان معروفًا بالاستقامة، ويحدثنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن القوة الإدارية لِلِّين، فيقول: "إِنَّهُ لَا حِلْمَ أَحَبَّ إلى الله مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ وَرِفْقِهِ، وَلَا جَهْلَ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ -أي غضبه وحماقته- وَمَنْ يَفْعَلْ بِالْعَفْوِ فِيمَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ تَأْتِهِ الْعَافِيَةُ مِنْ فَوْقِهِ، وَمَنْ يُنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ يُعْطَ الظَّفَرَ فِي أَمْرِهِ". (الزهد، لهناد بن السري: 2/602).

السنة الثانية

رِفْقُ القيادة: حصنُ الأمة وروحُ الانتصار

﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159]

تُبَصِّرنا بأن من سنن النصر: تركَ الفظاظة وغِلَظِ القلب، فالحزم الذي تصحبه الفظاظة والغلظة يؤدي إلى تفرق الصف، وانفضاض عقدِهِ بخلاف الحزم الذي يصحبه اللين، وينبغي الحذر من الإفراط والتفريط بتقريب الأبعدين على حساب تبعيد الأقربين، فالعدل أساسُ كل نجاح. وفي هذا نستكشف بصيرتين تُعمِّقان فهمنا:

بَصِيرَة ١

رحمة القائد وحزم الأب نبراس النبوة في قيادة الأمة

﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ﴾ تُبَصِّرنا بأن من أعظم مقاصد الرسالة القرآنية هو تربيةَ القيادة المسلمة على صفةٍ جامعةٍ مانعة: اللين في حزمٍ، ولذا قال ﷺ: « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ، أُعَلِّمُكُمْ». «أحمد: 7368، وقوى محققو المسند إسناده، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة: 347»، وقال ﷺ أيضًا: «إِنَّ لِلَّهِ آنِيَةً مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَآنِيَةُ رَبِّكُمْ قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ ، وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ أَلْيَنُهَا وَأَرَقُّهَا».

«مسند الشاميين للطبراني:840، وقوى الألباني إسناده في الصحيحة 263/4».

بَصِيرَة ٢

الغلظة: تشتيتٌ وفتنةٌ وضياع

﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ تُبَصِّرنا هذه العبارة البليغة بأن غلظة القائد وفظاظته قد تكون سببًا في نفور الجند من قيادتهم، وتشتت الناس عن وحدتهم وتماسكهم، بل إن الأمر قد يتجاوز ذلك ليصل إلى تفرقهم عن دينهم، وإلقائهم في أتون الفتنة، وقد يقودهم إلى الكفر-والعياذ بالله-. وهذا تحذيرٌ شديدٌ لكل من يتولى أمرًا، ليكون لينًا رفيقًا.

ولقد جسَّد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الحقيقة في خطبته الخالدة، التي تُعد دستورًا في معاملة الرعية

«أَلا إِنِّي وَاللهِ مَا أُرْسِلُ عُمَّالِي إِلَيْكُمْ لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ، وَلا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ، وَلَكِنْ أُرْسِلُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ، فَمَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِذًا لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ» فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَوَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَعِيَّةٍ، فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ، أَئِنَّكَ لَمُقْتَصُّهُ مِنْهُ؟» قَالَ: «إِي وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، إِذًا لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، أَنَّى لا أُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقِصُّ مِنْ نَفْسِهِ؟ أَلا لَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ فَتُذِلُّوهُمْ، وَلا تُجَمِّرُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ، وَلا تَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَهُمْ فَتُكَفِّرُوهُمْ، وَلا تُنْزِلُوهُمُ الْغِيَاضَ فَتُضَيِّعُوهُمْ» (أحمد 286، وحسن إسناده أحمد شاكر).

السنة الثالثة

العفو والاستغفار: جسرٌ للوحدة وطريقٌ للانتصار

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [آل عمران: 159] تُبَصِّرنا بسنة عظيمة من سنن النصر وهي: عفوُ القيادة عن زلات الأفراد، والاستغفار لهم، وإظهارُ ذلك من أعظم وسائل بقائهم صفًّا واحدًا، وفي هذه السنة، نستلهم 5 بصائر تُضيء لنا درب العفو والصفح:

بَصِيرَة ١

اللين صفة في القلب تظهر في التعامل

ويصحبها عفو الإنسان عن أصحابه مع اقتران ذلك ببيان وجه الزلل، واستغفار القائد لهم عما حصل، فيجتمع العتاب والعفو والاستغفار، ويثمر ذلك الوحدة والتماسك بين الأنصار، ويحقق القوة والعزة والانتصار.

بَصِيرَة ٢

عفوٌ يُحيي النفوس ويُجدِّد العزائم

﴿فَٱعۡفُ﴾ كلمة قرآنية عظيمة تُبَصِّرنا بالمطلوب من جهة النبي ﷺ، والقيادات الراشدة الناصحة من بعده، والعفو يعني أنْ تجمع: بين الإغضاء عن الذنب، والتجاوز عن الزلل، فكأنه لم يكن، والتنميةِ لحالٍ جديدة حسنةٍ تطمس السابقة.

بَصِيرَة ٣

سترٌ للذنوب ووقايةٌ من الشؤم

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ أي: استمد من الله ﷻ تجاوزه وعفوه عنهم، واطلب منه أن يغفرَ لهم، والغفران معناه أن يسترَ ذنبهم، ويقيهم شؤمه وتبعاته في الدنيا والآخرة.

بَصِيرَة ٤

سمة النبي ﷺ: عفوٌ ومغفرةٌ لا تتبدل

لقد كان هذا العفو والاستغفار سمتًا أصيلًا للنبي ﷺ، وصفةً لازمةً له في كل أحواله، وصدق عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين قال: «وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ، وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»

«البخاري: 2125».

بَصِيرَة ٥

عظمة العفو: محاسبةٌ واستيعابٌ لا يضيعُ الأفراد

انظروا إلى منتهى العظمة والكمال! فقد جمع بين محاسبتهم على أخطاءٍ بعضُها كبائر كالتولي يوم الزحف، وبين العفو عنهم ليسنَّ بذلك لنا طريقةً في حفظ المؤسسات، وتدارك الأخطاء، وإقامة مبدأ المحاسبات، مع استيعاب الأفراد وعدم تضييعهم بسبب إقامة مبدأ المحاسبة.

السنة الرابعة

الشورى: حبلُ النصر المتين وقوةُ الصفِّ المُتماسك

﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران: 159] تُبَصِّرنا بأن من سنن النصر العظيمة: إقامة القيادة للشورى الحقيقية، لا مجرد الشورى الصورية، فالشورى أساسٌ لاستيعاب الأفراد، وتمتين الصف المتراص، وفي هذه السنة نُبحِر في 10 بصائر تُضيء لنا عوالم الشورى و آفاقها:

بَصِيرَة ١

دعوةٌ لا تُقصي أحدًا.. حتى من زلَّت قدمُه

﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾ إنه نداءٌ سماويٌ، وأمرٌ إلهيٌّ مباشر للنبي ﷺ، الذي يتلألأ الوحي في جنباته، بأن يفتح أبواب المشورة لصحابته الكرام رضي الله عنهم، حتى أولئك الذين حدثت منهم أخطاء في المعركة، فيُبَصِّرنا ذلك بأن وجود الأزمات، وارتكابَ الأخطاء لا يعني ترك الشورى، ولا ينبغي أن يُظن أن الهزيمة حدثت بسببها، بل السبب مخالفة تنفيذ الخطة.

وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي كثير من الأمور كما في بدر وأُحد، وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فِي مُصَالَحَةِ الْأَحْزَابِ بِثُلُثِ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ عَامَئِذٍ، فَأَبَى عَلَيْهِ ذَلِكَ السَعْدَان: سعدُ بْنُ مُعَاذٍ وسعدُ بْنُ عُبادة رضي الله عنهما، فَتَرَكَ ذَلِكَ. «تفسير ابن كثير: 2/149».

بَصِيرَة ٢

الشورى في الشدائد

عتابٌ يليه تشاورٌ وبناء ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾ تُبَصِّرنا بضرورة الشورى حتى في الأوقات الصعبة؛ كما حدث بعد أُحُد؛ إذ عاتب الله ﷻ فئاتٍ من الصحابة رضي الله عنهم عتابًا شديدًا على ما حدث منهم في المعركة

ومن العتاب الشديد قوله:

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ...﴾ [آل عمران: 122]، ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ ...﴾ [آل عمران: 143]، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ...﴾ [آل عمران: 144]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ...﴾ [آل عمران: 152]، ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ...﴾ [آل عمران: 153]، ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ...﴾ [آل عمران: 154]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ...﴾ [آل عمران: 155]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ [آل عمران: 156]، **فهذه ثمانية خطابات من العتاب الشديد، حتى يظن الإنسان أن الله ﷻ سيخرجهم من الصف ويستبدل غيرهم، لكن الله ﷻ يظهر فضلهم على الرغم من ذلك كله، ويطلب أن يُشاوَروا، فيقول مربيًا للقيادات المسلمة:** ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: 159].

إنها رسالةٌ عميقةٌ بأن العتاب الشديد لا يُلغي دور الفرد، وأن الشورى هي أساس البناء حتى مع وجود الأخطاء.

بصيرة ٣ في جذر الكلمة كشَوْرِ العسلِ واستخراجِ كنوزه

﴿شَاوِرْ﴾ **مصدره الْمُشَاوَرَةُ، وَالِاسْمُ الشُّورَى وَالْمَشُورَةُ، مُشْتَقَّةٌ مِنْ «شارَ العسلَ يشُوره شَوْرًا إذا اسْتَخْرَجَهُ واجتَناه»،** (لسان العرب 434/4)، **وشَارَ الدَّابَّةَ إِذَا اخْتَبَرَجَرْيَهَا عِنْدَ الْعَرْضِ عَلَى الْمُشْتَرِي، والْمِشْوَارِ الْمَكَانُ الَّذِي تَرْكُضُ فِيهِ الدَّوَابُّ.** «التحرير والتنوير 146/4»، **فالشورى اختبارٌ للعقول، ومسابقة لها في مضمار الأفكار، وتقليب الآراء للوصول إلى أصوب قرار.**

بَصِيرَة ٤

مفتاح الرشاد.. الشورى أساس النهضة وباب البركة

﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ الشورى من أهم أنظمة نهضة المسلمين، فقد أمر الله تعالى بها في وقت مبكر قبل كثيرٍ من الأحكام الإسلامية بما في ذلك الصلوات الخمس؛ إذ شرعها الله تعالى في مكة: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38]، ولذا قال ابْنُ الْعَرَبِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشورى ألفة للجماعة، ومسبار للعقول، وسبب إلى الصواب» «أحكام القرآن لابن العربي 4/ 91»، فالشورى تهدي إلى الأصوب والأكثر بركة، قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما شاور قوم قط إلا هُدُوا لأرشد أمورهم» «تفسير الطبري: 7/ 344»، وهي خير سبيلٍ للاهتداء للأقوم من المسالك في إدارة المجتمعات ومعالجة الأزمات، ومعلومٌ أن «تَحرِّي الصَّوَابِ فِي مَصَالِحِ الْأُمَّةِ واجب».

بَصِيرَة ٥

الشورى قاعدةٌ من عزائم الأحكام

صيغة الأمر تقتضي الوجوب، حتى قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشُّورَى مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ وَعَزَائِمِ الْأَحْكَامِ، وَمَنْ لَا يَسْتَشِيرُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ فَعَزْلُهُ وَاجِبٌ، وَهَذَا مَا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ» (المحرر الوجيز: 1/ 534)، ورد ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ على من زعم أن ترك الشورى فسق، والفسق لا يوجب العزل، فقال: «وَإِنَّ الْقِيَاسَ فِيهِ فَارِقٌ مُعْتَبَرٌ؛ فَإِنَّ الْفِسْقَ مَضَرَّتُهُ قَاصِرَةٌ عَلَى النَّفْسِ، وَتَرْكُ التَّشَاوُرِ تَعْرِيضٌ بِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ لِلْخَطَرِ وَالْفَوَاتِ، وَمَحْمَلُ الْأَمْرِ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ لِلْوُجُوبِ...» «التحرير والتنوير: 4/ 148»، وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَدْرِ كِتَابِ الصَّلَاةِ مِنْ «شَرْحِ مُسْلِمٍ 4/ 76»: «الصَّحِيحُ عِنْدَهُمْ وُجُوبُهَا وَهُوَ الْمُخْتَارُ».

بَصِيرَة ٦

﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ هذا أمر من الله عَزَّ وَجَلَّ بالمشاورة لنبيه المعصوم من الزللِ

المحفوظ من الوقوع في الخطلِ، المؤيد بوحي الله وتسديدهِ، الهادي المهدي بتعليم الله إياه وترشيدِه، فمن باب أولى أن يجب هذا في حق غيره من أولياء الأمور، وأن يلتزمه كل موفق في سياسة الأمور غيور.

بَصِيرَةٌ ٧

رفعٌ للمكانة.. في ضمير {هم} سرٌ من الأسرار

﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾ الضمير ﴿هم﴾ يُبَصِّرنا بمكانة الصحابة رضي الله عنهم، فمُشَاوَرَة الرَّسُولِ ﷺ إِيَّاهُمْ «تُوجِبُ عُلُوَّ شَأْنِهِمْ وَرِفْعَةَ دَرَجَتِهِمْ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي شِدَّةَ مَحَبَّتِهِمْ لَهُ، وَخُلُوصَهُمْ فِي طَاعَتِهِ». (تفسير الرازي: 9/ 409).

بَصِيرَةٌ ٨

الشورى نظام إلهي يغني عن عفن التجارب الغربية التي دمرت الإنسانية

مثل: الليبرالية، والشيوعية، والديمقراطية.

بَصِيرَةٌ ٩

ميزان الاختيار.. من هم أهل المشورة؟

الجواب: الخبراء الأمناء في مجالاتهم المناسبة، فقد قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكَانَتِ الْأَئِمَّةُ بعد النّبي ﷺ يَسْتَشِيرُونَ الْأُمَنَاءَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَشُورَةِ عُمَرَ: كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ». «البخاري: 9/112».

بَصِيرَةٌ ١٠

فيم تكون الشورى؟

الجواب: يُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾، و{ال} في قوله: ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾ جنسية، فتشمل جميع الأمور التي يمكن فيها التشاور، والمراد أمور الدنيا مما لم يدخله التشريع، أي: مما لم يدل عليه نص سواء بدلالة المنطوق أو المفهوم، ففي هذه الحالة تتم الشورى، وإذا كان الله تعالى بيّن أن أمور الرَّضاع والأحوال الأسرية ينبغي أن تدار بالشورى، فقال: ﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ﴾ [البَقَرَة: 233]، فكيف إذن بالأمور الكبرى التي تتعلق بمصائر الأمم، من سياسة وإدارة وقضايا مجتمعية عظمى؟!

السنة الخامسة

العزم المقرون بالتوكل على الله ﷻ بعد الاستشارة

ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: 159] فتكشف الآية عن سنة إلهية تتألف من ثلاث محطات مترابطة: مشاورة تضيء الطريق، وعزيمة تقطع التردد، وتوكل يستمطر التأييد، وفي رحاب هذه السُّنة 6 بصائر:

بَصِيرَة ١

في سرِّ الفاء التي تختصر مشهدًا

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الفاء في الكلمتين هي فاء الفصيحة تفصح عن كلامٍ محذوف، والْعَزْمُ هُوَ التصميم على تنفيذ الفعل الذي توصل إليه المتشاورون أي: شاورهم فإذا وصلتم إلى قرارٍ اخترتموه، وعزمت فلا مكان للتردد، ولا وقت للالتفات إلى الوراء، بل توكل على الله ﷻ، وألقِ بكلِّ ثقلك على بابه، و انطلق في تنفيذ ما عزمت عليه.

بَصِيرَة ٢

قرارٌ لا تهزُّه رياح الخذلان

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ تُبَصِّرنا بتثبيت النبي ﷺ على المبدأ الذي قام به قبل أُحُد من الشورى، ثم القيام بنتيجته، مع أنه رجع بعد الشورى ممن ينتسب إلى الصف المسلم من المنافقين ثلث الجيش تقريبًا، وثبت النبي ﷺ على نتيجة الشورى.

بَصِيرَة ٣

في الحسم حياة.. فإن فساد الرأي أن تتردد

تُبَصِّرنا بأن التردد قد يسبب ذهاب أمة أو دولة بأكملها

ولقد أدرك حكماء العرب هذا المعنى

فيروي القيرواني (في زهر الآداب 257/1) أن عيسى بن علي كتب إلى المنصور لما همَّ بقتل الخراساني الخارج عن الدولة:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكنْ ذا تَدَبُّرٍ ... فإنَّ فسادَ الرأيِ أنْ تتعجَّلا

فأجابه المنصور:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكنْ ذا عزيمةٍ ... فإنَّ فسادَ الرأيِ أنْ تترددَا

ولا تمهلِ الأعداءَ يومًا بقدرةٍ ... وبادرهمُ أنْ يملكوا مثلَها غدَا

بصيرة ٤ — التوكل: ثمرة العزم لا بذرة الكسل

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ تُبَصِّرنا بالمعنى الحقيقي للتوكل، إنه ليس كلمة ترددها الشفاه الخائفة بعد أن تغلِق على نفسها أبواب العمل، بل هو منظومة متكاملة:

هو قلبٌ يعتمد على الله ﷻ كليًّا، وعقلٌ يخطط ويتخذ القرار، وجوارحٌ تمضي في تنفيذه وتتحمل تبعاته.

بصيرة ٥ — ميزان القيادة: الشورى مُلزِمةٌ والقرار للقائد

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ترسم لنا الآية ميزانًا دقيقًا في علاقة القائد بأهل مشورته. فالقرار النهائي بعد النقاش يظل بيد القائد، لكنه ليس على إطلاقه، فينبغي أن يقوم بتطبيق نتيجة الشورى إن ارتضاها، فإن أباها، فينبغي أن يبرر سبب إبائه، فإن اقتنع أهل الشورى وإلا عمل بنتيجة الشورى، فالأصل في الشورى أن تكون ملزمة لا مُعلِمة إلا إذ ظهر للقائد شيء واضح يجعله يراها مُعلِمة.

بصيرة ٦

العزاء الأعظم: يكفيك أنَّ الله ﷻ يُحبُّك

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ تُبَصِّرنا بأن الأذى الذي قد يجده المتوكل لا ينبغي أن يَعُدَّه شيئًا؛ لأنه يكفيه أن يحبه الله ﷻ، ولهذا نجد أن التوكل والصبر في القرآن رفيقان لا يفترقان، وجناحا طائر واحد. فهاهم الرسل يقولون بألسنة الواثقين: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ [إبراهيم: 12]، وهاهم المهاجرون الذين ظُلِموا، يصفهم الله ﷻ بأجمل وصف: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾ [النحل: 41، 42]. فالصبر على الأذى هو ضريبة التوكل، ومحبة الله ﷻ هي جائزة الصابرين المتوكلين.

السنة السادسة

نصرُ الله ﷻ ثمرةُ نُصرتِهِ والتوكلِ عليه

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ [آل عمران: 160] تُبَصِّرنا بأن من سنن النصر أن تتعلق قلوب القيادات والجنود بالله ﷻ، فالتوكل عليه أساس النصر، وما ذكره الله ﷻ من سنن صناعة النصر البشرية سابقًا هي عوامل مساعدة للنصر مثل: الشورى، وأن يكون القادة ذوي عزمٍ وحزمٍ، فالله ﷻ هو الناصر الحقيقي، وفي هذه السنّة الإلهية 7 بصائر تضيء الطريق للسالكين:

بصيرة ١

من رحاب التوكل إلى ميدان النصر

ما إن صدع الأمر الإلهي في الآية السابقة: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ حتى أشرقت شمس الحقيقة في الآية التي تليها لتُظهر أثر هذا التوكل في عالم الواقع، فجاء الوعد الرباني قاطعًا: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٦٠﴾، إنها رسالة السماء بأن المعارك لا تُحسم بالعدة والعتاد فحسب، بل بقلوبٍ توكلت على ربها قبل الأسباب، وفي أثنائها، وبعدها، وهذا هو اليقين الذي يسكب في قلب المؤمن شجاعةً وجرأةً في الحق، وقد يسميها أهل الحسابات المادية غفلةً أو مغامرة، ولكنها في ميزان الإيمان هي عين البصيرة، فلا قيمة لضجيج المشككين وتخذيل المرجفين، إذا كان القلب عامرًا بالثقة بالله ﷻ، فهذه الجرأة المستمدة من التوكل هي التي تقتحم الصعاب، وتصنع النصر، وتأبى على أصحابها التقهقر والهزيمة.

بصيرة ٢

التوكل الحق حركةٌ وعمل لا عجزٌ وكسل

تُبَصِّرنا الآية بضرورة الحركة وبذل الأسباب طلبًا للنصر على أن يقترن ذلك بالتوكل على الله ﷻ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، ومن البدع الشيطانية عدم العمل بزعم التوكل كما قال أحد الجاهلين:

جَرَى قَلَمُ الْقَضَاءِ بِمَا يَكُونُ ... فَسِيَّانَ التَّحَرُّكُ وَالسُّكُونُ
جُنُونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقٍ ... وَيُرْزَقُ فِي غِشَاوَتِهِ الْجَنِينُ

(البيتان لابن هندو. ينظر العقد الفريد 21/6)

فإن الجنون الحقيقي هو مخالفة وصية الخالق سبحانه

الذي ربط في كتابه بين العمل والتوكل، فقال مادحًا عباده المؤمنين: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٥٨ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾ [العنكبوت: 58، 59] فهم عاملون صابرون متوكلون، وتأمّل في تلك الصورة النبوية البديعة التي ترسم التوكل الحقيقيَّ، حين قال ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» «أحمد: 205، وقوى محققو المسند إسناده»، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: قُلْتُ لِأَبِي: هَؤُلَاءِ الْمُتَوَكِّلُونَ يَقُولُونَ: نَقْعُدُ وَأَرْزَاقُنَا عَلَى اللهِ ﷻ. فَقَالَ: ذَا قَوْلٌ رَدِيءٌ خَبِيثٌ، يَقُولُ اللهُ ﷻ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: 9]، «تلبيس إبليس ص: 253».

فربط بين التوكل بالسعي إلى ذكر الله ﷻ والعمل الذي ذكره في الآية التالية.

بصيرة ٣: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ حصانةٌ إلهيةٌ مطلقة

تأمل كيف جاءت كلمة ﴿غَالِبَ﴾ نكرة و اقعة في سياق النفي {لا}، وهذا في لغة العرب يفيد العموم المطلق. والمعنى: فلا غالب لكم مهما كان جنسه، فدخل فيه كل عدوٍ خفي أو ظاهر، من جيوش المخابرات والإعلام والمرتزقة اللئام.

بصيرة ٤: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ سؤالٌ يهوي بكل سندٍ سوى الله ﷻ

فلم يقل: فلا ناصر لكم؛ لأن ﴿مَن﴾ السؤالية قد تأتي للتعظيم، وللتحقير، والمقصود هنا التحقير، أي: فمن هذا الذي لجأتم إليه حتى ينصركم من بعد أن تركتم نصرة ربكم لكم سواء كان مجموعة أو جماعة أو دولة؟ ماذا كسبتم عندما تخليتم عن أمر الله ﷻ وشرعه مقابل أن تلجؤوا إلى حماية غيره؟!

بَصِيرَة ٥

برهان الإيمان وصدق اليقين

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٦٠﴾ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٦٠﴾ ليثبتوا صدق إيمانهم، فأمر بِالتَّوَكُّلِ المُسْتَنِدِ إِلَى تحصيل أَسْبَابِ نَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى: «مِنْ أَسْبَابٍ عَادِيَّةٍ وَهِيَ الِاسْتِعْدَادُ، وَأَسْبَابٍ نَفْسَانِيَّةٍ وَهِيَ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ وَ اتِّبَاعُ رِضَى الله تَعَالَى». «التحرير والتنوير 4/ 154».

بَصِيرَة ٦

كيف يستشعر الفرد المسلم حقيقة التوكل على الله ﷻ؟

الجواب: بأن يربط قلبه دائمًا بالله ﷻ في كل حركة وسكنة. فالطالب الذي يذاكر ينبغي أن يعلم بأن مذاكرته مطلوبة، ويعلم بأنه قد يخذل أحوج ما يكون إلى النصرة إن لم يتوكل على الله ﷻ، والعامل يذهب للعمل ويصلي ركعتين تمنعانه مخرج السوء، وكذلك حث النبي ﷺ من دخل بيته أن يصلي ركعتين لتمنعانه من مدخل السوء. فالركعتان هنا شعار التوكل وراية الاعتماد على الله ﷻ، فكأن من يفعل ذلك يقول: يا رب وكلتك أمر مدخلي ومخرجي في كل أمر. ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون: 29].

بَصِيرَة ٧

فقه الأسباب وأدب المتوكلين

فالمتوكل الحق يستقر في قلبه أن هذا المسؤول ما هو إلا سببٌ سخره الله ﷻ، وطريقٌ فتحه الله ﷻ لقضاء حاجته، ولو شاء سبحانه لمنع هذا الطريق وفتح ألف طريق غيره.

يتجلى هذا الفهم العميق في قصة ذلك الأعرابي الفصيح الذي دخل على أمير وقال بلسان اليقين: أصلح الله الأمير! نحن، وإن كانت نزعت بنا أنفسنا إليك، و أنضينا ركائبنا نحوك التماسًا لفضل عطائك، عالمون بأنه لا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع؛ و إنما أنت أيها الأمير خازن ونحن رائدون، فإن أذن -الله ﷻ- لك فأعطيت حمدنا الله وشكرناك، وإن لم يؤذن لك فمنعت حمدنا الله وعذرناك. «عيون الأخبار، لابن قتيبة 3/142». هذا هو التوكل قلبٌ معلقٌ بالخالق، وجوارحٌ تتعامل مع الخلق بأدبٍ ويقين.

السنة السابعة

سُنَّةُ الله ﷻ في الغُلُول: خِذلانٌ في الدنيا وفضيحةٌ في الآخرة

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران: 161] تُبَصِّرنا بأن من سنن النصر: التعامل الحذر والدقيق والورع مع المال، فعدم الانضباط الشرعي في التعامل مع المال العام في أثناء الأزمات سببٌ للفشل والإخفاقات، وفي رحاب هذه السنة الإلهية تتجلى لنا 16 بصيرة نورانية تهدينا سواء السبيل:

بصيرة ١: الغُلول خيانةٌ تتسلل في الظلام

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ في كلمة ﴿يَغُلَّ﴾ قراءتان، وكل منهما تُبَصِّرنا ببصائر ضخمة. فالأولى: بفتح الياء، وضم الغين، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم فتُبَصِّرنا أولًا: بالتحذير من الغلول، وهو نوعٌ خفيٌّ خطير من الخيانة المالية، واشتق من أَغَلَّ الْجَازِرُ وَالسَّالِخُ إِذَا أَبْقَى فِي الْجِلْدِ شَيْئًا مِنَ اللَّحْمِ عَلَى طَرِيقِ الْخِيَانَةِ، وَالْغِلُّ: الْحِقْدُ الْكَامِنُ فِي الصَّدْرِ، وَالْغِلَالَةُ: الشعار أي: الثَّوْبُ الباطن الَّذِي يُلْبَسُ تَحْتَ الثِّيَابِ. «مجمل اللغة ص 679، تفسير الرازي 411/9». فالغُلول أخذٌ للمال بطريق أشد خفاء من غيره، قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: الغلول: أخذ المال من الغنيمة في خفاء، وتقول العرب: أغل الرجل إغلالًا: خان في الأمانة «تفسير القرطبي 256/4». فتضمنت الآية تحذيرًا للحكومات، والجماعات والجمعيات وقياداتها، فما أكثر الغلول فيها! اللهم عافنا واعف عنا، واكفنا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمن سواك.

بصيرة ٢: وَكَيفَ يُظَنُّ بِالنَّبِيِّ الغُلُول؟!

تأتي هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ لتنفيَ عن ساحةِ النبوَّةِ الطاهرةِ أيَّ شائبةِ خيانة. إنَّه نفيٌ قاطعٌ بأن يمدَّ نبيٌّ، يقودُ معركةَ الحقِّ، يدَهُ إلى غنيمةٍ، لا لنفسِهِ ولا لغيرِه. وإذا كانَ مجرَّدُ تصوُّرِ هذا الأمرِ مستحيلًا في حقِّ نبيٍّ جعلَ اللهُ ﷻ إليه قسمةَ الغنائم، فكيفَ بمن دونه من القادةِ والمسؤولين؟! إنَّها رسالةٌ بليغة: إذا كانت القمَّةُ منزَّهة، فاحذروا أنتم من الانزلاقِ في الهاوية!

بَصِيرَة ٣

تَصوُّرٌ خَاطِئٌ... وَثَمَنٌ بَاهِظٌ

في هذه الآيةِ مدحٌ عظيمٌ وثناءٌ عاطرٌ لنبيّنا ﷺ. ففي خضمّ أحداثِ "أُحُد"، وبعدَ أن لاحَ النصرُ في الأفق، تسلَّلَ إلى قلوبِ بعضِ الرُّماةِ ظنٌّ بأنَّ حصَّتَهم من الغنائمِ ستفوتُهم، فكانت المخالفةُ التي قلبت الموازين. وهنا يأتي صوتُ الحقّ ليُعلّمَهم درسًا بليغًا: كيفَ تتوقَّعون أن يأخذَ نبيُّكم من حقوقِكم شيئًا؟ إنَّ هذا غلولٌ، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾! لقد كان هذا التصوُّرُ الخاطئُ هو الشرارةَ التي أضعفت الجيش، فكانت الهزيمةُ ثمنًا لهذا الظنّ الأثيم.

بَصِيرَة ٤

مِيْزَانُ العَدْلِ فِي يَدِ القَائِد

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ تُبَصِّرنا بأمرٍ حازمٍ لقائد المعركة؛ إذا لم يكن هو النبي ﷺ، بأن يقسم الغنائم كما أمر الله سبحانه وتعالى، وألا يبخس طرفًا أو يُؤثِر آخر، إنَّ هذا العدلَ هو الذي يوحّدُ القلوبَ ويصنعُ الثّقةَ بين أفرادِ الجيش، فلا يشعرُ جنديٌّ بأنَّ حقَّه مُهدَر، أو أنَّ قائدَه قد يظلمُه.

بَصِيرَة ٥

الأَزَمَاتُ لَا تُبَرِّرُ الخَطِيئَات

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ تُبَصِّرنا بأن الجميع ينبغي أن يكون واعيًا أن الأزمة لا تبرر التجاوز أو القيام بالأخطاء، وهي تحذير للقيادات بأنهم ليسوا فوق مستوى المساءلة والمتابعة، و إنما ضرب المثل بالنبي ﷺ مع أنه معصوم ليحذر غيره، وليُشَرِّعَ المراقبة لأفعال القيادات وتصرفاتهم المالية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران:161] في قطيفةٍ حمراءَ فُقِدَتْ يومَ بدرٍ، فقال بعضُ الناسِ: لعلَّ رسولَ الله ﷺ أخذها» «أبو داود: 3971، الترمذي 39009، وقال: حسن غريب» فإن كانت الواقعة في بدر فلا يقتضي هذا نزول الآية فورًا.

بَصِيرَة ٦

شَفَافِيَّةُ القَائِدِ أَمَانُ الأُمَّة

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ تُبَصِّرنا بأنه يجبُ على القائدِ أن يكونَ كتابًا مفتوحًا أمامَ أُمَّتِه في كلِّ ما يدخلُ ويخرجُ من أموالِها، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ -أي على متاعه وأحماله- رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةُ فَمَاتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هُوَ فِي النَّارِ» فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا. «البخاري: 3074».

يا لله! عباءةٌ واحدةٌ كانت سببًا في هلاكِه، فكيفَ بمن يغلُّ الملايين؟!

بَصِيرَة ٧

القَائِدُ لَا يُخَان

أما القراءة الثانية ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يُغَلَّ﴾ بضم الياء وفتح الغين، وهي قراءة الجمهور، فتنفي أن يتعرض النبي ﷺ للغُلول من قِبَلِ أتباعِه. والمعنى: اطمئنُّوا، فما دامَ نبيُّكم ﷺ بينكم، فلن يستطيعَ أحدٌ أن يسرقَ حقوقَكم؛ لأنَّ الوحيَ سيكشفُه ويفضحُه. وفي هذا تنبيهٌ لكلِّ قائدٍ بأن يكونَ يقظًا وحارسًا أمينًا على الأموالِ العامَّة، فلا يتركُها نهبًا للخائنين ولصوصِ الثروات.

بَصِيرَة ٨

لَا تَخُنْ مَنْ تُجاهِدُ مَعَهُ!

تُبَصِّرنا هذه القراءة أيضًا بمعنًى ثانٍ، فالنفي يمكن أن يكون بمعنى النهي، أي: لا يجوز لأحد أن يغل نبيًّا، فهو تحذيرٌ من مد اليد إلى ما لا يحل أخذُه من المال الذي جعل الله ﷻ القيادات مؤتمنة على توزيعه وفق مصارفه المعروفة، ففيها مسٌّ من عتابٍ وتقريعٍ لمن غلَّ أو يفكر بأن يغل وهو يجاهد مع نبي الله؛ فلا تستقيم دعوى الجهاد مع النبي وخيانته بالغلول من الغنيمة.

بَصِيرَة ٩

القَائِدُ لَا يَغُلُّ... وَلَا يُغَلُّ

تجتمعُ القراءتان لتُرسِّخا مبدأً عظيمًا: القيادات النَّزيهة لا تَغُل، ولا تُغل، وهذا يقتضي أن تكون صريحة في الوارد والمنصرف، وربَّى النبي ﷺ أمته على هذه الصفة، فقام ذات يوم فذكر الغُلول، فعظَّمه وعظم أمره، ثم قال: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ...». «مسلم: 1831».

بَصِيرَة ١٠

مَيَادِينُ الغُلُول

الغلولُ ليسَ قاصرًا على غنائمِ الحرب، بل له ميادينُ شتَّى:

١ أموال المسلمين العامة

كأموالِ خزينةِ الدولةِ والوزاراتِ، ويدخل فيه أموال الجمعيَّاتِ الخيريَّة... فقد قال ﷺ: «مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنْزِلٌ، فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلًا، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أَوْلَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا، أَوْلَيْسَتْ لَهُ دَابَّةٌ، فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌ». «أحمد 18015. وصححه محققو المسند»، والمقصودُ أن توفِّرَ له الدولةُ احتياجاته الأساسيَّة، لا أن يأخذها بنفسه.

٢ في الأموال الخاصة

ومن أعظمِ صورِهِ سرقةُ الأرض، كما قال ﷺ: «أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللهِ ﷻ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ، تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ أَوْفِي الدَّارِ، فَيَقْتَطِعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». «أحمد 17799. وحسَّن إسناده الهيثمي في المجمع: 6879».

بَصِيرَة ١١

الرَّقَابَةُ صِمَامُ الأَمَانِ

إنَّ اجتماعَ القراءتين ﴿يَغُل، يُغَل﴾ يوجب علينا تفعيل أجهزة الرقابة والمحاسبة في الأمور المالية وغيرها في السلم والحرب على القيادات والأتباع.

بَصِيرَة ١٢

فَضِيحَةٌ يَوْمَ القِيَامَة

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تُبَصِّرنا بالفضيحة الخطيرة التي تحدث للغالِّ يوم القيامة، إذ يأتي بما غل وقتها، نسأل الله العافية، ويصور النَّبيُّ ﷺ أمثلةً لذلك، فيقول: «مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لاَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ (صوت الإبل)، أَوْبَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْشَاةً تَيْعَرُ (صوت الشاة)»، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ثَلَاثًا». «البخاري:7174».

بَصِيرَة ١٣

الحِسَابُ بِالمِثْقَال

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

تُبَصِّرنا بدقة المحاسبة يوم القيامة، فيحمل الغالُّ ما غله، ثم تحاسب كل نفسٍ بعدلٍ كامل، دون أن يخافوا أن يُظلموا، ففي خيبررُمِيَ خادمٌ بِسَهْمٍ فَكَانَ فِيهِ حَتْفُهُ، قال أبو هريرة رضي الله عنه: فَقُلْنَا هَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«كَلاَّ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عَلَيْهِ نَارًا، أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ».

فَفَزِعَ النَّاسُ. فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ -أي أربطة الأحذية-. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصَبْتُ يَوْمَ خَيْبَرَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ». «مسلم: 115».

بَصِيرَة ١٤

البَحْثُ عَنِ الأُمَنَاء

يقتضي هذا الخوفُ من الغلولِ أن نبحثَ عن الأكفَاءِ الأمناءِ لتولّي المناصبَ الماليَّة. انظرْ إلى الصحابيِّ الجليلِ سعدِ بنِ عبادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حينَ أرادَ النبيُّ ﷺ أن يولّيَه على الصدقات، حذَّرَه قائلًا: «إيَّاك يا سعدُ أن تَجِيءَ يومَ القيامةِ تَحْمِلُ على عنقِك بعيرًا له رُغاءٌ» فقال سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فإن فعلتُ يا رسول الله، إنَّ ذلك لكائنٌ؟ قال: «نعم» قال سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قد علمتَ يا رسول الله أني أُسأَل فأُعْطِي! فأَعفني. فأعفاه. (تفسير الطبري: 362/7).

بَصِيرَة ١٥

ضَمِيرٌ حَيٌّ وَثَرْوَةٌ مَحْفُوظَة

التحذير من الغلول تنمية للضمير الحي، وحفظ للثروة العامة التي يعود نفعها على المجتمع كله، فرسُول اللهِ ﷺ كَانَ يَأْخُذُ الْوَبَرَةَ -أي ما يسقط من جلد الجمل- مِنْ فَيْءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَقُولُ: «مَا لِي مِنْ هَذَا إِلَّا مِثْلَ مَا لِأَحَدِكُمْ إِلَّا الْخُمُسَ، وَهُوَ مَرْدُودٌ فِيكُمْ، فَأَدُّوا الْخَيْطَ وَالْمَخِيطَ فَمَا فَوْقَهُمَا، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُولَ، فَإِنَّهُ عَارٌ وَشَنَارٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». «أحمد17154. وقال محققو المسند: حسن لغيره».

بَصِيرَة ١٦

أَيْنَ تَذْهَبُ أَمْوَالُنَا؟

إذا كانَ الغلولُ حرامًا، فمن حقِّ الأمَّةِ أن تعلمَ أينَ تُصرَفُ أموالُها العامَّة. وقد بيَّنَ العلماءُ كالإمامِ الكاسانيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، أنَّ هذه الأموالَ تُصرَفُ في مصالحِ المسلمين: من رواتبِ القضاةِ والعلماءِ والجنود، إلى بناءِ المساجدِ والجسورِ والقناطر، وسدِّ الثغور، وتحصينِ البلاد. (بدائع الصنائع 2/ 69).

السنة الثامنة

سنة التذكير بدار القرار

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: 162، 163] تبصراننا بأن من سنن الانتصار للقيادة والأنصار: العظة والادِّكار والاعتبار بالمصير الأخير في دار القرار، وفيها 13 بصيرة:

بصيرة ١: تأتي هذه الآيةُ كجسرٍ يربطُ بين التحذيرِ من الغلولِ وبين تزكيةِ النفوس

فبعدَ أن ذكرَ الله ﷻ شناعةَ الخيانة، هاهو يفتحُ أمامَنا بابَ الأملِ والترغيب، مُقارنًا بين فريقين لا يستويان أبدًا: فريقٌ يسيرُ في الحياةِ وقلبُه معلَّقٌ برضوانِ الله ﷻ، وفريقٌ آخرُ يعودُ في نهايةِ المطافِ وقد حَمَلَ على ظهرِه سخطَ الله ﷻ. إنَّها دعوةٌ صريحةٌ لتربيةِ القلوبِ على طلبِ ما عندَ الله، والفرارِ من غضبِه وعقابِه.

بصيرة ٢: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ سُؤَالٌ يُوقِظُ القُلُوبَ

السؤال للنفي المقتضي للتفريق بين الفريقين، وعدم المساواة بينهما، «وَالْفَاءُ لِلْعَطْفِ عَلَى مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: أَمَنِ اتَّقَى، فَاتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ». «تفسير الرازي 9/ 415»، فهيّج السؤالُ النفسَ لتراجع حياتها وأهدافها، وتشتاق أن تتبع رضوان الله ﷻ وتبتعد عن أن تبوء بسخطه.

بصيرة ٣: الرِّضْوَانُ أَوْ السَّخَط ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾

أي: بترك كل الجنايات والسيئات والموبقات، ومن هذه الجنايات: الغُلول والخيانة والمعاصي الفردية والجماعية، فزكَت نفسُه، وارتقت روحُه ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بالغلول والخيانة والمعاصي الفردية والجماعية!

بَصِيرَة ٤ حُرِّيَّةُ الاخْتِيَار وَجَمَالُ الاتِّبَاع ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾

﴿مَنْ﴾ للعموم، فتُبَصِّرنا بأن كلَّ إنسانٍ يملك حرية الاختيار؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿ٱتَّبَعَ﴾ أي: بنفسه لا أنه أُجْبِر على الاتباع، وترغبنا الآية في الاتباع مهما غلا ثمنه، وشقَّت على النفس سبُلُه وسننُه، إذ صورت كل تكليف بأنه رضوان الله ﷻ. فاللهمَّ ارزقنا لذَّة السَّيرِ في هذا الطريق.

بَصِيرَة ٥ الاخْتِيَارُ المُنْتَكِس ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾

تُبصِّرُنا الآيةُ بأنَّ الذي لا يتبعُ رضوانَ اللهِ ﷻ لا يقفُ في منطقةٍ محايدة، بل يختارُ طوعًا أسوأَ اختيار، ويسيرُ في طريقٍ مقلوبٍ منتكس، نهايتُه الحتميَّةُ هي سخطُ الله ﷻ.

بَصِيرَة ٦ رَوْعَةُ البَيَانِ في كَلِمَةِ ﴿بَآءَ﴾

فيا لروعةِ البيانِ القرآني! لاحظ لم يقل: "﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ كمن اتبع سخط الله"، بل قال: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ليبشع الصورة أكثر، فكأن الذي اختار المعصية اتبع سخط الله، ثم جرَّت المعصيةُ معصيةً حتى ﴿بَآءَ﴾ بالسخط، وهذه الكلمة ﴿بَآءَ﴾ بديعة جدًا في تبشيع الصورة، فتعني: رجع من رضوان الله إلى سخطه، وتتابع فيه حتى صارت حياته بيئة لسخط ربه ﷻ، فتكون النتيجة المرعبة ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢﴾. انظر إلى النور البياني والإعجاز البلاغي، ومنهج القرآن في معالجة الإنسان.

بَصِيرَة ٧ سُؤَالٌ بِلَا جَوَاب ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢﴾

طرحت الآيةُ السؤالَ، وتركت الجوابَ لوضوحِه في العقولِ والقلوب، لتُثيرَ في السامعِ إجابةً فوريَّةً لا يملكُ غيرَها: لا يستويان!. والآيةُ وإن كانت عامَّةً تشملُ كلَّ جوانبِ الحياة، إلا أنَّها في هذا السياقِ تُشيرُ بوضوحٍ إلى أولئكَ الجنودِ الذين أطاعوا أوامرَ القائد، والقادةِ الذين مارسوا الشورى والحزم، وصانوا الأمانات، فهم الذين اتبعوا رضوان الله. وفي المقابل، أولئكَ الذين وقعوا في الغلولِ والاختلاسات، فهم الذين باؤوا بسخطٍ من الله.

بَصِيرَة ٨

مَخَافَةُ اللهِ ﷻ العَاصِمُ الوَحِيْد

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٦٢﴾ تُبَصِّرنا بوجوب تربية مخافة الله ﷻ في قلوب قيادات المؤسسات المالية في الدولة والمجموعات المسلمة؛ فهي العاصم الوحيد، والضامن الأكيد لعدم اجتراحهم الخيانة، أو تفريطهم في الأمانة.

بَصِيرَة ٩

مَشْهَدُ السَّاعِي إِلَى الرِّضْوَان

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تصورلنا مشهدًا بديعًا، فالذي يبحث عن الدرجات العلى عند الله ﷻ يتحرك متبعًا الخطوات والأفعال والخطط التي تؤدي إلى رضوان الله ﷻ، وبمجرد تحركه نحو رضوان الله ﷻ يعتبر متبعًا لرضوانه. والمشهد يظهر لنا هذا الذي يتبع رضوان الله ﷻ يُعلِّمُ نفسه والناس حوله أنه لا اختيار له في قضايا الحياة، فاختياره واحد، وهو أن يتبع رضوان الله ﷻ لا أن يتبع سخطه.

بَصِيرَة ١٠

دَرَجَاتٌ فِي الأَمَانَة

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٦٣﴾ هذا ترغيبٌ عظيمٌ بعدَ الترهيبِ من الغلول. فالخوفُ من المسؤوليةِ لا يعني الهروبَ منها، بل إنَّ الأجرَ على تحمُّلِ الأماناتِ الماليَّةِ عظيمٌ جدًّا، وبحسبِ درجةِ أمانتِك واتّباعِك لرضوانِ ربّك، ترتفعُ درجتُك عنده. ﴿بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٦٣﴾، يرى كلَّ حركةٍ وسكنة، وكلَّ نيَّةٍ خفيَّة. وقد علَّمنا النبيُّ ﷺ قمَّةَ الشفافيَّةِ والنزاهة، فقد أتى ﷺ: «بَعِيرًا، فَأَخَذَ مِنْ سَنَامِهِ وَبَرَةً بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ، ثم قال: «هَا، إِنَّهُ لَيْسَ لِي مِنَ الْفَيْءِ شَيْءٌ وَلَا هَذِهِ، إِلَّا خُمُسٌ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ بِكُبَّةٍ مِنْ شَعَرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخَذْتُ هَذِهِ لِأُصْلِحَ بِهَا بَرْذَعَةَ بَعِيرٍ لِي، فَقَالَ: أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكَ. فَقَالَ: أَوَبَلَغَتْ هَذِهِ؟ فَلَا أَرَبَ لِي فِيهَا، فَنَبَذَهَا -يقصد بلغ الحساب هذه الدقة لدرجة أن النبي ﷺ يسامح في حقه وحق أقاربه فحسب، ولا يسامح في حق الناس، ولو في فتيل شعر- وَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَدُّوا الْخِيَاطَ وَالْمِخْيَطَ، فَإِنَّ الْغُلُولَ يَكُونُ عَلَى أَهْلِهِ عَارًا وَشَنَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». «النسائي 3688، وحسَّن إسناده محققو الكتاب».

بَصِيرَة ١١

التَّنَافُسُ عَلَامَةُ الحَيَاة

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٦٣﴾ [آل عمران: 163] تُبَصِّرنا بأن التنافس في طلب رضوان الله والتعرضَ لولايته دليلٌ على حياة القلوب والمجتمعات، وعلى أهليتِها للنصر، وذلك لأن اتباع رضوان الله تختلف درجات أصحابه بحسب مستوى اتباعهم لرضوان ربهم.

بَصِيرَة ١٢

دَرَجَاتٌ وَدَرَكَات

جملة ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تدل على شرف منزلتهم فهنيئًا لهم ما حازوه، ولم يذكر الفريق المقابل الذين باؤوا بسخط من الله ﷻ، فهم في دركات، وذلك لوضوح الأمر على طريقة الاحتباك في البيان، ويبين النبي ﷺ أنموذجًا لدرجات المتبعين لرضوان الله، فيقول: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ، أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ. رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ». «البخاري: 3256».

بَصِيرَة ١٣

ثَمَرَةُ التَّرْبِيَةِ القُرآنِيَّة

عملت هذه النصوص عملها في تربية المجتمع المسلم حتى أتى بالعجب العجاب من دلائل الطهر والنقاء وتزكية النفس، والتحرج من المعاصي ومن الغلول في أي شكل من أشكاله، فعن ابْنِ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: لَمَّا أُوتِيَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِتَاجِ كِسْرَى، فَرَأَى مَا فِيهِ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي أَدَّى هَذَا لأَمِينٌ حَقُّ أَمِينٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ شِئْتَ حَدَّثْتُكَ، قَالَ: أَجَلْ، قَالَ: أَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ فِيهِمْ، فَهُمْ مُؤَدُّونَ إِلَيْكَ مَا أَدَّيْتَ إِلَى اللَّهِ، فَإِذَا رَتَعْتَ رَتَعُوا، قَالَ: صَدَقْتَ». (السير للفزاري: 251).

السنة التاسعة

رباعية الحياة والانبعاث مصدر النصر المتجدد

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164] تُبَصِّرنا هذه الآية المركزية العجيبة في موقعها من السورة بأن أساس سنن النصر إشاعة الرباعية العظمى: إعظام النعمة بالبعثة النبوية، والقيام بالمهام الرسالية الثلاث: «تلاوة الآيات، والتزكية، وتعليم الكتاب والحكمة».

فهذه الرباعية قاعدة الاستخلاف والإعمار، ومفتاح كل انتصار، وأساس التغلب على كل انكسار، وفي هذه السنة تسبح 16 بصيرة تبني الحياة وتجدد الإيمان:

بَصِيرَة ١

مِنَّةٌ في قلبِ المِحنَة

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ يُبَصِّرنا التأكيد باللام و﴿قد﴾ وكلمة ﴿مَنَّ﴾ بالصلة المباشرة بين هذه الآية و آيات السورة؛ إذ قد يتعجب القارئ، ويسأل في دهشة: ما سرُّ وجود هذه الآية التي تفوح منها رائحة المِنَّة والرحمة والتعليم، في خضم الحديث عن لهيب السياق العسكري لمعركة "أُحد" وغبارها؟

الجواب يأتيك كالبلسم الشافي: الشعور بالنعمة العظيمة ببعثة النبي ﷺ، والقيام بوظائفه الثلاث من أعظم سنن الانتصار، بل هو أساسها. فيجب إشعار الناس بذلك، فالنصر يتحقق بقدر اهتمام الأمة قيادة وشعوبًا بنشرها وإشاعتها.

بصيرة ٢

قلبُ السورةِ النابض

تكاد هذه الآية المركزية أن تكون قلبًا للسورة، فالهدف الأعظم الذي تبينه هذه الآية نلخصه في هذه السنة:

رباعية الحياة والانبعاث هي مصدر النصر المتجدد:

ففي قلبِ عاصفةِ الهزيمة، وبينما تلملم الأمة جراحها في أُحُد، تتلألأ هذه الآية كنجمة هداية في سماء المعركة، لتكشف عن سُنَّة أعمق من قوانين الحرب، إذ تؤكد هذه الآية لنا ارتباطَ النصرِ العسكري والظَّفَرِ السياسيّ والتفوقِ الحضاريِّ بهذه الرباعية التي ترجع إلى أصلين عظيمين:

الأصل الأول

تعظيمُ مكانة النبوة

وتقدير هذه المنة الإلهية التي لا تُقدر بثمن، ولذا استهل الله ﷻ الآية بقوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾.

الأصل الثاني

القيام بوراثة النبي ﷺ

في نشر الوظائف الثلاث

بصيرة ٣

هذه رباعية الحياة والانبعاث الدائم للأمة

(إعظام النعمة بالبعثة النبوية، وتلاوة الآيات، والتزكية، وتعليم الكتاب والحكمة)، فأساس كل نصر، ومفتاح كل تمكين، وسر كل نهضة بعد انكسار، وسر الإعمار يكمن في إحياء هذه الرباعية.

فإدارة المعارك العسكرية لا تنفصل أبدًا عن بناء الإنسان وتزكيته

كما قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ واصفًا حال العرب قبل الإسلام: «بَعَثَ -الله- نبيَّه ﷺ إلى قومٍ لا يعلمون فعلَّمهم، وإلى قومٍ لا أدب لهم فأدَّبهم». «تفسير الطبري 7/370».

فكيف يمكن للمسلمين الانتصار وهم يُبعِدون «تلاوة الآيات وتزكية الأنفس وتعليم الكتاب والحكمة» عن مو اقع صنع القرار؟!

كيف يمكن للمسلمين أن يتمكنوا من الوصول إلى التفوق الحضاري وهم يقبلون أن تُسْلَبَ هُويتهم الأصلية في مراكز التوجيه والتربية؟!

كيف للمسلمين أن ينتصروا وهم يقبلون أن تكون الهيئات المعنية بصناعة الرأي العام والثقافة المجتمعية والمؤسسات العلمية والإعلامية والقائمون عليها بعيدين عن التلاوة والتعليم والتزكية؟!

ومن هنا نعلم لماذا تصر الأجهزة الإعلامية المعادية للبعثة النبوية على تشويه كل تعليم حقيقيٍّ يتعلق بهذه المهام النبوية، أو إلصاق أبشع الأوصاف به، حتى تبقى الأمة بعيدة عن مصدر قوتها الحقيقي.

بصيرة ٤

المنَّة بكماله تنفي الشبهة عن مقامه ﷺ

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾

عندما نفى الله ﷻ عن نبيه ﷺ تهمة الغُلول والخيانة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾، لم يكن ذلك ليفتح باب الشك في مقامه الشريف، حاشاه، بل كان ذلك لمحاسبة غيره من القادة. وسرعان ما أتت هذه الآية لتؤكد عظمة المنة ببعثته ﷺ، فهو الكمال الذي تُقاس به الأمور، والطهر الذي يُعرف به الزيف.

بَصِيرَة ٥

شمسٌ للعالمينَ ونورٌ للمؤمنين ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾. وهنا نتساءل: هل كانت بعثته ﷺ منَّة على المؤمنين وحدهم؟

الجواب:

بعثة الرسول مِنَّةٌ عظمى على العالمين؛ فهو شمسٌ أشرقت على الكون كله؛ لأنه اجتهد في حمايتهم من الشقاء والشرور، وجلب لهم أجمل مكامن السعادة والسرور، ويهديهم إلى ينابيع السعادة الأبدية، ولكن لم ينتفع به إلا المؤمنون، ولذا خُصوا بذكر الامتنان عليهم.

بَصِيرَة ٦

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ﴾ ما أجمل كلمة "مَنَّ"!

إنها لا تعني مجرد العطاء، بل هي العطاء العظيم الذي يأتيك ابتداءً دون أن تطلبه؛ فبعثة النبي ﷺ كانت هبة السماء التي لم تكن تخطر على بال، فهي نعمةٌ خاصةٌ تستحق أن يذكِّرها المَنَّانُ عباده، لتُعرف قيمتها ويُشكروا واهبها سبحانه.

بَصِيرَة ٧

﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ تُبَصِّرنا بعدة أمور:

أولها

أنه من أهلهم القرشيين فعرفوا أحواله، ومن خلاله تحققوا كماله وجلاله، وهو من العرب المعروفين عند أمتهم، وهو من البشر، فليس من جنس خفي عنهم كالجن، فإن جعلنا معنى ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يشير إلى قريش فهو منهم، وإن جعلناه يشير إلى العرب مثل الأنصار فهو منهم، وإن جعلناه يشير إلى جميع المؤمنين من العرب والعجم فهو منهم.

ثانيها

أنهم اشتهروا به، فارتفع ذكرهم، وعلا بين الأمم شأنهم، فكان منهم ليكونوا به، وكان منهم ليكونوا معه.

ثالثها

أن المعنى من جنسهم أي: من جنس البشر لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ مُخَاطَبَتِهِ وَسُؤَالِهِ وَمُجَالَسَتِهِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ.

(تفسير ابن كثير: 2/ 158).

بَصِيرَةٌ ٨

تسليةٌ في المصيبةِ ونعمةٌ في الهزيمة

﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾

امتن الله ﷻ على المؤمنين ببعثة النبي الأمين ﷺ في أثناء الكلام عن معركة أُحُد ليحقق أهدافًا تربوية عظيمة، منها: تربية المؤمنين على استشعار عظيم نعمة مجيء النبي ﷺ إليهم، وأن تَفَضُّلَ الله ﷻ ومنته بذلك يفوق –دون أدنى شك- جميعَ المغانم التي سعى إليها بعضهم، وتهون معها المغارم والآلام التي أصابتهم من بعد، فذكر النعمة بالبعثة النبوية فيه من التسلية على مصيبة الهزيمة حظٌّ عظيمٌ؛ إذ قد شاع تصبير المحزون وتعزيته بتذكيره ما هو فيه من النعم. (التحرير والتنوير: 4/157).

بصيرة ٩

دستورُ بناءِ الأمةِ في ثلاثِ مهام

ذكر الله ﷻ الوظائف النبوية الثلاث العظمى، وهي دستور بناء الأمة:

الوظيفة الأولى

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾

هذه هي القوة النظرية، أي: يقرأ القرآن على هيئة محددة هي الترتيل، فهذه الوظيفة تتعلق بألفاظ القرآن الكريم، فآيات كتاب الله هي القوة النظرية، وتلاوتها تسكب في القلب تصوراتٍ تهز الجبال، وتبني مشاعر تُغير وجه التاريخ، وهي مصدر النظر إلى العالم، وتكتنز تلاوة الكتاب العزيز قوة هائلة جبارة في التغيير وإحداث النقلات الحضارية كما قال سبحانه:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: 21].

الوظيفة الثانية

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾

هذه هي القوة العملية، والتزكية تقتضي أمرين:

1) التخلية بالتطهير من الخرافات، واقتلاع جذور الأدناس والقيم والتقاليد المجرمة، والسلوكيات المشينة والدساتير التي تشرع شرائع الغاب، وتلغي العدل والآداب.

2) التحلية بالتنمية للأعمال الصالحة، والخطوات المفلحة الناجحة في بناء النفس والمجتمع.

الوظيفة الثالثة

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾

وهذه هي الصلة بين القوة النظرية والقوة العملية، فالكتاب معناه: القرآن المكتوب في الصحف، والحكمة: وضع الشيء في موضعه، فوضع آيات القرآن في موضعها فهمًا وتطبيقًا لا نجده إلا في السُّنة، فهي التي تبين لنا كيف نفهم القرآن ونطبقه ليصلح البشر، ويربيهم على مراد ربهم ﷻ.

وتعليم الكتاب والحكمة يُبَصِّرنا بالتصرف مع الناس والأحداث وَفْقَ الأعدل والأرحم والأجمل لحياتهم، سواء أكان ذلك قائمًا على أصل اللين أم على أصل الحزم الذي يرد اعتداء المعتدين.

بَصِيرَة ١٠

نورٌ على نور

يمكن أن نقول: إن «الكتاب» هنا معناه الكتابة أي يعلمهم الكتابة بأن يأمرهم بتعلمها لينقلهم من الأمية الثقافية بتعلم الكتاب الذي هو القرآن، وبداية ذلك بتعلم الكتابة التي هي سبيل توثيق القرآن، والارتقاء في الحياة والمعارف، وإلا فهو أمي لا يعرف الكتابة، وبقيت أُميَّته حتى بعد الوحي ليعلم الجميع أن معارفه وحي، وليست وليدة ذكائه ﷺ، وهذا المعنى للكتاب تبعي وليس أصليًا.

بَصِيرَة ١١

أهمية وظيفة التلاوة وعظمتها

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ذكر الله ﷻ هذه الوظيفة المباركة مع دخولها في تعليم الكتاب ليُبَصِّرنا بعظمة وظيفة تلاوة الألفاظ، وأهميتها، فالبحث عن المعنى والتزكية به لا يعني التهوين من تلاوة الألفاظ.

بَصِيرَة ١٢

تزكيةٌ على أساسٍ متين

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قَرَنَ التزكية بتلاوة الكتاب وتعليمه ليُبَصِّرنا بأن تربية الظواهر والبواطن وتزكيةَ النفوس والقلوب لا تقوم إلا على أساس من كلام الله ووحيه، وإذ لم تكن كذلك فإنما هي بناء ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: 109] لا يتماسك أمام العواصف والابتلاءات بالسراء والضراء، ولا يستوعب تقلبات الأيام بين نصر وهزيمة، وبين خير وشر.

بَصِيرَة ١٣

من ظلامِ الضلالِ إلى نورِ الرسالة

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164] تصف هذه الكلمات حالهم قبل بعثة النور ﷺ: كانوا في تيهٍ وهلاك، وشقاءٍ في أفكارهم و أفعالهم.

ولكي ندرك عمق الهُوَّة التي انتشلهم منها

نستمع إلى شهادة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يصف حالهم للنجاشي:

«أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، -فهذا معنى كونهم في ضلال مبين ثم قال- فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَحْنُ نَعْبُدُ وَ آبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ.

وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ». «أحمد 1740. وحسَّن إسناده محققو المسند».

فيا لها من منَّة عظيمة ونقلةٍ كبيرة! نقل الله عز وجل بها العرب، ثم البشرية جمعاء، من الظلمات إلى النور.

فماذا حدث اليوم:

هل عاد الضلال المبين إلى المسلمين؟

كيف لا وبعضهم يفتخر أنه لا يُحَكِّم شريعة أرحم الراحمين على الملأ أجمعين؟

بصيرة ١٤

شهادةٌ على عظمةِ النَّقْلَة

يُلخص ابن إسحاق رحمه الله جمال هذه الآية فيقول: «لقد منَّ اللهُ عليكم يا أهلَ الإيمانِ، إذ بعَث فيكم رسولًا مِن أنفسِكم، يَتْلُو عليكم آياته، ويُزكِّيكم فيما أحدثتم، وفيما عمِلْتُم، ويُعَلِّمُكم الخيرَ والشرَّ، لتَعْرِفوا الخيرَ فتَعْمَلوا به، والشرَّ فتَتَّقُوه، ويُخْبِرُكم برضاه عنكم إذا أطَعْتُموه؛ لتَسْتَكْثِروا من طاعته، وتتجنَبوا ما سخِط منكم من معصيتِه، فتَتَخَلَّصوا بذلك من نِقْمتِه، وتُدْرِكوا بذلك ثوابَه من جنتِه، وإن كنتم مِن قبلُ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في عَمْياءَ من الجاهلية». «تفسير الطبري 7/370».

بَصِيرَة ١٥

لِمَ قُدِّمت التزكيةُ على التعليم؟ سرٌّ في سياقِ معركة أُحُد

قدَّم الله ﷻ التزكية على التعليم هنا في سورة آل عمران لأمرٍ واضحٍ جلي، وهو بيان الهدف الأكبر للتعليم: التزكية، فكأنه قدم الغاية على الوسيلة، وناسب ذلك جو سورة آل عمران، فإن الآيات من بداية الكلام عن معركة أُحُد تنبهنا إلى أن سبب الانكسار، وعدم اكتمال الانتصار في تلك المعركة يرجع إلى الغفلة عن العمل بمقتضيات التزكية في ساعةٍ من ساعات المعركة عندما ترك بعض الرماة جبلهم، ثم لما فر بعض المسلمين من الميدان.

بَصِيرَة ١٦

دلالات الوظائفِ النبويةِ في مواضع ورودها في القرآن الكريم

وردت الوظائف الثلاث في أربعة مواضع وفي ترتيبها حكمة بالغة:

الموضع الأول: في سورة البقرة في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ [البقرة: 129]، وقدَّم فيه التعليم على التزكية؛ لأن ذلك هو الوضع الوجودي، فلا نستطيع أن نزكي بشيء لا نعلمه، فالعلم يسبق العمل.

الموضع الثاني: في سياق الامتنان على الأمة في سورة البقرة أيضًا:

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة: 151]. فقدم التزكية على التعليم؛ ليناسب ذلك الكلام عن أهل الكتاب الذين يعرفون ويكتمون، فلا يطبقون علمهم، فقد قال عنهم قبل هذه الآية: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146].

الموضع الثالث

هنا في سورة آل عمران

قُدِّمت "التزكية" كما أسلفنا، لتناسب درس "أُحد" العملي.

الموضع الرابع

في سورة الجمعة

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة:2]. وقدَّم فيه التزكية على التعليم ليناسب الكلام عن الذين حملهم الله التوراة، فلم يحملوها أي لم يعملوا بها، فقال عنهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة:5]، فجعلهم مكذبين مع أنهم يزعمون الإيمان بها.

وفي هذه المواضع الثلاثة الأخيرة، تحذيرٌ بليغٌ لأمة النبي الأمين ﷺ، ألا تسير على خطى من قبلها من أهل الكتاب، فتكتفي بالعلم دون عمل، أو تفصل بين التعليم والتزكية.

السنة العاشرة

سنة المحاسبة العلنية والاعتراف

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران: 165]: تُبَصِّرنا بأن الاعترافَ بالهزائمِ الجماعية والأخطاءِ المرتكبة، والمحاسبةَ العلنيةَ عليها طريقٌ لتحويل الانكسار إلى انتصار، وهذا يقتضي تعظيمَ القيادة النبوية، ومحاسبةَ القيادةِ غير النبوية، وكذلك محاسبة الفئات التي سببت الخلل في المعارك والفئات التي أخفقت أمام بعض التحديات.

ويمكن أن نسمي هذه السنة: سُنَّةَ المِرآة: في مواجهةِ الذاتِ تبدأُ رحلةُ النصر، فعندما تقع المصيبة للمؤمنين تأتي بصائر القرآن المبين لا لتُسكّن الألم بتبريرٍ واهٍ، بل لتضع الأمة أمام مرآة الحقيقة الساطعة؛ مرآةٍ لا تجامل قسمات الوجوه، ولا تُخفي ندوب القلوب. يُعلِّمنا القرآن من خلالها شجاعة المواجهة، وصدق المحاسبة، وفي هذا النور الساطع تتلألأ 10 بصائر منيرة:

بَصِيرَة ١

صرخةُ الوعي الأولى

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ المعنى: أَوَ حينما أصابتكم أيها المؤمنون مصيبة القتل والجراح يوم أُحد تساءلتم: من أيِّ وجهٍ دَهَمَنا هذا الخَطْب، وكيف أصابنا هذا الألم، ونحن على الحق وعدوُّنا على الباطل؟ هنا، يُبصِّرنا القرآن بأن أول خطوة نحو الشفاء هي أن نتجرأ على السؤال، وأن نتدارس بعمقٍ أسباب المصائب التي تحلُّ بساحتنا. إن صرخة "أنَّى هذا؟" ليست علامة ضعفٍ أو شك، بل هي الشرارة الأولى للوعي، وبداية الطريق إلى التعافي. فتجاهلُ المصيبةِ وتركُ أسبابها دون بحث أو تمحيص، هو بمثابة تركِ الجرحِ غائرًا مفتوحًا ليتعفَّن. فإما أن نسأل لِنَعِيَ ونتعلم، أو سيبقى الجهلُ سيِّد الموقف، وتعود المأساة لتطرق أبوابنا مرةً تلو الأخرى.

بَصِيرَة ٢

التوصيف الدقيق أول خطوة في طريق العلاج ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾

يأتي هذا النور الإلهي ليُعلِّمنا مبدأً أصيلًا: تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية. إن أول خطوة في طريق العلاج هي التشخيص الدقيق، فالكارثة اسمها "مُصيبة"، والهزيمة اسمها "هزيمة". حين نطلق عليها أسماء مُنمَّقة، فنحن نغالط أنفسنا، ونوهم أرواحنا أن المشكلة ليست بذلك الحجم، أو أنها غير موجودة أصلًا.

وليس في هذا الصدق مع الذات أيُّ منافاةٍ للرضا بقضاء الله وقدره؛ بل هو اعترافٌ بالواقع المؤلم لنتمكن من التعامل معه بحكمةٍ ويقين. فكلمة "مصيبة" تحمل في طياتها أمرين جليلين: الإقرار بوجود كارثةٍ نازلة، والإيمان بأنها وقعت في مكانها الصحيح بقدر الله وحكمته. إن هذه التسمية الصريحة هي إعلانٌ عن استعدادنا لمواجهة الحقيقة، والتعامل معها بوعيٍ وتسليم. وهذا يختلف تمامًا عن تسمية اللديغ "سليمًا" أو الأعمى "بصيرًا" من باب التفاؤل وتخفيف الألم النفسي، فتلك لفتةٌ إنسانية. أما إن كان اللديغ يظن أنه سليم حقًّا، أو الأعمى يعتقد أنه يبصر فعلًا، فلا بد من مصارحته بحقيقة مصيبته، ليتخذ التدابير الصحيحة للتعامل معها.

بَصِيرَة ٣

قانونُ الألمِ العادل ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾

تُبَصِّرنا بقانونٍ كونيٍّ عادل: الألم ليس حكرًا على فئةٍ دون أخرى، فالمصائب تحدث لجميع البشر مسلمين أو غير مسلمين، فالمسلمون في أُحُد أصابتهم مصيبة بقتل نحو سبعين منهم، لكنهم أصابوا عدوَّهم بمثلي هذه المصيبة في بدر، فقتلوا نحو سبعين، وأَسَرُوا سبعين.

هذه اللفتة تضع المصيبة في حجمها الطبيعي، وتنزع عن النفس شعور الضحية المظلومة، وتُعلِّمها أن ساحة الحياة ميدان سجال، يومٌ لك ويومٌ عليك، وأن الألم جزءٌ من رحلة الجميع.

بصيرة ٤ — الإسلامُ ليس درعًا من الابتلاء ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ﴾

كلمة ﴿أَنَّىٰ﴾ تهز الوجدان بقوتها، فهي تحمل في طياتها كل معاني الاستفهام عن المصدر والكيفية والسبب: من أين؟ كيف؟ ولماذا وقعت لي هذه المصيبة؟

تأتي هذه البصيرة لتُرسّخ في قلب المؤمن حقيقةً كبرى: إن إسلام المرء لا يجعله في منأى عن مصائب الدنيا وتقلباتها. فالبلاء يحلُّ به كما يحلُّ بغيره، إما أن يكون اختبارًا لصدق إيمانه، أو عقوبةً عاجلةً على معصيةٍ زلَّت بها قدمه، أو سُلَّمًا لرفعة درجاته عند خالقه.

بصيرة ٥ — سؤالُ البصيرةِ وسؤالُ السَّخَط

﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ﴾ تُبَصِّرنا بأن المؤمن إذا تساءل: "كيف حدث هذا؟"، فسؤاله سؤالٌ ذووجهين:

١ — قد يكون مشروعًا

إذا كان قصده من التساؤل البحث عن سبب المصيبة، ليعرف الداء فيتجنبه مستقبلًا، وهذا هو السؤال المشروع الذي يقود إلى النهضة.

٢ — وقد يكون السؤال ممنوعًا

إذا كان قصده منه الاعتراض على الوقوع، والسخط على القضاء، فيعترض على الله ﷻ قائلًا: "كيف يصيبني هذا و أنا مسلم؟"، فهذا يقوده إلى اليأس، فالمسلم تجري عليه المصائب كما تجري على غيره.

بصيرة ٦ — ﴿قُلْ﴾ الأمرُ الإلـهيُّ بالبيان

تُبَصِّرنا بأن هذا أمرٌربانيٌّ للقيادة والمفكرين المستنبطين ينبغي أن يبينوا أسباب المصائب بشكلٍ تفصيلي أمام بقية القيادات والأتباع، سواء كان ذلك في اجتماع، أو عبر الإبلاغ والتربية والإعلام.

"قُلْ" لهم، بيّن لهم، اشرح الأسباب بوضوح وشفافية. لا همس في الغرف المغلقة، ولا تبريرات غامضة، بل بيانٌ علنيٌّ للأمة لتعرف أين كان الخلل. فالمصارحة هي أساس الثقة، والشفافية هي بوابة التصحيح.

بَصِيرَة ٧

قبلَ أنْ تلومَ العاصفةَ تَفَقَّدْ شقوقَ سفينتِكَ ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾

هنا تضع الآية الإصبع على الجرح مباشرة، فتُبَصِّرنا أنه لا يمكن للباطل أن يتقدم لولا وجود خلل عند أهل الحق مهما كان مقدار مؤامرات أحزاب الباطل، وما تسوَّر الباطلُ حصونَ الحقِّ إلا من ثغرةٍ أحدثها أهلُها، وما انتصر الظلم إلا بقرار خاطئ اتخذه أهل العدل.

إنها دعوةٌ صادقة تهزُّ أعمدة الوهم، وتدعونا لنتوقف عن تعليق فشلنا على شمَّاعة قوة العدو ومؤامراته، ولننظر بصدقٍ وشجاعةٍ في تقصيرنا وأخطائنا نحن.

بَصِيرَة ٨

السفينةُ واحدةٌ والمسؤوليةُ مشتركة ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾

تُبَصِّرنا بمبدأ المسؤولية الجماعية، فالخطأ الذي ارتكبه بعض الرماة في أُحُد، تحملت تبعاته الأمة كلها.

يُعلِّمنا القرآن هنا درسًا أبديًا: أن السكوت عن الخطأ يعد مشاركةً فيه، وأن التقاعسَ عن الإصلاح غرقٌ محتومٌ للجميع. فإما أن نأخذ على يد المخطئ ونُقوِّم المعوجَّ، أو سنهوي جميعًا في سفينةٍ واحدةٍ أحدث فيها بعض ركابها خرقًا.

بَصِيرَة ٩

﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾

هذا هو المبدأ الذهبي للمراجعة، والأساس المتين للنقد الذاتي الفردي والجماعي، ويُبَصِّرنا بأن نبحث في أسباب الهزائم والانكسارات في داخلنا قبل أن نلقي باللوم على عواصف الخارج فلنبحث عن الشقوق في سفينتنا.

قبل أن نبرر لوقوعها بكبر التحديات، وشراسة العدو فلنتفقد ثبات أقدامنا وصواب قراراتنا. إن رحلة البحث عن أسباب الهزيمة تبدأ من الداخل، لا من الخارج.

بَصِيرَة ١٠

مفتاحُ القدرةِ بعد الانكسار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران: 165]

تأتي هذه الخاتمة لتهز القلوب وتجدد الأمل، فتُبَصِّرنا بأن القدرة الإلهية محيطة بكل شيء لا تحابي أحدًا، فالله قادرٌ على عقاب الصف المؤمن إذا ارتكب الأخطاء، ولم يتبع سنن النصر، وقادرٌ على قلب هزيمةِ الصف المؤمن نصرًا، وعلى قلب فرارِه كَرَّةً إذا اتبع سنن النصر.

ومن أعظم سنن النصر بعد الهزيمة، والكرة بعد الفَرَّة: الاعتراف العلني بالأخطاء التفصيلية.

هذا الاعتراف ليس جَلْدًا للذات، ولا مدعاة لليأس، بل هو الدواء الذي يقوي الصفَّ من جديد، ويعيد توزيعَ أدواره، وترتيبَ أولوياته، ويستجلب قدرة الله ﷻ التي لا يُعجزها شيء في الأرض ولا في السماء.

أما الاعتراف المُجمل، أو المحاسبة الصورية، أو النقد في الغرف المغلقة، فكل ذلك لا يُحقِّق هذه الغاية الجليلة، ولا يفتح باب النصر.

السنة الحادية عشرة

سُنَّةُ المِيزَانِ الدَّقِيق: الجمع بين الإيمان بالقدر واختيار البشر

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾ [آل عمران: 166]: **تُبَصِّرنا بأن من أهم سنن الانتصار:**

الجمعَ بين الإيمان بالقدر؛ إذ يقول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 166]، **وفعل البشر كما في الآية السابقة:** ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: 165]، **فلا بد من الجمع بينهما عند تحليل مجريات الأحداث، وفيها 5 بصائر تهدي القلوب الحائرة:**

بَصِيرَة ١: سِهَامُ الأَلَمِ وَرَسَائِلُ الاِعْتِبَار ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾

تُبَصِّرنا بأن كلَّ وخزةِ ألمٍ وكلَّ جرحٍ غائرٍ هو "مُصيبة"؛ لأنها سهامٌ أصابت موضعها بصورة مؤلمة لمن وقعت عليهم، فهي تصيبُ القلوبَ والنفوسَ فتوجعها، وتستدعي التأمل والاعتبار.

بَصِيرَة ٢: مِفْتَاحُ السَّكِينَةِ الأَعْظَم ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾

أي: بعلمه المحيط، وقضائه النافذ، وتَخْلِيَته لكل فريق ليصطدم بالآخر. هنا يكمن مفتاح السكينة الأكبر، وبلسم القلوب المنكسرة.

إن هذه الكلمة تعني أن ما حدث لم يكن فوضى عارمة أو صدفةً عمياء، بل جرى بعلمِ اللهِ ﷻ وعلمِه، وبإذنه الكونيّ الذي سمح للأسباب أن تفعل فعلها.

قدَّر الله ﷻ ذلك لحِكَمٍ بالغة في واقع الأمة ومستقبلها، وهذا الإيمان بالقدر من أعظم ما افتقده المسلمون وغُيِّبَ عن واقعهم الثقافي.

هذا الكنز الإيماني بهت بريقه في ثقافتنا اليوم، فغاب عن أقلام المحللين وشاشات الأخبار. حتى لم نعد نراه حاضرًا في مراكز الدراسات أو في قراءة ما يجري حولنا من أحداث.

بَصِيرَة ٣ — وَقُودُ النَّهْضَةِ بَعْدَ العَثْرَة ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ...فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾

يترتب على ذلك ألا يهِن المؤمن بسبب تلك الأحداث؛ فهذا الإيمان يورثهم شموخًا لا يلين وعزيمةً لا تنثني؛ لأنهم يعلمون أن كلَّ شيء مكتوب، وخيوطَ الأحداث كلَّها بيدِ علَّام الغيوب، فكيف يهنُ المؤمن أويستكين؟ وبما أنهم يؤمنون بالقدر فينبغي أن يختاروا النهوض بعد المصيبة. فالإيمان بالقدر لا يدعو إلى الكسل والقعود والخمول والاستسلام، بل هو وقودٌ للنهضة بعد كل عثرة. ها هو عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشهد للروم أنهم: «أَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ». «مسلم: 2898»،

فكيف لا يكون أهلُ الإيمان أسبقَ إلى هذه العزيمة وهم يتلون كتاب ربهم عَزَّ وَجَلَّ؟!

بَصِيرَة ٤ — تِرْيَاقُ اليَقِينِ فِي وَجْهِ الخَوْف ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ...فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾

تُبَصِّرنا بألا يبالغ المسلمون في الخوف من الوقوع في النكبة أو المصيبة بعد أن يكونوا قد أعدُّوا ما يمكنهم إعداده؛ فالإيمانُ بالقدر هو الترياقُ الذي يشفي من داءِ الخوفِ المُقْعِد. فما دام المؤمنُ قد أخذ بأسباب القوة، فإنه يخطو في الحياة بقلبٍ ثابتٍ لا يرتجف، وقدمٍ راسخةٍ لا تتزلزل من نكبةٍ تأتي أو مصيبةٍ تحلُّ، لأنه يعلم أن الأقدار قد سُطِّرت، وأن ما شاء الله كان.

هذا اليقين هو الدرع الذي يحمي القلب من سهام الهلع والجزع.

بَصِيرَة ٥ — نَارُ المِحَنِ وَكَاشِفَةُ المَعَادِن ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

تُبَصِّرنا بواحدة من حِكَم الله عَزَّ وَجَلَّ في الإذن بإصابة المسلمين، وهي حكمةُ التمحيص التي تكشفُ عن معادنِ الرجال؛ إذ يظهر صدق المؤمنين، فلو كان النصر حليفَهم في كل موقعة لأبقى المنافقون نفاقهم مستترًا، ولآمن معظم أهل الأرض طمعًا في الدنيا التي ستكون لصالح المؤمنين دائمًا، ولكنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ بحكمته ابتلى الأمة بابتلاءات تكشف الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق. ففي لهيب المحنة، يُعلَمُ المؤمنون الصادقون بثباتهم وصبرهم، ويُعرف المتذبذبون بانكشافهم وتولّيهم. فنسأل الله عَزَّ وَجَلَّ إيمانًا صادقًا، ويقينًا راسخًا، وثباتًا على دينه حتى نلقاه، وأن يجعلنا بفضله وكرمه في عباده السابقين المقربين. آمين.

جسر الاتصال

من مرآة الذات إلى قراءة وجه العدو: بصَّرنا المحوران الخامس والسادس بأهم سنن النصرِ والفشل قبل المواجهة، وفي أثنائها [آل عمران: 121-166]، ووضَعَنا القرآن فيها أمام مرآة النفس لنرى أسباب الانكسار كامنة في داخلنا، فهل حدد لنا القرآن معالم التآمر الخارجي؟

الجواب: هنا يأتي

المحور السابع

دور الأعــداء الخارجيين في إيقاع المســلمين في ســنن الفشــل، وإبعادهم عن سنن الانتصار

[آل عمران: ١٦٦-١٨٩]

المحور السابع

يحدد لنا دور الأعداء الخارجيين في إحداث الفتنة وإيقاع المسلمين في سنن الفشل، وإبعادهم عن سنن الانتصار

[آل عمران: 166-189]

بصيرة

فكرة هذا المحور

أمام هجوم المجرمين العسكري الهمجي على المسلمين أراد الله تعالى توعيتهم بأهم أبجديات الصراع العالمي، فذكر الله ﷻ للمسلمين الأخطاء الداخلية التي تتسبب في فشلهم، ابتداءً من الآية (121)، وبيَّن كيفية إصلاحها، فلما تمت تزكية المسلمين وترقيتهم بذكر أخطائهم، وتطبيعِ أنفسهم على المحاسبة العلنية عليها ما دامت تتعلق بأمرٍ عامٍ في الأمة، وكل ذلك كان في المحورين السابقين اللذَين لخصا سنن الانتصار والاندحار والنجاح والفشل والنهوض والانكسار قبل المعركة، وفي أثنائها، فكل تلك السنن ترجع إلى و اقع المسلمين، وهنا وسَّع الله ﷻ مدارك المؤمنين لاستيعاب العداوة العالمية، ففصَّل لنا هنا أهم الأعداء الذين يؤثرون بصورةٍ سلبية شديدة، ويدفعونهم إلى سلوك سنن الفشل، فذكر منهم ثلاثة أصنافٍ خطيرة:

الصنف الأول: المنافقون

بدأ بهم؛ لأنهم العدو الأقرب والأنكى، فهم الطاعون الذي ينخر الجسد من الداخل، فيعملون على تدمير المسلمين. خناجرهم مسمومة، وكلماتهم فتنة، وهم أول معاول الهدم التي تُستخدم ضد الأمة وذكرهم الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران:167].

الصنف الثاني: أولياء الشيطان

بمؤسساتهم الاتحادية السياسية والعسكرية والثقافية، وهم الذين يعتمدون سياسة التخويف للمسلمين، وأخبر الله ﷻ عنهم في قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: 175]، ومنهم المسارعون في الكفر من الكفار الأصليين، ومن يدعمهم ويواليهم ممن يزعم أنه من المسلمين، وأخبر عنهم في قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾[آل عمران:176].

الصنف الثالث: المحرفون للتوراة والإنجيل

من الذين أوتوا الكتاب: الذين يزوِّرون حقائق الصفات الإلهية، ويكتمون كتاب الله ﷻ، وينبذون أحكامه وراء ظهورهم، وذكرهم الله ﷻ ابتداءً من قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران:181].

فهذه الأصناف الثلاثة تحاول إيقاع المسلمين في سنن الفشل، وتدمر أجهزتُهم الخبيثةُ النفسيةَ المتطلعةَ نحو الانتصار، ويبين الله ﷻ في هذا المحور المركَّز أبرزَ أساليبهم لفعل ذلك.

وهنا نسأل: ما علاقة ذكر هذه الأصناف بسورة آل عمران؟

الجواب:

«آل عمران» اسم لعائلة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهي أساس النصرانية التي تسمي نفسها اليوم المسيحية، والتركيز على «آل عمران» في هذه السورة من دلائل البينة القرآنية الفريدة، فإن المتنفذين من العالَم الذي يسمي نفسه اليوم مسيحيًّا أكثرُ مَن سلَّط أجهزة العالم الدولية الإعلامية والاقتصادية والسياسية والتعليمية على تدمير أدنى روحٍ للمقاومة في نفسية المسلمين، فالصراع مع المستكبرين المتنفذين منهم ممتد على مر التاريخ، وأول ما يكشف حقيقة الصراع أن نبين للرأي العام المسلم والنصراني أن مجرمي الاحتلال الصليبي حرفوا القصة الحقيقية للمسيح وآله عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وتكوَّن هذا المحور من ستة أقسام:

القسم الأول

كَشْفُ الأَسْتَارِ عَنْ عَدُوِّ الدَّارِ: يكشف لنا الصنف الأول من الأعداء الخارجيين، وهم المنافقون، ويكشف دورهم الخبيث في تدمير الروح المعنوية للمسلمين، و إيقاعِهم في سنن الهزيمة [آل عمران: 166-168].

القسم الثاني

مَقَامُ الشَّهَادَةِ فِي وَجْهِ دِعَايَةِ الخَوْفِ: يوضحُ مكانة الشهادة في سبيل الله ﷻ، وذلك للتغلبِ على الدعاية المنافقة التي تدمر الروح المعنوية للمسلمين؛ إذ إن حبَّ الشهادة يصنع الحياة الحقيقية، وينتزع الخوف [آل عمران: 169- 171].

القسم الثالث

سُنَنُ النهوض.. من قلبِ الجراح إلى بوابات الفضل: يكشف لنا هذا القسم عن السنن العملية المباشرة التي يتبعها المحسنون ليحظوا بشرف كرامات الشهادة، وبها يمكنهم أن يقلبوا موازين الحرب، ويحولوا مرارةَ الانكسار إلى حلاوة الانتصار [آل عمران: 172-174].

القسم الرابع

كشف منظومة الشيطان القائمة على التخويف: يكشف العدو الثاني، وهو الشيطان وأولياؤه بمؤسساتهم الاتحادية السياسية والعسكرية والثقافية، وهم الذين يعتمدون سياسة التخويف [آل عمران: 175-178].

القسم الخامس

الحِكَم الربانية في جولات الانكسار: يكشف لنا عن بعض الحكم الربانية العظيمة لانتصار سياسة التخويف الشيطاني، و انكسار المؤمنين في جولةٍ من المواجهة معها [آل عمران: 179-180].

القسم السادس

كشف عداوة المحرفين من أهل الكتاب: توعية المؤمنين لاستيعاب العداوة العالمية بذكر الصنف الثالث من الأعداء الخارجيين، وهم المحرفون للتوراة والإنجيل من الذين أوتوا الكتاب [آل عمران: 181-189].

القسم الأول

كَشْفُ الأَسْتَارِ عَنْ عَدُوِّ الدَّارِ:

يكشف لنا الصنف الأول من الأعداء الخارجيين، وهم المنافقون، ويكشف دورهم الخبيث في تدمير الروح المعنوية للمسلمين، ليوقعوهم في سنن الهزيمة، ويكشف تركيزهم على تهويل مواجهة الموت، وتبشيع الشهادة في سبيل الله [آل عمران: ١٦٦-١٦٨]:

آيات هذا القسم:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٧ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران: 166 – 168].

وتكون هذا القسم من 3 حقائق كاشفة لهذا الصنف الخفي:

حقيقة (1)

المحنة مصفاة تكشف القلوب: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾

[آل عمران: 166-167].

حقيقة (2)

ملامح الخِذلان... كيف تكشف وجوه المقنعة في الميدان؟ لمَّا قال الله ﷻ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ ربما سأل سائل: ما صفاتهم العملية التي تكشفهم؟

حقيقة (3)

الرَّدُّ الإلَهِيُّ القَاصِمُ: صَاعِقَةُ الحَقِّ التي تَنْسِفُ بُنْيَانَ الوَهْمِ: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 168].

حقيقة (1)

المحنة مصفاة تكشف القلوب

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران: 166-167] تُبَصِّرنا بأن الله ﷻ يقدِّر المصائب ليكشف للناس المؤمنين الثابتين والمنافقين المخادعين، فيكون الجزاء قائمًا على ما ظهر في الواقع من الأفعال، لا على مجرد علمه الأزلي السابق، وتلك هي ذروة العدل والرحمة، وفيها 4 بصائر:

بصيرة ١

جمال التعبير وروعة البيان

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ يبَصِّرنا بسر الجمال في هذا التعبير عن علم الله ذي الإكرام والجلال، فالمعنى: ليعلم الله ﷻ الفريقين، ونحن نعلم أن الله -جل مجده- أحاط بكل شيء علمًا، فكيف يظهر جمال هذا التعبير﴿وَلِيَعْلَمَ﴾؟

الجواب: يكمن الجمال الأخّاذ في أن هذه العبارة الفخمة وحدها تستطيع أن تحمل المعنى الجليل المركب، وهنا يختبئ سرٌّ من أسرار البلاغة القرآنية التي تسكب في النفس جلال المعنى وعظمته، فكلمة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ هنا لا تعني أن الله ﷻ يكتشف أمرًا لم يكن يعلمه، بل من معانيها:

1 علمُ الظهور والشهود

أي ليظهرَ هذا العلمُ للناس في عالم الواقع، فيكون علمَ وقوعٍ وانكشاف، لا علمَ إحاطةٍ واستكشاف له سبحانه، فهو سبحانه كما قال عن نفسه:

﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 33].

2 إِظْهَارُ الحَقَائِقِ تَصْدِيقًا لِعِلْمِ الغَيْب

فبناء على هذا النوع من العلم يتميز المُؤْمِنُ عن المُنَافِقِ أمام الناس، ويُظهِرُ الله ﷻ بذلك صدق علمه السابق الذي لم يعرفه الناس.

3 مِيزَانُ الجَزَاءِ: الأَعْمَالُ المَشْهُودَةُ لَا العِلْمُ المَحْجُوب

وبذا يتجلى عدل الله في مجازاة كل فريق بناء على أعمالهم الو اقعية لا على علمه الغيبي السابق فيهم.

4 ولا يكون الحكم فيهم بحسب ظن الناس بهم

بل بحسب علم الله ﷻ فيهم، ولكنه في هذا التعبير الوحيد: جمع بين العلم والعدل بأخصر عبارة.

5 ويظهر أن هذا التعبير الدقيق لا يعد صرفًا عن ظاهر العبارة

ولا تأويلًا لها، بل هذا هو معناه المباشر عندما ننظر إلى كلمة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ وإلى مَن أسندت إليه، وهو الله ﷻ.

6 إشر اقة اليقين في وجوه الشاكين

فبناء على هذا التقرير يتضح لنا الجواب عن سؤال القدر: ففي هذه الكلمة الموجزة ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ جمعت علم الله الأزلي السابق، وقضاؤه الواقع اللاحق، وعدله في الجزاء، وإشهاده للخلق على هذه المجازاة، ولو تأمل المتعجلون هذا التعبير القر آني المتين لردوا به على شبهات أتباع الشياطين في موضوع «وجود مشكلة الشر» في العالم، فوجودها يدل على ملك الله الأعظم، وعدله الأقوم، وليس على نفي وجوده.

بصيرة ٢

النِّفاقُ الوجهُ المزدوجُ والعَدُوُّ الماكِر

﴿الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ تكشف الجواب عن سؤال حكيم «منطقي»: لماذا جعلتم المنافقين عدوًا خارجيًا، وهم يعيشون بين المسلمين، ويتظاهرون بأحكام الإسلام؟

الجواب: لأنه لا بد من التفريق بين المسلمين الذين يقعون في أخطاء ومعاصٍ يكرهونها، ويبحثون عن التوبة منها إن تيقنوا بأنها معصية، وبين المنافقين الذين يتلذذون بالمعصية، ويرون معاصيهم وعدوانهم على الأبرياء إنجازات يتفاخرون بها، ولذا بصرنا الله ﷻ بأنهم لا ينتمون للمسلمين على الحقيقة وإن انتموا إليهم في الصورة، ولا ينتمون للكفار المحاربين في الصورة وإن انتموا إليهم في الحقيقة، فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 14]، وقال: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: 143]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة: 14]، فهم في حالة تذبذب وازدواجية مميتة. ولذا جعلهم الله ﷻ عدوًا حقيقيًا، فقال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: 4]، فكشف حال المنافقين كشفًا دقيقًا.

فالنفاق اسم وضع في الإسلام للتحذير من أردى فئةٍ تساكن المسلمين وتبغي بهم الكيد العظيم، فأظهروا كلمة الإيمان، وأضمروا خلافها، حال المنافق كحال ذلك الكائن الماكر، اليربوع، الذي يحفر لبيته بابين: الْقَاصِعَاءُ وَالنَّافِقَاءُ، فَإِذَا طُلِبَ مِنْ أَيِّهِمَا كَانَ خَرَجَ مِنَ الْآخَرِ. هكذا المنافق، جعل لنفسه بابًا إلى الإسلام يُظهره، وبابًا إلى الكفر يُبطنه، فَمِنْ أَيِّهِمَا طَلَبْتَهُ خَرَجَ مِنَ الْآخَرِ.

(تفسير الرازي 9/422).

بَصِيرَة ٣

قد يمر بخاطرك سؤالٌ دقيق

لماذا أخّر الله الحديث عن خيانة المنافقين في معركة أحد إلى هذا الموضع، مع أنهم انسحبوا في بداية المعركة؟ أليس من الأولى فضحهم أولًا؟

وهنا يربينا القرآن تربية إلهية رفيعة، ويعلمنا أدب الأولويات الرباني:

ابدأ بنفسك أولًا:

فمنهج القرآن يربينا على أن ننظر في مرآة أنفسنا أولًا، ونحاسب ذواتنا قبل أن نُشهر أصابع الاتهام للآخرين.

تسلّح بالبصيرة الإيمانية:

لا تحكم على الأحداث بردود أفعالٍ متسرعة، بل زنها بميزان الوحي الهادئ، لتصل إلى حكمٍ مستنيرورأيٍ سديد، بعيدًا عن ضجيج العواطف.

قوِّ صَفَّكَ الداخلي:

قبل أن تلتفت إلى كيد الأعداء في الخارج، اهتم بلملمة جراحك، وتقوية صفوفك، وسد الثغرات في بنيانك. فالجبهة الداخلية القوية هي أعظم سلاح في وجه كل مؤامرة.

بَصِيرَة ٤

لأي الحكمة في تكرار الذكر

قد تسأل سؤالًا منطقيًا حكيمًا: لماذا يعود القرآن ليتحدث عن المنافقين مرارًا وتكرارًا في سورٍ مختلفة؟ ألا يكفي ما ذُكر عنهم في سورة البقرة أو في سورة "المنافقون"؟

فتأمل الجواب الذي يفيض أنوارًا ويكشف أسرارًا: حاشا لكتاب الله ﷻ أن يكون فيه تكرارٌ لا حكمة من ورائه! فلتطمئنَّ نفسُك، وليهدأْ قلبُك، فإنَّ كلَّ ذِكرٍ لهم في موضعٍ جديدٍ إنما هو كشفٌ لستارٍ عن صفةٍ من صفاتهم لم تُكشف من قبل، وإضاءةٌ لزاويةٍ معتمةٍ من نفوسهم تناسبُ جوَّ السورةِ العام، وتلتقي مع عمودها «موضوعها الكلي».

ولكي ينجلي لك هذا السرُّ البديع

إليك قاعدةً ذهبية ومفتاحًا نفيسًا تفهم به أساليب القرآن الحكيم:

تنوعت القضايا والموضوعات التي تعالجها السور القرآنية، ومن أهداف مشروع التسوير-كتب الله له الاكتمال- محاولة تحديد أبرز الموضوعات الكلية التي عالجتها بصائر القرآن وهداياته، ثم الوصول إلى عمود السورة الأقرب لأن يكون موضوع كل سورة، فلكل سورةٍ من سور القرآن موضوعًا محوريًّا هو بمثابةِ الروح للجسد، وعمودًا فقريًا تنتظمُ به كل قضاياها وهداياتها. ورغم أننا قد نجد موضوعًا واحدًا، كالإيمان أو التقوى أو النفاق، مبثوثًا في سورٍ عدة، إلا أنَّ كل سورةٍ تتناوله من زاويةٍ خاصةٍ وفريدة، تخدم هدفها الأسمى ومحورها الجامع.

ولنأخذ موضوع "النفاق" مثالًا حيًّا يتضح به المقال:

موضوع النفاق نجد سورة البقرة ذكرت (16) صفة من صفات المنافقين في أولها، وقسمت المنافقين إلى قسمين في المثلين الناري والمائي، وعندما نذهب إلى البصائر الجاذبة في سورة آل عمران نجد تناول السورة لموضوع النفاق اتخذ زاوية أخرى مكملة لما ورد في سورة البقرة، وهكذا الأمر في بقية السور التي ذكرت المنافقين، وكل سورة لم تتناول موضوع النفاق مثلًا لمجرد تكميل السور الأخرى فحسب، بل تناولته بما يناسب الموضوع الكلي الأعظم للسورة (عمود السورة):

1. **ففي سورة البقرة**: كشف القرآن عن صفاتهم العامة في بداية تأسيس المجتمع المسلم.
2. **أما هنا في سورة آل عمران**: فيكشف عن دورهم الخبيث في تثبيط الأمة وقت الأزمات والمواجهات العسكرية.
3. **وفي سورة النساء**: يكشف عن دورهم في التلاعب بالحقوق التي تكفل بث الحياة الإنسانية، ومحاربتهم قيام الإدارة الراشدة المنظمة لهذه الحقوق.
4. **وفي سورة التوبة**: يفضحهم فضحًا لا مثيل له، حتى سُميت "الفاضحة".

وهنا تتجلَّى عظمة البينة القرآنية

وهنا يقف القلب خاشعًا متسائلًا: أليس هذا من دلائل أن القرآن ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾؟

ألا يدل على أن القرآن تنزيلٌ من حكيم خبير؟

والمقصود هنا الموضوعات الكلية البارزة، التي هي كالجبال الشاهقة في السورة، وإلا فإنَّ المعاني القرآنية التفصيلية بحرٌ زاخرٌ لا تنقضي عجائبه، تتجدد مع تجدد الحياة وتجدد قضايا الإنسان.

حقيقة (2) ملامح الخِذلان... كيف تكشف وجوهم المقنعة في الميدان؟

لَمَّا قال الله ﷻ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران:167] ربما سأل سائل: ما صفاتهم العملية التي تكشفهم؟

الجواب: لهم (5) صفات عملية تفضحُ سرائرهم، وهي كالآتي:

الصفة الأولى: التَّخَاذُلُ عِنْدَ نِدَاءِ الوَاجِبِ

ويكشفها قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران:167]، فهم من دُعِيَ إلى القتال والدفع، فتثاقلوا، وفيها بصيرتان:

بَصِيرَة ١: خُطَّةٌ مُحْكَمَةٌ أَمَامَ جَيْشِ البَاطِلِ

﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ رسم الله ﷻ لهم في هذه الكلمات النيرات خطة محكمة عظيمة في توزيع الأدوار، فيحضرون مع الجيش إما ليقاتلوا مع المهاجمين، وإما ليدفعوا مع المدافعين، وإما ليدفعوا حال كونهم مرابطين مع الجيش ولو لم يقاتلوا، فيخاف العدو عندما يرى كثرة الجيش، فالكثرة تُرَوّعِ العدو.

بَصِيرَة ٢

تَأْصِيلٌ لنوعي القتال

﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ تؤصل لوجود نوعين من القتال:

قتال الطلب أي الهجوم الذي يسمى الهجوم الوقائي، وقتال الدفع.

الصفة الثانية: بث روح الهزيمة

ويكشفها قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: 167]، إذ تُبَصِّرنا بأن من صفاتهم: التنفير من الجهاد وإشاعة عدم جدوى القتال ضد العدو:

بَصِيرَة

مَنْطِقُ التَّهْلُكَةِ لَا لُغَةُ الشَّجَاعَةِ

استعملوا أرذل البيانات التي تُخَذِّل عن الجهاد الذي ينصر الشعوب ويرد الحقوق، وأشاعوا ذلك، والمعنى: يقول المنافقون: «لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالًا تبعناكم، يعنون أن ما أنتم فيه -لِخَطَأ رأيكم- ليس بشيء ولا يقال لمثله قتال، إنما هو إلقاء النفس في التهلكة». «تفسير النسفي 1/ 309»، فليس مرادهم أنهم غير متأكدين من وقوع القتال، فهم يعلمون أن جيش العدو قد وصل مشارف المدينة، وعلى الرغم من ذلك رجع عبد الله بن أبيّ بن سلول بثلث الناس، وقال: والله ما ندري علامَ نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس!، فصار المعنى: لو نعلم قتالًا متكافئًا لاتبعناكم، ولكنه إلقاء بالنفس في التهلكة.

الصفة الثالثة: القرب من الكفر شعورًا وسلوكًا

ويكشفها قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: 167]، إذ تُبَصِّرنا بأنهم يقتربون من الكفر عقيدةً وعملًا بإصرارهم على عدم المواجهة؛ لأن عدم مشاركتهم في المواجهة يعني عدم الإيمان بالغيب وفقدان الثقة بما عند الله ﷻ:

بَصِيرَةٌ ١

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لَقطَةٌ تَكْشِفُ تَذَبْذُبَ القُلُوبِ

فهل قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يدل على أنهم في غير هذا الوقت لم يكونوا أقرب إلى الكفر؟

الجواب: نعم! فكلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ صفة تأسيسية احتراسًا من أحوال أخرى، فهي تكشف عن طبيعتهم المتقلبة، فهم قد يكونون أقرب للإيمان شكلًا حين يصلون مع الناس، لكن يوم التضحية يسقط القناع، وتتجلى حقيقة قربهم من الكفر.

بَصِيرَةٌ ٢

﴿أَقْرَبُ﴾ درس في العدل والإنصاف

لِمَ لمْ يقل: هم كفار بل قال: ﴿أَقْرَبُ﴾؟

الجواب: لعِلْمِهِ بِحَالِهِمْ تَأْدِيبًا لَهُمْ، وَمَنْعًا لِلتَّهَجُّمِ عَلَى التَّكْفِيرِ بِالْعَلَامَاتِ وَالْقَرَائِنِ، فقولهم وإن كان لا يصدر إلا من الْكَافِرِينَ لَا يُعَدُّ - بِحَدِّ ذَاتِهِ - كُفْرًا صَرِيحًا لِاحْتِمَالِ الْعُذْرِ وَالتَّأْوِيلِ. «تفسير المنار 4/ 187».

الصفة الرابعة — مرض النفاق: لِسَانٌ يُخَالِفُ الجَنَانَ

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 167]، تُبَصِّرنا بأنهم يكذبون ويخادعون، فيقولون شيئًا ويضمرون في قلوبهم أشياء مناقضة:

بَصِيرَةٌ

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ صَيْحَةُ الحَقِّ في وَجْهِ الكَاذِبِين

تأتي هذه الخاتمة كالرعد الذي يصم الآذان، والبرق الذي يكشف الظلمات؛ فهي تحذير صارم لهم بأن أسرارهم مكشوفة، وبسلم شافٍ يطمئن المؤمنين، فالله ﷻ مُطّلِعٌ على سوء طويتهم ولعبهم بالألفاظ، فهتك أستارهم في عاجل الدنيا وفضحهم به، وهذا المعنى تفصيل لما سبق في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران: 166-167].

الصفة الخامسة أَقْنِعَةُ الخِذْلَانِ وَأَلْسِنَةُ التَّيْئِيسِ

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران: 168]، إن منطقهم هو دعوة صريحة للاستسلام، وتجريد الأمة من أبطالها، وتركها لقمة سائغة لأعدائها، وترسم لنا كلمات القرآن في وصفهم 8 بصائر من نور الوعي الحق بحالهم:

بَصِيرَة ١ ثَلَاثُ طَعَنَاتٍ فِي ظَهْرِ الأُمَّةِ

تُبَصِّرنا بصائر القرآن الكريم هنا بثلاث من صفاتهم المظلمة:

- القعود عن نصرة المبادئ والمقدسات، ومواجهة المعتدين والمجرمين.
- التشويش على المرابطين في ثغور المواجهة.
- بث روح الهزيمة في الأمة، وتخذيل الصالحين الذين يدفعون عن الخير والحق والعدل والأبرياء، فيقولون للمرابطين وهم إخوانهم في الإسلام في الظاهر: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

إنهم بذلك يريدون أن يطفئوا كلَّ شعلة أمل، ويصرفوا الناس عن دروب المجد والتضحية.

بَصِيرَة ٢ صُورَةٌ نَاطِقَةٌ: القَوْلُ وَالقُعُودُ فِي مَشْهَدٍ وَاحِدٍ

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾، فهذا تصويرٌ عجيبٌ دقيقٌ لهم، فقدم قولهم على قعودهم، و أتى بواو الحال قبل كلمة ﴿قَعَدُوا﴾

كأنهم قاموا يحرضون على ترك المرابطة

ويشوشون على أفضل الناس في زمانهم من المرابطين، وفي الوقت ذاته يقعدون، ويفعلون ذلك ليصرفوا الناس عن الجهاد والمرابطة، إنهم أهل القعود الذليل عن نصرة الحق، لا يكتفون بجبنهم، بل يبثون سموم اليأس في قلوب المؤمنين، ويثبطون عزائم الصالحين الذين هبُّوا للدفاع عن العدل والكرامة والأبرياء. وبينما يجلسون في أماكنهم آمنين، يطلقون كلماتهم كالسهام المسمومة نحو المرابطين في ثغور العز، قائلين بلسان الشامت: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

بصيرة ٣

أداة الإِعْلَامِ الأَسْوَد...كَيْفَ يَنْسُجُونَ الشُّبُهَات؟

كلمتا: ﴿قالوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ تكشف عن حركة واسعة لمكرهم المستتر ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾، فتتضمنان إيجازًا بديعًا يخلب الألباب يكشف عن تحركات المنافقين الإعلامية الماكرة على جهاتٍ مختلفة:

جهة التآمر الداخلي:

فيحتمل أن يكون معناها: قالوا لإخوانهم في النفاق، وهذا يدل على المؤامرات المشتركة بينهم في غرفهم المغلقة، وعلى استهزائهم بالمرابطين من المسلمين.

جهة الرأي العام:

ويحتمل قالوا لإخوانهم في الإسلام من جمهور المسلمين الذين لهم عذرٌ ما، فلم يكونوا ضمن المرابطين، فيحاول المنافقون أن يشوشوا على المرابطين عند بقية المسلمين، ويكون المعنى: قالوا لسائر المسلمين عن المرابطين، وبذلك ينعكس الأثر السيء لهذا التشويش على الجميع على المرابطين وغيرهم، فيزرعون الشك في قلوب الجميع، لتتسع دائرة اليأس والخذلان.

جهة الهمس السام في آذان المجاهدين:

ويحتمل أنهم قالوا لإخوانهم المرابطين ليفتوا في عضدهم، في محاولة لكسر عزائمهم من الداخل، فيأتوا إليهم بثوب الأخوة الناصحة، ويلقوا بكلمات اليأس ليفُتُّوا في عضدهم، ولكنهم استخدموا صيغة الغائب {لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} من باب الالتفات،كأنهم يتحدثون عن آخرين، وهذا أسلوبٌ خبيث لكسر الصف من الداخل دون مواجهة مباشرة، والمقصود: لو أطاعوا ما أصابهم ما يؤدي إلى مقتلهم.

وأشار إلى قريب من هذه المعاني المفسرون كالرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال:

«الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْأُخُوَّةِ، الْأُخُوَّةُ فِي النَّسَبِ، أَوِ الْأُخُوَّةُ بِسَبَبِ الْمُشَارَكَةِ فِي الدَّارِ، أَوْ فِي عَدَاوَةِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم أَوْ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ؟» «تفسير الرازي 9/ 424».

بَصِيرَة ٤ استغلال أنبل القيم وهو رداء "الأخوّة"

﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ فتُبَصِّرنا هذه الكلمة بأن المنافقين يستثمرون كل الوسائل المتاحة لتحقيق أهدافهم الماكرة، ومن ذلك أنهم يستغلون كل المبادئ السامية لتحقيق غاياتهم الدنيئة، فيرتدون عباءة "الأخوة" المقدسة، إما قناعًا لخداع المسلمين، أو شعارًا يجمعهم على الكفر والضلال.

بَصِيرَة ٥ نَسِيجُ الخِيَانَةِ المتداخل

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ تأمل هذا التركيب القرآني العجيب، فهو ينسج ثلاث صفات في خيط واحد، كلوحة متداخلة تكشف عمق خيانتهم، ولاحظ الأمر:

القول ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾

فهذه إشارة إلى رماح الفتنة بالتشويش والتخذيل.

القعود ﴿وَقَعَدُوا﴾

هذا وصفٌ لقعود الخذلان، وعدم النهوض في مواجهة العدو، ويستلزم تسليم كل ثروات الأمة البشرية والمادية إلى العدو، والرضا بحياة العبيد تحت رضا العدو، ويكتفي المنافق هنا أن يرقيه عدوه في دركات العبودية.

التبرير ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾

هذه عودة لصريح كلامهم لتكون طعنة جديدة يبررون بها خذلانهم، ويشوهون به تضحيات الشجعان.

هذا التداخل المذهل بين هذه الصفات يُبَصِّرنا بشدة التداخل بين أفعال هؤلاء المجرمين الخونة، وتنوع تحركاتهم لتحقيق ثلاثة أمور في وقت واحد: القعود عن مواجهة العدو، ويستلزم تسليم ثروات الأمة له، والتشويش، والتخذيل.

بَصِيرَة ٦

سِلَاحُ التَّخْوِيفِ الأَعْظَم شَبَحُ المَوْت

﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ تُبَصِّرنا بأكبر خدماتهم للعدو، فهم يخوِّفون الناس من المواجهة الحتمية مع العدو؛ لأنها بزعمهم تؤدي إلى القتل، فيعقدون المحافل، ويشاركون في المنتديات، ويقيمون المؤتمرات، ويقولون مظهرين الشفقة باكين بدموع التماسيح على الأبطال الذين قدموا حياتهم لمبادئهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ فقعدوا عن المرابطة كما قعدنا ﴿مَا قُتِلُوا﴾.

بَصِيرَة ٧

﴿مَا قُتِلُوا﴾ هذه الكلمة تجمع صورتين:

- ما قُتِل الذين قتلوا من المرابطين.
- وما أصاب القتل من بقي من الأحياء المرابطين.

وذلك أن الفعل (قُتِلوا) قد يؤتى به للكلام عن شيء وقع، أو للكلام عن شيء يوشك أن يقع وقوعًا محققًا. إنهم بذلك يحاولون قتل العزيمة في صدور الأحياء، وتشويه كرامة الشهداء بتصويرها على أنها أبشع المصائر.

ملحوظة منهجية

مثل هذا الفعل يأتي في الاستعمال لتصوير المعنيين، فيحمل عليهما إلا أن تدل قرينة على أحدهما كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: 231]، فالمعنى كدن أن يبلغن أجلهن؛ لأنهن إذا انتهت عدتهن فلا إمساك، فخرج الفعل هنا عن مقتضى ظاهره، وكذلك قولهم: ﴿مَا قُتِلُوا﴾ ظاهره: أنهم قد قُتِلوا، فنُعمِل هذا الظاهر، ويحتمل: لم يصلوا بعد إلى أن يُقتلوا، ولكنهم مُعَرَّضون له، فهذا خروج عن مقتضى الظاهر، ولكنه محتمل، فنُعمله أيضًا.

بصيرة ٨

قراءتان تكشفان دقة التصوير:

تأتي القراءتان لتضيفا عمقًا جديدًا في فضح نواياهم:

الأولى: قراءة الجمهور

﴿ما قُتِلُوا﴾

(بالتخفيف): وهي تشير إلى التخوف من حقيقة القتل نفسها، وتقدمت إيحاءاتها.

كثرةُ القتل في المرابطين

الثانية: قرأ هشام

﴿ما قُتِّلُوا﴾

-بِتَشْدِيدِ التَّاءِ- مِنَ التَّقْتِيلِ، فتصوّر قراءته أمرين:

شناعةُ صورة المقتولين، كأنهم يعرضون مشاهد مروعة للأجساد المقطعة والأشلاء الممزقة، ليقولوا: انظروا إلى فظاعة ما يدعونكم إليه!.

وهذا يعني أن المنافقين يصورون كرامة الاستشهاد في سبيل الله ﷻ على أنها أشنع أمور الحياة، وتصور القراءتان أن هؤلاء المنافقين يحاولون بآلتهم الإعلامية الجبارة أن يقلبوا الحق باطلًا، والباطل حقًّا، فيُفَظِّعون كرامة الشهادة طلبًا لتوهين المسلمين ليكرهوا هذه الرتبة العلية، والمرتبة الموفقة العظيمة السَّنِيَّة.

حقيقة (3)

الرَّدُّ الإلَهيُّ القَاصِمُ: صَاعِقَةُ الحَقّ التي تَنْسِفُ بُنْيَانَ الوَهْمِ

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 168]

فبعد هذا العرض المفصل لأقوالهم المشوّشة، يأتي الرد الإلهي الحاسم كصاعقة تنسف كل منطقهم. وتُبَصِّرنا الآية بأن سلامة الأفراد والحفاظ على الأوطان والمنجزات لا تتحقق دون كسر حاجز الخوف من مواجهة الموت، فإذا كان الموت قدرًا محتومًا على الفراش وفي ساحات الشرف، فلماذا الفرار منه في ميادين العز والفخر؟

وفيها بصيرتان:

بَصِيرَة ١: ﴿قُلْ﴾.. قوة الرد وضرورة المواجهة الفكرية:

إن هذه الكلمة ﴿قُلْ﴾ ليست مجرد أمر بالقول، بل هي تأسيسٌ لمنهج حياة، وبناءٌ لحصنٍ منيع في وجه كل الشبهات. إنها دعوةٌ صريحةٌ للرد على شبهات المرجفين، وتعرية باطلهم بالحجة والبيان، ونشر هذا الرد ليكون ثقافة عامة وتربية راسخة في قلوب الأجيال، ويجب السعي لتعميم هذا الرد تربويًّا وإعلاميًّا ليحصل البلاغ المبين للجميع، ويشمل ذلك أن يسمع المنافقون هذه الردود، فتوهن من نشاطهم في نصرة الشيطان، أو تردهم ليتوبوا.

بَصِيرَة ٢: تحدٍّ يفضح المرجفين

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 168] تُبَصِّرنا بالتحدي الصارخ لكبريائهم الكاذب: أي فادفعوا دفعًا حقيقيًّا قويًّا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين في أنَّ القعود يعني النجاة من القتل، فالموت أخو القتل، والحياة الباقية تكون بعدهما، ورد عليهم سابقًا بأن الكون يسير بقَدَر، والحذَر لا ينجي من القَدَر، ومواجهة الموت في ميادين الفخر يُوجِد الحياة الحقة، وهكذا، تتربى الأمة على جناحين:

- **جناح الرحمة**: بنشر رسالة الخير والمحبة للعالمين.
- **وجناح القوة**: بإعداد العدة التي تردع المعتدين وتحفظ الحقوق.

ولا يمكن لهذين الجناحين أن يرتفعا إلا حين يتحرر القلب من الخوف من المواجهة.

جسر الاتصال

جسرٌ من نورٍ إلى حياة الخلود:

عرفنا أن القسم الأول من المحور السابع كشف لنا الصنف الأول من الأعداء الخارجيين، وهم المنافقون، وكشف دورهم الخبيث في تدمير الروح المعنوية للمسلمين، ليوقعوهم في سنن الهزيمة، ورأينا تركيزهم على تهويل مواجهة الموت، وتبشيع الشهادة في سبيل الله ﷻ [آل عمران: 167-168]، وهنا، في خضم هذا الإرجاف، يرتفع سؤال النفس المؤمنة: كيف يكون الرد الإلهي على هذا الدَّس الخبيث، والإعلام الساقط؟ وكيف يُحوِّل الله -جلَّ في علاه- هذا الخوف من الموت إلى أسمى أمنيات الأرواح، ويجعل من الشهادة في سبيل الدفاع عن الدين والوطن والعِرض والكرامة، أنشودة مجدٍ تتغنى بها القلوب؟ وكيف حبب الله -جل مجده- الشهادة في سبيل الله للدفاع عن الإيمان والأوطان، والرجال والنساء والولدان؟

يأتي الجواب في القسم الثاني من هذا المحور

لا ككلماتٍ تُقرأ، بل كشلَّالٍ من النور يتدفق على الأفئدة، فيغسل عنها وَضَرَ الخوف، ويُنبِتُ فيها رياحين اليقين وشجر العزيمة.

القسم الثاني

مَقَامُ الشَّهَادَةِ في وَجْهِ دِعَايَةِ الخَوْفِ: يوضحُ مكانة الشهادة في سبيل الله ﷻ، وذلك للتغلبِ على الدعاية المنافقة التي تدمر الروح المعنوية للمسلمين؛ إذ إن حبَّ الشهادة يصنع الحياة الحقيقية، وينتزع الخوف [آل عمران ١٦٩- ١٧١]:

آيات هذا القسم:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: 169-171].

فكرة القسم

هنا، تُرفع راية الشهادة عاليًا، ويُكشف عن مقامها الذي لا يُدانى؛ ففي حب الشهادة تكمن الحياة الحقيقية، وبه وحده يُنتَزع شبح الخوف من الصدور.

وفي هذه الآيات البينات، يفتح الله ﷻ لنا أبوابًا من الكرامة لا تُغلق، أعدَّها سبحانه للشهداء الأبرار، وذكر الله ﷻ في هذه الآيات 7 كراماتٍ للشهداء:

الكرامة الأولى

الشهادة عَظَمَةٌ ومجدٌ يبددان الأوهام؛ ولذا يحرِك المنافقون إعلامَهم الخبيث لتشويه حقيقتها، فيأتي النداء الإلهي صارخًا في وجه أوهامهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: 169].

الكرامة الثانية

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [آل عمران: 169] فالشَّهادة بوَّابة الحياة الحقِيقيَّة الأجمل.

الكرامة الثالثة

جوار الرَّحمن: نِعمَ الجوار، وَأَكْرَمُ مَقَامٍ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: 169].

الكرامة الرابعة

رزقٌ هنيءٌ بلا كدٍّ أو سعي: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169].

الكرامة الخامسة

الفرح الدَّائم بفضلٍ غير منقطع: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: 170].

الكرامة السادسة

الاستبشار بالأبطال من بعدهم:

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: 170].

الكرامة السابعة

الاستبشار بثلاث نِعَمٍ قادمة:

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 171].

الكرامة الأولى

الشهادة عَظَمَةٌ ومجدٌ يبددان الأوهام؛

ولذا يحرِّك المنافقون إعلامَهم الخبيث لتشويه حقيقتها، فيأتي النداء الإلهي صارخًا في وجه أوهامهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾، وفيها 4 بصائر تهدي القلوب:

بَصِيرَة ١

بصيرة الاتصال

الواو تُبَصِّرنا بالمناسبة والاتصال، فربطت هذا النور الساطع بذلك الظلام الذي حاكه العدو الأول، وهم المنافقون، فبعد أن كشف الله ﷻ أنهم يسعون لهدم حصون الأمة بنزع روح الجهاد منها، لتدمير أمنها القومي، يأتي الرد هنا، فالواو جسرٌ يربط بين سمِّ المنافقين وترياق رب العالمين الذي فيه تأكيدٌ أن الآجال بيد الله، وأن ما يظنونه نهاية هو في الحقيقة أروع بداية.

بَصِيرَة ٢

بصيرة العُمق

هنا يرد الله ﷻ عليهم بإظهار عظمة الشهادة، فيأمرنا الله ﷻ ألا نكون أسرى ظواهر الأمور، فالعين ترى جسدًا سقط، لكن البصيرة ترى روحًا ارتقت، فليست الإصابة بالقتل نهاية القصة، بل هو فصلها الأعظم، لذا قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: 169]، فلا تقع في فخ الظاهر، بل انظر بنور البصيرة إلى حقيقة الباطن.

بَصِيرَة ٣

بصيرة الغاية

تأمل كيف قال: ﴿قُتِلُوا﴾ بفعلٍ لم يُسمَّ فاعله؛ أي مبنيًا للمجهول، فليس المهم أبدًا من هو القاتل، فذاك أمرٌ زائل، بل الأهم والأبقى هو الدرب الذي ساروا فيه، والغاية التي من أجلها قُتلوا: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، في ذلك الطريق الموصل إلى رضوان الله ﷻ وحده لا إلى رضا غيره.

بَصِيرَة ٤

خِطَابٌ لِكُلِّ قَلْبٍ مُؤْمِنٍ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ فيها قراءتان:

الأولى
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾

قرأ بالخطاب الجمهور، وتُبَصِّرنا قراءتهم بأن المخاطب هو القارئ أو المستمع للقرآن، وأول مستمع وقارئ هو النبي ﷺ، فالله تعالى يثبت القارئ والمستمع، ويزيده إيمانًا بذكر مصير الشهداء، وأنهم أحياء، ويأمره ألا يقف عند ظواهر الأمور من أن هؤلاء السعداء قد ماتوا، بل انتقلوا إلى الحياة الحقيقة.

الثانية
﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾

قراءة هشام بخلف عنه بياء الغائب، ليكون المعنى: ولا يحسبن الذين قتلوا في سبيل أنفسهم أمواتًا، أو: ولا يحسبن أحدٌ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا، ولا يحسبن المنافقون المشككون أن الذين قتلوا في سبيل أموات...

الكرامة الثانية

﴿قُتِلُوا﴾ [آل عمران:169] فالشَّهادة بوَّابة الحياة الحقِيقيَّة الأجمل، وفيها 3 بصائر:

بَصِيرَة ١

﴿قُتِلُوا﴾ ظَاهِريًّا، فلا تَظُنَّنَّ أنهم بمقتلهم قد حُرِموا الحياة

فقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ يا له من انتقالٍ عظيم! إنه ليس مَوْتًا، بل هو بوَّابة فُتحت على مصراعيها إلى حياةٍ لا تعرف الفناء. فتُبَصِّرنا بأن القتل الظَّاهري بوَّابة يعبر الشَّهيد من خلالها إلى حياة أعظم من حياتهم الدُّنيا، ولذا قال حرام بن ملحان رضي الله عنه لَمَّا طعنه الغادرون من ورائه: «اللَّهُ أَكْبَرُ! فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ» (البخاري:2801). لقد رأى بنور اليقين ما لم تره أعين قاتليه.

بَصِيرَة ٢

أَرْوَاحٌ طَلِيقَةٌ فِي رِيَاضِ الجِنَانِ

يبيّن لنا النَّبِيُّ ﷺ كيفية حياتهم، وحديثه هنا جاء بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَزِيزٍ عَظِيمٍ اجتمعت في سنده جواهر الأمّة (أحمد عن الشافعي عن مالك) عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه، قَالَ ﷺ: «نَسَمَةُ المُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ» (أحمد: 15778، وابن حبان في صحيحه: 375). فأيُّ صورة للحياة أجمل من روحٍ طليقة تتنعَّم في رياض الجنَّة!

بَصِيرَة ٣

الشَّجَاعَةُ تَصْنَعُ الحَيَاةَ، وَالجُبْنُ يَجْلِبُ الهَلَاكَ

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ وهكذا، يربِّينا القرآن على نسف فكرة أن القتل في سبيل الله عز وجل فناء. إن هذا المفهوم الخاطئ هو عذر الجبناء للفرار، «فالتَّوَقِّي مِنَ الْمَوْتِ بِعَدَمِ الْقِتَالِ وَالدِّفَاعِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ لَا مِنْ أَسْبَابِ السَّلَامَةِ». تفسير المنار 4/190».

وقد قال الحبيب ﷺ مادحًا من يحبهم الله: «...وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَلَقِيَ الْعَدُوَّ فَهُزِمُوا (أي: أصحابه)، فَأَقْبَلَ بِصَدْرِهِ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يَفْتَحَ اللَّهُ لَهُ» (الترمذي: 2568، وقال: هذا حديث صحيح).

والمقصود من أيِّ انتصار هو أن يحظى الإنسان بالحياة الحقيقيَّة الرائعة الماتعة الطيِّبة، والشَّهيد سيتمتَّع بأجمل الحياة الحقيقيَّة.

الكرامة الثالثة

جوار الرَّحمن: نِعمَ الجوار، وَأَكْرِمْ مَقَامٍ، ويُبَصِّرنا بذلك قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: 169]، و«مَعْنَاهُ الْقُرْبُ وَالْإِكْرَامُ». «تفسير الرازي (9/429)»، فتُبَصِّرنا بأنهم انتقلوا من أبخس دار إلى أحسن جوار.

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾... كلمتان تختزلان كلَّ صور النَّعيم. فليسوا أَحْيَاءً في أيِّ مكان، بل هم في كنف ربِّهم وفي ضيافته. لقد انتقلوا من دار الدُّنيا الفانية إلى جوارٍ لا يُدانيه جوار، وقربٍ لا يشبهه قرب، وإكرامٍ لا يحدُّه وصف.

الكرامة الرابعة

رزقٌ هنيءٌ بلا كدٍّ أو سعي ﴿يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]:

بَصِيرَة ١

﴿يُرْزَقُونَ﴾ جاء الفعل مرَّة أخرى لم يُسمَّ فاعله

ليُعلِمنا بأنهم قد كُفوا مؤونة العمل، فالرِّزق يأتيهم هَنِيئًا مَرِيئًا بغير حساب.

بَصِيرَة ٢

نَهْرٌ مِنَ النَّعِيمِ تَسْبَحُ فِيهِ الرُّوحُ

﴿يُرْزَقُونَ﴾ لم يبيّن أنواع رزقهم، ليطلق لنا أن نتصوَّر ألذَّ أنواع الرِّزق، وأمتع المشتهيات، وأشهى الملذَّات، وليفتح لأرواحنا أن تتخيَّل كلَّ ما لذَّ وطاب، من أشهى الأرزاق الماديَّة وأسمى المتع الروحيَّة.

وقد كشف لنا رسول الله ﷺ طرفًا من هذا النَّعيم حين قال عن شهداء أُحُد:

«لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُم بِأُحُدٍ، جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا... فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ... قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ... فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا...﴾ [آل عمران: 169]».

«أحمد 2388. والحاكم في المستدرك: 2444، وقال: صحيح على شرط مسلم».

الكرامة الخامسة

الفرح الدَّائم بفضلٍ غير منقطع

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: 170]

فكلمة ﴿فَرِحِينَ﴾ صيغة مبالغة تُبَصِّرنا بثبات فرحهم ودوامه، فلم يقل "فرحوا" و انقضى فرحهم، وذلك بسبب ما آتاهم الله ﷻ من الرِّزق المعنوي والابتهاج النَّفسي، ومن الرِّزْقِ المادِّيِ الحسِّيِّ الذي يجمع أنواع الشَّهوات والمُتع، وكلُّ ذلك اسْتَحقُّوهُ بِعَمَلِهِمْ، ثم زادهم الله ﷻ من فضله، «والْفَضْلُ مَا كَانَ فِي غَيْرِ مُقَابَلَةِ عَمَلٍ، كَمَا قَالَ: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 30]» «تفسير المنار 4/192».

ولبيان شيء من هذا الفضل العجيب، قال رَسولُ الله ﷺ:

«لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيُرى مَقْعدَهُ من الجَنَّةِ، وَيُجَارُ من عذابِ القَبْرِ، وَيأمَنُ من الفَزَعِ الأكْبَرِ، وَيُوضَعُ على رَأْسِهِ تاجُ الوَقارِ، الياقُوتةُ مِنْها خَيْرٌ من الدُّنْيا وَمَا فِيها، وَيُزوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً من الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ من أقَارِبِهِ» «الترمذي: 1663، وقال: حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ».

الكرامة السادسة

الاستبشار بالأبطال من بعدهم ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: 170] وفيها 3 بصائر:

بَصِيرَة ١

فَرْحَةٌ تَعْبُرُ حُدُودَ الزَّمَانِ

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ إن فرحهم ليس فرحًا أَنَانِيًّا، بل هو فرحٌ يمتدُّ ليشمل إخوانهم الذين يسيرون على ذات الدَّرب، فالِاسْتِبْشَارُ من قولهم: أَبْشَرَتِ الْأَرْضُ: إِذَا أَخْرَجَتْ نَبَاتَهَا، وهو وصول خبرٍ إليهم بالشَّيء الغائب السَّارِّ مَعَ حُسْنٍ وَجَمَال، (مقاييس اللغة 1/251). زاد الطَّبري: إذا كان سابقًا به كلَّ مخبرٍ سواه. (تفسير الطبري، 1/383).

بَصِيرَة ٢

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾

كلمة تحمل في طيَّاتها معنى البشرى السَّارَّة الجميلة التي تأتي أوَّلًا مبشِّرة بالخير، كتباشير الصُّبح التي تسبق شروق الشَّمس.

بَصِيرَة ٣

بمن يستبشرون؟

﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يستبشرون بأنهم بعد أن قدَّموا حياتهم الدُّنيوية ثمنًا لنصرة المستضعفين، وإعلاء الحق المبين فقد وقع ما أمَّلوا من نصر وتمكين، فالذين بقوا من بعدهم من إخوانهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا خوف مستقبلي عليهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما جرى عليهم من مصائب بعد أن ذاقوا طعم النَّصر.

الكرامة السابعة

الاستبشار بثلاث نِعَمٍ قادمة: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 171] **وفيها بصيرتان:**

بَصِيرَة ١

مَفَاجَآتُ النَّعِيمِ المُتَجَدِّدِ

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ هاتان نعمتان كبيرتان، فهم يستبشرون بالنِّعم والفضل القادمين، فمفاجآت نعيمهم لا تنقطع، ويتجدَّد الاستبشار مرَّة أخرى، فالنَّعيم ليس محطَّة وصول، بل هو رحلة عطاء إلهي متجدِّد.

بَصِيرَة ٢

الوَعْدُ الأَبَدِيُّ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

وهذه النِّعمة الثَّالثة، وهذا هو الرَّدُّ الحاسم على كلِّ من يرى أن الشَّهادة بلا نصرٍ ظاهري هي ضياع، فلا يضيع أجر المؤمن، ولو قُتِل:

قرأ الجمهور ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾	وقرأ الْكِسَائِيُّ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾
بِفَتْحِهَا عَلَى مَعْنَى: يَسْتَبْشِرُونَ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ، وهذا يردُّ على من جعل الموت في سبيل الله إلقاءً بالنفس إلى التَّهلكة إذا لم يحقّق النَّصر.	بكَسْرِ الهمزة لتعلن في العالمين أن أجر المؤمن عند الله محفوظ، سواء رأى النَّصر بعينه في الدُّنيا، أو حازه كَامِلًا موفورًا في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

جسر الاتصال

من سماء كرامات الشَّهادة إلى أرض التَّضحية:

عرفنا أن القسم الثَّاني وَضَّحَ مكانةَ الشَّهادة في سبيل الله ﷻ، وذلك للتغلُّبِ على الدِّعاية المنافقة التي تدمِّر الرُّوح المعنويَّة للمسلمين؛ إذ إن حبَّ الشَّهادة يصنع الحياة الحقيقيَّة، وينتزع الخوف، ولذا ذكَر الله ﷻ لها سبع كرامات [آل عمران: 169-171]، فإذا كان ذاك هو الجزاء، فما السَّبيل لنيله؟ وإذا كانت تلك كرامات الوصول، فما خطوات المسير إليها؟

يأتي الجواب في القسم التالي

ليكشف لنا عن السنن العملية التي يتبعها المحسنون ليحظوا بهذا الشرف العظيم، وبها يحولون مرارة الانكسار إلى حلاوة الانتصار.

القسم الثالث

سُنَنُ النهوض.. من قلبِ الجراح إلى بوابات الفضل: يكشف لنا هذا القسم عن السنن العملية المباشرة التي يتبعها المحسنون ليحظوا بشرف كرامات الشهادة، وبها يمكنهم أن يقلبوا موازين الحرب، ويحولوا مرارةَ الانكسار إلى حلاوة الانتصار [آل عمران: ١٧٢-١٧٤]:

آيات هذا القسم:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾
الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ
﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

[آل عمران: 172-174].

وفيه 3 سنن مضيئة هي قناديل الطريق لكل من أراد النهوض:

السنة الأولى

سر الاستجابة يَظهر حين يغلب نداءُ الإيمان أنينَ الجراح: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ...﴾ [آل عمران: 172].

السنة الثانية

شجاعة اليقين.. حين يغدو التهديد وقودًا للإيمان: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ...﴾ [آل عمران: 173].

السنة الثالثة

ثمرة اليقين الانقلاب بنعمة الله وفضله ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ...﴾ [آل عمران: 174].

السنة الأولى

سر الاستجابة يَظهر حين يغلب نداءُ الإيمان أنينَ الجراح

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 172] تُبَصِّرنا بأن من سنن قلب موازين الحرب: الاستجابة لله والرسول ﷺ مهما كانت التضحيات عظيمةٌ، والجراحُ نازفةٌ، وفيها 4 بصائر تشرق على العالم:

بصيرة ١: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾

الاستجابة سر التوفيق والإصابة، فالاستجابة لله والرسول ﷺ في زمن الضعف تعكس موازين القوة، وتقلب نتائج المعركة.

﴿اسْتَجَابُوا﴾: لا تعني مجرد إجابة، بل تعني: أجابوا إجابة مؤكدة دون ترددٍ، ولا تضجرٍ، ولا تثاقلٍ، فالسين والتاء للتأكيد، وقد تعني: طلبوا إجابة الله والرسول ﷺ، فبحثوا عنها، ولم يلتفتوا إلى أهوائهم أو رغباتهم، فهي تؤدي إلى معنى التأكيد.

بصيرة ٢: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾

هنا تتجلى العظمة! فالاستجابة لم تأتِ في زمن الرخاء، بل في أعمق لحظات الألم، فهم ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ﴾، فأثخنتهم الجراح.

دعا رسول الله ﷺ المثخنين بالجراح، الذين لم يغسلوا عنهم الدم القُراح

دعاهم وحدهم فاستجابوا. وتتضمن هذه الكلمات لوم مَن يطول عليه الوقت، فيقسو قلبه، ويبحثُ عن حلولٍ بديلة لما شرعه الله تعالى في التعامل مع الأحداث، بدلًا من البحث عما يأمر الله ﷺ به.

بَصِيرَة ٣

حَمْرَاءُ الْأَسَدِ قِصَّةُ الاسْتِجَابَةِ الْخَالِدَةِ

يحدثنا ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه لَمَّا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ أُحُدٍ وَبَلَغُوا الرَّوْحَاءَ -على بُعد 400 كم تقريبًا من المدينة-، قَالُوا: لَا مُحَمَّدًا قَتَلْتُمُوهُ، وَلَا الْكَوَاعِبَ أَرْدَفْتُمْ، وَبِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ، ارْجِعُوا -أي فرحوا بكسرهم للمسلمين في أُحُد، وخوفًا من هزيمة مباغتة انسحبوا، وفي الطريق حرَّض بعضهم بعضًا على العودة- فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَنَدَبَ النَّاسَ، فَانْتَدَبُوا حَتَّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الْأَسَدِ وَبِئْرَ أَبِي عِنَبَةَ -على بعُد 5كم تقريبًا من المدينة-، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: 174]. (السنن الكبرى للنسائي: 11017، وذكر الهيثمي في المجمع 10113 أن رجاله ثقات).

بَصِيرَة ٤

ثُلَاثِيَّةُ الْمَجْدِ وَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 174]: ﴿اسْتَجَابُوا﴾، ﴿أَحْسَنُوا﴾، ﴿اتَّقَوْا﴾:

بيَّن الله تعالى فيما سبق مكانةَ الشهداء وتنوعَ تكريمهم في الآخرة، وهنا يبين منزلة السائرين على طريقهم، فالدرب واضح المعالم تظهره ثلاثية المجد:

1. استجابةٌ سريعة لنداء الواجب.
2. تبعها إحسانٌ متقنٌ في العمل.
3. وتتوجها تقوى راسخةٌ تملأ القلب.

فمن جمع هذه الثلاث، ولو كان مُثقلًا بجراحه، فقد استحق من الله عَزَّ وَجَلَّ "أجرًا عظيمًا"، سواء نال الشهادة، أو عاش عزيزًا منتصرًا.

السنة الثانية

شجاعة اليقين.. حين يغدو التهديد وقودًا للإيمان

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173] فتُبَصِّرنا بأن من سنن النهوض: قلب التخويف إلى زيادة إيمان، وتفويض الأمر للرحمن، فإذا كانت السُّنَّة الأولى هي النهوضُ من فوقِ الجراح، فإن السنة الثانية هي التحليقُ فوق جبال الخوف.

وقد يقتضي ذلك أحيانًا أن تخوض غمارَ المخاطر الحربية والمغامرات العسكرية، وأن تُقبِلَ على المعركة بقلبٍ لا يلتفت إلى حسابات الواقع المادي، بل يتصل بحقائق الإيمان، وفيها 6 بصائر:

بَصِيرَة ١

حَرْبُ الْكَلِمَاتِ وَإِرْهَابُ الْأَصْوَاتِ ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾

كان القائل بعض الناس عندما التقوا بالنبي ﷺ وجيشه في معركة حمراء الأسد، ولكن الله ﷻ وصف القائل بقوله: ﴿النَّاس﴾، ليصور لنا التأثير الإعلامي الذي يحاول الآخرون إحداثه في نفوس المسلمين، فكأن المتكلم ليس واحدًا بل عدد كبيرٌ من الناس، وقد قام أبو سفيان بإعطاء مكافأة لبعضهم لأجل أن يُرهِبوا المسلمين إعلاميًّا قبل أن يتحرك جيش المشركين نحو المسلمين في حمراء الأسد.

بَصِيرَة ٢

﴿النَّاسُ﴾ في مواجهة ﴿النَّاسَ﴾ فَنُّ التَّهْوِيلِ الْأَزَلِيُّ

لماذا ذكر الله ﷻ اجتماع الناس و أتى بهذا التعبير: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ..﴾ مع أنه كان يمكن أن يقول: "الذين قال لهم قائل: إن كفار قريش قد جمعوا لكم"؟

الجواب: لأن طبيعة المجرمين التهويلُ وإرهابُ المسلمين، فسُنَّة المبطلين الأزلية في حروبهم النفسية: أن يُضخِّموا قوتهم، ويُهوِّلوا جمعهم، ويُصوِّروا للمؤمنين أن العالم بأسره قد اجتمع ضدهم، ليغرسوا في قلوبهم الشعور بالوحدة والخذلان. إنه فن إرهاب الخصم قبل المعركة، وفي أثنائها، والآية تصور ذلك بصورةٍ عجيبة.

بَصِيرَة ٣

وَقودٌ يزيد الإيمان اشتعالًا

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ هنا تكمن المعجزة القلبية! بدل أن يُثمر التخويفُ رعبًا، أثمر يقينًا، فالمؤمنون يتعاملون مع الأحداث وفق الأحب إلى الله ﷻ مع التوكل عليه، وليس وفق الأرضى للناس، فالتحالف الإجرامي يزيدهم إيمانًا.

المؤمنون قومٌ لا تُحرِّكهم موازين القوى الأرضية، بل تحركهم معادلة واحدة: ما الذي يُرضي الله ﷻ؟ لهذا، كلما اشتدَّت عواصف التهديد، وتعاظمت جيوش الباطل، لم يزدادوا إلا إيمانًا بأن الله عزوجل معهم، وأن قوته فوق كلِّ قوة.

بَصِيرَة ٤

الذِّكرُ هو الوقود الأعظم للقوة في المعركة ﴿وَقَالُوا﴾

تُبَصِّرنا بمكانة الذكر في الخطاب السياسي والعسكري، فلا تنافي بينهما، فالذكر ليس طقسًا يُمارس في المحاريب فحسب، بل هو السلاح الأقوى في ميادين السياسة والحرب. إنه الوقود الذي يُشعل العزائم، والدرع الذي يحصِّن القلوب حين تتساقط حولها سهام التخويف.

بَصِيرَة ٥

إعلان الكفاية المطلقة بِالْقَوِيِّ الْعَزِيزِ

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]: جمال كلمة ﴿حَسْبُنَا﴾ يظهر في أنها تعني: هو كافينا الذي لا نحتاج معه أحدًا، فهو الذي يحسب كل صغيرة وكبيرة، فيصلحها على خيروجه، ثم أطنبوا فخرًا بربهم ﷻ، واعتزازًا به، فقالوا: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي نِعمَ من فوَّضْنا إليه أمورَنا، وألقينا بين يديه مصيرَنا، ووثقنا به ثقةً مطلقة، والوكيل هو مَن يتوكل بتدبير أمور عن مَن فوضوا إليه أمورهم، ووثِقوا به، وأسندوا ذلك إليه.

بَصِيرَة ٦

الحسبلة كلمةُ الأنبياء ووصيةُ الخالدين

فيكشف ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أن ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ليست وليدة لحظتها، بل هي شعار الصادقين عبر العصور، فقد قالها أبونا إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يُلقَى في قلب النار، فصارت عليه بردًا وسلامًا وتأمينًا، وهي ذاتها الكلمة التي قالها نبينا محمدٌ ﷺ وأصحابه حين واجهوا حشود الأعداء، حِينَ قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ فصارت لهم نصرًا وتمكينًا، وهي الوصية النبوية الخالدة لنا حين تبلغ القلوب الحناجر، فقال ﷺ لأصحابه حين خافوا من أهوال يوم القيامة: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» [أحمد: 3008، والترمذي: 2431، وقال: حديث حسن]، إنها الكلمة التي تحوّل الخوف إلى أمان، والضعف إلى قوة، واليأس إلى ثقة بالله عَزَّ وَجَلَّ لا حدود لها.

السنة الثالثة

ثمرة اليقين الانقلاب بنعمة الله وفضله

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: 174]

تُبَصِّرنا بأن من سنن النهوض: التوكل على الله بعد إعداد العدة، فإذا بالانكسار ينقلب نصرًا، وإذا بالهزيمة تتحول إلى غنيمة، فبعد أن استجابوا وهم جرحى، وتوكلوا وهم محاصرون بالخوف، تأتي النتيجة الحتمية، والعاقبة الربانية التي لا تتخلف أبدًا، إذ يكافئهم الله عَزَّ وَجَلَّ بأربعة أمور:

- نعمة الله
- وفضله
- لم يمسسهم سوء
- اتبعوا رضوان الله

وفي هذا الانقلاب المبارك 7 بصائر تثلج صدور المؤمنين:

بصيرة ١ نتيجة التوكل

﴿فَانْقَلَبُوا﴾ الانقلاب هنا يُبَصِّرنا بتغير الحال و انعكاسه، فالانكسار في معركة أُحدٍ انقلب إلى انتصارٍ في حمراء الأسد، والهزيمة في معركةٍ لا تعني الخسارة في كامل الحرب، وهذا الذي قرَّره هرقل أمام أبي سفيان وهو يتأكد من مواصفات النبي ﷺ، فقال: سَأَلْتُكَ كَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ، فَزَعَمْتَ أَنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ وَدُوَلٌ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ. «البخاري: 2804».

ويصور هذا الانقلابُ تخوُّفَ جيش المشركين من أن يلاقوا المسلمين في حمراء الأسد، فولوا الأدبار قبل المواجهة مع أنهم كانوا أكثر عددًا، و أقوى موقفًا بسبب ما حدث في أحد، و انقلبت خسارة المسلمين في أحد إلى فوزٍ استراتيجي في حمراء الأسد.

بصيرة ٢ ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾

أَرْبَعُ عَطَايَا رَبَّانِيَّةٍ، يا لَروعة هذا التعبير: ﴿فَانْقَلَبُوا﴾! لقد خرجوا مثقلين بالجراح، محاصرين بالتهديد، فعادوا منقلبين إلى حالٍ أخرى تمامًا.

بصيرة ٣ الباء في قوله: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ للمصاحبة

فذكر الله سبحانه أنه كافأ هؤلاء الموفَّقين الذين أعدوا العدة، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل بأربع مكافآت:

- ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾.
- ﴿وَفَضْلٍ﴾ فالنعمة هنا أصل النصر، والفضل: الزيادة عليه من رجوع الهيبة، وتأمين التجارة، فكل نصرٍ وكل سلامة، وكل عطية هي منحةٌ إلهية خالصة.
- ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ إذ نكل المشركون عن مواجهة المسلمين في حمراء الأسد، وكذلك في بدر الصغرى بعدها.
- ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ و انظر جمال التصوير، فهم لا يسعون إلى رضا أنفسهم، بل يبحثون عما يرضي الله ﷻ، فيتبعونه أي: يسيرون خلفه.

ولقد صدق الصحابة في هذه الاستجابة وذاك الاتباع، حتى قال بعضهم بفخرٍ:

وَ إِنّي وَإِنْ عَنَّفْتُمُونِي لَقَائِلٌ ... فِدَى لِرَسُولِ اللهِ أَهْلِي وَمَالِيَا

أَطَعْنَاهُ لَمْ نَعْدِلْهُ فِينَا بِغَيْرِهِ ... شِهَابًا لَنَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ هَادِيَا

(البيتان لكَعْب بن مَالك رضي الله عنه، كما في المغازي للواقدي 1/390).

بَصِيرَةٌ ٤

وفي فضيلة الحسبلة وترتب هذه الأمور الأربعة عليها

نذكر أن مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ سئل: ما نقش خاتمك؟ قال: حسبي الله ونعم الوكيل. قيل: فلمَ نقشتَه هذا النقش من بين ما ينقش الناس الخو اتيم؟ قال: إني سمعت الله تبارك وتعالى يقول لقوم قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: 173 – 174]. (الطبقات الكبرى 5/ 466).

بَصِيرَةٌ ٥

بَيْنَ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ حَالُ الْمُؤْمِنِ الدَّائِم

قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ قبل ظهور الانتصار الجديد كان اتباع الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لرضوان الله بالصبر على أمره، وبعد انسحاب جيش المشركين كان اتباعهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لرضوان الله بالشكر لتلك النتيجة، فكانوا صابرين قبل، وشاكرين بعد.

بَصِيرَةٌ ٦

﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾

نعلم أن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مسهم القرح في أُحُد قبل الخروج إلى حمراء الأسد، ولكن هذه الكلمات تُبَصِّرنا بأن وجود الألم والقرح في الأفراد لا يعني عدم تحقيق النصر للمجموع، فحين تستجيب الجماعة لربها عزوجل، وتتبع رضوانه، يحفظ الله عَزَّ وَجَلَّ كيانها، ويحمي مجموعها من أن يمسَّه سوءٌ، أي: مكروه أو أذى. إنهم الأبطال الذين قيل فيهم:

أيَّان ما سمعوا الصيحة فارسٍ ... يدعو إلى نيل الشَّهادة طاروا

صبروا لها حتى انجلتْ غمراتُها ... و انفضَّ من ساحاتها الكُفَّارُ

فمضى لعلياءِ الشهادةِ منهمُ ... نفرٌ كرامٌ خُلَّصٌ أخيارُ

فَهُمُ مصابيحُ الهدى وضياؤهُ ... وهمُ إذا احتدم الدُّجى أقمارُ

بَصِيرَة ٧

مال بعض أهل العلم إلى أن هذه الآية نزلت في بدر الصغرى

التي وقعت بعد عام من غزوة أحد، فعن مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾. قال هذا أبو سفيان. قال يوم أحد: يا محمد موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا! فقال محمد ﷺ: عسى!. فانطلق النبي ﷺ لموعده حتى نزلوا بدرًا فو افقوا السوق. فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: 174]. والفضل ما أصابوا من التجارة. وهي غزوة بدر الصغرى.

«الطبقات الكبرى 2/ 46».

ورجَّح الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا وقع في حمراء الأسد في اليوم الثاني لمعركة أحد:

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «استقبل أبو سفيانَ في مُنصرَفِه من أُحدٍ عيرًا واردةً المدينةَ ببضاعةٍ لهم، وبينهم وبينَ النبيِّ ﷺ حِبالٌ، فقال: إن لكم عليَّ رضاكم إن أنتم ردَدتُم على محمدًا ومن معه، إن أنتم وجَدتموه في طلَبي، وأخبرتموه أني قد جمَعت له جموعًا كثيرةً، فاستقبلَت العيرُ رسولَ اللَّهِ ﷺ، فقالوا له: يا محمدُ، إنا نخبرُك أن أبا سفيانَ قد جمَع لك جموعًا كثيرةً، و أنه مقبلٌ إلى المدينةِ، وإن شئتَ أن ترجِعَ فافعَلْ، ولم يَزِدْه ذلك ومن معه إلا يقينًا، وقالوا: حَسْبُنا اللَّهُ ونعمَ الوكيلُ. فأَنْزَل اللَّهُ تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]» «تفسير الطبري 7/ 410».

جسر الاتصال

كشف الأستار عن عدوٍّ خفيٍّ هو قائد جيوش الظلام

عرفنا أن القسم الثالث وَضَّح لنا سُنَن النهوض.. من قلبِ الجراح إلى بو ابات الفضل، فكشف لنا عن السُّنن العملية المباشرة التي يتبعها المحسنون ليحظوا بشرف كرامات الشهادة، وبها يمكنهم أن يقلبوا موازين الحرب، ويحولوا مرارةَ الانكسار إلى حلاوة الانتصار [آل عمران: 172-174]، وبعد أن عرفنا كيف نتحرر من مؤامرات العدو الأول، وهم المنافقون، فمن يكون العدو الثاني الذي يتربص بنا في العلن؟

هنا، يأتي الجواب في القسم الرابع ليكشف القناع عن وجه العدو الثاني.

القسم الرابع

كشف منظومة الشيطان القائمة على التخويف:

يكشف العدو الثاني، وهو الشيطان وأولياؤه بمؤسساتهم الاتحادية السياسية والعسكرية والثقافية، وهم الذين يعتمدون سياسة التخويف [آل عمران: ١٧٥-١٧٨].

آيات هذا القسم:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا
اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:175-178].

وسنرى في هذا القسم أن الشيطان وضع 4 خطواتٍ محددة لترقية أوليائه في دركات الشر ليكونوا كفارًا محاربين مسارعين في الكفر:

خطوة (١)

"التَّخْوِيفُ" السِّلَاحُ الْأُمُّ لِمَنْظُومَةِ الشَّيْطَانِ

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175].

خطوة (٢)

المسارعة في الكفر تحت سياط التخويف الشيطاني

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ...﴾ [آل عمران: 176].

خطوة (٣)

صَفْقَةُ الْخُسْرَانِ" حِينَ يُبَاعُ الْإِيمَانُ وَيُشْتَرَى الْكُفْرَانُ

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 177].

خطوة (٤)

الوقوع في سُنَّةُ الإملاء الإلهي، فيصبح الازدياد من الإثم هُوية يعتزون بها

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ...﴾ [آل عمران: 178].

خطوة (١)

"التَّخْوِيفُ" السِّلَاحُ الْأُمُّ لِمَنْظُومَةِ الشَّيْطَانِ

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175].

فالتخويف سلاح الشيطان وأوليائه لتجنيد الكافرين وصد المؤمنين عن الثبات على الإيمان أو على مقتضياته، وفي هذه الآية 10 بصائر تنير الوعي بمنظومة الكفر الشيطانية:

بَصِيرَة ١ حَصْرُ الْمَهَمَّةِ فِي الْإِرْهَابِ

تُبَصِّرنا أداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ بأن التخويفَ سلاحٌ شيطاني خطير، فليس مجرد تكتيك، بل هو السلاح الاستراتيجي للشيطان، وهو أداته المفضلة في ممارسة الإرهاب النفسي والجسدي ليصد الناس عن سبيل الله.

بَصِيرَة ٢ حصرت ﴿إِنَّمَا﴾ عمل الشيطان في تخويف الإنسان

وهذا الحصر للمبالغة ليدل على أهمية التخويف في تنفيذ خطة الشيطان، وإلا فإنه قد يلجأ إلى الإغراء، والتزيين، ولكن التخويف عملٌ بارزٌ جدًّا يبدأ من الوسوسة بالخوف من الفقر، وينتقل إلى تجنيد أوليائه من الإنس ليؤذوا كل إنسان صالح.

بَصِيرَة ٣ فيدخل ضمن الحصر في قول ربنا ﷻ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾

ما ورد في السياق من حكاية محاولة تخويف المشركين للمسلمين يوم حمراء الأسد كما قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في حكاية المعنى الأول لهذه الآية: «يعني بذلك تعالى ذكره: إنما الذي قال لكم، أيها المؤمنون: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾، فخوفوكم بجموع عدوّكم ومسيرهم إليكم، من فعل الشيطان ألقاه على أفواه من قال ذلك لكم، يخوفكم بأوليائه من المشركين -أبي سفيان وأصحابه من قريش- لتَرْهَبوهم، وتجبُنُوا عنهم» «تفسير الطبري 7/ 416».

بَصِيرَة ٤

تَحْدِيدُ الْعَدُوِّ بِاسْمِهِ

﴿ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يُبَصِّرنا اسم الإشارة وكلمة ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بأننا يجب أن نَصِفَ المعركة الخفية مع الشيطان وصفًا حقيقيًّا وليس ظاهريًّا؛ لربط الإيمان بالسياسة، والعقيدة بالعمليات العسكرية، وذلك باستحضار عداوته الدائمة، فهو عدو غيبي، ويضعف استحضار عداوته بسبب ذلك، فيعظم خطره، ولذا قال الله ﷻ: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، ولم يقل: يخوفكم نفسه؛ لأنه غير مرئي، و إنما يخاف المرء مما يشاهده أو يحس به في العادة.

بَصِيرَة ٥

﴿يُخَوِّفُ﴾ يميز القرآن بين نوعين من الخوف

خوفٌ فطريٌّ صحيٌّ

يدفع للحذر والاستعداد، ويُوجِد التفكير والتصدي والقدرة على التحدي، فهو صفةٌ إنسانية طبيعية تعتري الإنسان كما قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ [طه: 67].

وخوفٌ مرضيٌّ

يصنعه "التخويف" الشيطاني، فهو مرضٌ يُضخِّم الخوف الطبيعي ليخرجه من دائرة الفطرة إلى دائرة الحرام، فيَشُلُّ الإرادة، ويمنع من الواجبات، ويدفعه إلى المحرمات، وقد يستحكم ليصنع أوهامًا من فقه المصالح والمفاسد الزائف تُبعِدُ الإنسان عن استيعاب الهزيمة، وتمنعه من سنن النهوض، والتفكير بإعادة الكَرَّة، وهذا هو الخوف الذي جاء القرآن ليقتلع جذوره.

بصيرة ٦

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾

المعلوم أن الشيطان يحفِّز أولياءه، ويَعِدُهم ويمنيهم ليتابعوه، فكيف يخوفهم؟

الجواب: هذه الجملة كنزٌ من المعاني، فيها ثراءٌ دلالي، فهي تكشف أن الشيطان يُدير سلاحَ التخويف في ثلاثة اتجاهات ببراعةٍ خبيثة في أوليائه الفجار، وفي أعدائه الأبرار:

1 يخوف أولياءه من نفسه أو من الأمور التي يخافون فَقْدَها أو عدم تحققها

ليبقوا عبيدًا له، فيزدادَ الكافر كفرًا والمنافق خيانة كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: 268]، أي يعدكم أن تقعوا في الفقر إن لم تقوموا بالفحشاء، فهو تخويف من الفقر، ومن تخويفه لأوليائه المعنى الذي ورد في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: 6].

2 يخوف أولياءه الكافرين منكم أنتم أيها المؤمنون

ليجعل الكافرين في رعب منكم يخططون ضدكم بكل تخطيطٍ خبيثٍ.

3 يخوفكم أيها المسلمون من أوليائه الكافرين

فلا تخافوهم وخافون، وحذف كاف الضمير كما في قوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: 2] أي: لينذركم بأسه الشديد، وذلك أن البأس لا يُنذَر، و إنما يُنذَرُبه، والشيطان يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب لئلا تواجهوهم ثقافيًّا وعسكريًّا، فيحقق خطته التدميرية الفاجرة بأن يُضَخِّم من شأن أوليائه، ويوهم الناس أنهم يملكون النفع والضر لينشر بهم الفساد في الأرض، ويجعلوا أنفسهم مصدر القرار حتى أن بعضهم يوهم أن حكم الإله تابع لحكمه، كالعنصريين الذين يزعمون أن الله ﷻ اختارهم، فينشرون الشر ويمنعون الخير، ويجعلون أفعالهم مقياسًا للخير لا الخير في ذاته.

بَصِيرَة ٧

وهنا يأتي القانون الإلهي لمواجهة هذا الإرهاب النفسي

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، يُبصِّرنا كيف يكون التعامل الإيماني مع حملات التخويف الشيطاني، كَأَنَّهُ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ أَنْ تُوَازِنُوا بَيْنَ قُوَّتِي وَقُوَّتِهِمْ، وَنُصْرَتِي وَنُصْرَتِهِمْ، فَأَنَا الَّذِي وَعَدْتُكُمُ النَّصْرَ، وَ أَنَا وَلِيُّكُمْ وَنَصِيرُكُمْ مَا أَطَعْتُمُونِي، وَأَطَعْتُمْ رَسُولِي. «تفسير المنار 4/ 201».

بَصِيرَة ٨

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

هذه الجملة تدل على التحضيض الشديد والنعي الأكيد على المترددين، فهي استفزازٌ إيمانيٌّ يهزُّ القلوب، ويهيّج أرواح المؤمنين لفعل ما يقتضيه إيمانهم.

إنها تربط بشكل مباشريين صدق الإيمان ومقدار الشجاعة. فالمؤمن الحقيقي برهانه أنه يخاف الله وحده، وينبذ الخوف ممن سواه، لأن استمرار الخوف من أعداء الله ﷻ ثمنُه ضياع الدين والأرض والعرض.

بَصِيرَة ٩

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

تُبَصِّرنا بأن الخوف من الله يقتضي الائتمارَ بأمره بمدافعة المبطلين من أولياء الشيطان، وعدمَ التأثر بحملات التخويف والترهيب من قوة المبطلين وأعدادهم وعُدَدِهم؛ إذ تضعف كلُّ قواهم أمام قوة الله ﷻ وجبروته، ولا ينفي هذا الحكمة في اتخاذ قرار المواجهة معهم.

بَصِيرَة ١٠

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

تُبَصِّرنا بخطرِ الحرب النفسية و أثرها في حسم الحروب والمعارك؛ فالمعركة الأولى التي يجب أن ننتصر فيها هي معركة القلب، فيجب على المسلمين اقتلاعُ خوفِ العدو من قلوبهم، فتمتلئ بخوف الله ﷻ.

خطوة (٢)

المسارعة في الكفر تحت سياط التخويف الشيطاني ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 176].

فالخوف يدفع الخائف إلى الخضوع للآخرين، والقبول بالإملاءات الإقليمية والعالمية، فيضعف عنده الإيمان، ويقبل المشاركة في برامج الكفران، ثم يزداد خوفًا، فيظهر بمظهر المتحمس في أنشطة الكفر، فلا ينبغي أن يُحزن المؤمنَ رؤيتُه لذلك.

وفي هذه الآية 10 بصائر تشفي القلوب القلقة:

بصيرة ١

لَمْسَةُ حَنَانٍ رَبَّانِيَّةٍ

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ﴾ يا له من خطابٍ حانٍ! فالحزن عدو للإنسان، يشل عقله عن التفكير السديد، ويكبِّل روحه عن العمل الرشيد، ويجره إلى الخسارة المحققة، فتُبَصِّرنا الآية بأن من مقاصد القرآن الحفاظ على تماسك الحالة النفسية للإنسان، فلا ينبغي أن يستغرق في الحزن عندما يشهد ما يزعجه.

بصيرة ٢

حنانٌ نبويٌّ في وجهِ الدمار

فالتعبير ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ﴾ يظهر حنانَ النبي ﷺ ورحمتَه بكل إنسان؛ فهو يحزن عليهم، وهم يفرحون بفعل ما يدمرهم، ويُفسد حياتهم.

بصيرة ٣

قد يسأل سائل

الْحُزْنَ عَلَى كُفْرِ الْكَافِرِ وَمَعْصِيَةِ الْعَاصِي طَاعَةٌ، فَكَيْفَ نَهَى اللهُ ﷻ عَنِ الطَّاعَةِ؟

الجواب: المنهي عنه الإفراطُ في الحزن كما في قوله تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فَاطِر: 8]، ونهى الله ﷻ عن الحزن هنا دون الإسراف فيه ليناسب قوةَ القلب ويقينَه الجازم بقَدَرِ الله تعالى في دفع المعتدين بالمواجهة دون الاستكانة.

بَصِيرَة ٤

تَسْلِيَةٌ لِقَلْبِ كُلِّ دَاعِيَةٍ

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ تُبَصِّرنا بلطف الله ﷻ بنبيه ﷺ، وتخفيفه ما يلقاه من عنت من المعاندين المصرّين على الكفر والجحود، وتبعًا لذلك تسليةُ الله ﷻ لكل داعية ومصلح ناصح تعترضه صخور الصد، وتتوالى عليه موجات النكران والجحود من مجتمعه وبني قومه.

بَصِيرَة ٥

وَحْدَةُ الدَّاعِي وكَثْرَةُ الْمُعْرِضِين

خاطب الله ﷻ النبي ﷺ وكل داعية بصيغة المفرد ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ﴾، وتحدث عن عدوهم بصيغة الجمع ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ﴾، ليخبرنا أن سبيل الحق لا يُشَغِّبُ عليه كثرةُ المنحرفين عنه، فالحق لا يضره قلة السالكين، والداعية والمصلح لا تضره مخالفة الطَّغَام (أوغاد الناس)، ولا يصرفه عن طريقه إعراضُ العوام.

بَصِيرَة ٦

تصويرٌ لاندفاعٍ أعمى ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾

يا له من تصويرٍ بديعٍ لحالتهم! صوَّر شدة تحركهم في الكفر، فهم يسارعون أي: يمضون بعنفٍ و اندفاعٍ، وحماسٍ محموم، ويكشف ذلك حالتَهم النفسية وإصرارهم على الشر، وعلى ما يُحْدِثونه من إفساد.

بَصِيرَة ٧

﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾

هنا دقةٌ قرآنيةٌ بديعة. لم يقل "يسارعون إلى الكفر"، لأن ذلك يعني أنهم كانوا خارجه ويسعون للدخول فيه، بل قال ﴿فِي الْكُفْرِ﴾، وذلك ليصورهم وهم قد دخلوا أصلًا في صفوف الكفار معسكرًا وإن لم يدخلوا في دينهم، فيُظهرون حماسَهم وقوتهم و اندفاعهم و ابتكارهم للأفكار الجديدة التي توقع الناسَ في البرامج الكفرية، وشَبَّهَ حَالَ حِرْصِهِمْ وجِدّهم فِي إيقاع الناس في الكفر بِحَالِ الطَّالِبِ الْمُسَارِعِ إِلَى تَحْصِيلِ شَيْءٍ يَخْشَى أَنْ يَفُوتَهُ وَهُوَ مُتَوَغِّلٌ فِيهِ مُتَلَبِّسٌ بِهِ، فَلِذَلِكَ عُدّيَ بـ(فِي) الدَّالَّةِ عَلَى سُرْعَتِهِمْ سُرْعَةَ طَالِبِ التَّمْكِينِ، لَا طَالِبِ الْحُصُولِ، إِذْ هُوَ حَاصِلٌ عِنْدَهُمْ. «التحرير والتنوير 4/ 173».

بصيرة ٨

﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ تعبيرٌ بديعٌ يصف حالةً نفسية و اقعية

فتعجب من حال بعض المخذولين حين تراه نشطًا أقصى النشاط قويًّا غاية القوة في طريق الكفر والباطل والشر والمعصية، يجتهد ويُجْهِدُ نفسه لنيل الأسبقية في مضمار الكفر! فهو يمضي في عنفٍ و اندفاع وحماسة لا يلوي على شيء، كأن هناك من يطارده من الخلف، أو من يستصرخه من الأمام إلى جائزة تُنال، أو حظٍّ يُعطى.

بصيرة ٩

مواجهتهم تبدأ بالثقة بالله ﷻ

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾، أي: إن مخططاتهم و أفعالهم لا يمكنها أن تعطِّل مَا أَرَادَهُ ﷻ؛ إِذْ قَدْ كَانَ اللَّهُ وَعَدَ الرَّسُولَ إِظْهَارَ دِينِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. «التحرير والتنوير 4/ 173». ويخاطب الله ﷻ جميع الخلق مذكِّرًا لهم بهذه الحقيقة الضخمة، فيقول في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَ إِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا». (مسلم: 2577).

بصيرة ١٠

الحساب الختامي ﴿يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:176].

تُبَصِّرنا بمركزية المحاسبة في الآخرة، فمسارعتهم في الكفر ليست دليل نجاح، بل هي في الحقيقة استدراج يكتبون به نهايتهم، فستؤدي بهم إلى ألا يكون لهم حظٌّ، أي: أدنى نصيب في رحمة الله في الآخرة، وسيستقر لهم عذاب هائل الحجم حينها.

خطوة (٣) "صَفْقَةُ الْخُسْرَانِ" حِينَ يُبَاعُ الْإِيمَانُ وَيُشْتَرَى الْكُفْرَانُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 177].

بعد المشاركة في بعض الأعمال الكفرية والتكفيرية يتحولون إلى الكفر الصريح، فيبيعون الإيمان ويشترون الكفران، وفيها 5 بصائر تكشف هذه الخسارة الكبرى:

بَصِيرَة ١: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ يا لها من تجارة بائرة، وصفقة خاسرة!

تصور الآية لنا أن الله ﷻ أعطاهم جوهرة الإيمان بما فيه من صلاحٍ لحياتهم، وجمال لدنياهم وأخراهم، فأبوا إلا أن يبيعوه، ويشتروا الكفر مقابله بنجاساته وظلماته وشقائه وبؤسه.

بَصِيرَة ٢: "الاِشْتِرَاءُ" دَلَالَةُ الرَّغْبَةِ وَالْحِرْصِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾

"الاشتراء" صفقة تقتضي "ثمنًا" و"مثمنًا"، فالثمن الإيمان، لأن الباء تدخل على المتروك، والمثمن هو الكفر، لأنه هو المأخوذ، فما الإيمان الذين باعوه بأبخس الأثمان؟

الجواب: الإيمان إما إيمان الفطرة إذا كانوا كفارًا أصليين.

وإما الإيمان الكامل الذي كان عند قومٍ وُلدوا على الإسلام فأبوا إلا أن يبيعوه، ويشتروا مكانه الكفر، ويضيف السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (في تفسيره: 157) أن اختيارهم للكفر لم يكن عن جهل أو إكراه، بل عن رغبة شديدة وحرص عليه، كمن يبذل أغلى ما يملك من مال في شراء ما يحب من السلع. وهذا يؤكد شدة حمقهم وعمق ضلالهم.

بَصِيرَة ٣: صَرْخَةٌ تُوقِظُ الْغُرُورَ ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

تصور الآية لنا شدة وقع هذه الكلمات عليهم، وكأن الله ﷻ يخاطب المؤمنين للتطمين، ويتكلم عن الكافرين، فلو تصورنا أنه يخاطب الكافرين، فإن المعنى يكون: "هل بلغ بكم الغرور أن تظنوا أنكم ببيعكم الإيمان وشرائكم الكفران تضرونني أنا رب العالمين؟ أفقدتم عقولكم؟! هل حسبتم أن مؤامراتكم ومسارعتكم في الكفر ستطفئ نور الله ﷻ أو توقف مجرى إرادته؟ كلا! بل إنما تضرون أنفسكم، و إنما تسوقونها بأيديكم إلى نهايتكم المحتومة. ستستقرون في العذاب المؤلم الموجع الذين يتناسب مع حجم جريمتكم".

بَصِيرَة ٤

تَسْلِيَةٌ لِفُؤَادِ النَّبِيِّ ﷺ وَكُلِّ دَاعِيَةٍ ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٧﴾

تُبَصِّرنا بأن الارتداد عن دين الله ﷻ قرارٌ مشؤوم واختيارٌ بائس يورد صاحبه مواردَ الهلكة، ويصليه العذاب الأليم، وفي هذا تسلية لفؤاد النبي ﷺ وقلب كل داعية من بعده، كي لا يحزن على من اختار لنفسه طريق الهلاك، و انخرط بإرادته في سلك الكفر.

بَصِيرَة ٥

﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٧﴾

هنا طمأنة كبرى للمؤمنين. فكأن الله ﷻ يقول لهم: أيها المؤمنون، لن تخوضوا المعركة وحدكم، فالمعركة مع الكفر ليست معركتكم أنتم، بل هي معركتي أنا ربكم مع هؤلاء الكافرين. ويا لها من طمأنة! ويا لها من قوة يستمدها المؤمن من هذا الوعد!. (تفسير الشعراوي: 3/1889).

خطوة (٤)

الوقوع في سُنَّةُ الإملاء الإلهي، فيصبح الازدياد من الإثم هُوية يعتزون بها: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: 178].

في إطار تخويف الشيطان أولياءه يسارع المجرمون في الكفر، ويشترون الكفر بالإيمان، فيتفننون في الإجرام ولا تحل عليهم العقوبة، فيظنون أن ذلك يدل على قدرتهم على التحكم بأحداث العالم، فيزدادون إثمًا.

؟ ويتساءل المسلمون: أين العقاب الإلهي؟

الجواب:

الإمهال لا يدل على الإهمال، بل هو سكون يسبق العاصفة، وغفوة تسبق صحوة مريرة. ليستيقظ الجميع من غفلتهم، فسيأتيهم العذاب المهين الذي يجعل هذا الكبرياء كأن لم يكن.

وفي أعماق هذه الآية العظيمة، تغوص بنا 9 بصائر نورانية، تكشف الحكمة وتجلي الحقيقة:

بَصِيرَة ١

حَقِيقَةُ "الْإِمْلَاءِ" الْإِلَهِيّ إِمْهَالٌ لَا إِكْرَامٌ

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ﴾:

تُبَصِّرنا الآية بأن "الإملاء" ليس عطاءَ تكريم، بل هو إمهالٌ وتطويلُ حبالٍ يقتضي الإطالة في العمر والإمكانات، فيعطيهم الله ﷻ الفرصة كاملةً في الدنيا، فلا يعاجلهم بالعقوبة، كفرح الكفار يوم أُحُد، فهذه الآية جواب عن شبهة يروّجها أولياء الشيطان: لو كانوا على ضلال فلماذا يمكنهم الله ﷻ، ويعطيهم القوى والثروات، ويجعلهم متحكمين بالقرارات العالمية؟!

تُبَصِّرنا الآية بالجواب الذي يصحح هذا الحِسبان الخاطئ.

بَصِيرَة ٢

صُورَةُ الْإِمْلَاءِ الْمُوقِظَة.. حَبْلٌ يُرْخَى لِفَرَسٍ جَامِحٍ

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: 178].

كيف يملي لهم الله ﷻ؟

الجواب:

«يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْإِمْلَاءِ التَّخْلِيَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْمَالِهِمْ فِي كَيْدِ الْمُسْلِمِينَ وَحَرْبِهِمْ، وَعَدَمُ الْأَخْذِ عَلَى أَيْدِيهِمْ بِالْهَزِيمَةِ وَالْقَتْلِ كَمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، يُقَالُ: أَمْلَى لِفَرَسِهِ إِذَا أَرْخَى لَهُ الطِّوَلَ فِي الْمَرْعَى». «التحرير والتنوير 4/ 175» أي كما يترك صاحب الفرس لفرسه الحبل طويلًا ليرعى كيفما شاء، كذلك يترك الله ﷻ لهؤلاء الحبل على غاربه، فيمضون في كيدهم وعدوانهم على أهل الحق، فلا يوقف عدوانهم بهزيمة ساحقة، بل يتركهم لظنهم وغرورهم.

بَصِيرَة ٣

لام المستقبل والمصير

اللام في قوله ﴿لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ لام العاقبة والمصير والمستقبل، فهي تخبرنا عن النتيجة النهائية في المستقبل، فمُنتهى هذا الإمهال، ونهاية رحلة الغرور هذه، لن تكون إلا ازديادًا في الآثام، واستحقاقًا للآلام بالعذاب المهين الذي ينتظرهم.

بَصِيرَة ٤

نَظْرَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشرقة

يتدبر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الآية، فيستخلص منها قاعدةً إيمانيةً مضيئة، فيقول: «مَا مِنْ نَفْسٍ بَرَّةٍ وَلَا فَاجِرَةٍ إِلَّا وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهَا». وقرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]، وقرأ: ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 198]. (تفسير الطبري 7/423)، ويمكن الإفادة من كلام هذا العالم الرباني، وأن نضيف عليه: إلا أن المؤمن إن ازداد إيمانًا، و أكثر من الصالحات، فطول عمره خير له، لأن النُّزُل الذي سيجده عنده الله سيكون أعلى بحسب عمله وإخلاصه، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ». (أحمد: 17698، والترمذي: 2330، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»).

بَصِيرَة ٥

التقابل بين حِسبانين

ما أروع هذا التقابل الذي يضعه القرآن بين هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 178]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: 169]، ففي كلا الموضعين، يأتي القرآن ليصحح "حِسبانًا" شائعًا ولكنه خاطئ، ففيهما الْإِعْلَامِ بِخِلَافِ الْحِسْبَانِ فِي حَالَتَيْنِ:

الحالة الأولى: حالة الشهداء، تبدو للناظر حالة ضُرٍّ وألم وفناء.

الحالة الثانية: حالة الكفار، تبدو للناظر حالة خيرٍ ونعيم وبقاء.

فيأتي البيان الإلهي ليخبرنا أن الحقيقة في كلتا الحالتين على عكس ما يظهر للعيون تمامًا

«التحرير والتنوير 4/174».

بَصِيرَة ٦

في الآية قراءتان توضحان مشهدين

المشهد الأول: توضحه قراءة حمزة

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

بتَاءِ الْخِطَابِ وفتح السين، فتصورأن الخطاب لِلرَّسُولِ ﷺ، ولكل تالٍ، ليطمئن أو يزداد اطمئنانًا بأن ما تراه عيناه من راحة الكفار ونعيمهم ليس إلا جزءًا من تدبيرٍ إلهيٍّ حكيم.

المشهد الثاني: توضحه قراءة الجمهور

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾

بالياء على خلاف بينهم في فتح السين وكسرها، والمعنى: ليُعلِم المؤمنون الكافرين، وليوقنوا أن مصير الأمور ليس كما يتوقعون، وأن حساباتهم كلَّها خاطئة. وفي هذا الإخبار حرب نفسية عليهم، تزعزع ثقتهم وتزلزل كيانهم.

بَصِيرَة ٧

رِحلَةُ السُّقُوطِ الشَّيطَانِيَّة.. أَرْبَعُ مَحطَّاتٍ نَحوَ الْهَاوِيَةِ

تأمَّل في هذا القِسم [آل عمران: 175-178] الترتيبَ المدهش للخطوات الشيطانية في استقطاب أوليائه، وتأهيلهم للعب الأدوار في رحلة السقوط نحو الهاوية:

1 تبدأ الرحلة بالإرهاب النفسي والفكري: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: 175].

2 ثم يدفعهم هذا الخوف على مصالحهم وحياتهم إلى الهرولة في طرق الكفر: ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [آل عمران:176].

3 ولأن السقوط ليس له قاع، فإنهم بمرور الوقت وتحت وطأة التخويف ومقارفة الكفريات والجرائم لا يعود الكفر عندهم مجرد عمل، بل يصبح هُوية وصفقة خاسرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 177].

4 لتصل الرحلة البائسة إلى محطتها الأخيرة، ومصيرها المحتوم، حيث يُترك لهم الحبل ليزدادوا إثمًا على إثمهم، فلا يكون بعد هذا السقوط إلا العذاب المهين: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 178].

بَصِيرَة ٨

وصف الله ﷻ العذاب في الآيات الثلاث السابقات بثلاثة أوصاف:

﴿مُهِينٌ﴾	﴿أَلِيمٌ﴾	﴿عَظِيمٌ﴾
يُبَصِّرنا بأنه يتجاوز الألم الجسدي والنفسي إلى تدمير كبرياء المعذَّب، فيحيط به الذل والهوان، فلا يمكنه مع هذا العذاب التجلد أو إظهار الصبر.	يُبَصِّرنا بأثره في الجسد والنفس، فهو مؤلم أي موجع إيجاعًا شديدًا.	ليُبَصِّرنا بنوعه المتميز عن سائر أنواع العذاب، وضخامته، وكميته الهائلة، وشدة وَقْعِه.

بَصِيرَة ٩

تظهر بعض الحِكَم من ترتيب هذه الأنواع هنا:

1 فكلمة ﴿عَظِيمٌ﴾ شاملة لما بعدها، ولكن المقام مقام تفصيل وتخويف

فاقتضى هذا التفصيل لنوعين من قوة هذا العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ و﴿مُهِينٌ﴾، وبدأ بالألم لأنه المتعلق بالجسد، والنفس، ولكن الإنسان قد يظهر التجلد أمام الألم، فانتقل إلى ﴿مُهِينٌ﴾ ليُبَصِّرنا أن هذا المعذَّب لا طاقة له بأن يتجلد، فالإهانة تصحبه، وتكشفه. نعوذ بالله من العذاب. اللهم أدخلنا الجنة من غير سابقة حساب.

2 كل نوع يناسب أن تختم الآية به

ففي قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 176] ناسب الختم بوصف العذاب بأنه عظيم؛ لأنهم ظنوا أن تحقيق العظمة والمجد الشخصي والانتصارات يكون بالمسارعة في الكفر، والحماس لبرامجه، ولذا عدوا موالاة الكفار ومعاداة الأبرياء المستضعفين إنجازات تاريخية. فناسب ذلك أن يذكروا بأن العظمة التي يحققونها في الدنيا سيقابلها عذاب عظيم في الآخرة.

وفي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 177]

ناسب الختم بوصف العذاب بأنه ﴿أَلِيمٌ﴾؛ لأنهم ظنوا أن شراء الكفر، وبيع الإيمان يبعد عنهم الألم والشقاء، فنبههم الله ﷻ أين يكون الألم حقًّا.

وفي قوله:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: 178] ناسب الختم بوصف العذاب بأنه ﴿مُهِينٌ﴾ لأنهم يرون أنفسهم أعزة في مناصبهم ووضعهم الاجتماعي المحلي والعالمي مع إجرامهم، فأخبرهم الله ﷻ أن استمتاعهم بالإملاء وملذات الإمهال ستقابله الإهانة المصاحبة للعذاب في الآخرة.

قال محمد رشيد رضا منبهًا على معنى مقارب:

«وهذا لا يمنع مناسبة كل وصف لآيته، ككون الجزاء بالعظيم على المسارعة في الكفر؛ لأن من شأن المسارعة أن تكون في العظائم، وبالأليم على شراء الكفر لأن المشتري المغبون يتألم، وبالمهين على ازدياد الإثم بالإملاء، لأن من ازدادوا إثما ما كانوا يطلبون إلا العز والكرامة».«تفسير المنار 4/ 207».

جسر الاتصال

جسرٌ إلى أعماق الحكمة

عرفنا أن القسم الرابع كشف لنا القناع عن وجه العدو الثاني، وهو الشيطان وأولياؤه بمؤسساتهم الاتحادية السياسية والعسكرية والثقافية، وهم الذين يعتمدون سياسة التخويف [آل عمران: 175-178]، قد يجيش في الصدر سؤالٌ بحكم الواقع: ما الحكمة من أن الله ﷻ يملي لأهل الباطل أحيانًا، حتى تبدو سياساتُهم ناجحة، وتخويفُهم مؤثرًا، وتحدث بناء على ذلك الانكسارات للصف المسلم؟

يتجلى نور الجواب في:

القسم الخامس

الحِكَم الربانية في جولات الانكسار:

يكشف لنا عن بعض الحكم الربانية العظيمة لانتصار سياسة التخويف الشيطاني، و انكسار المؤمنين في جولةٍ من المواجهة معها [آل عمران ١٧٩-١٨٠]

آيات هذا القسم:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[آل عمران:179-180].

وفي هذا القسم تتلألأ 4 حِكَم بالغة:

حكمة [١]

إبراز سنة التمييز بين الطيبين والخبثاء، فشمس التمحيص تكشف الحقائق:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾

[آل عمران: 179].

حكمة [٢]

إظهار ملك الله ﷻ، فستار الغيب لا يُكشف إلا بإذنه:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

[آل عمران: 179].

حكمة [٣]

المحن بوابة لنيل أعظم المنن، وهي منة الإيمان والتقوى:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

[آل عمران: 179].

حكمة [٤]

امتحان البذل في أعقاب الهزيمة:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ...﴾

[آل عمران: 180].

حكمة (١) إبراز سنة التمييز بين الطيبين والخبثاء، فشمس التمحيص تكشف الحقائق

ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 179]، فيتميز الطيب والخبيث أمام العالم.

وفيها 5 بصائر مشرقة:

بصيرة ١: سؤال يتردد في النفوس بإلحاح

لماذا يُبتلى أهل الحق وينجو أهل الباطل؟ ولماذا لا ينتصر الحق كلما التقى مع الباطل؟

يأتي الجواب الإلهي شافيًا كافيًا: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي سنة الله جاريةٌ في ألا يَترك المؤمنين في حياتهم الدنيا منتصرين أقوياء، بل يرسل عليهم ريح الابتلاء، ليس ليعذبهم، بل ليهزَّ شجرة الإيمان فيتساقط عنها الأدعياء، ويبقى ثابتًا عليها الصادقون الأوفياء، فالمصائب هي المحك الذي يظهر معادن الرجال، كما قيل:

جَزَى اللَّهُ الْمَصَائِبَ كُلَّ خَيْرٍ... عَرَفْتُ بِهَا عَدُوِّي مِنْ صديقي

بصيرة ٢: من هو الخبيث الذي يكشفه الابتلاء؟

الجواب: الخُبْث ما يُكره رداءةً وخساسةً، محسوسًا كان أو معقولًا، أو ما يؤدي إلى وجود الرداءة في النفس أو الواقع. (المفردات للراغب، ص 272).

وفي سياق الآيات، يتجسد الخبيث في صور متعددة:

الصورة الأولى	الصورة الثانية	الصورة الثالثة	الصورة الرابعة	الصورة الخامسة
المنافق الذي يرتدي ثوب الإيمان وقلبه يمتلئ بالكفران	المُعرض الذي يسمع نداء الله ورسوله فلا يستجيب.	ولي الشيطان الذي يسير في ركابه، وينفذ خططه.	المسارع في الكفر الذي يتفانى في خدمة مشاريع الضلال الكفرية أو التكفيرية.	الذي اشترى ظلام الكفر بنور الإيمان.

وهو أولى الناس بالدخول في الوصف هنا؛ فقد قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني بقوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ما كان الله ليدع المؤمنين، ﴿عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من التباس المؤمن منكم بالمنافق، فلا يعرف هذا من هذا، ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، يعني بذلك: حتى يميز الخبيث وهو المنافق المستسرُّ للكفر.. كما ميَّز بينهم يوم أحد عند لقاء العدوِّ عند خروجهم إليهم». «تفسير الطبري 7/ 424».

بصيرة ٣

ساحات التضحية تكشف الحقائق

ذكر قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ -فيما رواه الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ (425/7)- أبرز مظاهر ذلك فقال: « لم يكنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ليدعَ المؤمنين على ما أنتم عليه من الضلالةِ: ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، يُميِّزَ بينهم في الجهادِ والهجرة»، فذكر الجهاد والهجرة خصوصًا لأنهما ساحات تضحية، وفي ساحات التضحية تتكشف الحقائق.

بصيرة ٤

من هو الطيب الذي يزكيه الابتلاء؟

الجواب: الطيب هو المؤمن النقي الطاهر ظاهرًا وباطنًا، نفسًا وجسدًا، الذي يستلذ الإنسان معاملته، إذ صفا قلبه من خبث الحرام، وتطهرت جوارحه من دنس الآثام، فصارت روحه عذبة، ومجالسته أُنسًا وسكينة.

بَصِيرَة ٥

الفرقان بين الكلمات والواقع

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ تُبَصِّرنا بأن تمييز الصفوف وتمايز فريقي الطَّيِّب والخبيث مقصد عظيم، وكما أن الفرقان في عالم النظم والأفكار والتصورات وظيفة القرآن، فإن الفرقان في الواقع المشاهد بالعِيان وظيفة الامتحان الذي يميز بين أهل الحق وأهل الباطل، فالأول يرسم الحدود بالكلمات، والثاني يكشفها بما يقع في الأحداث من تقلبات.

حكمة [٢]

إظهار ملك الله ﷻ، فستار الغيب لا يُكشف إلا بإذنه

ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 179].

تأتي الحكمة الثانية لترد على سؤالٍ آخر قد يُلِحُّ على الذهن: لماذا لا يكشف الله ﷻ لنا الغيب بعلمه، فيحدد لنا الطيب والخبيث منذ البداية، ونستريح من عناء التمحيص؟

يأتي الجواب قاطعًا وحاسمًا

إن علم الغيب سرٌّ استأثر الله ﷻ به، فهو وحده من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وفي هذه الحكمة 6 بصائر بليغة:

بَصِيرَة ١

الابتلاء للتمييز والوحي للاصطفاء

رجح الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ (425/7) في معناها: «وما كان الله ليطلعكم على ضمائر قلوب عباده، فتعرفوا المؤمن منهم من المنافق والكافر، ولكنه يميز بينهم بالمحن والابتلاء= كما ميز بينهم بالبأساء يوم أحد= ... غير أنه تعالى ذكره يجتبي من رسله من يشاء فيصطفيه، فيطلعه على بعض ما في ضمائر بعضهم، بوحيه ذلك إليه ورسالته».

بَصِيرَة ٢

التسليم المطلق لأقدار الله ﷻ

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ تُبَصِّرنا بأن حَجْب الغيب عنا هو أعظم درس لترويض قلوبنا على التسليم المطلق لأقدار الله ﷻ، والرضا الكامل بما يجريه في كونه. فإذا حلَّت هزيمة أو وقع انكسار سكن القلب واطمأن؛ لعلمه أن ذلك لم يكن إلا أمرًا قد سبق في علم الله ﷻ، وجرى به قلمه في غيبه المحجوب.

بَصِيرَة ٣

الطبيعة البشرية والغيب

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ لأن طبيعتكم ليست مهيئة لتطلعوا على الغيب، لكن طبيعتكم خلقها الله ﷻ لتتمكن من القيام بواجبات الاستخلاف والإعمار في الأرض، «ولو فُتِح الجهاز الإنساني على الغيب لتحطم. لأنه ليس مُعَدًّا لاستقباله إلا بالمقدار الذي يصل روحه بخالقه، ويصل كِيانه بكِيان هذا الكون».

بَصِيرَة ٤

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

أي يختار اختيارًا خاصًّا من يشاء من رسله، فإما أن يكون المعنى: يختار من رسله صفوةً هم الأعظم بين رسله كأولي العزم، فتكون كلمة ﴿مِن﴾ تبعيضية، وإما أن يكون المعنى: يختار من رسله من يشاء من البشر، فتكون ﴿مِن﴾ بيانية.

بَصِيرَة ٥

والمقصود: أن هذا الاجتباء يظهر مع الابتلاء

ولا يطلع على الغيب إلا مَن شاء الله ﷻ مِن رسله لما يشاء من العلم الغيبي.

بَصِيرَة ٦

تُبَصِّرنا هذه الكلمات بأن في قلب المحنة منحة

فقد تكون الهزيمة قاسية على النفس، شديدة الوطأة، ولكنها من وجه آخر تحمل في طياتها كرمًا إلهيًّا خفيًّا، واصطفاءً ربانيًّا لطيفًا. ففيها يختار الله ﷻ مِن عباده مَن هو أهلٌ لكرامته، فيجتبيهم ويرفع درجاتهم، تمامًا كما يجتبي رسله، ليُظهر للعالمين أن العبرة ليست بالنصر الظاهر، بل بالثبات على الحق.

حكمة [٣] المحن بوابة لنيل أعظم المِنَن، وهي منة الإيمان والتقوى

ويُبَصِّرنا بذلك قوله تعالى شأنه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179].

فالابتلاء يظهر الصدق في الثبات على الإيمان، والإصرار على تقوى الرحمن، ونرى أن محنة الأبرياء في غزة على سبيل المثال جذبت قلوبَ كثيرٍ من الناس نحو الإيمان، وفيها 6 كنوز من البصائر:

بصيرة ١: الإيمان والتقوى هما الحصن، وليس الأوهام

فيلجأ المؤمنون إليهما في زمن الانكسار ليتحصنوا بهما بدلًا من المضي خلف خرافات السياسة، أو أوهام الحذق والكياسة، فغاية المؤمن هي الفوز بـ"الأجر العظيم" عند الله، وليس بالضرورة قطف ثمار "النصر الدنيوي" العاجل.

بصيرة ٢: التقوى لها معنيان هنا

أحدهما أصليٌّ: تقوى الله ﷻ بفعل ما أمر، وترك ما عنه نهى وزجر.

والآخر تبعيٌّ: تقوى العدو بمجاهدته في المجالات المختلفة والأساليب الشرعية المتعددة بكل وسيلة مشروعة تليق بالموقف، وتقوى العدو جزء من تقوى الله ﷻ العامة.

بصيرة ٣: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179]

تُبَصِّرنا بأن أعظم ما يتواصى به الصالحون في مراحل الهزائم والانكسارات لزوم الإيمان والتقوى، فهما خير ما يثبت على السبيل، وأعظم ما يحقق المصير الجميل.

بصيرة ٤

البناء المتدرج للآية: من التمييز بالابتلاء إلى الثبات على الإيمان

هذا الفهم للآية هدانا إليه، وبصرنا به التركيب العجيب للجُمَل في هذه الآية:

الجملة الأولى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾

فناسبت هذه الجملة الآيات السابقة، فما حصل في أُحُد يؤدي إلى تمييز الخبيث من الطيب، وكذلك الإملاء للكافرين يؤد إلى تمييز الخبيث من الطيب، فظهر الاتصال بما سبق.

الجملة الثانية: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾

فوجه اتصالها بما سبق أن يقال: ما كان الله ليطلعكم على أنه سيحدث فشلٌ في أُحُد، أو ما كان الله ليطلعكم على الموعد الذي سينتهي فيه الإملاء للكافرين، فقد تتابع أجيال الكفر، ولا تحدث العقوبة، وكل هذا سيكشف الخبث من الطيب.

الجملة الثالثة: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

فما وجه اتصالها بما قبلها؟

يمكن أن يقال: ولكن الله ﷻ فعل ذلك من عدم ترككم على ما أنتم عليه، فابتلاكم ليظهر لكم مكانة الرسل الذين اجتباهم، أو ليظهر مكانة الرسل الذين صبروا على الابتلاء حتى اجتباهم فجعلهم في المقدمين من الرسل كأولي العزم، أو يكون المعنى: يجتبي من رسله من يشاء ابتداء من غير ابتلاء؛ لأنه يعلم الغيب بينما يوقع المؤمنين في الابتلاء ليُظهر لكم الخبث من الطيب.

الجملة الرابعة: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

فإما أن يكون الخطاب للمؤمنين ليزدادوا إيمانًا وتقوى، وإما أن يكون الخطاب لغيرهم ليدخلوا في الإيمان، وبعد أن يؤمنوا يحثهم الله ﷻ على الثبات على الإيمان والارتقاء في مدارجه ليصبحوا من المتقين، كأنه يقول لهم: لا يصدكم عن الإيمان ما ترون من الابتلاء فإن ذلك من حكمة الله ﷻ، فآمنوا بالله ورسله..

بَصِيرَة ٥

يمكن القول في بيان إحكام الجمل الأربع للآية

أنها ترسي قاعدة إلهية وسنة ربانية في التمييز والتمحيص تناسب سياق معركة أحد، فجُمَل الآية مترابطة ترابطًا منطقيًّا قويًا: فالعلاقة هي:

نفي ترك الاختلاط ← إثبات التمييز بالابتلاء ← نفي أن يكون التمييز بكشف الغيب ← الأمر بالإيمان بالرسول الذي يُطلعه الله على ما يشاء.

الجزء الأول	الجزء الثاني	الجزء الثالث	الجزء الرابع
يقرر حقيقة	يبين الغاية	يوضح الوسيلة	يحدد المنهج والمآل
أن الله ﷻ لن يترك المؤمنين مختلطين بالمنافقين.	وهي تمييز الخبيث من الطيب.	هذا التمييز لا يكون بكشف الغيب للناس، بل بالابتلاء واجتباء الرسل.	بناءً على كل ما سبق، فالواجب هو الإيمان والثبات والتقوى، والمآل هو الأجر العظيم.

بَصِيرَة ٦

قرر الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ «في (الكشاف 1/445)»

أن اللام في ﴿لِيَذَرَ﴾ لتأكيد النفي، وأن الخطاب في الآية للمُصَدِّقين جميعًا من أهل الإخلاص والنفاق، وأن هناك معنيين تُبَصِّرنا بهما الآية:

1 فلا تتوهموا عند إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بنفاق الرجل وإخلاص الآخر

أنه يطلع على ما في القلوب، وَلكِنَّ اللّهَ يخبره بأنَّ ببعض ما في الغيب، وأن فلانًا في قلبه النفاق وفلانًا في قلبه الإخلاص.

2 لا يترككم الله ﷻ مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب

بأن يكلفكم التكاليف الصعبة كبذل الأرواح في الجهاد، و إنفاق الأموال في سبيل الله ﷻ، فيجعل ذلك شاهدًا على ضمائركم، حتى يعلم بعضُكم ما في قلب بعض من طريق الاستدلال، لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والاطلاع عليها، فإن ذلك مما استأثر الله ﷻ به.

وما كان الله ليطلع أحدًا منكم على مضمرات القلوب ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، فيخبره ببعض المغيبات ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن تقدروه حق قدره، وتعلموه وحده مطلعًا على الغيوب، وأن تنزلوهم منازلهم بأن تعلموهم عبادًا مجتبين، لا يعلمون إلا ما علمهم الله ﷻ.

حكمة [٤] امتحان البذل في أعقاب الهزيمة

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾ [آل عمران: 180].

تعقب مرحلةَ الهزيمةِ والانكسارِ الحاجةُ لجبر الأضرار، ومعالجةُ آثار الانهيار، وتتأكد عندها الضرورة لبذل الأموال، وهنا تظهر معادن الرجال ما بين مجاهد بنفسه وما يملك، وبخيل بالعطاء والنوال، وفي هذه الآية 10 بصائر تهز الوجدان:

بصيرة ١ البخل في سياق المواجهة ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾

ذكر الله ﷻ البخل في خاتمة الكلام عن تداعيات معركة أحد، لتظهر من ذلك إشارة واضحة إلى أن المجرمين المسارعين في الكفر يسعون لتجفيف منابع الإسلام تحت شعار مكافحة الإرهاب. والمؤمن إما أن يخاف منهم وإما أن يخاف من الله ﷻ الذي حذَّر البخلاء من أن يبخلوا بمالهم.

بَصِيرَة ٢

ما البخل؟ ﴿يَبْخَلُونَ﴾

الْبُخْلُ والبَخَل هُوَ قبض النفس عن الانبساط بالعطاء التطوعي الذي لا مكافأة له إلا من عند الله ﷻ. إنه داء قد يصيب الكلمةَ الطيبةَ فيقتلُها قبل أن تُقال، والابتسامةَ الصادقةَ فيجمدها على الشفاه، والعلمَ النافعَ فيحبسه في الصدور، ومثل ذلك أي شيء مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْمَنَافِعِ، وَذَلِكَ الْخَيْرُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَالًا، وَأَنْ يَكُونَ عِلْمًا. «تفسير الرازي 9/ 443»، ويحتمل أن يكون خُلُقًا.

بَصِيرَة ٣

تتجلى البلاغة القرآنية في كلمة ﴿يَحْسَبَنَّ﴾: إذ تفتح القراءات فيها ثلاثةَ مشاهد:

بِالْيَاءِ ﴿يَحْسِبَنَّ﴾

على خلاف بينهم في فتح السين وكسرها، كأن الخطاب موجه إلى كل راءٍ ومشاهِد، أي: لا يظنَّنَّ أحدٌ أن بخل أولئك الباخلين خيرٌ لهم.

بالياء

وكأننا نرى البخيل نفسه وهو يخاطب ذاته ويُقنعها: فلا يحسبَنَّ البخلاء أن بخلهم هذا هو عين الخير لهم.

بالتاء ﴿تَحْسَبَنَّ﴾

قراءة حمزة بالتاء وفتح السين: ليصبح الخطاب مباشرًا: يا أيها السامع الكريم، يا رسول الله، أو يا كل من يرى هذا التكاسل عن الإنفاق، لا تظنن أبدًا أن هذا الإمساك خيرٌ لأصحابه.

بَصِيرَة ٤

البخل.. داءٌ مدمر

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾:

البخل ليس مجرد صفة ذميمة، بل هو داء مدمر للبخيل ولمن معه، حذَّر منه النبي ﷺ قائلًا: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ» مكررًا إيَّاها ثلاثًا؛ لشدة خطرها.

«البخاري 4383».

ورسم لنا ﷺ صورة معبَّرة تصف حال البخيل والمنفق، فقال:

«مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ، عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ... فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ (أَوْ وَفَرَتْ) عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ، وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلا تَتَّسِعُ». «البخاري 1443، 1444». فالكريم كلما أنفق اتسعت عليه دنياه وآخرته، والبخيل كلما أمسك ضاق عليه ثوب بخله حتى يكاد يخنقه.

بَصِيرَة ٥

الإنفاق شِرْيان الحياة ودليل الصدق

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾:

تُبَصِّرنا بأن الله -جلَّ مجده- يحثُّ العالم على الإنفاق لينجحوا في اختبار الحياة الدنيا، فقد تعدد ذكر الإنفاق في القرآن العظيم في سُوَرٍ كثيرة، ومن ذلك في هذه السورة:

- ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].
- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وذلك للدور الخطير للإنفاق في إغاثة العالَم، و إنجاح المشروع الإسلامي وحمايته، ولأنه علامةٌ بينة على صدق إسلام الإنسان، وإذا ذُكِر الإنفاق فلا بد أن يكون مترتبًا على وجود اقتصادٍ قويٍّ.

بَصِيرَة ٦

منطق البخيل المقلوب: قد تتعجب، لماذا بدأ القرآن بنفي الخير عن البخل فقال:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾، ثم أثبت له الشر، فقال: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ مَعَ أَنَّ الثَّانِيَ ظَاهِرِيينٌ؟

الجواب: لأن البخيل يمتنع عن الإنفاق؛ لِأَنَّهُ يَحْسَبُ أَنَّ فِي مَنْعِهِ خَيْرًا لَهُ حيث يتمتع بالمال الذي لم ينفقه على غيره، فيصرفه على نفسه في اللَّذَّاتِ، وَيدفع به عن نفسه الْغَوَائِل وَالْآفَاتِ، وَيتَوَهم التَّمَكُّنِ مِنْ قَضَاءِ الْحَاجَاتِ. «تفسير المنار 4/ 212»، أي: فبيَّن لهم أن هذا الذي يظنونه خيرًا سيكون شرًّا مستطيرًا ينتظركم؛ إذ قد تتقطع به الأرحام، أو يتحول إلى شر بسبب ضعف الاقتصاد أو تباغض المجتمع، وهو شر محض في الآخرة.

بَصِيرَة ٧

صورة العذاب الحسيّة ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

لا يكتفي القرآن بالوعيد المجمل، بل يرسُم صورة حسية مروِّعة لعاقبة البخل، وقد فصَّلها النبي ﷺ قائلًا: «مَن آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ -أي ماله- شُجَاعًا أَقْرَعَ... يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَيْهِ -يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ- ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: 180] الآيَةَ. «البخاري 1403»، وقال ﷺ: «مَنْ سَأَلَهُ مَوْلَاهُ فَضْلَ مَالِهِ، فَلَمْ يُعْطِهِ، جُعِلَ -أي المال- يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ». «أحمد: 20020. بإسناد حسن».

فكنزه الذي ضنَّ به في الدنيا، يصبح طوق عذاب يلتف حول عنقه في الآخرة

ففي البخاري (2453) أن أَبَا سَلَمَةَ بنَ عبدِ الرحمنِ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ خُصومَةٌ فِي أَرْضٍ، وَ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا أَبَا سَلَمَةَ اجْتَنِبِ الأَرْضَ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

وهذا الوعيد يطال كل بخلٍ حتى البخل بالعلم

يقول رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

«أحمد 8514. وأشار السيوطي إلى تصحيحه».

بَصِيرَة ٨

يأتي تذكيريهدم كل أوهام التملك، فيقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

الإرث انتقال أمرٍ مادي أو معنوي من السابق إلى اللاحق من غير تعب، ولا عقد، ولا اختيار من الطرفين، ووجه قوة هذه الكلمة هنا أن كلَّ ما في السموات والأرض مِلكه سبحانه من غير مشارك، و إنما أعطى شيئًا يسيرًا منه لعباده، وأمرهم أن ينفقوه بطريقة محددة، ثم سينزع ذلك منهم ليعود إلى مِلكه دون إرادة منهم، كما أن الإرث يخرج دون إرادة من المورِّث، فكل ما في أيدينا ليس مِلكًا حقيقيًّا، بل هو أمانة ستعود حتمًا إلى مالكها الأصلي.

بصيرة ٩

ختم الله ﷻ الآية بكلمة تهز القلوب: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

وفيها قراءتان توضحان مشهدين مهيبين:

المشهد 1

قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو ويعقوب ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لتخصَّ الباخلين بنظرة فاحصة، فالله خبير بدقائق بخلهم، وسرائر نفوسهم، وسيجازيهم على ذلك دون محاباة، والخبرة أدق العلم.

المشهد 2

قرأ الْبَاقُونَ بِالتَّاءِ عَلَى الْخِطَابِ، ليتسع الخطاب ويشمل الجميع، منفقين وباخلين، فالله خبير بكل عمل، صغير أو كبير، وسيجازي كل عامل بما عمل، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

بصيرة ١٠

ذكر الله ﷻ تهديده للذين يبخلون بما آتاهم الله ﷻ في هذا الموضع

ضمن الكلام الختامي عن معركة أُحُد لتكون في موضعها المدهش، فهو الأكثر مناسبة؛ إذ يربطها بما قبلها وما بعدها:

فالذي قبلها:

كان كلامًا عن حكمة الله في الابتلاء، ومن الحِكَم العظمى إظهارُ الصادقين في دينهم، فعلامة صدقهم ومسارعتهم إلى جنة عرضها السموات والأرض أن ينفقوا، خصوصًا إنفاقهم في أوقات الانكسار والنكبات مثل ما حدث في أُحُد، فإن جيش المشركين جُهِّز بنفقة مشتركة بين تجار مكة، فكيف لا يستمر المسلمون على التعاون في تجهيز مؤسسات المسلمين الأمنية والعسكرية؟

وما بعدها:

بصائر في بيان العدو الثالث للمسلمين، وهم محرفو أهل الكتاب، ومن أهم صفاتهم الكاشفة تجديفهم على الله ﷻ، وزعمهم أن الله ﷻ إن دعاهم للإنفاق فذلك دليل على فقره تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

ولو جعلنا هذه الآية المباركة جزءًا من القسم القادم كما فعل صاحب الظلال -رحمه الله- لما ظهر لنا هذا المعنى العظيم بشموله.

جسر الاتصال

من أولياء الشيطان المسارعين في الكفر إلى عدوٍّ متربص لم يحضر في المعركة بصورة مباشرة: كشف القسم الرابع القناعَ عن وجه العدو الخارجي الثاني، وهو الشيطان وأولياؤه بمؤسساتهم الاتحادية الذين يعتمدون سياسة التخويف [آل عمران: 175-178]، وكشف القسم الخامس عن بعض الحكم الربانية العظيمة لانتصار سياستهم، و انكسار المؤمنين أمامها [آل عمران: 179-180]، فما الصنف الثالث من الأعداء الخارجيين؟

الجواب:

القسم السادس

كشف عداوة المحرفين من أهل الكتاب: توعية المؤمنين لاستيعاب العداوة العالمية بذكر الصنف الثالث من الأعداء الخارجيين، وهم المحرفون للتوراة والإنجيل من الذين أوتوا الكتاب.

وامتد الكلام عن هذا القسم في الآيات [آل عمران: 181-189]، فاعتداء المعتدين على المسلمين سببه عقدي مقرون بالأطماع والأحلام الجشعة بالسيطرة على الخيرات الإسلامية خاصة، وامتصاص ثروات شعوب الأرض عامة.

وذكر الله ﷻ في هذا القسم أنهم يرتكبون 11 جريمة أساسية:

جريمة [1] جريمة التشكيك في عظمة الله ﷻ وإحاطته بالكون

استكبارًا، وقذفًا للشبهات المشككة في الإيمان

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: 181].

جريمة [2] من جريمة اللسان إلى جريمة العدوان على خير بني الإنسان

﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 181-182].

جريمة [4] الكذب على الله ﷻ في معرفة الأنبياء

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾

[آل عمران: 181-182].

جريمة [5]

جريمة تكذيب المجرمين للمرسلين

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾

[آل عمران: 184].

جريمة [6]

العمل على نشر الغفلة عن الدار الآخرة

وحقيقة الموت و أنه بداية النتيجة العظمى للصادقين والمكذبين

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾ [آل عمران: 185].

جريمة [7]

جريمة الإيذاء الكبير للمؤمنين

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا...﴾ [آل عمران: 186].

جريمة [8]

خيانة الميثاق الإلهي بعدم بيان الكتاب للناس

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 187].

جريمة [9]

بيع الميثاق بثمنٍ بخس

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187].

جريمة [10]

الفرح بارتكاب الإجرام

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ...﴾ [آل عمران: 188].

جريمة [11] حب المدح على فضائل لم يقوموا بها

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ...﴾ [آل عمران: 188].

آيات هذا القسم:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ
لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ
قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ
كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ
الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ
ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا
وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران: ١٨١-١٨٩].

جريمة [1] جريمة التشكيك في عظمة الله ﷻ وإحاطته بالكون

استكبارًا، وقذفًا للشبهات المشككة في الإيمان ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: 181]، وفيها 10 بصائر تُنير الدرب وتكشف زيف القلوب المريضة:

بصيرة ١ جلال السمع الإلهي

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ تُبَصِّرنا بتعظيم الله ﷻ، وتعظيم صفاته، فكلمة ﴿لَقَدْ﴾ فيها تأكيدان: اللام، و{قد}، وكلمة ﴿سَمِعَ﴾: فعلٌ ماضٍ يُبَصِّرنا بإحاطة الله ﷻ بالمسموعات، ولو كانت همسة أو مناجاة.

بصيرة ٢ بلاغة التهديد الرباني

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ انظر لعظمة التعبير، وجمال اللفظ، فهذه الجملة تنبثق منها المفاهيم المناسبة لسياقها: فهي تعني هنا العلم والإحاطة والتهديدَ أي: سمِعَ اللهُ قَوْلَ هَؤُلَاءِ الْمُجَازِفِينَ، لَمْ يَفُتْهُ، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ، فَهُوَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ. «تفسير المنار» (4/ 215).

بصيرة ٣ فضح الأفعال لا الأسماء

﴿قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ لا يسميهم القرآن بأسمائهم، بل يكشفهم بأفعالهم الشنيعة، فتُبَصِّرنا بأن الوصف قد يكون أبلغ من تسمية الموصوف بحسب السياق؛ لأنه يفضح أقواله وتحركاتِه، فيبقى وصمة عار تلاحق كلَّ من يتبنى هذا الفكر الفاسد على مر العصور، والمقصود هنا المستكبرون من أهل الكتاب الذين يعتقدون هذا الاعتقاد المنحرف.

بَصِيرَة ٤

من التجاسر على الله ﷻ إلى العدوان على خلقه

﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ تُبَصِّرنا بأنه مَن تجرأ على مقام مولاه، ونسب إليه ما لا يرضاه فهو إلى التعدي على خلق الله أسرع، وسطوه على ثروات الشعوب وخيراتها أبشع، ومسارعته إلى ظلم الناس أفظع وأشنع.

بَصِيرَة ٥

﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾

هنا تظهر الصلة القوية بالآية السابقة؛ فإن الله ﷻ عندما دعا إلى الإنفاق وضع المجرمون الشُّبَه، وقلبوا الحقائق، فقالوا بلسان حالهم ومقالهم: إن كان يطلب منا العطاء، فهو إذن فقير ونحن الأغنياء! تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

بَصِيرَة ٦

صناعة العوج الفكري

﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ هذه شبهة غريبة تُبصِّرنا بالدور المحوري الذي يقوم به المتطرفون من أهل الكتاب في صناعة العوج الفكري، والانحراف الإيماني، وخاصة في تصوير إدارة أحداث العالم، فهم يرون أنفسهم أغنياء عن الله ﷻ، مكتفين بما أوتوه ومُكِّنوا به، وهذه أولى دركات الخسران، فمن استغنى عن الله ﷻ استغنى الله عنه، ووَكَلَهُ مخذولًا إلى نفسه وهواه، فهم لا يحتاجون بزعمهم إلى الأضعاف المضاعفة التي يُعِدُّها الله ﷻ للمنفق -وهو ما يسميه تفضلًا منه إقراضًا له سبحانه- فقالوا في مغالطة لفظية وقحة: ما بال الله يطلب إلينا أن نقرضه من مالنا، ويعطينا عليه الأضعاف المضاعفة، وهو ينهى عن الربا والأضعاف المضاعفة؟! وهذا تلاعب بالألفاظ، ولاحظ أن الله ﷻ ذكر في هذه السورة الإنفاق كما ذكر تحريم الربا، وبشَّعه بأنَّ قابضه يرده أضعافًا مضاعفة

بصيرة ٧

قصة تكشف العقلية المنحرفة

هذه الآية المباركة كشفت عن عقلية مجرمي أهل الكتاب، وكيف ينظرون إلى ربهم عز وجل نظرة جفاء وكفر، فقد دعا الصديق أبو بكر رضي الله عنه رجلًا من أحبار يهود يدعى "فِنْحَاص" إلى الإسلام، فقال: «وَيْحَكَ! يَا فِنْحَاصُ! اتَّقِ اللهَ وأسْلِمْ؟ فَوَاللهِ إنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا لَرَسُولُ اللهِ، قَدْ جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ، تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ. فَقَالَ فِنْحَاصُ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه: وَاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا بِنَا إلَى اللَّهِ مِنْ فَقْرٍ، وَإِنَّهُ إلَيْنَا لَفَقِيرٌ، وَمَا نَتَضَرَّعُ إلَيْهِ كَمَا يَتَضَرَّعُ إلَيْنَا، وَإِنَّا عَنْهُ لَأَغْنِيَاءُ، وَمَا هُوَ عَنَّا بغنيٍّ، ولو كَانَ عَنَّا غَنِيًّا مَا اسْتَقْرَضَنَا أموالَنا، كَمَا يَزْعُمُ صاحبُكم، يَنْهَاكُمْ عَنْ الرِّبَا ويُعْطيناه وَلَوْ كَانَ عَنَّا غَنِيًّا مَا أَعْطَانَا الرِّبَا... فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: 181].

وَنَزَلَ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، وَمَا بَلَغَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الْغَضَبِ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186]». (سيرة ابن هشام 149/2، وحسنه ابن حجر في فتح الباري 231/8).

بصيرة ٨

عداوة متجذرة لا مصالح عابرة

في هذا الكشف تذكيرٌ إلهي للمسلمين بأن عداوة المعتدين ليست وليدة مصالح دنيوية عابرة، بل هي عداوة إيمانية ضاربة في جذور التاريخ، يغذيها الحقد، وتسقيها الأطماع الجشعة للسيطرة على خيرات أمتنا الإسلامية خاصة، وامتصاص دماء وثروات شعوب الأرض عامة.

بصيرة ٩

هنا سؤال له أهميته: ما علاقة هذا العدو المتربص بمعركة أحد؟ فلم تكن المعركة مع محرفي أهل الكتاب حتى يذكروا في هذه الآيات، فما سر ذكرهم؟

الجواب:

ذكرهم هنا مثل ذكر معركة أحد في سورة اسمها آل عمران، فقد يظن القارئ بادي الرأي أنه لا علاقة، بينما العلاقة وثيقة، فهذا العدو هو الذي أسهم في بقاء الوثنية عندما كذب بالرسالة الخاتمة، وكان الوثنيون يجعلون لأهل الكتاب مكانة خاصة، وبدلًا من يقوم أهل الكتاب بدورهم في إرشاد الوثنين إلى الإيمان بخاتم النبيين تحالفوا معهم على حرب المسلمين، وقالوا عنهم: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١﴾ [النساء: 51].

وفي هذه السورة سورة آل عمران جمع الله ﷻ بين أهل الكتاب والوثنين في خطاب الإسلام: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: 20]، ولاحظ أنه سمَّى الوثنيين أميين مع أنه وُجد عدد لا بأس منهم يعرفون القراءة والكتابة، ولعل سبب تسميتهم بذلك هنا: أنهم عدوا أنفسهم كالأميين بجوار الكتابيين. لم يقم الكتابيون بواجبهم، وحرضوا ضد الرسالة الخاتمة، وسيتولى متطرفوهم كِبْرَ الحرب على المسلمين إلى أن يأتي عيسى بن مريم عليه السلام ليصحح لهم هذه المسيرة الخاطئة.

المفاجأة أن الله ﷻ ألهم النبي ﷺ ليدعو بعد آلام أحد مباشرة، وهم ما زالوا في موقع المعركة، وكان دعاؤه متضمنًا الدعاء على المعتدين من أهل الكتاب مع أن آلامه في هذه المعركة كانت بسبب الوثنيين، ولم يحارب أهل الكتاب فيها بصورة مباشرة. هنا تبدو لك الحلقات مترابطة، وتفهم سر هذا الدعاء، وهو من أجمل الدعاء، وبداية الحديث:

عن عُبَيْد بن رِفَاعَةَ الزُّرَقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي ﷻ»، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ -إلى أن قال- اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ. اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَيُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ. اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، إِلَهَ الْحَقِّ»

(أحمد: 15492، والحاكم في المستدرك 1868، وقال: صحيح على شرط الشيخين).

بصيرة ١٠

سجلٌ إلهي لا يضل ولا ينسى

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ ففاعل الكتابة هو الله ﷻ بما له مِنَ العظمة بأن يأمر مَنْ شاء مِنْ مخلوقاته العظيمة بالكتابة، وتتضمن هذه الجملة التهديد بالعقوبة المستلزمة لإثبات الجرم غير المنسي، فأقوال الإنسان من عمله الذي سيحاسب عليه ويجازى به، فلا ينبغي أن يتكلم العاقل إلا بما يحب أن يراه مكتوبًا.

وقرأ حَمْزَةُ ﴿سَيُكْتَبُ﴾ بِالْيَاءِ وَضَمِّهَا عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَ﴿قَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ بِرَفْعِ اللَّامِ عَلَى مَعْنَى "سَيُكْتَبُ قَتْلُهُمْ"، وهذه القراءة توضح مشهد الكرام الحافظين الذين يكتبون أفعال العباد بأمر رب العالمين.

جريمة [2] من جريمة اللسان إلى جريمة العدوان على خير بني الإنسان

﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: 181-182] أي: وَنَكْتُبُ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ.

ذكر الله ﷻ هذه الجريمة ليبين أن جرائمهم ليست نظريات فكرية، أو أقوالًا مجردة، بل جرائم فعلية متعدية، فاجترؤوا على الاعتداء على الأنبياء، فكيف بغيرهم من الأولياء أو الأطفال أو النساء، وهذه الجرائم قديمة مستقرة في وجدانهم، وفيها 9 بصائر:

بصيرة ١

لماذا ذكر الله ﷻ هاتين الجريمتين الرهيبتين أثناء الكلام عن أولياء الشيطان، ومسارعتهم في التخويف والعدوان؟

الجواب:

لاستحضار أن الجرائم التي يرتكبونها ضد الإنسانية ليست إلا انعكاسًا لاستهانتهم بالله ﷻ ورسالاته. ولذا ذكر الله تعالى جريمتهم في حقِّه مع جريمتهم في العدوان على أشرف الخلق وأعظمهم مكانة وهم الأنبياء.

بصيرة ٢

العقوبة المستقبلية المحتومة: لماذا عبر عن الكتابة بالفعل المستقبل ﴿سَنَكْتُبُ﴾ مع أن قوله ﴿وَقَتْلَهُمُ﴾ وقع في الزمن الماضي؟

الجواب:

لأن المراد لازم الكتابة وهو العقوبة التي ظنوا أنهم نجوا منها لأنها لم تنزل بهم، وقد بيَّن الله تعالى ذِكرُه أنها نازلة عليهم مستقبلًا.

بصيرة ٣

سؤال بياني: كيف قال: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فنسب للأحفاد قتل الأنبياء مع أن الفاعل هم الأجداد؟

الجواب: هنا تتجلى بصيرة قرآنية عميقة في فَهْمِ طبائع الأمم، فنسب ذلك إليهم:

1 لتأصل النفسية العدوانية في صُنَّاع القرار، وذوي النفوذ من القيادات السياسية والدينية الفاسدة في هذه المجتمعات، فهم رضوا بما فعله السابقون، وكانوا على مناهجهم، من استحلال ذلك واستجازته. قال الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأَنَّهُمْ رَضُوا عَمَلَهُمْ». «تفسير ابن أبي حاتم: 4602».

2 لأن عدم التبرؤ من جرائمهم يسهم في استمرارها، فعَنِ الْعَلاءِ بْنِ بَدْرٍ قيل له: أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ وَهُمْ لَمْ يُدْرِكُوا ذَلِكَ؟ قَالَ: «بِمُوَالاتِهِمْ الذي قَتَلَ أنبياءَ الله». «تفسير ابن أبي حاتم 4591». ولذا فهم يتلاعبون بمعظم قرارات مجلس الأمن المنددة بجرائم القتل والإبادة والتطهير العرقي، وهو أدل دليل على هذه النفس العدوانية المجرمة.

وهذا يضع قانونًا عامًّا في البناء الحضاري، والفهم السياسي للمجتمعات، وَهُوَ أَنَّ الْأُمَمَ مُتَكَافِلَةٌ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ؛ إِذْ يَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ الْإِنْكَارُ عَلَى فَاعِلِ الْمُنْكَرِ مِنْ أَفْرَادِهَا، لِئَلَّا يَفْشُوَ فِيهَا، فَيَصِيرَ خُلُقًا مِنْ أَخْلَاقِهَا.

«تفسير المنار 4/216».

بصيرة ٤

﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ لماذا قيد ذلك بقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، فهل من الأنبياء من يقتل بحق؟

الجواب:

التقييد هنا لزيادة التوضيح، فتستبشع النفس جريمتهم، وتستفظعها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ [المؤمنون: 117]، فإن كل إله آخر غير الله ﷻ لا برهان لأحد باتخاذه إلهًا.

بَصِيرَة ٥

يومٌ يُتجرَّع فيه ألم العقوبة

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ فالعقوبة الحقيقية على جرائمكم هي عقوبة الآخرة، التي لا تشبه أي عقاب.

بَصِيرَة ٦

لماذا عبّر بالذوق عَنِ الشُّعُورِ بِالْأَلَمِ؟

الجواب:

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ عبّر عَنِ الشُّعُورِ بِالْأَلَمِ بالذوق؛ لأن الذوق أعظم الحواس إشعارًا بالمسائل المادية، فاللمس والشم مثلًا أقل بكثير من الذوق، كما أنه يتكرر، وبذا يصور هذا اللفظ ﴿ذُوقُوا﴾ بجلاءٍ هول الألم الذي سيجدونه، وكأنه يتخلل كلَّ ذرة من ذراتهم.

أي: ذوقوا العقوبة التي تسلُب عنكم عذوبة الحياة، فهي قوية محرقة تمحو من ذاكرتكم كلَّ لذة، وتأخذ من أرواحكم كل شعور بالراحة كَمَا أَذَقْتُم المستضعفين مرارة الظلم وغصص القهر، ويُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ لَهُم هَذَا الْقَوْلُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وعِنْدَ الْحَشْرِ، وحين تُنشر صحائف أعمالهم السوداء.

«تفسير الرازي 9/ 448».

بَصِيرَة ٧

ألم الحرق وألم التوبيخ

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ رغم أن الألم بالحرق و اقع عليهم حسًّا، إلا أن مواجهتهم بالقول تبكيتًا وتقريعًا فيه إيلام معنويٌّ ونفسيٌّ عظيم، فاجتمع عليهم ألمُ النيران في الأبدان، وألمُ الخزي في الوجدان. فيا له من مشهدٍ يجمع بين احتراق الأجساد وانهيار الأرواح!.

بصيرة ٨

العقوبة اقتضتها العدالة الحقيقية:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 182]، فبعد أن يقرأ الإنسان عن عقوبتهم الشديدة في الآية السابقة قد يقول: ولماذا يعاقبهم الله ﷻ، وهو غني عن عقوبتهم؟

فذكر الله ﷻ سببين للعقوبة:

الأول

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾

فَهُمُ السبب، فقد حصدوا نتيجة أعمالهم، فَهُمْ صنعوا هذا المستقبل البائس لأنفسهم، والمعنى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: عذاب الحريق، والباء في ﴿بِمَا﴾ سببية أي: بسبب الذي صنعته أيديكم لكم مقدَّمًا في الحياة الدنيا، والتعبير بالأيدي يصور تسببهم المباشر في الإجرام، فأيديهم هي التي صنعت مستقبلهم، وهي المشاركة في الغالب في التناول لمعظم المحرمات.

الثاني

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ١٨٢﴾

عدل الله العظيم، فتركُ أمثال هؤلاء دون عقاب يتنافى مع العدل والحكمة، ويسوِّى فيه المحسن بالمسيء، فالله محيط بالكون وبكل ذرةٍ فيه، ولذا سيجازيهم على أفعالهم غيرَ ظالمٍ لهم.

بصيرة ٩

لماذا نفى ﷻ الظلمَ عن نفسه بنفي صيغة المبالغة ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾، ولم يقل: وأن الله ليس بظالم، ومعلوم أن نفي المبالغة لا يستلزم نفي أصل الفعل؟

الجواب:

1 لأن النفي هنا يفيد أَنَّ تَرْكَ مِثْلِهِمْ يُعَدُّ ظُلْمًا كَبِيرًا، أَوْكَثِيرًا، ولَمَّا كَانَ الْقَلِيلُ مِنَ الظُّلْمِ يُعَدُّ كَثِيرًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى رَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ عَبَّرَ فِي نَفْيِهِ بِصِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْكَثْرَةِ. «تفسير المنار4/218» أي لينفي الكثرة المكونة من أفراد، فكل فرد من الظلم منفي، فآل الأمر إلى نفي كل ظلم قلَّ أو كثر، وتوَهُّمُ وجودِه عند الله يعد ظلمًا كثيرًا، فنفى ذلك.

2 نفي هذه الصيغة ﴿ظَلَّام﴾ يفيد نفيَ النِّسبة، وهذا أسلوب عربي معروف في فَهْمِ مثل هذا التركيب ﴿لَيسَ بِظَلَّام﴾، فالمعنى ليس فقط أن الله ﷻ لا يظلم، بل إن "الظلم" ليس من شأنه ولا من صفاته، فهو ليس "بذي ظلم"، فقد نفى الله ﷻ عن نفسه أدنى ظلم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس:٤٤].

وهذا أسلوب لغوي أصيل أشار إليه ابن مالك رحمه الله في ألفيته «ص71» بقوله:

وَمَعَ «فَاعِلٍ، وَفَعَّالٍ، فَعِلْ» ... فِي نَسَبٍ أَغْنَى عَنِ الْيَا فَقُبِلْ

ومثاله من عيون الشعر العربي قولُ امرئ القيس في «ديو انه ص142»:

وَلَيْسَ بِذِي رُمْحٍ فَيَطْعُنَنِي بِهِ ... وَلَيْسَ بِذِي سَيْفٍ وَلَيْسَ بِنَبَّالِ

فقوله: (بِنَبَّالِ) لم يقصد أنه ليس برامٍ ماهرٍ فحسب، بل قصد أنه "ليس بذي نَبْلٍ"، أي لا يستعمل النَّبْل في الأصل.

جريمة [3] الكذب على الله ﷻ في معرفة الأنبياء

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 183].

وفيها 5 بصائر مبينة:

بصيرة ١ سلسلة الجرائم المتصلة

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ **أكمل الله ﷻ جرائم الذين ارتكبوا جريمة التشكيك في عظمته وقتلوا الأنبياء، فأخبر عنهم أنهم: كذبوا عليه في معرفة الأنبياء، وادَّعوا أنه لا بد أن يأتي الرسول بمعجزةٍ محددة، بأن يقرّب قربانًا تأكله الناركي يتأكدوا أنه يجب عليهم الإيمانُ له، هنا ترى أقنعة الزيف وذرائع التعنُّت، فهم يصرون على الكفر إلا أن يروا المعجزات المادية بزعمهم.**

بصيرة ٢ نفي التصديق فضلًا عن الإيمان

﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ **عدَّى فعلَ الإيمان باللام، والمعنى: ألا نصدق لرسولٍ، فهم ينفون مجرد التصديق، فضلًا عن الإيمان بالرسول نفسه أي الإقرار له.**

بصيرة ٣

العناد والتَّشبث بخيوط الوهم: ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ **ما هذا القربان الذي جعلوه ذريعةً لرد الحق؟**

الجواب:

القربان هو ما تقرَّب به العبد إلى ربه ﷻ من صدقة أو نسك، أما مسألة أن تأكله النار، فقد كان أكل النار للقربان علامةً معروفة على قبول القربان في شرائعَ سابقة، ولكنها لم تكن قط شرطًا لصحة رسالة أي رسول. هم تشبثوا بأمرٍ ورثوه عن أسلافهم، وحوّلوه إلى حجةٍ واهية ليردوا بها رسالة خاتم النبيين

ومما ورثوا عن أسلافهم في هذا الموضوع نوعان:

الأول

نوع يوقدون بأنفسهم عليه مثل: الْمُحْرَقَات، ففي سِفْرِ اللَّاوِيِّينَ (1: 3) "إِنْ كَانَ قُرْبَانُهُ مُحْرَقَةً مِنَ الْبَقَرِ -ووصف كيف يصنع الكاهن إلى أن قال: وَيُوقِدُ الْكَاهِنُ الْجَمِيعَ عَلَى الْمَذْبَحِ مُحْرَقَةَ وَقُودٍ رَائِحَةَ سُرُورٍ لِلرَّبِّ".

الثاني

نوع تأتي نار سماوية فتأكله، فقال رسول الله ﷺ: «غَزَا نَبِيٌّ من الأنبياء -إلى أن قال- فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ فَجَاءَتْ -يَعْنِي النَّارَ- لِتَأْكُلَهَا، فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَجَاؤُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتِ النَّارُ، فَأَكَلَتْهَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ عز وجل لَنَا الْغَنَائِمَ، رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا». «البخاري: 3124».

فالقرآن يكشف ما وجد في كتبهم، كما يكشف عن عقليتهم المادية المتعنتة، وحسبك بهذا إعجازًا، فهم لما طلبوا أن يأتي رسول الله بقربان تأكله النار يتعلقون بصورةٍ قديمة، ويطالبون بها تعنتًا وتكبرًا، لا طلبًا للحق وإذعانًا له.

بصيرة ٤

خيانة ميثاق النبيين

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران: 183] **هم هنا يتولون ويعرضون عن ميثاق النبيين الذي أخذه الله ﷻ عليهم، والنبيون أخذوه على أممهم من الإيمان بالرسول الخاتم، وذكره الله ﷻ ذلك في هذه السورة، فقال:** ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

وهنا ترتبط لك حلقات السورة و آياتها في سلك واحد، وبصورة عجيبة

وكأن ما بين هاتين الآيتين (81، 183) جمل اعتراضية توصل إلى نتيجة واحدة هو وجوب الإيمان بالنبي الخاتم ﷺ، ولكنهم تنصلوا، وزعموا هذا الكذب الواضح: أن الله ﷻ عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتي بقربان تأكله النار. إنهم يكذبون. العهد الذي عهده الله ﷻ إليهم هو ميثاق النبيين، ومحتواه واضح: أن يؤمنوا بالرسول الخاتم ﷺ.

بَصِيرَة ٥

الردود الإلهية على شبهاتهم

يرد الله ﷻ على شبهاتهم بـ (٤) ردود، وهذا يُبَصِّرنا بضرورة الرد على كل شبهة:

رد [1]

فضح التاريخ وكشف النوايا

عندما تصل وقاحتهم في رد الرسالة الخاتمة هذا المَبْلَغ، يأتي الردُّ الإلهي قاطعًا كالسيف، لا ليجيب على طلبهم المتعجرف، بل ليفضح تاريخهم الأسود، ويكشف عن حقيقة نواياهم المريضة. إنه ردٌّ يذكِّرهم بأنهم هم أهل الجحود ومنكرو البيّنات، وأن أيديهم هي التي حملت لواء العدوان وسفكت دماء الأبرياء على مر العصور، فيقول الله ﷻ لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 183].

رد [2]

تأييد الخطيئة: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾

يواجههم الله ﷻ بأن الرسل قد جاؤوهم من قبل بـ "البينات"، أي بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة التي لا تترك لعاقلٍ شكًّا، لكنهم قتلوا هؤلاء الرسل. ورغم أن القتلة كانوا آباءهم، فإن الله ﷻ ينسُب الفعل إليهم؛ لأنهم رضوا بفعل آبائهم وساروا على دربهم، وربما كان الْمُتَأَخِّرُ أكثر فعلًا للشر مِنَ الْمُتَقَدِّمِ؛ لِتَمَكُّنِ دَاعِيَةِ الشَّرِّ مِنْ نَفْسِهِ بِالْوِرَاثَةِ وَالْقُدْوَةِ جَمِيعًا. «تفسير المنار 4/216».

رد [3]

العلة في القلوب لا في البراهين

لذا قال الله ﷻ بعدها: ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي وحتى تلك المعجزة المادية التي طلبتموها، قد جاء بها بعض الرسل من قبل، ولكنكم لم تؤمنوا! ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٨٣﴾ في دعواكم؟

فإيمانكم لا يتوقف على المعجزات، بل الخلل في قلوبكم ونفوسكم، فأنتم قوم في غاية العناد، وقد وصفكم كتابكم بذلك، ففي كتابهم المقدس "سِفْر الخروج (9: 9): وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «رَأَيْتُ هذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ» أي شعبٌ لا يلين للحق ولا يخضع له.

رد [4]

قانون الصراع الأبدي

في هذا الرد الإلهي تتجلى سُنّةٌ من سنن الصراع بين الحق والباطل، وقانونٌ أبديٌ من قوانين النفس البشرية، وهو: أساس كلِّ عدوان، وجذرُ كلِّ طغيان أمران: التكبر والعناد. بهما تعمى الأبصار عن رؤية الحق، وبهما تقسو القلوب حتى تتجرأ على أعظم جرائم في الكون، مثل: السفه في وصف الله ﷻ، والاعتداء على أنبيائه.

جريمة [4] جريمة تكذيب المجرمين للمرسلين

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: 183].

وذلك يعني وصية الثبات للمؤمنين، وفيها 5 بصائر:

بصيرة ١ تُبَصِّرنا بأنك لستَ وحدك في الميدان

فتكذيب المحرفين للمرسلين عادة مستمرة على الرغم من وضوح مناهجهم، وإظهارهم لأقوى البراهين، فالْمَذْكُورُ بَعْدَ الْفَاءِ الثانية ﴿فَقَدْ كُذِّبَ﴾ دَلِيلُ الْجَوَابِ، وَالتَّقْدِيرُ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾، فَلَا عَجَبَ فلا تأس ولَا تحزن؛ لِأَنَّ هَذِهِ سُنَّةٌ قَدِيمَةٌ مَعَ الرُّسُلِ مِثْلِكَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِنَقْصٍ فِيمَا جِئْتَ بِهِ، فَلَا يُوهِنْكَ تَكْذِيبُ هَؤُلَاءِ لَكَ. «التحرير والتنوير» (4/ 186). إنه نداء المواساة الأعظم لقلب النبي ﷺ ولكل سالكٍ على دربه.

بصيرة ٢ المكذبون يحاولون طمس تأثير ثلاثية النور

﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾، فتُبَصِّرنا بأن المجرمين لم يكذبوا رسلًا عاديين، بل كذبوا من أتوا بثلاثية النور التي لا يمكن معها لمن كان عنده أدنى عقل إلا الإيمان، وهي:

﴿الْبَيِّنَاتِ﴾

وَهِيَ الْحُجَجُ الباهرة الناصعة، وَالْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَةُ.

﴿وَالزُّبُرِ﴾

الصادعة، جَمْعُ زَبُورٍ مِثْلَ: رَسُولٍ، بمعنى مَزْبُورٍ أي: مكتوب مَخْطُوطٍ، وهي الصحائف التي تحمل المواعظَ المذيبةَ للقلوب والحكمَ الهادية للعقول، مثل زبور داود عليه السلام.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾

أيِ: الدستور المكتوب الْوَاضِحُ الَّذِي يُنِيرُ السَّبِيلَ، وَيُقِيمُ الدَّلِيلَ. «تفسير المنار» (4/ 220) مثل التوراة.

بَصِيرَة ٣

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران:184]

فلا تتوجع لكفرهم، وأعدَّ خطتَك للتعامل مع عنادهم، فقد كذبوا رسلًا من قبلك على الرغم من أنهم أدهشوا العقول بوضوح بيناتهم، وَهَزَمُوا قُلُوبَهُمْ بِزُبُرِ عِظَاتِهِمْ، وَ أَنَارُوا بِالْكِتَابِ سَبِيلَ نَجَاتِهِمْ «تفسير المنار» (4/ 220)، وبما أن المكذبين السابقين أصروا على التكذيب فلا بد أن يكون الدافع هو العناد والرغبة الذاتية المليئة بالوحشية والاعتداء.

بَصِيرَة ٤

هذه الآية حصنٌ منيع في وجه الحروب النفسية والفكرية

فتُبَصِّرنا بضرورة الثبات في أثناء المدافعة السياسية والعسكرية والثقافية بين المؤمنين والمعتدين الملحدين؛ فالمعتدون يحاولون زلزلة الاعتقاد الإيماني خاصة مع ظهور تأخر النصر –في ظن بعض الصف المؤمن- فربما لجأ بعض المسلمين إلى محاولة البحث عن غرائب تُوجِد نوعًا من الرضى الإقليمي والدولي بحق المسلمين في الوجود، ويتضمن ذلك تنازلاتٍ غالبًا، فبيَّن الله تعالى أن تكذيب المكذبين ليس جديدًا، ولا منبعه قوة حجتهم، بل هو العناد المتوارث والعدوان المستمر.

بَصِيرَة ٥

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾

فيها تسلية لفؤاد النبي ﷺ وللدعاة السائرين على منهاجه من بعده، إنِ اعترضهم في سبيل دعوتهم مثل هذا الصنف، وهوو اقع لا محالة، فلتَطِبْ نفوسهم ولا تذهب حسرات على من عاند وجحد.

جريمة [5] العمل على نشر الغفلة عن الدار الآخرة وحقيقة الموت

وأنه بداية النتيجة العظمى للصادقين والمكذبين {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}

[آل عمران: 185]:

تُبَصِّرنا بأن الموت هو الحقيقة اليقينية التي تقطع عناد المكذبين لو كانوا يعقلون، وهو أساس صناعة الحياة المستقبلية الحقيقية الدائمة، ووضع هذه الآية بعد الكلام عن جرائم المحرفين، وقبل الكلام عن تكملة جرائمهم يكشف لنا أن من أبشع جرائمهم:

حجب الإيمان بالدار الآخرة عن أتباعهم وعن العالم.

وفيها 13 بصيرة تخاطب القلوب:

بصيرة ١ كشف عظيمٌ يهدي إليه موقع هذه الآية

وجود هذه الآية عن الموت والإشارة إلى بداية الحياة الآخرة، ومقابلتها للدنيا يثير التساؤل، وسبب ذلك أن الذي قبلها يتعلق بجرائم المحرفين، وكذلك ما بعدها، فما سر وجود هذه الآية المباركة؟

الجواب:

1 يظهر لي أن أول الأسرار وأعظمها يتكشّف في فضح الجريمة الكبرى التي ارتكبتها تلك الفئة بحق البشرية: جريمةُ حجبِ حقيقة الدار الآخرة، وإطفاء نورها الذي أنزله الله ﷻ في كل رسالاته، وتركِ العالم يتخبط في ظلام الدنيا.

2 اليهود مثلًا مر فكرهم بها بمراحل أبرزها فيها أنه لا يوجد عندهم إيمان بالدار الآخرة وفق ما أنزله الله ﷻ على أنبيائه وعلى موسى عليه السلام خاصة، ولذلك يجتهدون لنيل أكبر الملذات في حياتهم القصيرة.

3 عندما تتبع الفكر اليهودي تجد إغفالًا هائلًا لذكر الدار الآخرة بالكلية في أسفار الكتاب المقدس العبري (التَّناخ)، خصوصًا في التوراة (أسفار موسى الخمسة)، وكان التركيز الأساسي منصبًّا على الحياة الدنيا، وعلى عنصرهم، وكأنهم محور الكون الذي تدور حوله الحياة، ولذلك نشروا الشقاء في الأرض.

4 من كتبهم المقدسة سفر دانيال وهو متأخر يعود إلى الغزو البابلي، ونجد فيه نصًّا يتيمًا فيه إشارة إلى القيامة هو: "وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ، هؤُلاَءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، وَهؤُلاَءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ". (دانيال 12: 2)، ولا يوجد تفصيل للقيامة، ولا تأكيد على معناها.

5 تواطأ كبار القيادات الدينية عندهم على إخفاء معالم الآخرة، إلا أننا نجد في التلمود محاولة من بعضهم لإحياء ذكر عقيدة الآخرة بطريقة مشوهة، فذكروا في التلمود أن جهنم (Gehinnom - גיהנום): ليس مكانًا للعذاب الأبدي كما في بعض الديانات الأخرى، بل هو مكان للتطهير الروحي. وفقًا لمعظم الآراء في التلمود، تمكث أرواح الخطاة في "جهنم" لفترة مؤقتة (لا تتجاوز 12 شهرًا عادةً) كأنهم يهوّنون من هول الحساب ويُطمئنون أنفسهم بغفران زائف.

6 ربما لتأثر بعض الفلاسفة اليهود بالإسلام مثل موسى بن ميمون (הרמב"ם - الرامبام) جعل الإيمان بالقيامة المبدأ الثالث عشر والأخير في مبادئه الثلاثة عشر للإيمان اليهودي، ولكنه أكد أن النعيم روحي فحسب.

7 اليوم الآخر هو يوم الدين أي يوم الجزاء العادل، فهل تتصور إيمانًا بالله ﷻ دون الإيمان بعدله؟ هل تعلم الآن لماذا يقتل صهاينتُهم الأبرياءَ، ويستبيحون دماء الأطفال والرجال والنساء. إنهم لا يشعرون بالذنب، بل بالتلذذ، ومن شعر منهم بالذنب فيرى أن الله ﷻ سيعذبه أيامًا معدودات افتراء على الله عز وجل، كما ذكر الله ﷻ في هذه السورة المباركة:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 24].

8 هل ذكر الله ﷻ لموسى عليه السلام ولبني إسرائيل الدار الآخرة ومركزيته في الإيمان به؟

الجواب: نعم، وفي القرآن ذكرٌ واضح لذلك، فضمن أوائل ما سمعه موسى من ربه ﷻ قوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾ [طه: 15-16].

بَصِيرَة ٢

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

تُبَصِّرنا بمصير المؤمنين وأهل الكتاب وسائر الكفار، ومَن اتخذ بطانة السوء، والمنفقين والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والبخلاء والجبناء والشجعان وغيرهم من الأصناف المذكورين في هذه السورة، فكلهم مصيرهم المُحَتَّم الموت، فلا يحزن المظلوم حزن جزعٍ، ولا يفرح الظلوم المتغطرس فرح طمعٍ.

بَصِيرَة ٣

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ما وجه القوة والجمال في قوله: ﴿ذَائِقَةُ﴾ ولم يقل "ستموت"؟

الجواب:

لأن الذوق أبلغُ تعبير عن التجربة الحسية المباشرة. فالموت ليس عدمًا، بل هو مذاقٌ، وحقيقة الذوق إدراك الطعوم، والمراد به هنا حدوث الموت لكل نفس، فهو واقع مادي محسوس، وذوقه كما قال الألوسي رحمه الله: "استعارة لتشبيه الموت بأمر كريه الطعم". (روح المعاني: 11/11)، ويمكن أن نقول: إما أن يكون طعمه مرًّا لما يستتبعه من عذاب، وإما أن يكون حلوًا هنيئًا بسبب ما يكون بعده من أجر وثواب. (التفسير الوسيط لطنطاوي: 360/2).

وعندما يشتد المرض على الإنسان يذكره بذوق الموت، فتصفو نفسه، ويواجه الحقائق، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، اشْتَكَى أَصْحَابُهُ، وَاشْتَكَى أَبُو بَكْرٍ وَعَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ، وَبِلَالٌ، فَاسْتَأْذَنَتْ عَائِشَةُ النَّبِيَّ ﷺ فِي عِيَادَتِهِمْ، فَأَذِنَ لَهَا، فَقَالَتْ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ فَقَالَ:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ ... وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وَسَأَلَتْ عَامِرًا، فَقَالَ:

إِنِّي وَجَدْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ ... إِنَّ الْجَبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

«أحمد 24360. وقال ابن حجر في تعجيل المنفعة 705/1: مخرج في الصحيح».

بصيرة ٤

يوم استلام الأجور كاملة ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

للتوفية ثلاثة معانٍ:

الأول

لا ترقبوا الحصول على أجر أعمالكم فقط في الدنيا فإنها ستأتيكم وافية يوم القيامة

الثاني

حدوث النصر في الدنيا مجرد مقدمة لتوفيته بالأجر الحقيقي في الآخرة.

الثالث

كلمة ﴿تُوَفَّوْنَ﴾ جعلها الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ دليلًا على إثبات نعيم القبر وعذابه

"لأنكم إن كنتم ستأخذون على إيمانكم ثوابًا في الدنيا، فهذا زمن زائل ينتهي، فثوابكم على الإيمان لا بد أن يكون في الآخرة لكي يكون ثوابًا لا ينتهي". (تفسير الشعراوي: 1924/3)، فإن هُزمتم فلا حزن يسبب الفزع والجزع، فأجوركم ستجدونها وافية كحال الشهداء من أصحاب أُحد وبئر معونة.

واستنبط ذلك بصورة تدل على حدة ذكائه، فقال: «فَإِنْ قُلْتَ: فَهَذَا يُوهِمُ نَفْيَ مَا يُرْوَى مِنْ أَنَّ الْقَبْرَ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ، قُلْتُ: كَلِمَةُ التَّوْفِيَةِ تُزِيلُ هَذَا الْوَهْمَ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ تَوْفِيَةَ الْأُجُورِ وَتَكْمِيلَهَا يَكُونُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَمَا يَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ فَبَعْضُ الْأُجُورِ». «الكشاف 448/1».

بصيرة ٥

الفوز الحقيقي ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

فكأنه يقول: لا يحزنك تكذيبُ من كذَّبك، ولا حشد من يحاربك؛ فإن لم يعاقب في الدنيا فلن يهرب من الموت، ومن الحساب بعدَه.

وأهمُّ أهداف المؤمنين الفوز بالجنة والزحزحة عن النار وليس الظفر الدنيوي بالعدو، فقد تكذبك الدنيا، وتُحاربك، فتذكَّر الفوز الحقيقي، فلا تيأس، ولا تتراجع.

كل هذا تأكيد وتقرير لمركزية الإيمان باليوم الآخر، واستحضاره في جولات الصراع بين الحق والباطل.

بَصِيرَة ٦

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ لماذا كلمة ﴿زُحْزِحَ﴾ دون كلمة نجا مثلًا؟

الجواب:

لأن ﴿زُحْزِحَ﴾ تعني: أُبعد ودُفِع بقوة مع أنه يصر على الاتجاه المعاكس، ويصور لنا هذا الفعل عظمة الحنان الإلهي في دفع الناس عن شهواتهم وأهوائهم التي تجذبهم نحو النار، فالزَّحْزَحَة التَّنْحِيَةُ والإبعاد. تلاحظ غرابة هذا الفعل، فهو مكرر الحرفين «زُحْ زِح» ليفيد الْجَذْبَ بِعَجَلَةٍ، ويفيد تكرر الانجذاب لِمَا فِي نَفْسِ الإنسان مِنَ الرغبات الَّتِي تجعله ينجذب إلى الشهوات التي بعدها النار، والله ﷻ يدفعه عنها في كُلِّ مَرَّةٍ بأسلوب أو بآخر إِلَى أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَائِزًا فَوْزًا عَظِيمًا. «تفسير المنار» (4/ 222).

وكأن الإنسان لشدة جواذب الشهوات، وإصرار نفسه على الوقوع في الهوى والسوء والمعاصي المظلمات يصر على النار، فيزحزحه الله ﷻ بفضله عنها إلى الجنة.

ويبين ذلك رسول الله ﷺ، فيقول: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ، قَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا. فَأَمَرَ بِهَا فَحُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا". قَالَ: "فَرَجَعَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ قَدْ حُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، قَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: اذْهَبْ إِلَى النَّارِ، فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. فَجَاءَهَا، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا. فَأَمَرَ بِهَا، فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ قَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا». «أحمد: 8379، والترمذي: 2560، وقال: هذا حديثٌ حَسنٌ صحيحٌ».

وقال النبي ﷺ مصورًا ذلك: «مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ، فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا قَالَ: فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ: هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي، تَقَحَّمُونَ فِيهَا» «مسلم: 2284».

بَصِيرَة ٧

جاذبية النار وحركة الزحزحة

لفظ «زُحْزِحَ» بذاته كأنه يصور للنار جاذبيةً تشد إليها من يقترب منها، ويدخل في مجالها! فهو في حاجة إلى قوة أكبر تزحزحه قليلًا قليلًا لتخلصه من قبضتها القوية! فمن أُعينَ بهذه القوة ليُزَحزح عن مجالها، ويُستنقذ من جاذبيتها، ويدخل الجنة.. فقد فاز. وهذه القوة ليست إلا من الله ﷻ.

إنها صورة قوية، بل مشهد حي، فيه حركة وشد وجذب وسرعة! وهو كذلك في حقيقته وفي طبيعته.

فللنار جاذبية! أليست للمعصية جاذبية وإغراء؟ أليست النفس البشرية في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية؟

بلى! وهذه هي زحزحتها عن النار!

أليس الإنسان- حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة- يظل أبدًا مقصرًا في العمل إلا أن يدركه فضل الله ﷻ؟ بلى! وهذه هي الزحزحة عن النار حين يدرك الإنسانَ فضلُ الله ﷻ، فيزحزحه عن النار! اللهم مُنَّ علينا بنجاة من لدنك، وهب لنا رحمة من قبلك تزحزحنا بها عن دركات الجحيم، وتقذفنا بها في لجج النعيم، إنك البر الرحيم.

بَصِيرَة ٨

الفضل الإلهي والفعل الإنساني

كلمة ﴿زُحْزِحَ﴾ فعل مبني لما لم يُسَمَّ فاعله، وكذلك ﴿أُدْخِلَ﴾، ويبصر اننا بحقيقة عميقة: النجاة ليست جهدًا بشريًّا محضًا، ولا إجبارًا إلهيًّا محضًا، بل يشترك في دفع الإنسان عن النار نحو الجنة جهتان: الله جلَّ مجدُه بفضله، والإنسان عندما يقرر إرادة الخير، وينفذ ذلك، فيتقرب إلى الله شبرًا، ويتقرب الله منه ذراعًا، فيقيض لعبده الفائز عقلًا يثبِّته، وصحبة صالحة تعينه، ويهيئ له ظروفًا تصده بقوة عن طرق الشر، وتدفعه نحو طرق الخير، فهذا هو الفوز الحقيقي بعيدًا عن التزيين الدنيوي، والمظاهر البراقة الخداعة.

بَصِيرَة ٩

الفوز الهائل

حين قال الله ﷻ: ﴿فَقَدْ فَازَ﴾، أطلق الفوز ولم يقيده، ليُفِيد أَنَّهُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَشْمَلُ كُلَّ مَا يَطْلُبُهُ الْمَرْءُ مِنْ سَلَامَةٍ مِنْ مَكْرُوهٍ، وَفَوْزٍ بِمَحْبُوبٍ، وَنَاهِيكَ بِالسَّلَامَةِ مِنَ النَّارِ، وَالْفَوْزِ بِالنَّعِيمِ الدَّائِمِ فِي دَارِ الْقَرَارِ. «تفسير المنار» (4/ 223)، فقد قال ﷺ: «مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وقال: وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا -يَعْنِي الْخِمَارَ- خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». «البخاري: 2796».

بَصِيرَة ١٠

ثلاث كلمات ترسم حقيقة الدنيا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

هذه الكلمات الثلاث ﴿الدُّنْيَا - مَتَاعُ - الْغُرُورِ﴾ تُبَصِّرنا بحقيقة الدنيا التي يفرح الناس بالانتصار فيها وتحقيق الإنجازات بأبلغ تعريف، وهذه الصورة حقيقية لا تخرج الدنيا عنها، ولذا حصرها بكلمتي ﴿ما-إلا﴾:

﴿الدُّنْيَا﴾

صفةٌ للحياة، وهي مؤنَّث الأدنى، وتعني: السفلى مكانةً، والقُرْبَى زمنًا؛ والمراد منها حياتنا هذه، أي معيشتنا الحاضرة (تفسير المنار 223/4)، وهذا الوصف يزهّد فيها، ويدفعنا للطموح إلى الحياة العليا الأعظم شأنًا وإن كانت بعيدة فيما يرى بعض الناس.

﴿مَتَاعُ﴾

تجمع في معانيها انتفاعًا مرتفعًا يقتضي امتدادًا نسبيًّا للوقت مع تلذذٍ في المنتفَع به، ولكنه ينتهي وينقضي كما سمَّوا في العربية ارتفاع النهار متاعًا، فيتمتع الناس به لكنه ينقضي سريعًا، وكذلك الدنيا.

﴿الْغُرُورِ﴾

يظهر جمالها الأخَّاذ في أن معناها انخداعُ الإنسان بالباطل بسبب غفلة قد تورث اطمئنانًا أو تكبرًا، فيعتقد الإنسان الشَّيْءَ نافعًا بِحَسَبِ الظاهِرِ، ثم يجد أنه ضار، أو لا نفع فيه عند التجربة.

بَصِيرَة ١١

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

بيّن الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمال هذا التشبيه وقوته، فذكر أن الله عَزَّ وَجَلَّ شبَّهَ الدُّنْيَا بِالْمَتَاعِ الَّذِي يُدَلَّسُ بِهِ عَلَى الْمُسْتَامِ أي الذي يبايع، ويُزاد عليه في السعر، فيُغَرُّ أي يُخدع حَتَّى يظن أن السلعة نافعة، وأن الثمن مناسب لمنافعها، فيَشْتَرِيَ، ثُمَّ يَتَبَيَّنُ لَهُ فَسَادُهُا وَرَدَاءَتُها، أو عدمُ مناسبة ثمنها لها. «الكشاف 449/1»، كما قال إسماعيل المقري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ديوانه (60، 61):

لَقَدْ ضاعَ عُمْرٌ سَاعَةٌ منه تُشْترى ... بملِءِ السَّما والأرضِ أيَّة ضَيْعَةِ

أَيُنْفَقُ هَذَا في هَوَى هَذِهِ التي ... أَبَى اللهُ أَنْ تَسْوَى جَنَاحَ بعوضَةِ

أَتَرْضَى مِن العَيْشِ الرَّغِيْدِ وعِيْشَةٍ ... مَعْ المَلأ الأَعْلَى بِعيْشِ البَهِيْمَةِ

أَفَانٍ بِبَاقٍ تَشْتَرِيْــهِ سَفَاهَــةً ... وَسُخْطًا بِرِضْوَانٍ ونــارًا بجَنَّـةِ

لَقَدْ بِعْتَهَا هَوْنًا عَلَيْـكَ رَخيْصَـةً ... وكانَتْ بِهَذا مِنْــكَ غَيْرَ حَقِيْقَـةِ

وفي بيان الاغترار بها يقول عَلِيّ بْن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «فإنَّ مثلَ الدنيا مثلُ الحيَّة ليِّنٌ مسُّها، قاتلٌ سمُّها، فأعرض عما يعجبك منها، لقلَّة ما يصحبُك عند مفارقتها» (البصائر والذخائر 165/7)، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الدُّنْيَا ظَاهِرُهَا مَطِيَّةُ السُّرُورِ، وباطنها مطية الشرور. «تفسير الرازي: 435/9».

بَصِيرَة ١٢

مركزية الآخرة في معركة النصر

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185]

تُبَصِّرنا بأن حقيقة الموت، وتركيز النظر نحو الفوز في الآخرة من أعظم سنن النصر التي يحاول الإعلام العالمي إضعاف الشعور بها في نفوس المؤمنين؛ لأن وجودها يعني الثبات وعدم تقديم التنازلات مهما كانت التضحيات لتحقيق أعظم الإنجازات، وهو هذا المنجز: الزحزحة عن النار ودخول الجنة، وعدم الاغترار بالدنيا، ولا بتقلب الكفار فيها.

بَصِيرَة ١٣

هذه آيةٌ جامعة للوعد والوعيد، والتخفيف عن المؤمنين

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: 185]

فتضمنت هذه الآية "التسلية لرسول الله ﷺ عن الدنيا وأهلها، والوعد بالنجاة في الآخرة بذكر الموت، والفكرة فيه تهون ما يصدر من الكفار من تكذيب وغيره.

ولما تقدم ذِكْرُ المكذبين الكاذبين على الله ﷻ من اليهود والمنافقين وذِكْرُ المؤمنين، نُبِّهوا كلهم على أنهم ميتون ومآلهم إلى الآخرة، ففيها يظهر الناجي والهالك، وأن ما تعلقوا به في الدنيا من مال وأهل وعشيرة إنما هو على سبيل التمتع المغرور به، كلها تضمحل وتزول ولا يبقى إلا ما عمله الإنسان، وهو يوفاه في الآخرة، يوفى على طاعته ومعصيته". «البحر المحيط: 3/460».

جريمة [6] جريمة الإيذاء الكبير للمؤمنين

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 185]: تُبَصِّرنا الآية بخطة مستقبلية تذكر أحداثًا عالمية قادمة، وتتلخص في أن الابتلاء القدري سنةٌ حتمية يتعرض لها المؤمنون ليظهر استحقاقهم للفوز في الآخرة، ومن الابتلاء: استمرار تحالف أهل الكتاب والمشركين لإيذاء المسلمين، ويذكر الله ﷻ فيها خريطة الطريق الإلهية لمواجهة ابتلاءات المستقبل، ومواجهة الجريمة السادسة للتحالف الثنائي:

وفيها 17 بصيرة كأنها نجومٌ تهدي السائرين في دياجير الفتن:

بصيرة ١ رؤيةٌ خالدةٌ.. فلا مفاجآت على الطريق

﴿لَتُبْلَوُنَّ -وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ تُبَصِّرنا بأهم أحداث المستقبل: إنها ليست نبوءةً عابرة، بل هي خريطة طريقٍ ربانية، وسُنّةٌ إلهيةٌ راسخة، تكشف لنا عن طبيعة الأيام القادمة، فلا تترك المسلم فريسةً للمفاجآت، بل تجعله متوقعًا لما سيحدث، مستعدًا له. ففي خضمّ تقلبات الحياة، يبتلي الله ﷻ عباده ليمحِّصهم ويصقل جوهر إيمانهم، وليظهر للعالمين استحقاقهم للفوز العظيم بالجنات.

بصيرة ٢ ﴿لَتُبْلَوُنَّ -وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ شمولية الابتلاء و أبعاده:

جمع الله ﷻ بين الابتلاء الفعلي المنظور المحسوس في المال والنفس، والابتلاء القولي المسموع الذي يَلذع القلوب بالكلمات. وجمع بين الابتلاء القدري الذي قدّره الله ﷻ على المؤمنين، والإيذاء البشري الذي يدخل ضمن القدر، ولكنه باختيار البشر.

وفي هذا تفصيلٌ لبقاء الإيذاء للمؤمنين في المستقبل كما هو في الماضي، فهذه طبيعة العدوان المتأصل عند مجرمي أهل الكتاب والمشركين، فلا ينبغي للمؤمنين أن يَمُنُّوا أنفسهم بسلامٍ زائفٍ أو حلٍّ سياسيٍّ مريح، فإن هذا طلبٌ للمستحيل، ومخالفةٌ لسنن الله في الصراع بين الحق والباطل.

إن هَذَا الْإِعْلَامَ بالحوادث المستقبلية يهدف إلى أَنْ يُوَطِّن المسلمون أَنْفُسَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَتَرْكِ الْجَزَعِ، فما من دعوةٍ إلى الخير إلا ويحاصرُها الشر، ثم يعتدي عليها بأبشع أنواع الاعتداء.

بَصِيرَة ٣

في قوله تعالى ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ حتمية الابتلاء وقَسَم السماء:

يتجلى تأكيدٌ إلهيٌ لا مثيل له. فاللام في بدايتها هي لام القسم، والنون في نهايتها هي نون التوكيد الثقيلة. وكأن المعنى: أُقسم بعزتي وجلالي ليصيبنَّكم الاختبار المقرون بالبلاء، فهو قدرٌ نافذٌ، وحقيقةٌ و اقعةٌ لا محالة.

بَصِيرَة ٤

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ الابتلاء في شريان الحياة (المال):

تُبَصِّرنا بأن الابتلاء سيكون في مجالين عظيمين:

الأول: في أموالكم بالفقر والإفقار، وقدَّم الأموال على الأنفس، لأنها "أول عدة يُفزَع إليها عند نزول الخطوب". (روح البيان: 6/2)، أو لقلتها عند العرب حينئذ، فيكون المصاب فادحًا. (السراج المنير: 45/4)، ولأن الابتلاء في النفس يعني فناءها إلى ما هو خيرٌ لها لو صدقت، أما الابتلاء في المال فيعني التعذيب بالتجويع والإذلال، فقد قال النبي ﷺ لكعب بن عُجْرة رضي الله عنه: «يا كعبُ بنَ عُجْرة، إنَّ الفقرَ أسرعُ إلى مَن يُحبُّني من السَّيلِ إلى مَعادنِه، و إنَّه سيُصيبُك بلاءٌ فأعِدَّ له تَجْفافًا». (أي درعًا وصبرًا) «المعجم الأوسط للطبراني 7157. وقال الهيثمي: إسناده جيد».

بَصِيرَة ٥

الحصار الاقتصادي سيف الأعداء القديم

من الابتلاء في المال الابتلاء بالحصار الاقتصادي الذي يضربه المجرمون على المسلمين، فعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَحْصُوا لِي كَمْ يَلْفِظُ الإِسْلَامَ». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مَا بَيْنَ السِّتِّمِائَةِ إِلَى السَّبْعِمِائَةِ؟ قَالَ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلَوْا». قَالَ: فَابْتُلِينَا حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مِنَّا لَا يُصَلِّي إِلَّا سِرًّا. «مسلم: 149».

بَصِيرَة ٦

ذِكرُ المال والابتلاء فيه ينبه إلى أهميته وضرورة تحصيله

وإلى أهمية التآزر والتعاضد في تنميته وتثميره، وقد تسربت إلى المسلمين مبادئ فلسفية غريبة حصرت الزهد في ترك المال، والبعد عن الوظائف المؤثرة التي تدير الحياة مثل: القضاء، والإدارة العليا، والجيش والأمن، وكل ذلك غريب لا يدل الإسلام عليه، فالزهد مصطلح غير قرآني كمصطلح الصوفية والسلفية، والمصطلح القرآني الثابت هو التزكية، ومن أركانها التنمية، فهل يستوي من عنده مال يُخرج حقَّه، ويزيد على ذلك ليصرفه في صناعة الحياة، وحماية الناس، ومَنْ ترك المال مع قدرته عليه، واعتزل بنفسه؟ قد قال الفقراء في عهد النبي ﷺ:

«ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الْأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ، يَحُجُّونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ». «البخاري: 843».

بَصِيرَة ٧

﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾

تُبَصِّرنا بأن المجال الثاني للابتلاء هو النفس بأن يصيبها القتل، والمصائب، والقهر، والهزائم.

بَصِيرَة ٨

حربُ الكلماتِ وإعلامُ الأذى الكثير

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾:

تُبَصِّرنا بأن من أهم الأسلحة القوية المستخدمة في خدمة الإجرام: الكلام الآثم، ومن ذلك وسائل الإعلام التي يسمعها المسلمون وغيرهم. يا له من تحذير قرآني! إنها بصيرة تكشف عن سلاحٍ فتَّاكٍ: الإعلام المأجور الذي ينفث سمومه في الأسماع، فتقلب الحقائق، وتجعل المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، وتصور المظلوم ظالمًا، والظالم مظلومًا.

بَصِيرَة ٩

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ تحالف الشر الأبدي

تُبَصِّرنا بأن قيادات الشر في هذا الثنائي (الذين أوتوا الكتاب، والمشركون) يتحالفون على إيذاء المسلمين، وإن اختلفت المصالح بينهم، وأما غيرهم من حلفائهم المنافقين فهم أداة تابعة لهم، وبَصَّرنا الله ﷻ بهذا التحالف، وطبيعةِ أفعالهم ليكون هذا التحذير رصيدًا للمسلمين، ولئلا يغتروا بابتساماتهم الصفراء، وليكيِّفوا جميع خططهم وسياساتهم بناءً على معرفتهم بهذا الخطر الكبير.

بَصِيرَة ١٠

﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ الأذى الكثير وصُوَرُه المعاصرة:

تُبَصِّرنا بأن الأشرار المجرمين من الطوائف الثلاث يحرصون على إيقاع الْأَذَى بالمسلمين، والأذى هُوَ الإضرار الشديد بالقول والفعل، ويدخل فيه التآمر الذي يؤدي بهم إلى الجرائم، وربما سلطوا العصابات الإجرامية منهم أو من الآخرين، ولذلك وصف الأذى بالكثرة ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ أيْ: خارجًا عن حد الاحتمال، ومن مظاهر الأذى الكثير القولي:

1. **قصف العقيدة**
بتسليط وسائل الإعلام المعادية والمستأجرة المحلية والعالمية للطعن في معالم الإيمان.

2. **تزيين الفاحشة**
بنشر الكفر، وتزيين الباطل، والإغراء بالسوء والفواحش.

3. **صناعة المصطلحات المسمومة**
في مطابخ المؤامرات المظلمة، كمصطلح "الإرهاب" الذي يُلصق بكل من تمسك بدينه.

4. **شيطنة الصالحين**
بالطعن في العلماء والدعاة وتشويه سمعتهم لقطع الطريق على هدايتهم للعالم.

بَصِيرَة ١١

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ وصفة النصر (ثنائية الصبر والتقوى)

تُبَصِّرنا بأن خطة استيعاب الابتلاءات والوصول إلى النصر في الدنيا والفوز في الآخرة، ومقاومة مجرمي التحالف الثنائي تُبنى على ركيزتين عظيمتين تكرر ذكرهما في هذه السورة المباركة، وهما: الصبر الإيجابي المقترن بالتقوى، فالصبر والتقوى يُنتجان المجاهدة والمقاومة للشر المجرم، ويبنيان مؤسسات ثقافية وتربوية تُصلح العالم ببرامج أخذ الحذر.

ويقتضي الصبر والتقوى عدم الغفلة عن الثروة البشرية التي تحقق المنجزات إن رُبِّيت على القرآن والسنة في هذه الحياة.

بَصِيرَة ١٢

جناحا التقوى اللذان يحلق بهما المؤمن:

النوع الأول: صبر التحمل

وهو الصبر على ألم المصيبة، وترك الانتقام تأليفًا للقلوب، «وَالْمُصَابَرَةِ عَلَى تَحَمُّلِ الْأَذَى وَتَرْكِ الْمُعَارَضَةِ وَالْمُقَابَلَةِ». «تفسير الرازي» (9/454) كما في قوله تعالى لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: 44]، وفي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية:14].

النوع الثاني: صبر المواجهة

وهو الصبر على مشاق مجاهدة المعتدين، وإعمال سنة التدافع لدفع الظلم، واتباع المنهج الصِّدِّيقي فِي الْإِنْكَارِ عَلَى مُغَيِّرِي الدين والملحدين، وهو صبر الأبطال الذين لا ينحنون للعاصفة بل يواجهونها.

بَصِيرَة ١٣

جناحا التقوى اللذان يحلق بهما المؤمن:

الأول: تقوى داخلية

وهي أن يتقي الله عَزَّ وَجَلَّ في نفسه، فيحفظ إيمانه من الشوائب، ويجتنب المعاصي والظلم.

الثاني: تقوى خارجية

وهي أن يتقي كيد عدوه، بالحذر في التخطيط، والرصد لمكائده، واستيعاب قدرته على المراوغة والتلون.

بصيرة ١٤

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ لماذا قدم الصبر على التقوى؟

في هذا التقديم الإلهي أسرارٌ بديعة، منها:

1

لأن الصبرَ احتمالُ المكروه، وَالتَّقْوَى الِاحْتِرَازُ عَمَّا لَا يَنْبَغِي، فَقَدَّمَ ذِكْرَ الصَّبْرِ ثُمَّ ذَكَرَ عَقِبَهُ التَّقْوَى، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُقْدِمُ عَلَى الصَّبْرِ لِأَجْلِ أَنَّهُ يُرِيدُ اتِّقَاءَ ما لَا يَنْبَغِي.

2

لأن الصبر أساس الثبات على الطاعات أو على استيعاب الابتلاءات، والتقوى أساس مواجهة الابتلاءات، وكلاهما يثمر الفوز في الدنيا والآخرة، فَكَانَتِ الْآيَةُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ جَامِعَةً لِآدَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

«تفسير الرازي» (9/ 454).

3

لأن التقوى نفسها تحتاج إلى صبر، فالمرء يصبر ليُخلِص نيته لله ﷻ، ويصبر ليُحسِن عمله، فالصبر أساس كل عمل صالح

ولذا جعل الله ﷻ صفة الصبر أساسًا في الآية (17) من هذه السورة، فقال: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، بعد أن قال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ [آل عمران: 15]، فذكر فوز المتقين، وأخبر أن أساس صفاتهم الصبر، فالصبر سابق، وسائق، ولاحق، ولذا ختم الله ﷻ السورة بالصبر: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: 200]. هنا تستبين لك وجوه من الإحكام والترابط مثيرة مطربة تشعرفها بعظمة البناء القرآني.

بصيرة ١٥

﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ شرف "عزم الأمور":

يا له من وسامِ شرفٍ يمنحه اللهُ ﷻ الصابرين المتقين! فتُبَصِّرنا هذه الكلمات أن الصبر والتقوى عملان عظيمان كبيران لا يصل إليهما إلا أصحاب "عزم الأمور"، وهم أصحاب العزائم الصادقة والإرادات الصلبة في مواجهة التحديات، فهم من يصنعون الواقع الجديد السعيد، وأكَّد الوصف بكلمة ﴿إِنَّ﴾.

بصيرة ١٦

﴿عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

مصطلح قرآني فخم ضخم عجيب، وهو مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ أَيِ: الْأُمُورِ الْعَزْمِ، وجاء مفردًا بعد جمع؛ لأنه مصدر، فصار أبلغ من أن تقول الأمور العازمة أو المعزوم عليها، وَالْعَزْمُ: إِمْضَاءُ الرَّأْيِ وَعَدَمُ التَّرَدُّدِ بَعْدَ تَبْيِينِ السَّدَادِ، وَوَقَعَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186] دَلِيلًا عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا تَنَالُوا ثَوَابَ أَهْلِ الْعَزْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عزم الْأُمُور. «التحرير والتنوير» (4/190).

بصيرة ١٧

ذكر الله ﷻ الابتلاء بالمصائب والمصاعب في سورة البقرة

فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155]، بينما ذكر هنا الابتلاء المتعلق بمواجهة الأعداء والاعتداء وكيفية التعامل معهم بالصبر والاتقاء، فناسب الموضوع الكلي للسورتين، وهذا يُظهر لك عظمةَ التناسق والتكامل في البناء القرآني، حيث توضع كلُّ آيةٍ في مكانها المناسب، لتؤدي دورها في السياق العام للسورة والقرآن كله.

جريمة [7] خيانة الميثاق الإلهي بعدم بيان الكتاب للناس.

جريمة [8] خيانة الميثاق الإلهي بكتمان الكتاب عن الناس.

جريمة [9] بيع الميثاق بثمنٍ بخس.

ويُبَصِّرنا بالجرائم الثلاث قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187].
تكشف الآية مشهدًا هائلًا لقصةٍ من أعظم قصص الخيانة في التاريخ البشري، ليست خيانة وطنٍ أو صديق، بل خيانة الرسالة الإلهية. إنها قصة فساد القيادات الدينية التي أُؤتمنت على كلام الله ﷻ، فبدلًا من أن تكون له حارسة، جعلته سلعةً في أسواق الدنيا. فكتموه، ولم يبينوه، وحرفوه مقابل أطماع دنيوية زائلة، فأضلوا أتباعهم وبقية العالَم، وأشعلوا بذلك نار العداوة ضد المؤمنين، وتسببوا بالأذى الكثير. وفي أعماق هذه الآية تسبح 10 بصائر تكشف هذه الجرائم:

بصيرة ١ الميثاق العظيم والمسؤولية الجسيمة

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾:

تبدأ القصة بذكر أن الله ﷻ أخذ ميثاقًا على الذين أتوا الكتاب، وهم اليهود والنصارى، والميثاق يعني العهد الموثق، فأخذه الله ﷻ على كل من آتاه علمًا بكتابه. إنها مسؤولية ترتجف لهولها الجبال، مسؤولية أن يكون العالِم سراجًا للناس، لا قاطع الطريق الذي يهدي إلى الله ﷻ. وقد ذكَّر النبي ﷺ هرقل عظيم الروم بهذه المسؤولية حينما قال له: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ». أي إثم أتباعه الذين سيضلون إن اختار القرار الخطأ. «البخاري: 7».

بَصِيرَة ٢

جوهر هذا الميثاق ركنان:

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾

بيان ما في الكتاب لأتباعهم وللعالم.

﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾

فيحرم أن يخفوا محتوياته عن الناس.

ومن أهم ما في الكتاب: حقيقة أن الإسلام هو دين الله الذي جاء به جميع الأنبياء، وأن النبي الخاتم هو محمد ﷺ.

بَصِيرَة ٣

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ فيها قراءتان توضحان مشهدين:

المشهد 1

قرأ الجمهور بالخطاب؛ لتنقل لنا هذه القراءة الحدث كأننا نراه، فالله ﷻ يخاطب هؤلاء العلماء عبر أنبيائه.

المشهد 2

قرأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وشُعْبَةُ: ﴿لَيُبَيِّنُنَّهُۥ وَلَا يَكْتُمُونَهُۥ﴾ بِالْيَاءِ كأنه يخاطبنا عنهم لنعرف واقعهم ونحذرمنهم، ونحذر من أن نقع فيما وقعوا فيه.

بَصِيرَة ٤

جريمة "عدم البيان" أخطر من "الكتمان"

قد تسأل: ما الحكمة من تقديم الأمر بالبيان على النهي عن الكتمان؟

الجواب: هنا تتجلى لنا دقة القرآن العجيبة؛ لأن الكتمان يترك الناس في جهلٍ أُولي، فهم لا يعرفون الحق، ولكنهم قد يبحثون عنه يومًا فيجدونه. أما "عدم البيان" أو "التبيين المشوَّه"، فهو جريمة أعظم، لأنه يخلط الحق بالباطل، فيصنع جهلًا مركبًا، ويقدم للناس دينًا مُحرَّفًا على أنه دين الله ﷻ!

«تفسير المنار» (229/4).

ولذا قد تكون الضلالة أو البدعة غير المكفِّرة أشد في خطورة تعصب أتباعها من الكفر الأصلي، وإن كان الكفر الأصلي أسوأ بالنظر إلى الآخرة، وأما البدعة المكفِّرة فهي أسوأ في الغالب.

فالعالِمُ قد يذكر آيات الكتاب، لكنه يلوي عنقها، ويفسرها على غير وجهها، فيظن السامع المسكين أن هذا هو مراد الله، ﷻ، وليس الأمر كذلك، فينشأ جيلٌ يعتقد الباطل حقًّا، فانظر إلى أرتال الضالين من عامة اليهود والنصارى، والضالين التابعين للفساق والمبتدعة من المسلمين؛ فإن ضلالهم نشأ بسبب عدم بيان علمائهم.

ومن أمثلة ذلك: العبث بمفهوم آل البيت عند المسلمين، فنشأ عن ذلك ملايين ممن لا يعرفون الهدى في هذا الموضوع، وأما عند النصارى فحسبك تلاعب الصهاينة بمفهوم: "أُبَارِكُ مُبَارِكِيك يا إسرائيل وألعنُ لاعِنِيك"، وظنوا أن هذه كلمة الله ﷻ، مع أن الذين روجوها تلاعبوا بها تلاعبًا شديدًا.

فالآثار المدمرة لعدم التبيين أعظم من آثار الكتمان؛ لأنه يؤدي إلى تحريف الحقائق، وإظهار الدين على غير حقيقته. والْقُرْآنُ الْعَزِيزُ منتشر مشتهر بفضل الله ﷻ، فهو غير مكتوم لكن معانيه لم يبينها علماء بعض الفرق كما ينبغي

شكا دينُ الهدى ممَّا دهاهُ ... بأيدي جَامدينَ ومُلحدينَا
شبابٌ يحسبون الدِّينَ جَهْلًا ... وشِيبٌ يَحسبونَ الجَهْلَ دِينَا

بَصِيرَة ٥

ميثاقٌ لكلِّ من حمل علمًا

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾: لئن كانت الآية نزلت في أهل الكتاب، فإن عهدها يسري في عروق الزمان ليشمل كلَّ من حمل علمًا. إنه تحذير لكل عالمٍ وداعية. يقول رسول الهدى ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» «أحمد: 8514، وأشار السيوطي إلى تصحيحه».

وقد فهم السلف الصالح هذا الميثاق، فقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا ميثاق أخذه الله ﷻ على أهل العلم، فمن علم شيئًا فليعلِّمه، وإياكم وكتمانَ العلم، فإن كتمان العلم هَلَكة». «تفسير الطبري: 461/7».

وهاهو الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ يقف كالطود الشامخ أمام جبروت الحجاج، فيصدع بكلمة الحق غير هيَّاب، فلما سأله الحجاج مستنكرًا: مَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكَ؟ فَقَالَ: مَا كُلُّ الَّذِي بَلَغَكَ عَنِّي قُلْتُهُ، وَلَا كُلُّ مَا قُلْتُهُ بَلَغَكَ، قَالَ: أَنْتَ الَّذِي قُلْتَ: إِنَّ النِّفَاقَ كَانَ مَقْمُوعًا، فَأَصْبَحَ قَدْ تَعَمَّمَ وَتَقَلَّدَ سَيْفًا، فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَمَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى هَذَا وَنَحْنُ نَكْرَهُهُ، قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ أَخَذَ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ. «تفسير الرازي: 456/9».

بَصِيرَة ٦

﴿فَنَبَذُوهُ﴾ تبصّرنا أنهم لم يكتفوا بتركه وكتمانه

بل نبذوه أي: اطرحوه ورموه باحتقار وإهمال غير عابئين به، والفاء هنا تصور فظاعة سرعتهم في نقض العهد، فهي تصور أنهم فور أن تمكنوا من فَهْمِ الكتاب نبذوه، فبدل أن يكون فهمهم سببًا للهداية، صار أداة للتحريف. «التحرير والتنوير» (192/4).

بَصِيرَة ٧

قوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فيه تصوير بليغ مدهش لحالهم معه

فمن جهة: لم يهتموا به لأن الذي يُهتم به يكون أمام العين لا خلف الظهر كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: 48]، ومن جهة: جعلوه تابعًا لهم، فهم يقودونه، فيفسرونه حسب أهوائهم بدلًا من أن يكون الكتاب إمامَهم وصانعَ خطواتِهم، ولذا أمر النبي ﷺ أن يجعل المؤمنُ الصادقُ القرآنَ إمامَه أمامَه، فقال: «الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ -أي خصم- مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ» (صحيح ابن حبان: 404، وإسناده جيد كما قال المنذري في الترغيب والترهيب: 42/1).

بَصِيرَة ٨

يبصرنا قوله تعالى: ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ بجريمتهم التاسعة

بيع الميثاق بثمنٍ بخس، فيجهزون البيانات الدينية، والفتاوى حسب الطلب، ويبيعونها في أسواق الظلم والكذب.

بَصِيرَة ٩

﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كلمة ﴿قَلِيلًا﴾ وصفٌ إيضاحي لكل ثمن يأخذونه

ويترتب عليه أن يكتموا الحق، أو ألا يبينوه للناس، فحتى لو أخذوا الدنيا كلها، فهي ثمن قليل مقابل الآخرة، وَالثَّمَنُ الْقَلِيلُ هُوَ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنَ الرُّشَى وَالْجَوَائِزِ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالظُّلْمِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْعَامَّةِ عَلَى تَأْيِيدِ الْمَظَالِمِ وَالْمَفَاسِدِ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِلَةِ. «التحرير والتنوير» (192/4).

ويدخل في الثمن القليل: أن يقودهم المال والقوة، أو تقودهم الجماهير من أجل تسجيل الإعجابات، ويصبح العالِمُ رَهْنَ ما يطلبه المستمعون.

بصيرة ١٠

يأتي الحكم الإلهي النهائي قاسيًا وحاسمًا: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ١٨٧﴾.

يا لها من صفقة بائسة! ويا له من شقاءٍ اشتروه بأيديهم حين باعوا دينهم بدنيا غيرهم! ويدخل فيهم من قال عنهم ﷺ: «سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ [يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ]، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَى الْحَوْضِ...». «التِّرْمِذِيُّ: 2259، وَصَحَّحَهُ».

جريمة [10] الفرح بارتكاب الإجرام.

جريمة [11] حب المدح على فضائل لم يقوموا بها.

ويُبَصِّرنا بهاتين الجريمتين قوله سبحانه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 188]:

هنا يرسم لنا القرآنُ صورةً نفسيةً عجيبةً ومُرعبة، صورةَ أولئك الذين يحتسون الإثم كما يحتسون الماء، ثم يرقصون طربًا على أنغام جرائمهم. لا يكتفون بذلك، بل يتوقون لأن تصفق لهم الأيادي، وتُتوّج هاماتهم بأكاليل المجد على صلاحٍ لم يفعلوه، وخيرٍ لم يقدّموه. إنهم يزيّنون قبحهم بأثواب الفضيلة، ويرتدون أقنعة النور لتغطية ظلام قلوبهم.

وفي رحاب هذه الآية العظيمة، تتجلّى لنا 9 بصائر، هي مصابيح كاشفة لزوايا هذه الحقيقة المؤلمة:

بصيرة ١ — ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ سراب الظواهر:

سر قوة كلمة ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ أنها تعني: لا تظنن ظنًّا يغلب على عقلك حتى كأنك تحسب هذا الشيء المظنون كما تحسب العدد. إنها دعوةٌ ربانيةٌ لكسر صنم المظاهر الخادعة، وتذكيرٌ بأن الحقائق الكبرى كثيرًا ما تكون محجوبةً خلف ستارٍ كثيف، ولكن لا بد لهذا الستار أن يُمزَّق، ولا بد لشمس الحقيقة أن تشرق، مهما طال ليل الباطل.

بصيرة ٢ — نشوةُ الإثم والفرحُ المذموم

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾: إنه فرحٌ خبيث، فرحُ البطر والغرور بما اقترفت أيديهم. يفتخرون بجرائمهم، ويعتبرونها إنجازات، فتسيطر عليهم نشوة الإثم، ومن معاصيهم التي يفرحون بها: كتمان الحق، وسرقة خيرات الآخرين، واغتيال براءة الأطفال، وتدمير فطرة الناس، وحرمان المرضى من حق العلاج... إنه الفرح الذي ينبت في مستنقعات القلوب الميتة.

بَصِيرَة ٣

ميزانُ القلوب: بين فرحٍ يُعلي وفرحٍ يُردي ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾:

الفرح الممنوع

هو فَرَح الْبَطَرِ، وَالْغُرُورِ، وَالْفَخْرِ بِالْأَعْمَالِ، وهو يَدْعُو إِلَى الْكَسَلِ، وَالْإِهْمَالِ، وَحُبِّ الْمَحْمَدَةِ الْبَاطِلَةِ، وَالْقَنَاعَةِ بِالثَّنَاءِ الْكَاذِبِ.

«تفسير المنار: 240/4».

الفرح المشروع

هو الفرح الذي يدعو إلى شكر الله ﷻ، ويلهب في النفس جذوة العمل الصالح، فهو فرحٌ مطلوب، وهو الذي أمرنا به ربنا ﷻ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58]. فشتّان بين فرحٍ يُعلي صاحبه إلى مراتب الشاكرين، وفرحٍ يُرديه في مهاوي الغافلين.

بَصِيرَة ٤

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ تزييف البطولات والشوق إلى المديح الكاذب:

تُبَصِّرنا بأنهم ينتظرون أن يمدحهم العالم على ما لم يفعلوا، فيحبون أن يمدحوهم على أنهم قالوا الحق وهم قالوا الباطل، أو بيَّنوا الكتاب، وهم حرَّفوه تحريف تبديل وتأويل، أو انتصروا للضعفاء وقد تآمروا عليهم، أو قاموا بإغاثة الملهوفين وهم سرقوا خيراتهم، أو أقاموا حقوق الإنسان، مع أنهم أعظم من يتآمر على الإنسان في الصحة والمرض، أو أنهم أهل البر والتقوى، وهم الفجار.

بَصِيرَة ٥

دخل في معاني هذه الآية:

أولًا: المنافقون

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا، أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَنَزَلَتْ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ الآيَة. «البخاري: 4567»، وهذا السبب يشبه كثيرًا ما يقع هذه الأيام من المسلمين من التخاذل عن نصرة قضايا أمتهم، ثم يرفعون عقيرتهم بأنهم أحرص الناس على الإسلام، ومنهم من يحب المدح بأنه العارف بفقه المصالح والمفاسد، مع أنهم ربما يدمرون الإسلام.

ثانيًا: كلُّ من كتم الحق وأظهر أمام الناس أنه يقول الحق، ويعمل الخير

فقد قَالَ مروان لِبَوَّابِهِ: اذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقُلْ: لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ فَرِحَ بِمَا أُوتِيَ، وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذَّبًا لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَمَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ؟ إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ يَهُودَ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَأَرَوْهُ أَنْ قَدِ اسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا سَأَلَهُمْ، وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ كَذَلِكَ حَتَّى قَوْلِهِ: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: 187-188].

«البخاري: 4568».

بصيرة ٦: فتنة الثناء

القيد في قوله: ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ يُبَصِّرنا بأن حب الإنسان أن يحمد نوعان:

الأول: الممنوع

وهو حب أن يُحمَد الإنسان على واجبٍ لم يفعله، أو أدى مدح وحمد الآخرين إلى فتنة الممدوح، فقد أَثْنَى رَجُلٌ على رجل خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ -يَقُولُهُ مِرارًا- إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا لَامَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسَبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يُرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَحَسِيبُهُ اللهُ، وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا».

«البخاري: 6061».

الثاني: المشروع

وهو أن يحب أن يُحمد على واجب عمله، أو على أمرٍ مستحب، ولأجل أن يقتدي الناس به، فحُبُّ الْمَحْمَدَةِ بِالْحَقِّ عَلَى الْعَمَلِ النَّافِعِ مِنْ غَرَائِزِ الْفِطْرَةِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى التَّرْبِيَةِ الْعَالِيَةِ، فَهَذَا الْقَيْدُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حُبَّ الثَّنَاءِ عَلَى الْعَمَلِ النَّافِعِ غَيْرُ مَذْمُومٍ. «تفسير المنار» (4/238).

بصيرة ٧: وهمُ النجاة والحكم الإلهي القاصم

بعد أن كشفت الآية حقيقتهم، أصدرت عليهم حكمها النهائي الحاسم

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨٨﴾.

والمفازة:

مكان الفوز وزمانه وحَدَثُه، فتُبَصِّرنا بأن العذاب ربما يتأخر عن هؤلاء المجرمين، فلا تظنن ظنًّا قويًّا ولا ضعيفًا تحسب معه الأيام واللحظات أنهم في مكانٍ أو واقعٍ يحميهم من العذاب، ويجدون فيه فوزًا منه، فتأخير العذاب الشامل عنهم لا ينجيهم من العذاب الجزئي، أَيْ: لَا تَظُنَّ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ أَنَّهُمْ بِمَنْجَاةٍ مِنَ الْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ، أَيْ: مُتَلَبِّسُونَ بِالْفَوْزِ وَالنَّجَاةِ مِنْهُ، وَهُوَ الْعَذَابُ الَّذِي يُصِيبُ الْأُمَمَ الَّتِي فَسَدَتْ أَخْلَاقُهَا، وَسَاءَتْ أَعْمَالُهَا، وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ:

عَذَابٌ هُوَ أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ اجْتِمَاعِيٌّ لِلْحَالِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْمُبْطِلُونَ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ ﷻ فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ، حيث يظهر عليهم الشقاء على الرغم من كثرة أموالهم.

وَعَذَابٌ لَا يَكُونُ أَثَرًا طَبِيعِيًّا، بَلْ يُسَمَّى سُخْطًا سَمَاوِيًّا كَالزِّلْزَالِ، وَالْخَسْفِ، وَالطُّوفَانِ، والكساد الاقتصادي. «تفسير المنار» (4/241).

والعذاب يسلب عذوبة الحياة عنهم، وزاد ترهيبًا منه بوصفه بكلمة ﴿أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم يظهر الألم، ويبقيه، نسأل الله الفوز في الدنيا والآخرة.

بَصِيرَة ٨

يصور لنا الاختلاف القرائي في قوله ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ... فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ ثلاثة مشاهد:

المشهد الأول تبينه قراءة الكوفيين ويعقوب ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ... فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾

بِالتَّاءِ وَفَتْحِ الْبَاءَ فِيهِمَا مع خلافهم المعروف في فتح السين وكسرها، والتقدير: لا تحسبن أيها السامع أنهم سينجون من العذاب.

المشهد الثاني: تبينه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ﴿لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ... فَلَا يَحْسِبُنَّهُمْ﴾

بالياء وضم الباء في الثاني أي: لا يحسبن هؤلاء الذين يفرحون، فلا يحسبنهم الناسُ أنهم في مفازة من العذاب.

المشهد الثالث: تبينه قراءة الباقين ﴿لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ... فلا تَحْسِبَنَّهُمْ﴾

مع خلافهم المعروف في فتح السين وكسرها: أي لا يحسبن هؤلاء الذين يرتكبون إحدى هاتين الجريمتين أنهم ناجون، فلا تحسبنهم أيها السامع بمفازة من العذاب.

بصيرة ٩

يكمن جمال تكرار الفعل ﴿تَحْسَبَنَّ... فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾

في تأكيد نفي حال المفازة والنجاة لانتفاء لازمها وموجبها، وهو فعلهم ما يستوجب المحمدة، وهذا يعني التأييس واستبعاد النجاة بالدعاوى المجردة من الأعمال الصالحة الحميدة.

بصائر ختامية لهذا القسم تعرفنا بملك الله ﷻ للكون وقدرته

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 189]:

فمن سنن الانتصار اليقين بصفتين كاملتين للواحد القهار: الملك والقدرة، حتى تظهر الواحدية الكاملة. فالملك بلا قدرة لا معنى له، والقدرة بلا ملك لا فائدة فيها، وفي هذه الآية 6 بصائر تهدينا إلى معرفة عظمة هاتين الصفتين:

بصيرة ١: من ضيقِ الأرضِ إلى سعةِ السماء

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 189]:

بعد أن تجول بنا القرآن في ميادين صراع البشر، وكشف عن سُنن تداول الأيام، وفضح جرائم أهل الزيف والضلال، يرتفع بنا المشهد فجأة من ضيق الأرض إلى سعة السماء، ومن صراعات الخلق إلى هيمنة الخالق. تأتي آية واحدة كخاتمة مهيبة لكل ما سبق، لترد كل شيء إلى أصله، وتضع كل قوة في حجمها الحقيقي، وتعلن أن الحقيقة المطلقة التي لا حقيقة سواها هي ما تضمنته هذه الآية.

بصيرة ٢: الختم ببيان عظمة الملك والقدرة رسالةٌ ذات وجهين:

رسالة تحذير للظالمين

حتى لا يغتروا بسلطانهم الزائل، ولا يظنوا أن قوتهم ستُعجِزُ صاحب الملك الكامل، أو أن جرائمهم ستمرُّ دون حساب. فكل ما في الكون، من الذرة إلى المجرة، هو في قبضة ملكه.

رسالة تطمين للمؤمنين

حتى لا ييأسوا من طول ليل الظلم، ولا تهتز ثقتهم بوعد الله ﷻ. فربهم جل جلاله الذي يعبدون هو مالك الملك، القادر على كل شيء، الذي بيده مقاليد كل شيء.

بَصِيرَة ٣

تجليات الملك والقدرة في دار البقاء

يحدثنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عن وقتٍ نرى فيه مظهرًا هائلًا لهاتين الصفتين، فيقول: «يَطْوِى اللَّهُ ﷻ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِى الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟». «مسلم: 2788». [يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ] «أحمد 5414. وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم».

يا له من نداء يهز أركان الوجود! أين الذين تجبروا في الأرض؟ أين الذين تعالى شأنهم في أعين أنفسهم؟ كلهم صغار، وكلهم خاضعون أمام عظمة الملك الديان.

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ - عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا" قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: «لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أُقِصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أُقِصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةَ» قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللهَ ﷻ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ» «أحمد 16042. وقال الأرنؤوط: إسناده حسن».

بَصِيرَة ٤

قبضة القادر وعذاب الفاجر

يكشف الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ عن بصيرة اتصالية بالآية السابقة، فبعد أن قال الله ﷻ عن أولئك الفرحين بباطلهم: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 188]، أتبعها بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 189]. والمعنى: كيف يرجو النجاة من كان مُعذِّبُه هو هذا الملك القادر الغالب الذي لا يفوته هارب ولا يعجزه مطلوب؟ «تفسير الرازي» (9/458).

بصيرة ٥

حَقِيقَةُ الملك والقدرة ليست حقيقة نظرية مجردة، بل هي منهج حياة

يروي لنا أبو مسعود البدري رضي الله عنه قصة تهز الوجدان، فيقول: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ!». فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ -قَالَ- فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ! اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ!». قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ! أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ». فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا. يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ. فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ». «مسلم: 1659».

إنها ومضة من نور النبوة، تذكرنا بأن قدرتنا على من هم دوننا ليس إلا ظلًّا زائلًا أمام قدرة الله المطلقة علينا ﷻ.

بصيرة ٦

الاتصال بالآية ذاتها في سورة البقرة:

في ختام سورة البقرة قال الله ﷻ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 284] فهذه صفة المِلك، ويقابلها هنا: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 189] فهذه صفة المُلك، ثم قال في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: 284] فهذه صفة العلم والإحاطة، والقدرة على المحاسبة، ثم ذكر صفة ثالثة، فقال: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 284] فهذه صفة المُلك والحكم النافذ، ثم ذكر صفة رابعة: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهذه صفة القدرة المطلقة، وهي بنصها في الآيتين معًا.

فلم يذكر صفة العلم والإحاطة في هذا الموضع من سورة آل عمران؛ ليناسب ذلك القِسم الذي جعلناه يبدأ بقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: 181]، فإنها تدل على العلم والإحاطة والمحاسبة، فلم يكن من حاجة لذكرها.

فظهر أن القرآن مثاني، إذ رأينا تثنية المعنى في سورة آل عمران بعد مواضع من ذكرها في سورتي البقرة وآل عمران، وكل ذلك ليرسخ تعظيم الله ﷻ في النفوس، فتمتلئ القلوب يقينًا، وبهجة، وثقة بربها سبحانه.

جسر الاتصال

بيَّن المحور السابع [166-189] بوضوح كيف يعمل الأعداء الخارجيون (وحلفاؤهم من المنافقين) على إيقاع المسلمين في سنن الفشل، فكيف ختم الله ﷻ هذه السورة العظيمة؟

الجواب:

خاتمة سورة آل عمران

توضـح فَهْـمَ أولي الألبـاب، وهم أعظـمِ العالـم عقـلًا لطبيعـة الوجود، واخـتلاف الموجودين في الحيـاة، ليصلوا إلى تطبيق سـنن الفلاح في دعوة الخير

[آل عمران ١٩٠-٢٠٠]

خاتمة سورة آل عمران

توضح فَهْمَ أولي الألباب، وهم أعظم العالم عقلًا لطبيعة الوجود، واختلاف الموجودين في الحياة، ليصلوا إلى تطبيق سنن الفلاح في دعوة الخير

[آل عمران 190-200]

و انقسمت إلى قسمين:

القسم الأول

تُساعية أهداف أولي الألباب العظيمة: يوضح الله ﷻ لنا فيه تُساعية أهدافهم العظيمة التي يطمحون إلى تحقيقها، وكيف تنمي حياتهم وتزكي أرواحهم، وامتد هذا القسم في الآيات

[آل عمران 190-195].

القسم الثاني

خُماسية النَّصْرِومِسكُ الخِتَام: يحدد الله ﷻ لنا فيه خماسيةَ الوصايا الربانية الختامية التي ترسم لأولي الألباب منهج نجاحهم في قيادةِ الأمة التي تدعو العالم إلى الخير، وتضمن لهم الانتصار بعد الانكسار خصوصًا بعد ما جرى في معركة أحد، وامتد هذا القسم في الآيات

[آل عمران: 196-200].

بَصِيرَة

ظهر لنا من خلال هذه الخاتمة قوة الإحكام وجمال الانتظام في الزهراوين في تناغمٍ بديع

فصارت هذه الخاتمة خاتمة لهما معًا، فموضوع سورة البقرة التي حدثنا الله ﷻ فيها عن إشراق الحضارة الإسلامية على العالم، وخصَّ فيها الأمة الإسرائيلية بالذكر، وموضوع سورة آل عمران تعلق بالشهادة الكبرى، والنجاح في تحديات السنن، خصوصًا عند التعامل مع الحضارة النصرانية.

القسم الأول

تُساعية أهداف أولي الألباب العظيمة:

يوضح الله ﷻ لنا فيه تُساعية أهدافهم العظيمة التي يطمحون إلى تحقيقها، وكيف تنمي حياتهم وتزكي أرواحهم، وامتد هذا القسم في الآيات [آل عمران ١٩٠-١٩٥].

وبتساعية الأهداف العظيمة يحوّلون لحظات الانكسار إلى محطاتٍ لترميم البناء الداخلي، وتمتين الصلة بالله ﷻ، وإعداد النفوس لجولةٍ جديدةٍ في مصاولة الباطل.

آيات هذا القسم:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ
اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا
إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا
مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾
فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ
هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

[آل عمران: 190-195].

فكرة هذه الآيات:

بَصِيرَة ١ — في سورة البقرة أشرقت الحضارة الإسلامية على العالم

وفي سورة آل عمران ظهر أن من أهم صفات تلك الحضارة أن أمَّتَها هي أُمَّة الشهادة الكبرى، خير أمة أخرجت للناس تدعو إلى الخير، وتحقِّق سنن الانتصار.

هذان الموضوعان العظيمان لا يمكن أن ننفذهما في أرض الواقع إلا بجمال التعلق بالأهداف العليا التي يسعى لتحقيقها أولو الألباب، فذلك يكشف عظم هممهم واهتماماتهم، وعلو غاياتهم التي يطمحون إليها.

بَصِيرَة ٢ — ما وراء الحُجُب: حين يولد الدعاء من رحم التفكر

بصرنا الله ﷻ في هذه الآيات بأحوالٍ خاصة "أولو الألباب" لا تمرُّ على عقولهم آياتُ الكون مرور الكرام، بل تتفتح بصائرهم على ما وراء المادة من حكمة وقدرة، ومن رحم هذا التفكر، تتولد أسمى الأهداف، ولأنهم مخلوقون وصلوا إلى أعظم مصادر القوة، وهي قوة الخالق، فقد صاغوا أهدافهم بأجمل أسلوب في الدعاء والتضرع والتذلل والثناء.

وظهر لنا بذلك الاتصال الدائري بين مقدمة السورة التي كلمتنا عن الراسخين وذكرت دعاءين لهم، وخاتمتها التي كلمتنا عن سبب الرسوخ ونتيجته في الوقت نفسه، وهو اللُّب ويعني العقل الصريح.

بَصِيرَة ٣ — محراب الدعاء: بين الرهبة والخوف والرجاء

هذه الآيات الباهرات لخصت لنا أهداف أولي الألباب، ورسمت بصياغة مدهشة أساس حضارة الإيمان بالشهادة الكبرى، وأظهرت نجاحهم في فهم سنن الانتصار، ففاضت بها قلوبهم، ولهجت بها ألسنتهم في مناجاةٍ خاشعة، تبدأ بالرهبة من العقاب، وتمر برجاء القبول، وتنتهي بالخوف من غوائل الخزي بسبب الرياء، وأظهرتهم بأجمل مظهرٍ في محراب الدعاء.

فدعونا نسبر أغوار هذه الآيات الخالدة التي ملكت قلب النبي ﷺ، فسالت دموعه عند قراءتها، لنجد في هذا القِسم تسعة أهداف منيرة تضيء الحياة:

الهدف الأول
تنمية عقولهم

لترتقي من مرتبة العقلاء إلى مرتبة أولي الألباب بالنظر في آيات الكون: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ [آل عمران: 190].

الهدف الثاني
التَّلذُّذ بذكر الله ﷻ

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

الهدف الثالث
إعمال الفكْرِ بالتفكر

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 191]، فجمعوا بين النظر والذكر والفكر.

الهدف الرابع
الوصول إلى اليقين العقلي والقلبي بالهدف من خلق الوجود

وتذوّق حلاوة الدعاء، فيقولون متيقنين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: 191].

الهدف الخامس
الوقاية من عذاب النار وخزيها

﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران: 191-192]

الهدف السادس
الاستجابة الواعية لنداء الإيمان والسعيُ الدائم لغفران الذنوب

وتكفير السيئات والأوزار، والطموحُ لأن يكونوا مع الأبرار: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ...﴾ [آل عمران: 193].

الهدف السابع
رجاؤهم أن يحقق الله ﷻ لهم وعده الذي وعدهم

على لسان رسله من أمور الدنيا والآخرة بعد أن بذلوا ما تيسر لهم من أسبابٍ وفق طاقاتهم البشرية: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: 194].

الهدف الثامن
رجاؤهم ألا يخزيهم الله ﷻ يوم القيامة بعدم تحقق وعده لهم

إن وقعوا في تقصير أو ذنب: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 194].

الهدف التاسع
أن يجيب الله ﷻ دعاءهم، ويحقّقَ رجاءهم

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ...﴾ [آل عمران: 195].

الهدف الأول تنمية عقولهم لترتقي من مرتبة العقلاء إلى مرتبة أولي الألباب بالنظر في آيات الكون

مادة: ﴿خلق السموات والأرض﴾ **وزمانًا:** ﴿اختلاف الليل والنهار﴾

ويبصرنا بهذا الهدف قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: 190]، وفي هذه الآية 5 بصائر تملأ القلب باليقين:

بصيرة ١ «ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها»

هذه الآيات الإحدى عشر بدايتها التفكر، ونهايتها الفلاح، ويبين عظمة هذه الآيات قول عبيد بن عمير رَحِمَهُ ٱللَّهُ لعائشة: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَسَكَتَتْ. ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي»، قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى وَكَانَ جَالِسًا، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ تَبْكِي، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ-يعني آيات- وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 190] الْآيَةَ كُلَّهَا». «ابن حبان: 620: وحسنه الوادعي في الصحيح المسند: 1627»، وعن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه بات عِنْدَ مَيْمُونَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، وهي خالته، قال: فَاضْطَجَعْتُ فِي عَرْضِ الْوِسَادَةِ، وَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلُهُ فِي طُولِهَا، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حتى إذ انْتَصَفَ اللَّيْلُ، أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ، أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ، اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَلَسَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ الْخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ. «البخاري: 183».

بَصِيرَة ٢

رسالة الكون الصامتة

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾

كأنه يقول: تدبروا أيها الناس في هذا الكون مادة وزمانًا، فقد خلقت السموات والأرض لمعاشكم و أقواتكم وأرزاقكم، وجعلت الليل والنهار يتعاقبان عليكم. تفكروا لتجدوا فيها ما لا يحصى من العلامات العظيمات التي تجذبكم إلى الحق المبين، وإلى السكينة المطمئنة بملك رب العالمين، وقدرته، وتدبيره، فمن كان منكم ذا لُبٍّ وعقل، يعلم أن مَنْ نسبني إلى الفقر كاذبٌ مفترٍ، فإنَّ ذلك كله بيدي أُقَلّبه وأصرّفه، ولو أبطلت ذلك لهلكتم، فكيف ينسب إلى فقرٍ من كوَّن الأكوان، و أنشأ الزمان والمكان، وبيده معايش المخلوقات كلها، ومنها معايش كل إنسان؟! وكيف يكون غنيًّا من كان رزقه بيد غيره، إذا شاء رزقه، وإذا شاء حَرَمه؟! فاعتبروا يا أولي الألباب. (تفسير الطبري 7/ 474).

بَصِيرَة ٣

من "العقل" إلى "اللب" ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ١٩٠﴾

اللب هو خلاصة الشيء ونواته الأساسية التي تمثل أهم ما فيه، فأولو الألباب هم النخبة المميزة في المجتمع، فهم الذين يديمون الفكر في دقائق الأشياء، فإن لم يكونوا معاندين، دلَّهم كل شيء على وحدانية رب العالمين في ألوهيته ورحمته، وقد ذكر الله ﷻ منها ثماني دلائل في سورة البقرة في الآية (164)، وهنا ذكر ثلاثًا منها، فما الحكمة؟

الجواب:

1 يبصرنا بذلك أن الله ﷻ خَتَمَ آيَةَ البقرة بِقَوْلِه: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾

وَخَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ ١٩٠﴾؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ لَهُ ظَاهِرٌ وَلَهُ لُبٌّ، فَفِي أَوَّلِ الْأَمْرِ يَكُونُ عَقْلًا، وَفِي كَمَالِ الْحَالِ يَكُونُ لُبًّا، فالألباب هي الْعُقُول التَّامَّة الذَّكِيَّة الَّتِي تُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ بِحَقَائِقِهَا عَلَى جَلِيَّاتِهَا.

(تفسير الرازي 9/ 459).

2 ولبيان أن الذين يعقلون يظهر لهم الإعجاز في الخلق بصورةٍ عامة

ولكنَّ ذلك يظهر لأولي الألباب بصورةٍ أدق وأجمل وأعظم؛ لكمال عقلهم حيث حووا لب عقول أهل العقول.

3 هَذِهِ الْآيَاتُ تَظْهَرُ لِكُلِّ أَحَدٍ عَلَى قَدْرِ عِلْمِهِ وَفَهْمِهِ وَجَوْدَةِ فِكْرِهِ

فمثلًا عُلَمَاءُ الفلك، يَعْرِفُونَ مِنْ نِظَامِهَا مَا يُدْهِشُ الْعَقْلَ، وَأَمَّا سَائِرُ النَّاسِ فَحَسْبُهُمْ هَذِهِ الْمَنَاظِرُ الْبَدِيعَةُ، وَالْأَجْرَامُ الرَّفِيعَةُ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْحُسْنِ، وَالرَّوْعَةِ.(تفسير المنار 4/245).

بصيرة ٤: ما مجمل دلائل الإيمان؟ ولماذا ذكر الله ﷻ هنا أحدها؟

الجواب: دَلَائِلُ الإيمان مَحْصُورَةٌ فِي قِسْمَيْنِ: دَلَائِلِ الْآفَاقِ، وَدَلَائِلِ الْأَنْفُسِ، وهنا ذكر دلائل الآفاق لسببين:

الأول:

أنها واضحة تتراءى معالمها الكبرى أمام العين.

الثاني:

أنها أَجَلُّ وَأَعْظَمُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 57].

(تفسير الرازي: 9/491).

بصيرة ٥: لماذا ختم الله ﷻ هذه السورة بآيات التفكر والتذكر وطموحات أولي الألباب بعد الكلام عن المعركة اللاهبة معركة أحد وما جرى فيها؟

الجواب:

لأنها تصورلنا أعظم ما يحتاجه الربيون، وهو الترميم وقت الانكسار:

فمرحلة الهزيمة والانكسار تستدعي ترميم التكسرات الباطنة، وسد الشروخ، وتقويم الاعوجاج، ولذا نجد ذوي الألباب يوظفون مثل هذه المراحل في استكمال البناء الداخلي، والمحافظة على رأس المال من أن يتبدد تحت ضغوط الانكسارات وتواليها، وليس هناك أعظم من التفكر في ملكوت الله ﷻ والانطراح على أعتابه كبلسمٍ شافٍ، ومرشدٍ مربٍ، ينهض بالهمم من جديد.

جسر الاتصال

عرفنا أن الهدف الأول من طموحات أولي الألباب: تنمية عقولهم حتى ترتقي من مرتبة العقلاء إلى مرتبة أولي الألباب بالنظر في آيات الكون مادة: ﴿خلق السموات والأرض﴾ وزمانًا: ﴿اختلاف الليل والنهار﴾، فما الهدف الثاني؟

الجواب:

الهدف الثاني

التَّلذُّذ بذكر الله ﷻ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191]، وفي هذه الكلمات 5 بصائر تفصل معانيها:

بصيرة ١

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ فوصف أولي الألباب بالذكر

وكأن العقل الذي لا يهدي إلى الذكر ليس بعقل صريح، فلم يصل صاحبه إلى المرتبة العليا من استعمال العقل؛ إذ ذكرُ اللهِ تعالى صفة إيمانية بها تستنير القلوب، وتنشرح الصدور، وتطمئن النفوس.

بصيرة ٢

ذِكْرُ الله ﷻ يعني الاتصال برب العالمين

الذي خلق السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات وطاقات ومواد، وهنا تتعجب من أصحاب الرياضات التي تسمى روحية مثل: (اليوجا) و(الشاكرا) عندما يتكلمون عن الاتصال بقوى الكون، ويتركون الاتصال برب الكون.

والذكر نعيمٌ معجَّلٌ من الجنة عند التلذذ به، فقد قال ﷺ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَارْتَعُوا». قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «حِلَقُ الذِّكْرِ» (الترمذي: 3510. وقال: حسن غريب).

بصيرة ٣

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ﴾ الذكر مرتبط بالتذكر، فإذا تذكر ذكر

ويجمعون في ذكرهم بين ألسنتهم وقلوبهم معًا، وهذه هي الحالة الأكمل، ويجوز فعل أحد الأمرين بحسب حال الذاكر من النشاط أو الكسل.

والتذكر والذكر يمنعان الإنسان من الوقوع في الأخطاء والمعاصي

ويحميانه من الاستمرار فيها إن وقع، كما قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا تَوَّابًا نَسِيًّا إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ».

«المعجم الكبير: 11810، وقال الهيثمي في المجمع 10/201: أحد أسانيد الكبير رجاله ثقات».

بصيرة ٤

الذكر الدائم: نبضٌ لا ينقطع في كل حال

﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾: أي يذكرون علام الغيوب في جميع أحوالهم، فلا يحول حال من أحوالهم بينهم وبين الذكر، كما قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ. (البخاري 1/129).

فذكرَ عموم أحوال الإنسان التي لا يخرج عنها، لئلا يتركوا الذكر مهما اختلفت أحوالهم

ورحمة بهم فهو -جلَّ مجدُه- يعلم احتياجهم للتقلب بين القيام والقعود والاضطجاع على جنب، فأثنى عليهم لئلا يظنوا أن الذكر في أحدها غير لائق، وبدأ بحال القيام؛ لأنه أشرف في مقام العبودية، وأوقع للهيبة من رب البرية، وأولى بمعنى التأدب في الحضرة الإلهية.

بصيرة ٥

هذه الصفة تزيد المودة الغامرة، والمحبة العامرة للعلي العظيم

وبذا ينجو العبد من قبضة الشيطان الخاسرة، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «تالله مَا عدا عَلَيْك الْعَدوُّ إِلَّا بعد أَن تولى عَنْك الْوَلِيُّ فَلَا تظنن أَن الشَّيْطَان غلب، وَلَكِن الْحَافِظ أعرض». الفوائد لابن القيم (ص: 68).

جسر الاتصال

عرفنا أن الهدف الثاني: التلذذ بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، فما النتيجة التي يحصلون عليها عند جمعهم بين النظر في خلق السموات والأرض وذكر الله عَزَّ وَجَلَّ؟

الجواب: هنا يأتي:

الهدف الثالث

إعمال الفكْرِ بالتفكر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 191]، فجمعوا بين النظر والذكر والفكر، وفي هذا الهدف 4 بصائر مثيرة:

بصيرة ١

بيَّن الله ﷻ أنهم جمعوا بين النظر في خلق السموات والأرض وذكْرِه ﷻ

وهذا دفعهم إلى أن يبحثوا في القوانين التي دبر الله ﷻ بها حركة المكان (السموات والأرض) والزمان (اختلاف الليل والنهار)، وعندما تجمع هذا لملابسات قصة معركة أحد تشعر بأنهم روَّضوا أنفسهم على الرضا والتسليم في مواجهة المشكلات، والاطمئنان والهدوء عند حلول المصيبات، وذلك يحدث عند التفكر في الخلق، واستشعار اليقين أن جميع المخلوقين في قبضة الله ﷻ، لا يخرج أحد منهم عن ملكه وقدَره، أو يحيد عن مراده المبرم وأَمْره.

بصيرة ٢

الفكر صفة عقلية جاءت بعد الصفة الإيمانية القلبية، وهي صفة الذكر

والتفكر في عظمة الله ﷻ وبديع صنعه، والتدبر في كلامه وعظيم وحيه، زاد الرُّوَّاد، ودأب العُبَّاد، وغذاء الزُّهَّاد، والتفوق في هذا الميدان أساس للتفوق والغلبة في مصاولة الشيطان، وتجاوز مرحلة الهزيمة والخِذلان، وذلك كله أساس بناء الحضارة العادلة في عالم الإنسان.

فالفكر يقتضي إعمال العقول، وتفعيل الدراسات، واختراع الأجهزة والآلات التي تعين على اكتشاف عجائب السماوات والأرض، وتستثمرها، فكل ما في الكون يلفت النظر، ويجتذب التفكير، ويولّد الفِكَر:

مِنْ كُلِّ مَعْنًى لَطِيفٍ أَجْتَنِي قَدَحًا ... وَكُلُّ نَاطِقَةٍ فِي الْكَوْنِ تُطْرِبُنِي

(الدر الفريد وبيت القصيد 365/9)

بَصِيرَة ٣

التفكر يولد لهم المنافع الآتية:

1

التوصل من مشاهدة الخلق إلى شهود الخالق: فالتصميم الكوني البديع الذكي الذي يتجلى لكل متفكر ومتأمل لا يمكن تفسيره إلا بوجود قادر قوي حكيم عليم لطيف خبير، وهو الله جل في علاه.

2

التوصل من آيات الخلق إلى معرفة الحق في ملك الله ﷻ، وسُنَنِهِ التي يدير بها الكون، ومن هنا تتعجب من ضحالة العقل الذي يعتقد أن هذا الكون عبث، وأن خَلْقَه مجرد صدفة.

3

التفكر يكشف زينة السكينة. سكينة المؤمن المخبت عند حلول الأهوال، وأمام دُوَلِ الأيام، وتقلبات الأحوال، وأمام أخطائه التي قد يقع فيها، فيرجع عند ذلك كله إلى الله ﷻ بقلبٍ مخبتٍ ونفسٍ منيبةٍ، ودعاءٍ متضرعٍ وكذلك يكشف التفكر عن قوانين المادة والاجتماع الإنساني ليستثمرها

فقد قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الفكرة مرآة المؤمن، ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته» (تفسير ابن عطية: 555/1)

وقال ابن عباس و أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا:

«تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ» (حلية الأولياء 209/1، والعظمة 297/1)

وَقَالَ عَامِرِ بْن عَبْدِ قَيْسٍ:

سَمِعْتُ غَيْرَ وَاحِدٍ وَلَا اثْنَيْنِ وَلَا ثَلَاثَةً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُونَ: «إِنَّ ضِيَاءَ الْإِيمَانِ، أَوْ نُورَ الْإِيمَانِ، التَّفَكُّرُ». (تفسير ابن كثير: 185/2)

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«اسْتَعِينُوا عَلَى الْكَلامِ بِالصَّمْتِ، وعلى الاستنباط بالفكر».

(الفوائد والأخبار والحكايات لابن حَمْكَان: ص 139).

بصيرة ٤

العجيب في هذه الآيات أن الله ﷻ ذكر أنهم بدؤوا بالذكر، وصحب الذكرَ الفكرُ

فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ [آل عمران: 191]، والمعتاد أن الفكر يهدي إلى الله ﷻ، وعندها يحصل الذكر، فما الحكمة من هذا الترتيب؟

الجواب: لأن الله ﷻ ذكر بأنهم أولو الألباب، أي العقول الخالصة الصافية، ولا يمكن أن يكونوا كذلك إلا وقد اضطرتهم عقولهم إلى معرفة الله جل جلاله، فعقولهم تجعل من المستحيل أن يُوْجَدوا دون موجد، وأن يكونوا مخلوقين دون خالق، فذكر الله ﷻ مسألة ضرورية في قلوبهم وعقولهم، ولكن التفكر يزيد في يقينهم و إيمانهم، ويهديهم إلى اكتشاف ما ينفعهم في دنياهم، ويحدد لهم دينهم الذي ارتضاه ربهم عزوجل لهم.

جسر الاتصال

عرفنا أن الهدف الثالث من طموحات أولي الألباب إعمال الفِكْر بالتفكر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فجمعوا بين الذكر والفكر، فإلى أين يوصلهم هذا؟

الجواب: هنا يأتي:

الهدف الرابع

من طموحات أولي الألباب: الوصول إلى اليقين العقلي والقلبي بالهدف من خلق الوجود، وتذوّق حلاوة الدعاء

فالذكر والتفكر يوصل إلى أن الكون لم يخلقه الله ﷻ باطلًا بل لتعريف الخلق بالإله الحق، وعبادته التي هي سرُّ مصالحهم وسعادتهم الحقيقية، وحين يقف القلب على عتبة هذه الحكمة، يفيض بالدعاء الذي يجدون في رحابه لذة الحياة، وتتجلى فيه أرواحهم صافيةً نقية، وفي هذه الكلمات 5 بصائر عالية:

بصيرة ١: من الفكر إلى الدعاء ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾

هنا نرى لحظة تجلٍّ عظيمة. هي "لحظة الاستقبال الممتزجة بلذة الاتصال، ومشهد الانتقال من ملاحظة الأحوال، إلى شهود عظمة الكريم المتعال": فالتَّقْدِيرُ: ويَتَفَكَّرُونَ في خلق السماوات والأرض، فيجدون من عجائبها ما يوصلهم إلى خالقها، فيقولون: ربنا مَا خَلَقْتَ هَذَا باطلًا. ماذا فعلوا؟ انتقلوا من الخلق إلى الحق، ومن الصورة إلى مصوّرها، ومن الصنعة إلى صانعها، ومن الكون إلى المكوّن، فما أكثر من يعرف دقائقَ الخلق، و أنظمةَ التكوين، ويقف عندها ولا يحاول أن يعرف الحكمةَ من خلقِها، ولا ما أولُ خلقِها، ولا مَن فطرها على هذه الأنظمة الدقيقة والنواميس المنضبطة!

بصيرة ٢: في رحاب كلمة ﴿بَاطِلًا﴾ كشف لمعنيين عميقين:

الأول:

بناءٌ شامخٌ لا هباءً منثورًا:

إن خلق السماوات والأرض ليس خلقًا هزيلًا زائلًا، لا قوة له ولا متانة، بل هو بناءٌ شامخٌ، متقنٌ محكمٌ، وليس باطلًا أي: ليس ذاهبًا زائلًا لا قُوَّة له وَلَا صَلَابَة.

الثاني:

حكمةٌ بالغةٌ لا لهوًا عابثًا:

وهذا يعني أيضًا أنك يا ربنا سبحانك ما خلقتَه باطلًا أي لهوًا وعبثًا، ولا يوجد تلاعبٌ بقوانينه عقدًا ونكثًا.

بَصِيرَة ٣

التوسل للتوصل، والثناء باب الدعاء

الدعاء المجاب هو الذي يتقدمه الثناء تأدبًا وتوددًا بين يدي رب الأرض والسماء، فبدؤوا بالثناء ليتوصلوا منه إلى إجابة الدعاء، فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: 191]، فأثنوا على الله ﷻ بالحكمة والمجد؛ وقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهًا لك عن الباطل، وتعظيمًا لك في قدرتك وعلمك.

ولم يقفوا عند هذا الحد، بل قدَّموا بين يدي دعائهم وسيلة أخرى، وهي الاعتزاز باستجابتهم لنداء الإيمان، فقالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾، وبعد هذا الثناء العملي والإقراري، ابتهلوا بطلباتهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 193].

بَصِيرَة ٤

هذا الثناء يذكر بما رواه الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَلَا أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِرَارًا، وَمِنْ أَبِي بَكْرٍ مِرَارًا، وَمِنْ عُمَرَ مِرَارًا؟ قُلْتُ: بَلَى قَالَ: «مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى: اللَّهُمَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي، وَأَنْتَ تَهْدِينِي، وَأَنْتَ تُطْعِمُنِي، وَأَنْتَ تَسْقِينِي، وَأَنْتَ تُمِيتُنِي، وَأَنْتَ تُحْيِينِي، لَمْ يَسْأَلْ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ». قَالَ: فَلَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ: أَلَا أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مِرَارًا، وَمِنْ أَبِي بَكْرٍ مِرَارًا، وَمِنْ عُمَرَ مِرَارًا؟ قَالَ: بَلَى، فَحَدَّثْتُهُ بِهَذَا الْحَدِيثِ، فَقَالَ: بِأَبِي وَأُمِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتُ كَانَ اللَّهُ ﷻ قَدْ أَعْطَاهُنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَانَ يَدْعُو بِهِنَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعَ مِرَارٍ، فَلَا يَسْأَلُ اللَّهَ ﷻ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ. (قال المنذري في الترغيب والترهيب 458/1: «رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن»)، ولعل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تعلم ذلك من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن الله ﷻ حدثنا أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يردد ذلك في معرض الاعتزاز بعبادة الله ﷻ، فيقول: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: 78-82].

بَصِيرَة ٥

سرُّ النداء المحبب ﴿رَبَّنَا﴾.. خمس مراتٍ تفتح أبواب الإجابة

تَكَرر التضرع بنداء الله ﷻ بهذا اللفظ المحبب: ﴿ربنا﴾ خمس مرات، كأنهم يقولون: اللهم خالقنا وسيدنا وملكنا ومالكنا المربي لنا بما يصلح أحوالنا، فجمعت هذه الكلمة كل هذا، فزيّن حياتك بهذا العدد في التضرع:

1. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: 191].
2. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: 192].
3. ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: 191].
4. ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: 193].
5. ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: 194].

ويبين جَعْفَرُ الصادق رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفاعله مع ذلك، فيقول:

«مَنْ حَزَبَهُ أَمْرٌ فَقَالَ خَمْسَ مَرَّاتٍ: رَبَّنَا، أَنْجَاهُ اللَّهُ ﷻ مِمَّا يَخَافُ وَأَعْطَاهُ مَا أَرَادَ، و اقرؤوا: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيامًا وَقُعُودًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ [آل عمران: 191-194]، قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ حَكَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا خَمْسَ مَرَّاتٍ: رَبَّنَا، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ اسْتَجَابَ لَهُمْ». "تفسير الرازي" (9/ 471).

جسر الاتصال

عرفنا أن الهدف الرابع من طموحات أولي الألباب الوصول إلى اليقين العقلي والقلبي بالهدف من خلق الوجود، فما الهدف الخامس؟

الجواب:

الهدف الخامس الوقاية من عذاب النار وخزيها ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران: 191-192]

وهذا الهدف أجَلُّ المقاصد، ومجمع السعادات، ومنتهى الأمنيات، وفي كلماته 7 بصائر مشرقة:

بصيرة ١ الوقاية من عذاب الله ﷻ أول الأوليات والأولويات التي يجعلها أولو الألباب في قائمة أهدافهم

ورأس سُلَّم اهتماماتهم، وأعظم مقاصدهم، ولذلك جعلوه مستهل دعواتهم:

حدثنا الله تعالى عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُخْلِصِينَ أَنَّ عقولهم لما انشغلت بالتفكر، وقلوبهم بالتدبر والتأثر، وجدوا أن الكون لم يخلق باطلًا، فعظموا الله ﷻ، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، ولما علموا أن الكون لم يخلق باطلًا علموا أنه لا بد من جزاء على الكلام والفِعال، ولا بد أن يحيق بالظالمين سوء النكال، عند ذلك دعوا الله ﷻ أن يقيهم عذاب النار، وبيّن الله ﷻ من قبل أن أعظم الأهداف التي ينبغي تحقيقها: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185]. فالدعاء بهذا الهدف أول خطوة عملية لتحقيقه، فهو دأب العظماء العابدين، ولهج السالكين، ومبتدأ المتوجهين لسبيل رب العالمين.

بصيرة ٢ استهلال الدعاء برجاء النجاة من النار بعد جولةٍ طويلة

سبقها في هذه السورة بيان سنن المدافعة والانتصار والانكسار يؤكد أن مراحل الانكسار والانهزام من أكثر المراحل ملاءمة لمراجعة الذات، وجَرْد الحسابات، وتجريد المقاصد والغايات؛ فإن المؤمنين الصادقين في غمرة مدافعة الباطل ربما شَوَّشت مصاولةُ المبطلين عليهم النوايا الصالحة فحرَّفتها، والمقاصد الصحيحة فأفسدتها، فتأتي الهزائم لتُذَكِّرَ المؤمنين بعبوديتهم لرب العالمين ﷻ، وأن أسمى غايتهم طلب رضاه والنجاة من عذابه.

بصيرة ٣

في معنى الخزي الأبدي..حين تجتمع كل صور الهوان

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ يبصرنا بأن دخول النار يعني أشد الخزي أمام الخلائق، وهو ما تنفر منه الطباع السليمة وتتفاداه في الدنيا فضلًا عن الآخرة:

وكلمة: ﴿أَخْزَيْتَهُ﴾ تصور لغةً معانيَ مدمرة، كلُّها مرادةٌ هنا

فمن وقع في النار فقد أخزاه الله ﷻ أي: أبعده، وأهانه، وأهلكه، و أتلفه، وهتك ستره وفضحه، وماذا بعد كلِّ هذه المعاني المدمرة؟ اللهم أجرنا من النار، ومن خزيها، وحرمنا عليها يا أرحم الراحمين.

بصيرة ٤

الآية تدل على أن العذاب النفساني أشقُّ من العذاب الجسماني

لأن الخزي يورث الخجل الشديد من الخلق بعد ظهور الفضيحة، فإنهم ربما كانوا معروفين بالخير والقوة والتأثير على الآخرين، فخافوا أن يبدو لهم يوم القيامة من الله ما لم يكونوا يحتسبون، لذا قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾. نسأل الله السلامة والعافية، فالنَّار مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِيهَا قَهْرٌ لِلْمُعَذَّبِ وَإِهَانَةٌ عَلَنِيَّةٌ. (التحرير والتنوير 4/ 198).

بصيرة ٥

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾

تبصرنا بأن من أسباب ذكرهم للخزي في النار عقب ما حصل لبعضهم في معركة أحد من الانكسار شعورهم بحصول نوعٍ من الخزي في ذلك المقام، ولكن هذا الخزي لا يعد شيئًا مقارنة بخزي النار، لذا جعلوا الخزي الحقيقي هو لمن يدخل النار، وهذا يبعث همتهم للتوبة والترقي في العبادة، ومعاودة المدافعة للباطل، فما وقع لهم من الانكسار ليس نهاية الطريق، فالنهاية الحقيقية تكمن في الحماية من خزي النار.

بَصِيرَة ٦

بشارة النجاة.. من هم الذين لا يخزيهم الله ﷻ؟

يُكرِّم الله ﷻ المؤمنين الصادقين فلا يخزيهم كما قال سبحانه:

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: 8].

بَصِيرَة ٧

قالوا بعدها تخويفًا لمن قارف الذنوب: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: 192].

ما الحكمة من ذكر الظالمين، وعدم وجود أنصارلهم؟

الجواب:

لما كان الحليف من أهل الدنيا يُهرع إلى حليفه ليرفع عنه الخزيَ والمذلة، وعلم المؤمنون ألا حليف لهم ولا نصير في الآخرة إلا الله ﷻ، استغاثوا به من مواقف الخزي ومواطن الذلة في ذلك اليوم، أما الظالمون فلا يجدون أنصارًا لهم حينها، والظالمون هم من وضع الشيء في غير موضعه، ومن أصنافهم:

أولًا: الكافرون الذين ظلموا أنفسهم بترك أعظم ما يسعدها وهو التوحيد

كما قال ربنا ﷻ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 254]، ويبين لنا النبي ﷺ أن الظالم لا ينصره الله ﷻ ذلك اليوم، فيقول: «إنَّ اللهَ ﷻ يَقولُ لأهوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ». «البخاري: 3334».

ثانيًا: المحادون لله ﷻ المعاندون لدينه

المحاربون لأوليائه الصادُّون عن سبيله كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: 114].

ثالثًا: التاركون لشعائر الإيمان وشرائعه إصرارًا وعنادًا، ككاتم الشهادة

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 140]، والمُضار في أحكام الزواج والطلاق كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 231].

جسر الاتصال

عرفنا أن الهدف الخامس من طموحات أولي الألباب هو الوقاية من عذاب النار وخزيها، فهل اكتفوا بهذا الهدف العظيم أم وضعوا هدفًا آخر ليكون وسيلةً لهذا الهدف الكبير؟

الجواب: هنا يبصرنا القرآن العظيم بـ:

الهدف السادس الاستجابة الواعية لنداء الإيمان، والسعيُ الدائم لغفران الذنوب، وتكفير السيئات والأوزار، والطموحُ لأن يكونوا مع الأبرار

ويبصرنا به قولهم متذللين متحببين متضرعين: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 193]، وفي ثنايا هذه الآية الكريمة، تتكشف لنا 12 بصيرة نورانية تضيء لنا دروب الهداية:

بصيرة ١ — مفتاح الهداية الأول.. قلبٌ يسمع وأذنٌ تصغي

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾ تبصرنا بأن طريق تحقيق الأهداف يبدأ بالقلب المفتوح والأذن السامعة، فلا يمكن للإنسان أن يبني لنفسه مستقبلًا آمنًا، وهو يأبى الاستماع لنداء النصح، وهذا يعني وجوب نشر ثقافة إسماع القرآن واستماعه، وتوفير الأجواء التي تسمح لوحيه بأن يصل إلى القلوب، مع ضرورة التخفيف مما يزاحمه، فكيف لو كان هذا المزاحم ينادي بضد ما ينادي به القرآن كما في كثير من وسائل الإعلام اليوم؟!

بصيرة ٢ — مما يزاحم استماع القرآن

الإكثار من البرامج المبتذلة أو المصطلحات المزاحمة لمصطلحات القرآن أو معانيه كأن يدعو القرآن إلى لباس التقوى، فيدعو الآخرون إلى العري، والفاحشة، وكأن يدعو القرآن إلى العدل، فتضيع هذه القيمة السامية في مصطلحات فضفاضة كالظلم الذي يُمارس باسم القوة، أو الحرية التي لا تضبطها قِيَمٌ.

بصيرة ٣

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ مَن المنادي الذي استمعه أولو الألباب، فجذب نفوسهم؟

الجواب:

تنكير لفظة ﴿مُنَادِيًا﴾ يشير إلى تعدد المنادين لا إلى تحديد منادٍ معهود بعينه، فيدخل فيه كل منادٍ ينادي للإيمان، وأولهم:

1

سيد الخلق، وخليل الحق نبينا محمد ﷺ، وأول من يدخل في زمرة "أولي الألباب" الممدوحين في هذا الكتاب المجيد، هم صحابته الكرام، الذين استقبلوا نداءه بقلوب واعية ونفوس متلهفة.

2

بعد أن أدى النبي ﷺ رسالته الخالدة، أصبح كتاب الله الكريم هو المنادي الأعظم، الذي لا يزال صداه يملأ الأكوان، ويسمعه الإنس والجان، ويبلغه للناس ورثة الأنبياء، وهم العلماء الربانيون.

ولذلك، روى الطبري عن محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال:

«ليس كلُّ الناس سمع النبيَّ ﷺ، ولكن المنادي القرآن»

(تفسير الطبري: 7/480).

فصورت لنا الآية ببلاغة عظيمة أن القرآن كأنه متجسد يدعو الناس دعوةً حية، والذي يبلغ صوتَ القرآن هم حَمَلَتُه، لتصل هداياته وبصائره إلى كل قلبٍ مستعد. ومن عجائب القرآن أنه أحيانًا يصل إلى كل قلبٍ غير عنيد حتى دون أن يبلِّغَه أحد، فبمجرد قراءته أو سماعه تلين له قلوب الناس إن لم يحجبهم الكبر أو العناد.

بصيرة ٤

﴿مُنَادِيًا يُنَادِى﴾ قوة تسمية المبلغ مناديًا:

سمَّوا المبلغ مناديًا، وهنا تكمن دقة البيان القرآني وروعته، فهم لم يقولوا "سمعنا مبلغًا"، لأن كلمة "المنادي" تُظهر حرارة الدعوة، وشفقة الداعي، وحرصَه على هداية الخلق، وحماستَه في نشر دعوة الخير في العالم بالنداء، وهو أقوى من الخطاب، فَالنِّدَاءُ كما جاء في (التحرير والتنوير: 199/4) هو: «رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْكَلَامِ رَفْعًا قَوِيًّا لِأَجْلِ الْإِسْمَاعِ».

وليس المقصود رفع الصوت في ذاته بل الإسماع بأي وسيلة كانت، ويقتضي ذلك التبليغ أن يصل المبلِّغُ إلى أعلى الجهد البشري في إسماع صوته ليجذب اهتمامَ المنادَى، وينقذه وسائر الإنسانية، والغالب أن يكون ذلك برفع الصوت.

بصيرة ٥

متى يعلو النداء ومتى يكون خفيًّا؟

تسمية المبلِّغ مناديًا مع وصفه بالتبليغ في آيات أخرى تجعلنا ندرك أن النداء هنا يقتضي أن يجهر الإنسان بدينه، وأن يرفع صوته في تبليغه، ولكن ذلك لأجل أن يُسمع المنادَى، فإذا كان ذلك سبيلًا لأن يصد عنه المنادَى فينبغي له أن يتلطف، ويبحث عن وسيلة أخرى لمناداته دون رفع صوت، فقد يكون النداء خاليًا من رفع الصوت: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: 3].

بصيرة ٦

نداء للإيمان الذي يؤمِّنُ الإنسان من حر النيران لا للطغيان والكفران

﴿يُنَادِى لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾: تبصرنا الآية أن المنادي ينادي لأعظم ما يطلبه الإنسان، وهو الإيمان، فاللام في قوله: ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَانِ﴾ بصرتنا أن النداء يبلغ غايتَه السامية ومقصدَه الأسمى، فهي تقتضي معنى (إِلَى) لتفيد ما يفيده الحرفان معًا: فـ"إلى" تفيد انتهاء الغاية، واللام تفيد الاختصاص، وفي الإيمان يجدون أمنهم وسلامهم، ويعلنون استسلامهم لربهم ولذا قالوا: ﴿فَآمَنَّا﴾.

والإيمان يثمر الأمان النفسي، والمعيشي من الجوع والأمان العام من الخوف

وأعظم المخاوف: الخوف من النيران في دار المستقر في المستقبل القادم، فلم يقولوا: ينادي لتربية الذات، أو لمصالح الشخص، بل ذكروا الإيمان الذي هو أعظم ما يُشعِرُ الإنسان بقيمة نفسه، ويحقق له أعظم مصالحه الدينية والدنيوية.

بصيرة ٧

الاستجابة البليغة السريعة ﴿فَآمَنَّا﴾

تتألق هذه البصيرة في وصف الاستجابة المتميزة لنداء الإيمان؛ إذ عبرت الفاء عن سرعة استجابتهم، وعدم ترددهم، وصدق قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال في تدبر هذه الآية: «سمعوا دعوة من الله عَزَّ وَجَلَّ، فأجابوها فأحسنوا الإجابة فيها، وصبروا عليها. ينبئكم الله عَزَّ وَجَلَّ عن مؤمن الإنس كيف قال، وعن مؤمن الجنّ كيف قال. فأما مؤمن الجن، فقال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1]، وأما مؤمن الإنس فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: 193]، الآية». «تفسير الطبري: 7/481».

بصيرة ٨

ثمرة الإيمان قلبٌ خاشعٌ يطلب الغفران

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: 193] بعد أن تجذرت شجرة الإيمان في قلوبهم، واستسلموا لربهم عَزَّ وَجَلَّ الواحد، انفتح أمامهم باب الخوف من التقصير والزلل، فما كان منهم إلا أن توجهوا إليه سبحانه بقلوب منكسرة، سائلين إياه بلهفة أن يغفر لهم ذنوبهم الكبيرة، وأن يكفر عنهم سيئاتهم الصغيرة والكبيرة، تضرعًا وتذللًا لمن بيده الأمر كله، مع إدراك عميق لعجزهم البشري وحاجتهم المطلقة لعفو مولاهم.

بَصِيرَة ٩

المغفرة والتكفير: دقة البيان الإلهي:

تتوالى البصائر لتكشف لنا عن دقة البيان الإلهي في طلب العفو والصفح.

فقولهم:

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا﴾

المغفرة تقتضي الستر الجميل، والحماية اللطيفة من الآثار السيئة للذنب، فتُغطى العيوب ولا تظهر كما يُغطِّي المِغْفَر -وهو الدرع- جسد الإنسان.

وقولهم:

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾

التكفير يتعدى الحماية إلى معنى المحو والإسقاط التام، مع إضافة معنى التعويض؛

فكأنهم ببعد نظرهم وإدراكهم لحقوق العباد، رأوا أن السيئات المتعلقة بحقوق الناس تتطلب نوعًا من الكفارة التي تعوض الاعتداء وتجبر الضرر، فلذلك طلبوا "التكفير".

بينما الذنوب التي هي بين العبد وربه سبحانه وتعالى، والتي لا تتعلق بحقوق الآخرين، طلبوا فيها "المغفرة" التي هي الستر والعفو المباشر.

بَصِيرَة ١٠

الذنوب والسيئات: فروق جوهرية

على الرغم من أن الأصل أن تتساوى كلمتا "الذنوب" و"السيئات" في المعنى، فإن التدقيق يكشف عن فروق دقيقة تضفي على البيان القرآني بعدًا أجمل وأعظم:

1

تأتي "السيئات" أحيانًا بمعنى الصغائر من الذنوب، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: 31]، بينما "الذنوب" تحمل معنى الكبائر التي تستوجب المغفرة الخاصة.

2

"السيئات" غالبًا ما تُشير إلى ما يسوء الإنسان أن يراه الناس، وتتعلق بشكل أكبر بالأفعال التي تمس حقوق الناس، ويسوء الإنسان انتشارها، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]. أما "الذنوب"، فهي تلك الأخطاء التي تكون بين الإنسان وبين ربه سبحانه وتعالى، وتتعلق بحقِّه ﷻ.

بَصِيرَة ١١

غاية المنى: دعاء بالثبات وحسن الختام ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 193]

ختموا هذه الأدعية المباركة بأسمى الأماني وأجل المطالب: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

إنها ليست مجرد أمنية بالوفاة في صحبة الصالحين، بل هي دعاء عميق بالثبات والدوام على أعمال البر والطاعة حتى آخر لحظة في الحياة.

إنه سؤال لله سبحانه وتعالى أن يمد يد العون والتوفيق للبقاء على هذه الحالة الطيبة، وذلك من خلال مصاحبة الأبرار، وهم الذين قاموا بأعمال البِرّ، وهي كل أعمال ممتدة لكل خير، مشتقة من البَرّ، وهو ما يقابل البحر.

بَصِيرَة ١٢

سر "المعية": الارتباط بالصفة لا بالشخص ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾

المعية تقتضي الصحبة المباشرة أو غير المباشرة، فربطوا مصيرهم بمصيرهم، ولكنهم لم يسموا أشخاص هؤلاء الذين أرادوا الارتباط بهم، بل وصفوهم بالأبرار، لبيان سبب ربط المصير؛ لأن البَرَّ قد يقع في الخطأ فلا يكون برًّا حينها، ولا يُتابع، بل يتابع عندما يكون برًّا في أقواله وأعماله، وهم بذلك يشعرون بالحاجة إلى هذه الصحبة المتواصية بالخير، المعينة على الثبات في تعرجات الطرق، فالأبرار يمثلون خير سند على مواصلة طريق السعادة والمسارعة إلى كل بر، ومن أحب قومًا حُشر معهم.

جسر الاتصال

عرفنا أن الهدف السادس من طموحات أولي الألباب هو السعيُ الدائم لغفران الذنوب، وتكفيرِ السيئات والأوزار، والطموحُ ليكونوا مع الأبرار؛ فهل بقي شيء يطلبونه بعد كل هذه الطموحات والأهداف؟

الجواب: هنا يبصرنا القرآن العظيم بـ:

الهدف السابع رجاؤهم أن يحقق الله ﷻ لهم وعده الذي وعدهم على لسان رسله من أمور الدنيا والآخرة بعد أن بذلوا ما تيسر لهم من أسبابٍ وفق طاقاتهم البشرية

ونجده في قولهم: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: 194] ههنا، يفتح لنا القرآن العظيم نافذةً على أفقٍ جديد من آمالهم تتجلى فيه عبوديتهم الخالصة، في هذا الدعاء الختامي الذي يفيض باليقين والرجاء، فمن الوعد الدنيوي الذي ينتظرون: النصر والتمكين، ومن الوعد الأخروي: التنعم في جنان الخالدين. وفي هذه الآية 5 بصائر ترفع الهمم:

بصيرة ١: مجيء النصر: يقينٌ لا يتزعزع ﴿رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾

كأنهم يقولون: مما وعدتنا على ألسنة رسلك أنك تُعلي كلمتك كلمةَ الحق، بتأييدنا على من كفربك وحادَّك وعَبَدَ غيرك، فعجِّل لنا ذلك، فإنا قد علمنا أنك لا تخلف ميعادك. (تفسير الطبري) «7/ 485».

بصيرة ٢: تذللٌ يستمطرُ التمكين

طلبوا تحقق الوعد بالتمكين الدنيوي؛ لأنه قد يتأخر لحكمة، ولأنهم يعلمون أنه يعتري أعمالَهم خللٌ وزللٌ، فتذللوا لله ﷻ بأن يحقق لهم ما يُفرحُهم مما وُعِدوا به على ألسنة الرسل عليهم السلام، حتى لو بدر منهم من الخلل والزلل ما اقتضاه ضعفهم البشري.

بصيرة ٣: رؤية النصر تسعد المؤمنين

كما قال تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: 13]، ولذا قال خَبَّابٌ بن الأرت رضي الله عنه: «هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللهِ ﷻ، فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللهِ ﷻ، فَمِنَّا مَنْ مَاتَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ: مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رضي الله عنه، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِبُهَا، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ فَلَمْ نَجِدْ مَا نُكَفِّنُهُ إِلَّا بُرْدَةً إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ خَرَجَ رَأْسُهُ، فَأَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ، وَأَنْ نَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الإِذْخِرِ». (البخاري: 1276).

بَصِيرَة ٤

سؤالُ المسكين لا مطالبة الدائن

أعظم الوعود التي ينتظرها أولو الألباب فوزهم في المستقبل القادم في الحياة الآخرة الباقية، ولأن قلوبهم وجلة، ولمعرفتهم بقدر نفوسهم، وشعورهم بعظمة ربهم فإنهم يسألون ربهم متذللين أن يحقق لهم ذلك الوعد، وطلبهم لتحقيقه جاء على هيئة السائلين المساكين لا على هيئة المطالبين بحقوق في ذمة الآخرين، ولذا قرنوا هذا بسؤال عدم الخزي في الآخرة.

بَصِيرَة ٥

عندما نجمع بين هذا الطلب المبارك في آخر السورة وبين قول الله ﷻ في أول السورة

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 12] **نشعر بقوة الإحكام والاتصال والترابط الدائري بين آيات هذه السورة، ونشعر بعظمة بناء آياتها، وترتيبها.**

الهدف الثامن

رجاؤهم ألا يخزيهم الله ﷻ يوم القيامة بعدم تحقق وعده لهم إن وقعوا في تقصير أو ذنب

ونجده في قولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 194]

وفي هذه الكلمات 8 بصائر غالية:

بصيرة ١

لماذا ذكروا خوفهم من خزي الآخرة مع طلب تحقق وعد الدنيا بالنصر والتمكين؟

الجواب:

لأنهم يعلمون أنه قد صدرت عنهم ذنوبٌ وخطايا، فخافوا أن يظفروا بنصر الدنيا، ويُرفعوا مكانًا عليًّا فيها، ثم يُؤاخذوا بعدها بذنوبهم ويُخزَوا أمام الخلق.

كأنهم قالوا: ولا تخزنا يوم القيامة، فتفضحْنا بذنوبنا التي سلفت منا، ولكن كفِّرها عنا واغفرها لنا.

(تفسير الطبري 7/ 485).

بصيرة ٢

الدعاء عبادة مطلوبة لذاتها

فقد يدعو الإنسان ليطلب من الله العظيم الديان أن يعطيه مطلوبه من الخير والإحسان، وقد يدعو ليتلذذ بمناجاة الكريم المنان، فيكون المقصود من الدعاء هنا كما يقول الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إِظْهَارُ الْخُضُوعِ وَالذِّلَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَقَدْ أُمِرْنَا بِالدُّعَاءِ فِي أَشْيَاءَ نَعْلَمُ قطعًا أنها توجد لا محالة، كقوله: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الأَنْبِيَاء: 112]». (تفسير الرازي 9/ 468).

بَصِيرَة ٣

قالوا: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لما يأتي:

1

لأن أعظم الخزي إنما يكون في ذلك اليوم.

2

وقد شعروا بنوع خزي مما حدث في أُحُد، فدل ذلك على أنَّ من مصائب الدنيا التي لا يكاد ينجو منها أَحَدٌ حصولَ نوع خزي فيها.

3

وأن أعظم المشاهد التي يطلب تجنب الخزي فيها إنما هي مشاهد الآخرة، ولأن من الخزي ما لا يتوقع الإنسان وجوده، أو ما يتوقعه ووَدَّ أنه لم يقع.

ويذكرنا هذا بالقصة العظيمة التي ستحدث لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

وهو من سادات أولي الألباب، فإنه قد سأل ربه مثل هذا، فقال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: 87]، ويحدثنا النبي ﷺ عن قصةٍ تحدث له يوم القيامة، فيقول: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ-أي يُمسخُ أبوه إلى هيئة ضبع-، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ» (البخاري: 3350).

فكأن الله عَزَّ وَجَلَّ أعلم خليله عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن العدل مع أبيه أو أي قريبٍ من أقربائه لا يعني إصابتَه بالخزي

بل ذلك عُرفٌ دنيوي لا علاقة له بالشريعة، فإن الشريعة قائمةٌ على: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: 38-40]، وهذه مما كتبت في صحف إبراهيم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ويأبى المنحرفون من أتباع الأنبياء إلا أن يجعلوا للعنصرية والنسبية مكانًا أبى الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكونوا فيها.

خذ مثالًا:

يشعر الإنسان الصالح بالخزي لكفرٍ يصدر من أبيه أو من قريبه، فلو كان هذا يعني أن يصلح الله الابن لصلاح الأب حتى لا يشعر بالخزي لاقتضى ذلك أن يصلح بنو آدم إلى آخر واحدٍ فيهم؛ لأن أباهم كان نبيًا صالحًا، وبذا يبطل التكليف، والاختيار. وهذا معنى أنه لا خزي على إبراهيم عليه السلام في ذلك اليوم بسبب كفر أبيه.

بَصِيرَة ٤

قال أولو الألباب هذا الدعاء لئلا يدخلوا في زمرة الجهنميين

الذين قال عنهم النبي ﷺ: «لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفْعٌ مِنَ النَّارِ بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا عُقُوبَةً، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، يُقَالُ لَهُمْ: الْجَهَنَّمِيُّونَ». (البخاري:7450).

بَصِيرَة ٥

الخوف من مفاجآت عدل الله يوم القيامة جعلهم يقولون:

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 194]، فتبصرنا بأنهم يطلبون أعلى درجات النجاح الخالص من الأكدار، وعظيم الفلاح الذي تنال به الأوطار.

بَصِيرَة ٦

؟ ولكننا نتساءل: كيف طلبوا الإعفاءَ من العقاب -الذي هو الخزي- بقولهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بعد طَلَبِ الثواب بقولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾. فالمعروف أَنَّهُ مَتَى حَصَلَ الثَّوَابُ كَانَ انْدِفَاعُ الْعِقَابِ لَازِمًا لَا مَحَالَةَ؟

الْجَوَابُ: لأَنَّهم طلبوا أقصى درجات النجاح وذلك يتم بأمرين:

الأمر الأول: الثَّوَاب	والأمر الثاني: أن يقترن الثواب بِالتَّعْظِيمِ والسرور.
فقولهم ﴿آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ طلب للثواب.	وقولهم ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ طلبٌ لئلا يُكَدِّرَ هذا الثوابَ أيُّ مكدِّر. (تفسير الرازي 9/ 468).

بصيرة ٧

دعاؤهم ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 194]

دعاء بالتوفيق والعصمة: فيرى الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ أنها تبصرنا بأن المعنى: «وَفِّقْنَا لِلْأَعْمَالِ الَّتِي بِهَا نَصِيرُ أَهْلًا لِوَعْدِكَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي نَصِيرُ بِهَا أَهْلًا لِلْعِقَابِ وَالْخِزْيِ، وَإِذَا وَفَّقْتَنَا لَهَا، فَاعْصِمْنَا عَمَّا يُبْطِلُهَا، وَيُزِيلُهَا، وَيُوقِعُنَا فِي الْخِزْيِ وَالْهَلَاكِ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَكُونُ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: طَلَبَ التَّوْفِيقِ لِلطَّاعَةِ وَالْعِصْمَةِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ». (تفسير الرازي 9/ 468).

بصيرة ٨

الآية تبصرنا بالفرق بين العذاب الجسماني والروحاني

فهم يشعرون في دعائهم هذا بجلال التعبد، والإشفاق من اختلال الإخلاص والتجرد؛ لأنهم قالوا: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، فرُبَّمَا ظَنَّ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ على الصراط المستقيم، ويظهر له يوم القيامة أنه على كان ضلالٍ عظيم، فَهُنَاكَ تَحْصُلُ الْخَجَالَةُ الْعَظِيمَةُ، وَالْحَسْرَةُ الْكَامِلَةُ، وَالْأَسَفُ الشَّدِيدُ، وهَؤُلَاءِ العباد المؤمنون طَلَبُوا فِي هَذَا الدُّعَاءِ أَشْيَاءَ، فَأَوَّلُ مَطَالِبِهِمُ الِاحْتِرَازُ عَنِ الْعَذَابِ الْجُسْمَانِيِّ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191]، وَآخِرُهَا الِاحْتِرَازُ عَنِ الْعَذَابِ الرُّوحَانِيِّ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 194]. (تفسير الرازي 9/ 469).

عرفنا أن الهدف السابع والثامن من طموحات أولي الألباب تُبَصِّرُنا بهما الآية (194) وهما: رجاؤهم أن يحقق الله ﷻ لهم وعده الذي وعدهم على ألسنة رسله من أمور الدنيا والآخرة بعد أن بذلوا ما تيسر لهم من أسبابٍ وفق طاقاتهم البشرية، وألا يخزيهم يوم القيامة إن وقعوا في تقصير أو ذنب.

وظهر لنا أن أهدافهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لخصوها في مطالب الدعاء، وبعد أن حلّقنا مع تلك الأرواح الطاهرة أرواح أولي الألباب، ورأينا كيف نسجت من تضرّعها الصادق جسرًا من الرجاء يصلُ قلوبهم بالسماء، فهل انتهت أهدافهم الطموحة؟ أم أن هذه الأهدافَ وسائل لهدفٍ أعظم؟

جسر الاتصال

الجواب: هنا يبصرنا القرآن العظيم بأن هذه الأهدافَ الدُّعائية وسائل لهدف أعظم هو غاية الغايات، وروح الأمنيات، ألا وهو:

الهدف التاسع

أملُهم أن يجيب الله ﷻ دعاءهم، ويحقِّق رجاءهم

ويبصرنا الله ﷻ بذلك في قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: 195].

فهذا الهدف هو النتيجة لتلك الأدعية الملتهفة والتضرعات الصادقة، والطموحات الإيمانية العالية.

وفي هذه الآية 13 بصيرةً تسطر لنا أعظم المنح وأجمل العطايا:

بصيرة ١

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وميضُ الإجابة السريعة:

انظر للآفاق الجميلة ذات الأنسام العليلة التي تشرق من هذه الآية؛ فتبصرنا بفيض الاستجابة الإلهية، وتاج الكرامة الربانية.

فقول ربنا ﷻ: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ الفاء تصور فورية الاستجابة، وسرعتها

والسين والتاء للتأكيد البالغ أي: فأجابهم إجابة مؤكدة لا ريب فيها، والفرق بين (استجاب)، و(أجاب) في العرف القرآني: أنَّ (أجاب) يكون للإجابة في الخير والشر، وأما (استجاب) فيختص بالخير.

وكلمة ﴿لَهُمْ﴾ في موقعها لها جمالٌ وبهاء من جهتين:

من جهة وجودها

إذ يمكن الاستغناء عنها، ووظيفتها من هذه الناحية أن تحددهم في إجابة هذه الأدعية، فكأن الإجابة كُتبت بأسمائهم، وفُصِّلت على قدر شوقهم، فهم أهلها والمكرَّمون بها.

ومن جهة تقديمها على كلمة ﴿رَبُّهُمْ﴾

فيدل ذلك على الاهتمام بشأنهم، وتعظيمهم كما يقال: عباد الرحمن.

والاستجابة مشروطة بالأمور السابقة: الذكر والفكر والدعاء، فعند ذاك يُحقَّق الرجاء.

بَصِيرَة ٢

﴿رَبُّهُمْ﴾ تبصرنا بذلك الحنان الإلهي العظيم

إذ لم يقل: فاستجاب لهم الله أو إلههم، بل ربهم ﷻ المربي لهم بما يصلحهم، وليقابل ذلك استغاثتهم المتلهفة التي عبر عنها تكرار كلمة ﴿رَبَّنَا﴾ خمس مرات.

بَصِيرَة ٣

﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ﴾ ميزانُ العدل الإلهي:

فتبصرنا أن الأعمال لا تضيع، فثوابها يبقى وينمو ويكثر، ويعظم ويكبر، فالأساس في الثواب: العمل والاكتساب، وليس الجنس والجنسية والانتساب، وهنا يُعلن الدستور الإلهي الأعظم، كأن الله ﷻ يقول: لا يضيع في ملكوتي مثقال ذرة من خير. كل عملٍ هو بذرةٌ محفوظة في خزائن الله، لا تُنسى ولا تبلى، بل تنمو وتزكو حتى يلقاها صاحبها جبالًا من الحسنات.

وتبصرنا أيضًا بالرد على بعض الناس الذين يرون جهاد المجاهدين المجتهدين لا وزن له إذا ماتوا أو قُتِلوا دون أن يقطفوا ثمار النصر والتمكين، فليطمئنوا، فلا يضيع أي عملٍ للعاملين عند رب العالمين.

بَصِيرَة ٤

﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ﴾ كل عملٍ له في الميزان ثِقَل:

فنكَّرَ كلمتي ﴿عَمَلَ﴾ و﴿عَامِلٍ﴾ ليفيد الشمول والتعظيم؛ فالمعنى: لا أضيع أيَّ عملٍ كان، مهما استصغره الناس، ولا أي عاملٍ يكون مهما احتقره الناس، وردَّ على من يُصَغِّر بعض الأعمال التي يظنها صغيرة سواء أكانت أعمالًا اجتماعية أم علمية أم دفاعًا عن ثغرٍ من الثغور؛ فإنه لا صغير ما دام قائمًا على طاعة الحق و ابتغاء الخير للخلق، فلا يَذُمَّنَّ أحدٌ أحدًا، ومن الأعمال قول رسول الله ﷺ:

«كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ أَخِيكَ»

(أحمد: 14877، والترمذي: 1970، وقال: حديث حسن صحيح).

بَصِيرَة ٥

﴿مِنكُمْ﴾ الإيمان الرابطةُ المقدّسة:

هذه الكلمة الصغيرة تحمل في طياتها سرًّا عظيمًا؛ فهي تعني: منكم أيها المؤمنون. فكلمة ﴿مِنكُمْ﴾ تُخرِجُ من هذا الشرف كلَّ مَنْ عمل صالحًا لكنه أعرض عن شرط القبول الأعظم: الإيمان بالله.

فجعلت المكانةَ العليا الرابطة الإيمان التي تجعل المؤمنين أمةً واحدة، وجسدًا واحدًا. وبصَّرتنا بمكانة المؤمن عند الله ﷻ، وبمكانته عند أخيه المؤمن، فجمعت بين شرف الانتماء ودفء الأخوة. فما بال بعض مَن ينتسب إلى الإسلام يلوك لسانَه على أخيه، ويَسْلَمُ من فَكِّهِ عدوُّه الذي يفترسه ويؤذيه من الكفار والمنافقين؟!

إن عدم شعورنا بقداسة هذه الرابطة يؤدي إلى استبدالنا لها بالروابط التُّرابية والنَّسَبية العنصرية والمصلحية العارضة، والنتيجة الخسارة المحققة كما حدث لملوك الطوائف:

أَفَقْنا يومَ داهمَنا عويلٌ ... على الأسوارِ وانطلقَ الضِّباعُ
وقاتَلَ كلُّ قابيلٍ أخاهُ ... فأرْداهُ وما شَبِعَ الجِياعُ
مُصِيبتُنا دُعاةٌ لمْ يبالُوا ... إنِ اتسعتْ بقولِهِمُ الرِّقاعُ
مُصِيبتُنا شِياهٌ ماضياتٌ ... إلى الذَّبحِ السَّريعِ ولا امتناعُ

بَصِيرَة ٦

﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ تكامل الأدوار:

يدفعنا هذا التفصيل إلى أن نسأل: لماذا التفصيل مع أن قوله: ﴿عَامِلٍ﴾ يشمل الذكر والأنثى؟

الجواب: ليُرسّخ ثلاثة مبادئ خالدة:

الأول: التكامل لا التنافس:

فصرحُ الأمة يحتاج في القيام بأعباء بنائه وحمايته إلى الذكور والإناث، كلٌّ فيما يتعلق به، ويخصه، فهو بناءٌ تشاركيٌّ متكامل، لكلٍّ ميدانه الذي يُبدع فيه.

الثاني: لحشد الطاقات النِّسائية في اتجاهها الصحيح

بدلًا من جعلها أداة للعرض والرقيق الأبيض، فالمرأة شقيقة الرجل في نشر الإسلام وفق الدور الفِطْري.

الثالث: لبيان أن الأصل في ثواب العاملين الصفات لا الأجناس ولا الهيئات

وبموجب ذلك رفعت الشريعة مكانة النساء، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الهِجْرَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195] (الترمذي: 3023، والحاكم في المستدرك: 3174، وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ).

بصيرة ٧

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ نسيجٌ واحد

تبصرنا بشدة تلاحمهم وترابطهم وتآزرهم، فهم كالجسد الواحد، يكمل بعضهم بعضًا مهما اختلفت أدوارهم وأعمالهم، فبعضهم قد يشغله الهمُّ التعليمي، وبعضهم قد يشغله الجهد السياسي، وبعضهم قد يشغله الجهد الإغاثي، وتؤكد هذه الكلمات النورانية على التكامل بين الرجال والنساء كما روت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ». (أحمد: 26195، وحسّنه ابن حجر في موافقة الخُبْر الخَبَر 2/26).

بصيرة ٨

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾

خماسية التضحيات العظمى: تفصّل لنا هذه الكلمات التضحيات الخمس التي استحق أصحابها الوسام الإلهي:

التضحية الأولى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾

فتركوا المشتهَيات والملذات وأُنْسَ الأحبابِ والمساكن والأوطان في سبيل نصرة الإيمان، ولم يقل سبحانه (هَجَروا) بل قال: ﴿هَاجَرُوا﴾ فالمفاعلة للتقوية وبيان الواقع الصادق الذي صنعه هذا المهاجر، فكأنه هجر قومه المعتدين، وهم هجروه.

والهجرة باقية وهي من لوازم المدافعة، فعَنِ عبد الله بنِ السَّعْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا دَامَ الْعَدُوُّ يُقَاتَلُ». وهذا يعني أن المدافعة قد تقتضي أن يترك الإنسان بلده طلبًا لتدبيرٍ ينصره على عدوه، فيهاجر، ولذا قَالَ مُعَاوِيَةُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تعقيبًا على حديث ابن السعدي: إِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ: إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجُرَ السَّيِّئَاتِ، وَالْأُخْرَى أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ، وَلا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَغْرِبِ». (أحمد 1671، وقال الهيثمي في المجمع 251/5: رجال أحمد ثقات).

التضحية الثانية: ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾

أي: أُلْجِئوا إلى الخروج لشدة التضييق عليهم في دينهم، فبحثوا عن مكانٍ يعبدون فيه ربهم ﷻ، ويراغمون فيه عدوهم، وهي تضحية ضخمة تكاد أن تكون بمنزلة قتل النفس، واجتمع الأمران للنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وهذا درب الدعاة، لذا رسم وَرَقَةُ بن نوفل هذا الطريق للنبي ﷺ في أول البعثة، فقال: «لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ». (البخاري 3)، وقال أبو بكر رضي الله عنه عندما أراد الخروج إلى الحبشة: «أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي». (البخاري: 3905).

وهنا نسأل: ما الفرق بين التضحية الأولى والثانية؟

الجواب:

الأولى هاجروا بمحض إرادتهم مع مشقة الهجرة، لكنهم علموا أنها ستكون سبيلًا للانتصار في معركة المدافعة بين الحق والباطل، وستتحقق بها سنة تداول الأيام.

أما الثانية: ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ فتتعلق باضطرارهم للخروج، وترك ديارهم، فاضطرارهم لا يسقط أجرهم، بل اضطروا للخروج إيثارًا لدينهم على دنياهم.

التضحية الثالثة: ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾

فليس الإيذاء الذي أصابهم بسبب جنسٍ أو جنسية، بل لأنهم أرادوا مرضاة الملك الوهاب الذي يعني إحلال الحق والعدل في العالم.

التضحية الرابعة: ﴿وَقَاتَلُوا﴾

وهي النتاج الطبيعي للمهاجرَة والمفاصلة بين الفريقين، وهذه الكلمة تدل على أن هجرتهم ليس لراحتهم الشخصية في عبادتهم فحسب، بل لطلب مدافعة عدوهم، وتطبيق سنة تداول الأيام، فما زالت المدافعة تأخذ سبيلها المرسوم حتى ينصر الله ﷻ الحق وأهله، ويدحر الباطل وحزبه.

التضحية الخامسة: ﴿وَقُتِلُوا﴾

هذه التضحية الأخيرة، وهذا يدل على أن هجرتهم لطلب تداول الأيام بأن يقيم الله ﷻ للمستضعفين الصالحين دولة عدل، ولذا بذلوا أنفسهم في سبيل ذلك.

رد الله ﷻ بذكر هذه التضحية على من يستجيب تارةً لأعدائه، فيعطل الجهاد في موضعه لأنه يعده عنفًا، وتارة لأهوائه، فيطلب الراحة والدعة مع أن الحق يقتضي الصبر على الابتلاء، وليس البحث عن الكسل والهناء، فقد قال رسول الله ﷺ: "عَجِبَ رَبُّنَا ﷻ مِنْ رَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، فَانْهَزَمَ -يَعْنِي أَصْحَابُهُ- فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ، فَرَجَعَ حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ". (أبو داود 2536، وصحح الدارقطني وقفه في العلل 267/5، وصحح إسناده المناوي في كشف المناهج: 902).

بصيرة ٩: مشاهد العزة كما توضحها القراءات الواردة:

ذكر الله ﷻ ثلاثة مشاهد بيَّنتها ثلاث قراءات متواترة:

المشهد الأول

مشهد الإقدام، ودلت عليه قراءة الجمهور بتقديم كلمة ﴿وَقَاتَلُوا﴾، وبعدها ﴿وَقُتِلُوا﴾ مُخَفَّفَةً (ينظر: النشر لابن الجزري 246/2) لِأَنَّ الْمُقَاتَلَةَ تَكُونُ قَبْلَ الْقِتَالِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ قَاتَلُوا حَتَّى قُتِلُوا. (تفسير الرازي: 470/9)، وقد يبدأ المسلمون القتال ضد المعتدين بعد أن يرصدوا من تحركات العدو ما يدل على غدره واعتدائه.

المشهد الثاني

مشهد كثرة الشهداء والجراح، ودلت عليه قراءة ابْن كَثِيرٍ وَ ابْن عَامِرٍ ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِّلُوا﴾ مُشَدَّدَةً لِلْمُبَالَغَةِ وَتَكَرُّرِ الْقَتْلِ فِيهِمْ. (تفسير الرازي: 470/9)، وكأن الأعداء أمطروهم بمواد القتل المجرمة كما ترى هذه الأيام من مشاهد الإبادة الجماعية.

المشهد الثالث

مشهد القتل المستعر فيهم مع الثبات على القتال، وَدلت عليه قراءة حَمْزَة وَالْكِسَائِيّ وخلف: ﴿وَقُتِلُوا وَقَاتَلُوا﴾ فقدم القتل على القتال، وهذا مشهد بديع يصور ثباتهم، ويصور أن وجود قتلى فيهم لم يمنعهم من الصبر والقتال، وتبصرنا بأن النصر في القتال الحق ليس مقصودًا أصالةً حتى لا يصبح معبودًا دون شعور من أهل الحق.

بَصِيرَة ١٠

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾

ترسم خريطة طريق الدعوة: فهذا التدرج في التضحيات يبصرنا بتسلسل الأحداث والمراحل التي تمر بها الدعوات بصورة واقعية؛ ويُعلمنا أن العداوة للحق تتصاعد، وأن على المؤمنين أن يوطّنوا أنفسهم على البذل، فينبغي أن يتوقعوا كل ذلك في الطريق لئلا يفاجئوا بما لم يحسبوا حسبانه.

والتقديم للهجرة على الإخراج من الديار ليس لتقديم الأهم

خلافًا لما أشار إليه الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ، بل لتقديم العام على الخاص، فهذه التضحيات الخمس مرتبة بحسب الواقع لطلب تطبيق سنة تداول الأيام، فأول ما يفعله الإنسان لتغيير واقع استعلاء المجرمين أن يهاجر اختيارًا إلى مكان يمكنه من خلاله التأثير بصورة أكبر، ثم قد يهاجر اضطرارًا، هنا يأتي معنى ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾، ثم قد يؤذى في هذا الخروج وبعده كما أوذي قبله، ثم قد يصل طلب المدافعة وتداول الأيام إلى أن يُقاتِل، ثم قد يُقتَل.

بَصِيرَة ١١

رباعية الأجور العظيمة على خماسية التضحيات القويمة:

ذكر الله ﷻ 4 أجور مقابل تلك التضحيات الخمس:

الأول: تكفير السيئات

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [آل عمران: 195] فأول العطاء هو الصفح والمغفرة، إجابةً لضراعتهم التي قالوا فيها: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران:193]، وذكر الله ﷻ هنا تكفير السيئات مع أنهم قد بذلوا خماسية التضحيات ليبصرنا أن المسلمين بشرٌ يصدر عنهم الخلل، إلا أن حسناتهم أكثر من سيئاتهم، وينبغي أن يعني هذا محاسبة المسؤولين في الأمور العامة عندما يكونون مخطئين، وأن كونهم صالحين لا يعني ألا يقعوا في الخطأ.

الثاني: دخول الجنات

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران:195] إجابةً لقولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران:193-194]، فبعد دفع الضرر بتكفير السيئات يكون جلب النفع بدخول الجنات.

الثالث: شرف العطاء ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾

أي: سأعطيهم ذلك مع التكريم؛ إجابةً لطلبهم: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:194]، والثواب ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله لأنه مِن "ثاب": إذا رجع، وجعل الله ﷻ الثواب من عنده؛ لبيان تعظيم تكريمهم، فالذي يكرمهم هو الله ﷻ وليس مخلوقًا من المخلوقين. نسأل الله أعظم التكريم.

الرابع: جمال الثواب ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾

أي: الثواب الحسن، و انظر للجمال؛ إذ أضاف الصفة للموصوف ليُعلِم السامع أنه لا حُسْن كامل في أي ثواب إن لم يكن هذا الثواب صادرًا من الله رب الأرباب. ما الذي يذكرك به هذا؟

الجواب

يذكرك بأول السورة، فالله يقول فيها: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:14]، وهنا ذكرلنا حسن الثواب الذي يتضمن حسن المآب.

وجعلنا هذا الختام للآية من الجزاء أو الثواب المستقل

لأن يتضمن إبهاج النفس بمقدار الثواب وعظمته عند مقارنته بأي ثواب آخر. كأنه يقول: الثواب الحسن الحقيقي لا يمكن أن تجده إلا عند الله، وعندها سيظهر لك الفرق بينه وبين ثوابٍ حسن أخذته من غيره.

ويصور النبي ﷺ شيئًا من هذا التكريم الضخم، فيقول:

«إِنَّ أَوَّلَ ثُلَّةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ، الَّذِينَ يُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، وَإِذَا أُمِرُوا سَمِعُوا وَأَطَاعُوا، وَإِذَا كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حَاجَةٌ إِلَى السُّلْطَانِ لَمْ تُقْضَ لَهُ، حَتَّى يَمُوتَ وَهِيَ فِي صَدْرِهِ، وَإِنَّ اللهَ ﷻ يَدْعُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَنَّةَ، فَتَأْتِي بِزُخْرُفِهَا وَزِينَتِهَا، فَيَقُولُ: أَيْنَ عِبَادِي الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي؟ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ. فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ». «أحمد:6571، والحاكم وصحح إسناده في المستدرك: 2424». نسأل الله التكريم الأعلى وحسن الثواب الأرقى.

بصيرة ١٢ النظر في قضاء الله ﷻ بمنطقِ ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾

هو مفتاح الفهم لأحداث الحياة، فهذه الكلمات هي العدسة التي ينظر بها المؤمن إلى أقدار الله ﷻ، فيرى في كل ما يحبه حمدًا، وفي كل ما يكرهه صبرًا واحتسابًا، لأنه يعلم يقينًا أن العاقبة عند الله هي ﴿حُسْنُ الثَّوَابِ﴾، فعن شَدَّاد بْن أَوْسٍ رضي الله عنه قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتهِموا اللَّهَ فِي قَضَائِهِ، فإِنَّ الله لَا يَبْغِي عَلَى مُؤْمِنٍ، فَإِذَا نَزَلَ بِأَحَدِكُمْ شَيْءٌ مما يُحِب فليحمَد الله، وإذا نَزَلَ بِهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ، فَلْيَصْبِرْ وَلْيَحْتَسِبْ، فَإِنَّ الله عنده حسن الثواب». «تفسير ابن أبي حاتم 4671».

بصيرة ١٣ التركيز على الغاية الأسمى

فنلاحظ أن الله ﷻ فصَّل وجوه الأجر الأخروي تفصيلًا دقيقًا دون أن يُفصِّل مقتضيات ومكتسبات النصر الدنيوي؛ لماذا؟

الجواب: ليوجِّه بوصلة القلب إلى الوجهة الصحيحة؛ فالنصر الدنيوي قد يأتي أو يتأخر لحكمة، أما النصر الحقيقي والغنيمة الكبرى فهي رضوان الله ﷻ وجَنَّتُه. فلتكن هي الغاية التي تتسابق إليها الأنفس، والهدف الذي لا تحيد عنه القلوب.

جسر الاتصال

كشف لنا القسم الأول من خاتمة سورة آل عمران عن تساعية أهداف أولي الألباب العظيمة التي يطمحون إلى تحقيقها [آل عمران 190-195]، فإذا كانت تلك هي أهدافهم العظيمة، فما المنهج العملي الذي يضمن لهم بلوغها؟ وما الوصايا التي تكون لهم درعًا وسلاحًا في رحلة قيادة الأمم نحو الخير؟

الجواب: هنا يأتي:

القسم الثاني

خُماسية النَّصْرِ ومِسكُ الخِتَام:

يحدد الله ﷻ لنا فيه خماسيةَ الوصايا الربانية الختامية التي ترسم لأولي الألباب منهج نجاحهم في قيادةِ الأمة التي تدعو العالم إلى الخير، وتضمن لهم الانتصار بعد الانكسار خصوصًا عندما تنكسر قوتهم لسبب ما مثل حدث في معركة أحد، أو عندما يواجهون أهل الكتاب.

وامتد هذا القسم في الآيات [آل عمران: ١٩٦-٢٠٠].

وصية (1)

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: 196]

لا تنخدع ببريق قوة الباطل الزائفة.

وصية (2)

زِنِ الدنيا بميزان الآخرة: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 197].

وصية (3)

علِّق قلبك بالجزاء الخالد: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 198]

وصية (4)

يجب التعامل المنصف والذكي مع أهل الكتاب خصوصًا والعالم عمومًا ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ...﴾ [آل عمران: 199].

وصية (5)

استمسك بخماسية الفلاح والنصر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200].

آيات هذا القسم:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: 196-200].

وصية (1)

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: 196]

لا تنخدع ببريق قوة الباطل الزائفة:

تبصرنا بأن قوة الكفار عمومًا وأهلِ الكتاب خصوصًا لا ينبغي أن تخدع المؤمن عن رؤية المصير الحقيقي لأحداث الحياة، ولا ينبغي أن تسيطر الهزيمة النفسية على المسلمين حين يرون تقلبَ الكافرين وتمتعَهم بالقوة المسيطرة في الأرض، وفي هذه الآية 7 بصائر تضيء ظلمة الواقع:

بصيرة ١

بصيرة الاتصال والتكامل من الإعداد الداخلي إلى المواجهة الخارجية:

فتظهر المناسبة والاتصال في أن الله ﷻ يبن في القسم الأول كيف يبني أولو الألباب ذواتهم، ويحددون أهدافهم، ويقدمون التضحيات التي يجعلونها ثمنًا لحسن الثواب من خلال الخماسية التي ذكرها الله ﷻ في الآية السابقة، وهنا يبصرنا الله ﷻ بكيفية التعامل مع العالم المعادي حولهم، فالقوة الداخلية لا تكتمل إلا بحكمةٍ في مواجهة التحديات الخارجية.

وهكذا في قسمي هذه الخاتمة ، يتكامل بناء الروح مع فقه مواجهة التحديات، ليكتمل جناحا القيادة الناجحة التي تحلِّق نحو العلياء.

بصيرة ٢

بصيرة التذكير والتوكيد، وبها تظهر قوة الاتصال الدائري في السورة:

ففي أول السورة: ذكر الله ﷻ علُوَ الكافرين بثرواتهم وقواتهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ [آل عمران: 10].

وكذلك في وسطها: بالصيغة نفسها [آل عمران: 116]، وبصرنا أن ذلك لا يعني أنهم لن يُهزموا في الدنيا.

وهنا: بصَّرنا بأنهم يتقلبون في الأرض عالين فيها، فلا ينبغي أن يخدعنا هذا عن حقيقة مصيرهم الحتمي ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: 196].

وصية (2)

زِن الدنيا بميزان الآخرة: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ١٩٧﴾

توصينا الآية بقياس الأحداث بالمقياس الأُخروي، وهنا يضع القرآن الكريم المجهر الذي يكشف حقيقة تلك القوة المنتفشة، فيرينا إياها على حقيقتها، فهي متاع زائل، ومتعة إلى حين، وفي هذه الآية 4 بصائر تضبط بوصلة القلب نحو الآخرة:

بصيرة ١: بصيرة الرؤية الإيمانية

الأحداث الدنيوية تدور على المدافعة بين الكفار المعتدين والأبرار المتقين، والتربية القرآنية قائمةٌ على ترسيخ الإيمان بالغيب؛ لأنه هو الذي يمنحنا التصور الصحيح للواقع، ويُمَكِّننا من التعامل مع الأحداث بحكمةٍ وثبات، لا بردود أفعال متخبطة.

بصيرة ٢: بصيرة الحجم الحقيقي

يضع الله ﷻ لنا مجهرَ الرؤية الحقيقية في كلمةٍ واحدةٍ جامعة: ﴿مَتَاعٌ﴾، فتقلُّبُ الكافرين في البلاد وسيطرتُهم على مقاليد الأمور إنما هو ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾، وتَجمعُ كلمة ﴿مَتَاعٌ﴾ في معانيها انتفاعًا مرتفعًا يقتضي امتدادًا نسبيًا للوقت مع جودةٍ في المنتفَع وتلذذٍ به، ولكنه ينتهي وينقضي كما ينقضي متاع النهار.

بصيرة ٣: بصيرة الزمن ودلالة ﴿ثُمَّ﴾ العميقة:

يأتي حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يفيد التراخي ليكشف لنا أمرين عجيبين في أحداث الحياة:

الأول: ليرسم فاصلًا زمنيًا قد يطول في حسابات البشر، لكنه في حساب الله ﷻ حتمي النهاية أي: مهما حازوا من الدنيا من المليارات والمشتهيات فتمتعهم ليس إلا قليلًا زمنًا، وحجمًا.

هذا القليل قد يستغرق ثلاثمائة سنة كما حدث لمن عادى أهل الكهف، ويظل على الرغم من ذلك قليلًا.

الثاني: ليبين أن ما هم فيه من عبثٍ بالبلاد والعباد سيستغرق وقتَه وربما يتطاول، فلا ينبغي أن يَفُتَّ هذا في عضد المؤمنين أو يزلزل يقينهم، فالنهاية محتومة.

بَصِيرَة ٤

بَيْنَ مِهَادِ الدُّنْيَا وَمِهَادِ النَّارِ... مُقَابَلَةٌ صَارِخَة

﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 197] أي: فمرجعهم ومردهم إلى مصيرهم المحتوم، وهو نار جهنم مهما تطاول بهم الأمد، ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: وبئس جهنم مهادًا أي: فراشًا يفترشونه، ولحافًا يلتحفونه.

فانظر لقوة هذا التقابل الصارخ بين تقلبهم المريح في فُرُش الدنيا، وبين مهاد النار الذي لا راحة فيه ولا قرار.

ولم يذكر الله ﷻ النصر الدنيوي على الكافرين المتقلبين في البلاد هنا ليثبت مركزية النظر إلى الآخرة في وعي المؤمنين.

وصية (3)

علِّق قلبك بالجزاء الخالد

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 198]:

فحوى هذه الوصية: عَلِّقوا الآمال بالمستقبل الحقيقي الذي تضمنون فيه أجمل الأحوال، وهو مستقبلٌ لا يكون إلا للأبرار المتقين ممن لم يرضخ لإجرام المجرمين المتقلبين في الأرض، وفي هذه الآية نجد:

مَلاذُ الأبرارِ، وجائزةَ التقوى:

فبعد أن حذّرنا الله ﷻ من بريق الدنيا الزائف الذي يتقلَّب فيه أهلُ الباطل في الأرض، يفتح لنا الآن نافذةً على المشهد المقابل.

وفي هذه الآية 4 بصائر نورانية:

بَصِيرَة ١

﴿لَكِنِ﴾ بوابة الرحمة الواسعة:

تأتي كلمة ﴿لَكِنِ﴾ لتستدرك على ما سبق، فتصيرَ هذه الكلمة العجيبة جسرًا من نور، ينقلنا من مشهد غرور الكفار المتقلبين في البلاد إلى مشهد نعيم الأبرار المتقين الذين حازوا أعلى درجات الرشاد.

هي ليست من صور الفناء، بل من مشاهد الخلود والبقاء.

ولا بد أن نسأل: فلماذا ذكر الله ﷻ هنا المتقين مع أنه ذكر قبلهم المهاجرين المجاهدين في الآية (195)؟

الجواب:

لأن الخماسية المذكورة هناك، وهي قوله سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ [آل عمران: 195] قد لا تتوفر في كل الأفراد، فبيَّن الله ﷻ هنا أنه يكفي للحصول على السعادة توفر التقوى.

بصيرة ٢

رباعية الكرم الإلهي

ذكر الله ﷻ للمتقين أربعة أجورٍ من النعيم:

الأجر الأول	الأجر الثاني	الأجر الثالث	الأجر الرابع
طيب المسكن، فقال ربنا ﷻ: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فليس مجرد مأوى، بل هو مسكن يفيض جمالًا وحياة.	الأمن من تنغيص الانقطاع، فقال ربنا ﷻ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، فالخلود يعني البقاء الدائم، فهو الأمان المطلق من غصة الفراق وألم الانقطاع، فكل نعيمٍ دونه ناقص.	شرف الضيافة، فقال مولانا ﷻ: ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾:	تاج الكرامة وبينه قول ربنا ﷻ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 198] أي: والذي عند الله خيرٌ للأبرار.

1 والنُّزُل: مَا يُهَيَّأُ لِلضَّيْفِ من جائزة أو فضل، فإذا كان المضيف هو الله ﷻ، فأيُّ كرامةٍ تلك؟! وأيُّ عطاء ذاك الذي يليق بكرم رب العالمين؟! إنها ضيافة تشير إلى الرضا والمحبة، وتَعِدُ بنعيمٍ لم يخطر على قلب بشر. اللهم إنا نسألك أن تجعلنا في المقدَّمين إليه.

2 عظَّم الله ﷻ هذه الضيافة بأن أضاف هذا النزل إلى الاسم العَلم الدال على ألوهيته، فقال: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ تشريفًا، ولبيان أن تكريمه سيكون عظيمًا لا يمكن أن يخطر لهم على بال؛ لأنه من عنده سبحانه.

3 وكون الجنات نزلًا من عند الله ﷻ يدل على أنه تفضلٌ منه على خلقه بجنَّتِه من غير استحقاق، بدليل أنه شبَّهه بالضيافة التي يقدمها الإنسان لإخوانه من غير إلزام، وأما قوله سبحانه: ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43]، فيدل على أن العمل يوجب التأهل للرحمة، ولا يكفي لاستحقاقها، وذلك لأمرٍ يسير هو أن كل ذرة في كيان العامل إنما هي مخلوقة لله ﷻ، وكل عملٍ يعمله إنما هو بإذنه، فكيف يمكن أن يقابل بذلك الجنة؟

فهذه ليست مجرد تكملة للجزاء، بل جملةٌ تأسيسيةٌ تبصرنا بمعنيين عظيمين:

1

أن هناك ما هو "خيرٌ" من ذلك كله، فكلمة ﴿خَيْرٌ﴾ اسم تفضيل معناه: (أَخْيَر) ثم حذفت الهمزة، ويكون المعنى: والذي عند الله أخير للأبرار من هذه الجنات، والأخير هو ما لا تصفه الكلمات، ولا تحيط به العبارات. إنه رضوان الله، والقرب منه، والنظر إلى وجهه الكريم. اللهم آتنا أفضل ما آتيت الصالحين.

2

وتبصرنا كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ بأن النعيم الأخروي هو الذي ينبغي أن يفكر فيه المرء سواء وجد نعيمًا دنيويًّا أم لا؛ لأنه هو الذي يستحق أن يسمى خيرًا، وهذا التفسير صحيح إن جعلنا كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ اسمًا، وجمعه خيور، لا اسم تفضيل.

بَصِيرَة ٣

كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ في قوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 198]

إن جعلناها اسم تفضيل، فإنها تبصرنا ببصيرة الفهم العميق للموت، فالموت جسر إلى الخير.

وفَهِمَ الصالحون هذا المعنى، حتى قال أبو الدرداء رضي الله عنه:

«مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَـهُ، وَمَا مِنْ كَافِرٍ إِلَّا وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْنِي فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 198]، ويقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178] . «تفسير الطبري: 7/ 496». فالموت للمؤمن ليس نهاية، بل هو جسرٌ يعبر به من دار التكليف إلى دار التشريف، ومن عالم الغرور إلى عالم النور، حيث ينتظره ما هو خير له. والموت للكافر يمثل نهاية لظلمه، وقطعًا لازدياده من الإثم، فهو خير له من هذه الناحية.

وهذا من الكلام النسبي، فإن المقصود بخيرية الموت للمؤمن أي: من حيث الجزاء، وإلا فطول عمره مع حسن عمله يجعل حسن الجزاء أعظم، وكذلك بالنسبة للكافر، فإنه قد يطول عمره، فيتوب ويحسن عمله، ولكن هذا أندر النادر.

بصيرة ٤ — بصيرة وسام ﴿الأبرار﴾

هذا الاسم ليس مجرد لقب، بل هو وسام شرف يحمل في طياته صفاتهم و أفعالهم، فهم أصحاب المبادرة الواسعة الصادقة في الأعمال الخيرة؛ وسمى الله عز وجل المتقين بهذا الاسم الكريم {الأبرار} لأن التقوى طريق البِرّ، والأبرار يصنعون و اقعهم البار من خلال التزام خصال التقوى، فالتقوى هي البذرة، والبِرّ هو الثمرة اليانعة. وكلمة {الأبرار} نفسها تحمل في طياتها 3 سماتٍ من معاني السعة والصدق والنماء:

السمة الأولى: الأبرار هم أهل الصدق، اتسموا بالصِّدْقِ في العمل، واشتق ذلك من قَوْلِهِمْ: صَدَقَ فُلَانٌ وَبَرَّ، فصدَّقت أفعالُهم أقوالَهم، وو افق ظاهرُهم باطنَهم.

السمة الثانية: الأبرار هم أهل السَّعة: فكلمة {الأبرار} مأخوذة من البَرِّ، وهو اليابسة مقابل الْبَحْرِ. اتسعت قلوبهم للخير، فكانت أعمالهم صالحة وواسعة الأثر، لا تضيق بإحسان.

السمة الثالثة: الأبرار أهل العطاء المثمر: فيظهر أثر أعمالهم الصالحة في الو اقع الحياتي: ومن ذلك أن يقال للحنطة الْبُرّ، و أَبَرَّتِ الْأَرْضُ: إِذَا كَثُرَ بُرُّهَا (مقاييس اللغة 1/179)، فكأن الأبرار يُنبتون الأعمال الصالحة، فيجدون ثمرها.

ويبين ابنُ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنموذجًا لهذه الأعمال الصالحة الإيجابية

المؤثرة في المجتمع التي يقوم بها الأبرار فيقول: «إِنَّمَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ ﷻ أَبْرَارًا؛ لِأَنَّهُمْ بَرُّوا الْآبَاءَ وَالْأَبْنَاءَ، كَمَا أَنَّ لِوَالِدَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا، كَذَلِكَ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ» (الأدب المفرد للبخاري: 93)، ويقول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ عنهم بأنهم: «الَّذِينَ لَا يُؤْذُونَ الذَّرَّ». «تفسير ابن أبي حاتم: 4681».

وصية (4) يجب التعامل المنصف والذكي مع أهل الكتاب خصوصًا والعالم عمومًا

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 199]:

إنها وصية لإدارة ملف العلاقات في العالم بصورة حكيمة عادلة، فلا نجمع الجميع في سلَّة واحدة، بل نميّز بين منصفٍ باحثٍ عن الحق فنتقارب معه، ومجرمٍ ساعٍ في الأرض بالفساد فنحذر منه ونواجهه.

إن هذا الفقه في التعامل هو من أهم سنن الانتصار، ومدخلٌ لاستثمار سنة تداول الأيام، وفي هذه الآية 7 بصائر هادية:

بصيرة ١ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ نِدَاءُ الإِنْصَافِ وَبَوَّابَةُ التَّحَالُفِ:

ما أعدله من كلام! فواو العطف لاتصال ما بعدها بما قبلها، فهي تكمل الوصايا الختامية، و أكد فحوى الكلام بكلمة ﴿إِنَّ﴾، فذكر الله ﷻ أهلَ الكتاب في الآية قبل الأخيرة من السورة، بعد ذكر الكفار المتقلبين في البلاد، والمتقين الأبرار؛ لإخراج الصالحين منهم من هذه دائرة الكفار المعادين المتقلبين في البلاد. وهذا لافتٌ جدًّا. فما السر في ذكرهم؟

الجواب:

1 لنعمل على نشر الدعوة إلى الله ﷻ في أوساطهم، ونتوقع وجود من يؤمن منهم، فالله ﷻ يبعث فينا الأمل لنقوم بهذه المهمة.

2 ليرشدنا إلى التحالف مع كل منصفٍ يبحث عن الحق من أهل الكتاب وغيرهم، وتخصيص أهل الكتاب دون غيرهم من الكفار له دلالة عميقة، فالعالم غالبًا تابعٌ أو متأثر بأهل الكتب الثلاثة سلمًا وحربًا.

3 بعد أن ذكر الله ﷻ جرائم المحرفين من أهل الكتاب في المحور الأخير من السورة جاءت هذه الآية لتعديل الصورة حتى لا يحدث عندنا الغلو في أحد الجانبين.

بصيرة ٢: لوحة الشرف الإيماني.. سِتُّ صِفَاتٍ تَصْنَعُ الفَارِق:

وصف الله ﷻ الصنف الصادق من أهل الكتاب بست صفاتٍ:

صفة ١ التمييز والإنصاف

فهم بعضٌ منهم لا كلهم، فكلمة ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ تبصرنا بأن بعض المذكورين من أهل الكتاب يستحقون المدح، وبأن أهل الكتاب مثل غيرهم في أن بعضهم سيؤمن وبعضهم سيكفر، فيجب التعامل مع الفريقين بحكمة.

صفة ٢ الإيمان النقي

فقوله: ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يبصرنا بأن هذا الصنف يؤمن بالله ﷻ الإيمان الحق الذي لا تكتنفه البدع ولا الأهواء ولا التصورات الشركية التي تعطي البشر بعض الصفات الإلهية.

صفة ٣ الإيمان بالرسالة الخاتمة

فقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يؤمنون بما أنزل إليكم، وهو الكتاب والسنة.

صفة ٤ احترام الإيمان السابق

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الوحي مثل التوراة والإنجيل غير المحرَّفَين. وبذلك يحاربون الكراهية التي ينشرها المُبَعِّضون، فنجوا من داء التبعيض الذي يبثه من يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعض.

صفة ٥ ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾

وهذا هو تاج الإيمان! فالخشوع ليس مجرد شعور، بل هو حالة تسري في الروح والجسد أي تلين نفوسهم، وتسكن أعينهم، وتهدأ أبدانهم، ويُظهرون الضراعةَ والانكسار بين يدي الرحيم الغفار.

بذا نعلم أن من شفَّت روحه، وخشع قلبه، ولَانَ لذكر الله ﷻ، رُجي له أن يكون من أهل السعادة والاهتداء، وارتفاع الخشوع بداية الضياع وهلاك الجموع، فعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قال: «إِنْ شِئْتَ لَأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ؟ الْخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا» «الترمذي، 2653، وقال: حسن غريب».

صفة ٦ أمانة العلم

فقوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني أنهم لا يكتمون العلم الذي عندهم، أو يتلاعبون به مقابل الحفاظ على مصالح دنيوية.

هذه الصفة تضعهم مقابل صفة الخائنين الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:187]، وذكرهم الله في هذه السورة أيضًا في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:77].

بَصِيرَة ٣ — جَزَاءٌ بِلَا حُدُود لِقُلُوبٍ صَدَقَتْ فِي الوُعُود

بيّن الله ﷻ جزاء هؤلاء المباركين، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لم يبين نوع هذا الأجر ليجعل الفكر يتصوره على أعلى تصور أي: أجرهم العظيم عند ربهم ﷻ الذي ربَّاهم في الدنيا برحمته وبركاته، فترقبوا أجره الكبير في الآخرة لهم.

بَصِيرَة ٤

مِفْتَاحُ الدَّعْوَةِ وَالأَجْرُ المُضَاعَف

يجب استثمار هذه الآية في الدعوة إلى الله ﷻ، وتكوين التحالفات، فهذه الآية ترغِّب أهل الكتاب في المبادرة إلى الإيمان، ويزيدنا النبي ﷺ بيانًا لذلك، فيقول: «ثلاثةٌ يؤتون أجرَهم مرتين: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَ اتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ...» «مسلم: 154».

بَصِيرَة ٥

النَّمُوذَجُ الحَيُّ... قِصَّةُ النَّجَاشِيِّ الخَالِدَة

من أروع الأمثلة على هذه الآية النجاشي، فقد أسلم وتولاه المسلمون؛ إذ قرأ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه صدرًا من سورة مريم، فبكى النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: «إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ». «أحمد: 1740، وحسنه الوادعي في الصحيح المسند: 1651»، وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما قَالَ: «نَزَلَ بِالنَّجَاشِيِّ عَدُوٌّ مِنْ أَرْضِهِمْ، فَجَاءَهُ الْمُهَاجِرُونَ، فَقَالُوا: إِنَّا نُحِبُّ أَنْ نَخْرُجَ إِلَيْهِمْ حَتَّى نُقَاتِلَ مَعَكَ، وَتَرَى جُرْأَتَنَا وَنَجْزِيكَ بِمَا صَنَعْتَ مَعَنَا. فَقَالَ: لا. دَوَاءٌ بِنُصْرَةِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ دَوَاءٍ بِنُصْرَةِ النَّاسِ. وَفِيهِ نَزَلَتْ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 199]». «الحاكم: 3175، وقال: صحيح الإسناد».

زاد الطبري رحمه الله بإسناده مرفوعًا فقال:

«اخرُجوا فصلُّوا على أخٍ لكم. فخرج فصلَّى بنا فكبَّر أربع تكبيراتٍ، فقال: هذا النَّجَاشيُّ أَصْحَمَةُ»، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على عِلْجٍ نصرانيٍّ لم يره قط! فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 199]، وزاد مرسلًا: قال قتادة رحمه الله: فقالوا: فإنه كان لا يصلي إلى القبلة! فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115].

«تفسير الطبري: 7/ 497، وقال عن الأثر الأول: ذلك خبر في إسناده نظر».

بَصِيرَة ٦

طمأنينة بوعد الله ﷻ

يختم الله ﷻ الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 199]، فهذا قبسٌ نورانيٌّ عظيم يبصرنا بمعانٍ:

المعنى الأول

سرعة إنجاز الحساب يوم القيامة مع كثرة الخلق، فليطمئن المؤمنون فلن يطول حسابهم.

المعنى الثاني

أن هذه السرعة نابعة من كمال علمه وقدرته، فهو «لا يخفى عليه شيء من أعمالهم قبل أن يعملوها، وبعد ما عملوها، فلا حاجة به إلى إحصاء عدد ذلك، فيقع في الإحصاء إبطاء

فلذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾». (تفسير الطبري: 7/501)، والمعنى: يحصي الله ﷻ عليهم أعمالهم، وينبئهم بها يوم القيامة، ولكن ذلك لا يأخذ منه زمنًا كما يأخذ من المخلوقين.

بَصِيرَة ٧

الشمول والبركة

فهاته الخصال الست الحسان، وما ترتب عليها من الجزاء الموفور من الرب المنان، وإن كانت في مَن آمن من أهل الكتاب، إلا أنه ينال بركتَها وخيرَها كلُّ مؤمن أوَّاب، وكل منيب خاشع لله توَّاب، ممن اتبع نبينا محمد ﷺ و أتى بمقتضاها ظاهرًا وباطنًا.

وصية (5) استمسك بخماسية الفلاح والنصر

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]:

هنا نصل إلى مسك الختام لهذه السورة العظيمة. فبعد كل ما سبق من بيان وتفصيل يختمها الله ﷻ بخماسية عملية عظيمة في هذه الآية الجامعة، والخلاصة المانعة لتكون نداءً أخيرًا يضم تاج الوصايا، ودستور النصر. هي دعوةٌ أخيرة تُمَلِّكُ المؤمنين مفاتيح العزة والتمكين.

وهذه الآية تكونت من 5 أركان ونتيجة:

ركن (1) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نِدَاءُ الإِيمَانِ مِظَلَّةُ الوَحْدَةِ وَمِيثَاقُ التَّكْلِيف، فأول هذه الأركان الخمسة: التذكير بالمظلة الإيمانية:

يبدأ الأمر بالنداء الأحب إلى القلوب، وهو نداء المؤمنين بوصف الإيمان، وهو نداء لافتٌ جدًا في آخر آية من سورة آل عمران، وترتيبه في نداءات السورة السابع، ولم تنته سورة بنداء المؤمنين إلا ثلاث سور: آل عمران، والممتحنة، والصف، وكلها تتعلق بالعلاقات الدولية، والتحديات الخارجية، وهذا ينهنا بصورة حادة إلى معنى هذه المظلة الجامعة (مظلة الإيمان). فيبصرنا هذا النداء بقيمة الوحدة العظيمة التي تحققها الأخوة الإيمانية، وكأن الله ﷻ يقول: يا من جمعكم الإيمان بي، اجتمعوا الآن على أمري، لتُكَوِّنوا كتلةً واحدة في وجه تحديات العالم.

ركن [2]

﴿اصْبِرُوا﴾ الصبر وَقُودُ الرُّوحِ وَزَادُ الطَّرِيق ، والصبر حبس النفس على ما تكره في سبيل محبوب أعلى:

وليس المراد أي صبر، بل هو الصبر الإيجابي الفعَّال، وهو أَنْوَاعٌ منها:

1. الصبر عَلَى مشقة البحث عن الحق، وتفاصيل ما يريده الحق سبحانه في هذه الحياة.
2. الصبر على تطبيق الحق، وعلى تبعات الاستقامة عليه ومراراتها.
3. الصبر على عناء تبليغه للعالمين.
4. الصبر عن المعاصي، فهو صبرٌ عن شهوات النفس التي تجذب إلى القبائح.
5. الصبر على أقدار الله ﷻ المؤلمة التي تصقل معادن الرجال مثل شَدَائِدِ الدُّنْيَا كالخوف والجوع ونقص الأنفس والثمرات.

ركن [3]

﴿وَصَابِرُوا﴾ الْمُصَابَرَةُ سِبَاقُ العَزَائِمِ وَمُغَالَبَةُ الشَّدَائِد

أي تَكلَّفوا في حبس النفس على معرفة الحق وتطبيقه، وهنا يرتقي الأمر درجة. فالمصابرة "مفاعلة" تتطلب أمرين:

أولًا

مغالبة الأعداء في الصبر، وتقتضي أن يصابر المؤمنون غيرَهم من أعدائهم، حتى يظفرهم الله ﷻ بهم، ويعلي كلمته، فلا يكون عدوُّهم أصبر منهم. (تفسير الطبري: 7/ 508).

ثانيًا

أن يُصبِّر بعضكم بعضًا، فتكونوا كالجسد الواحد وكالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، فقَوْلُهُ: ﴿اصْبِرُوا﴾ تَنَاوَلَ كُلَّ مَا تَعَلَّقَ بِهِ وَحْدَهُ، ﴿وَصابِرُوا﴾ تَنَاوَلَ كُلَّ مَا كَانَ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ (تفسير الرازي: 9/ 473)

ولذا قال الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ

«أَمَرَهُمْ أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمْ، وَلَا يَتْرُكُوهُ لِشِدَّةٍ، وَلَا رَخَاءٍ، وَلَا سَرَّاءٍ، وَلَا ضَرَّاءٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُصَابِرُوا الْكُفَّارَ، وَأَنْ يُرَابِطُوا الْمُشْرِكِينَ» «الجهاد لابن المبارك» (ص139)، ولَا يفْشَلوا بسبب وُقُوعِ الهزيمة يوم أحد.

ركن (4)

﴿وَرَابِطُوا﴾ المرابطة يَقَظَةُ الأُمَّةِ الدَّائِمَة:

وفيه (5) بصائر:

بَصِيرَة ١: المرابطة هي التجسيد العملي للصبر والمصابرة

فهي فعلٌ يدل على ربط النفس وحبسها، وهي مأخوذةٌ من ارتباط الخيل للعدو، ومعناها اليوم أوسع وأشمل: أن تكون الأمة في حالة استعداد دائم، ويقظة مستمرة على كل الثغور، وهي ليست ثغور الأرض والحدود فحسب، بل كل ثغر يمكن أن يُؤتى الإسلامُ والمسلمون من قِبَلِه.

بَصِيرَة ٢: من أهم أنواع المرابطة

1. المرابطة في ثغور الأمن الفكري والأخلاقي: بالوقوف سدًّا منيعًا أمام الأفكار الهدامة والغزو الثقافي.
2. المرابطة في ثغور القوة المادية: بصناعة كل ما يحقق القوة والمنعة للأمة.
3. المرابطة في الثغور الحدودية والأمنية لحماية المجتمع من آفات المخدرات والجريمة المنظمة، والعصابات والمليشيات، وشبكات التجسس المعادية، وحراسة البلاد من العدو الخارجي.
4. المرابطة في ثغور العلم والتقنية، وصناعة الأسلحة المناسبة لكل عصر لضمان الردع، ويدخل في ذلك ما يتعلق بالتفوق في مجال الآلات بحرًا وبرًّا وجوًّا.

بَصِيرَة ٣

رباط القلب أساس كل رباط

لم يترك النبي ﷺ هذا المعنى السامي محصورًا في ميادين القتال، بل وسَّعه ليشمل ميادين القلوب، فقال: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَ انْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ». «مسلم: 251»، فرباط القلب على الطاعة هو أساس رباط الجسد على الثغور.

بَصِيرَة ٤

الأجر الذي يفوق الخيال

ما أعظم أجر المرابطة، فقد قال ﷺ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا». «البخاري: 2892». وقال ﷺ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِى كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِىَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ -أي: يؤمن من كل ذي فتنة بما في ذلك فتَّان القبر-». «مسلم: 1913»، وقال: «مَوْقِفُ سَاعَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ». «صحيح ابن حبان: 4603».

بَصِيرَة ٥

ذكر الله ﷻ المرابطة بعد الصبر والمصابرة

لبيان أنهما لا يتمَّان إلا بمجاهدة حقيقية.

ركن [5]

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ التقوى هي الدرع الواقي والبوصلة الهادية

تأتي التقوى لتكون الحارس لكل ما سبق. فهي التي تضبط نية الصبر، وتوجه وجهة المصابرة، وتحرس ثغر المرابطة. أي: اتقوا محاسبته لكم، فاصنعوا وقاية من المكروهات والمخافات المستقبلية التي ربما تصيبكم، وهذا يقتضي اتقاء كيد المجرمين بالتخطيط الدقيق، والتنفيذ الصادق.

نتيجة

النتيجة لهذه الخماسية العظيمة هي ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فالفلاح هو الثمرة الموعودة:

وفيها 5 بصائر:

بَصِيرَة ١ الفلاح نتيجة متوقعة لتطبيق الأركان الخمسة

والفلاح هو الغاية الكبرى، ويعني النجاة والظفر والفوز، وتحقيق أعظم الإنجازات.

بَصِيرَة ٢ ليس الفلاح متعلقًا بالآخرة فحسب، بل هو فلاح الدارين

ولئن كانت الآيات السابقة تؤكد على مركزية الفلاح في الآخرة، فإن هذه الآية تنبهنا إلى عدم الغفلة عن تحقيق الفلاح في الدنيا، فالفلاح يعني الظَّفَر بالأهداف التي لأجلها كان العمل كَمَا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى- حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ ومَلَئِه: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه: 64]، وَقَدْ يَكُونُ فِي الآخرة كَقَوْلِهِ حِكَايَةً عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 20].

بَصِيرَة ٣ الخماسية العظيمة مفاتيح النصر الشامل

هذه الخماسية ليست مجردَ أوامر متفرقة، بل هي منظومة متكاملة، وأركان خمسة لسنن الانتصار، بها تُهزَم التحديات النفسية، وتُقهَر العقبات الداخلية، وتُصَدُّ الهجماتُ الخارجية، وهي التي تحمي من الوقوع في الانكسار والاندحار، وهي التي تساعد على تطبيق جميع ما تقدم من الأصول والفروع التشريعية والتنظيمية، وبذلك يستحق الإنسان بجدارةٍ أن يحوز الفلاح الدنيوي والأخروي.

بَصِيرَة ٤

فَهْمُ الصحابة ترجمة عملية لتطبيق هذه الخماسية:

فَهِمَ سلف الأمة هذه الخماسية فهمًا عميقًا، وخذ هذا المثال في استحضارهم لهذه الآية: بلغ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ رضي الله عنه حُصِرَ بِالشَّامِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ رضي الله عنه: سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ مَا يَنْزِلُ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مَنْزِلَةِ شِدَّةٍ إِلَّا يَجْعَلُ اللَّهُ عز وجل لَهُ بَعْدَهَا فَرَجًا، وَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: 200]، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو عُبَيْدَةَ رضي الله عنه: سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ اللَّهَ عز وجل يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20]. فَخَرَجَ عُمَرُ رضي الله عنه بِكِتَابِهِ فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَرَأَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، إِنَّمَا يُعَرِّضُ بِكُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنِ ارْغَبُوا فِي الْجِهَادِ . (الحاكم في المستدرك: 3167، وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ).

بَصِيرَة ٥

خاتمة تليق بعظمة هذه السورة

لم يكن هذا الختام مصادفة. ما أروع أن تُختم سورة تداول الأيام والصراع والثبات والمدافعة بهذه الآية! وما أجمل أن تُختم سورة سنن الانتصار بهذه الخماسية العظيمة! فهو ختم مناسب لجو السورة وعمودها الكلي، ففي مضمار المدافعة، وتداول الأيام، وجولات الصراع والنزاع بين الحق والباطل، لا ينتصر إلا من تحقق بهذه الخماسية العظيمة، ولا يفلح إلا من التزمها، وأخذ بها مجتمعة متعاضدة.

فسورة آل عمران التي بدأت ببيان حقيقة الصراع، وكشفت أصول الحضارة النصرانية خصوصًا والكتابية عمومًا، ومرت بأحداث أُحُد، وعلمتنا سنن النصر والهزيمة، تختم بالوصفة العملية المتكاملة للفلاح. فكأنها تقول: هذا هو الطريق، وهذه هي أركانه، فمن لزمها أفلح، ومن فرَّط فيها فشل.

الاتصال الدائري (تعانق ختام السورة ببدايتها):

أمَا وقد فرغنا من عرض محاور الزهراء الثانية، وتدارسنا بصائرها، وكانت خاتمتها هذا الابتهال المهيب الذي يؤسس لرؤية القيادات الربانية للعالم، وتوّجته تلك الوصايا الخمس التي هي دستور الثبات والفلاح.

فتعال نرقب مشهدًا من أعظم مشاهد الجمال القرآني: كيف تتعانق خاتمة السورة بمقدمتها، وكيف تتناغم السورة مع جوها العام وعمودها الكلي على هيئة بديعة لا نشاز فيها.

جاء هذا الختام المثالي العظيم ليس كفصلٍ أخير، بل كتتويجٍ باهرٍ لكل ما سبق

مناسبًا لما تضمنته الزهراوان من البناء للإيمان والقيم النبيلة والأخلاق الجليلة، والبناء المثالي للجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، والحماية من اختراق القوى المجرمة والأفكار الدخيلة، ومبادئ الحوار وتطبيقاته مع بني إسرائيل باعتبارهم العنصر الأكثر تأثيرًا على المجتمع الدولي، ومع النصارى باعتبارهم العنصر المتملك للنفوذ الظاهري العالمي الواسع.

وشهدنا في الآيات كيف تجمع قوى الإجرام أموالها و أبناءها وقواتها وطاقاتها

لإيقاع الأذى الكثير والإفساد العالمي، وكيف يخصون المؤمنين بإيذائهم وإجرامهم، فبنى الله ﷻ بهذا الختم الطمأنينة التامة، والراحة العامة في قلوب المؤمنين، وذكّرهم في زحمة الأفكار والهموم بأهدافهم الحقيقية.

ولكن، يا لروعة الأسلوب!

لم يأتِ التذكير في صيغة أمرٍ جاف، بل في صورة دعاءٍ خاشع ورجاءٍ منكسر، ليقيم بين العبد وربه ﷻ أقوى جسور الاتصال، و أقرب دروب الوصول إلى حضرة ذي العزة والجلال.

وهنا، وفي هذه اللحظة من المناجاة، يحدث ذاك التحول العجيب:

تطمئن الأرواح وهي حبيسة الأجساد المتعبة...

ويُشرق الرضا في النفوس وإن كان الو اقع من حولها عابسًا...

وينسى القلب آلام الطريق وهو يتذوق حلاوة الوصول...

إنه حديث الروح الذي لا يحتاج إلى لسان، بل إلى قلبٍ واعٍ وروحٍ متصلة. وكما قال الشاعر الملهم محمد إقبال رحمه الله:

حَديثُ الرُّوحِ للأرواحِ يَسري — وتدركُهُ القلوبُ بلا عَناءِ
هَتفتُ بهِ فَطارَ بلا جَناحٍ — وشَقَّ أنينُهُ صَدرَ الفَضاءِ
لقدْ فاضتْ دموعُ الشَّوقِ مِنّي — حديثًا كانَ عُلْويَّ النِّداءِ

(محمد إقبال شاعر وفيلسوف ص 161)

ويطيب لنا في الختام رصد ما قاله الدكتور عامر الخميسي -وفَّقه الله- عن بصائر هذه السورة، حيث أمتعنا فقال:

وَرَسَتِ السَّفينةُ فوقَ بحرِ بصائرٍ — مِنْ لؤلؤٍ يُغري ومِن مرجانِ
كم أشرقتْ نفحاتُها وتلألأتْ — بضيائِها في واحةِ الوجدانِ
فاقبسْ إذا ما شئت من أنوارها — و اقطفْ هنيئًا فالثِّمار دَوانِ
يا ثاني الزَّهراء ظِلُّكِ شائقٌ — في روضكِ المزيونِ طِيبُ جِنانِ

وفي مسك ختام هذه الرحلة المباركة

وبعد هذا التَّطواف الماتع، آن للرِّحال أن تُحطَّ، وللسفين أن يرسوَ على شاطئ هذه السورة العظيمة (آل عمران)، بعد رحلةٍ إيمانيةٍ ومعرفيةٍ طويلة في رياضها وما حوته من بصائر وهدايات، أفرغنا فيها الوُسع، وأمضينا في دروبها سنواتٍ من الدرس والتحرير، والتدقيق والتفكير.

فاللهم يا من بنعمته تتم الصالحات، اجعل ما غُصنا في بحر بصائرها، وتفيّأنا ظلال هداياتها، نورًا نستضيء به في الظلمات، وذخرًا لنا يوم نلقاك، وتجاوز عن زيغِ القلم وزلَّاتِ الفهم، وتقبله منا قبولًا حسنًا، إنك أنت الغفور الرحيم، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١) الآداب الشرعية والمنح المرعية، أبو عبد الله محمد بن مفلح بن محمد، شمس الدين المقدسي (ت ٧٦٣هـ)، عالم الكتب، لبنان.

٢) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، عني بتحقيقها: د. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

٣) الإحاطة في أخبار غرناطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.

٤) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، تقي الدين ابن دقيق العيد (٦٢٥ - ٧٠٢ هـ)، دار عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ م.

٥) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت.

٦) أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (ت ٥٤٣هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣م. وكذا طبعة دار التراث.

٧) الأدب المفرد للإمام البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٨) الإصابة في تمييز الصَّحَابَة، أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٩) إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: تحقيق (محمد أجمل الإصلاحي)، وآخرون، دار عطاءات العلم (الرياض)، ط٢، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.

١٠) إنجيل لوقا، إنجيل مرقص، إنجيل يوحنا، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية.

١١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ.

١٢) البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني (ت ٤٤٤هـ)، تحقيق: أ.د/ غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

١٣) البحر الزخار المعروف بمسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي، المعروف بالبزار (ت ٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرين، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

١٤) البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل العطار، وآخرون، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

١٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي (ت ٥٨٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٦) بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٧) البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، تحقق: د. وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٨) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، الحارث بن أبي أسامة (١٨٦ - ٢٨٢ هـ)، انتقاء: نور الدين علي بن سليمان بن أبي

بكر الهيثمي الشافعي (٧٣٥-٨٠٧ هـ)، تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
١٩) تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٠) تاريخ بغداد (تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها ووارديها)، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت٤٦٣ هـ)، تحقيق: د بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
٢١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.
٢٢) الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦ هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.
٢٣) التَّفْسِيرُ البَسِيْط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري (ت ٤٦٨هـ) أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، عمادة البحث العلمي، ط١، ١٤٣٠هـ.
٢٤) تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: د. إكرام الله إمداد الحق، دار البشائر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٢٥) تفسير ابن عرفة، أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي (ت ٨٠٣هـ)، تحقيق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
٢٦) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم.
٢٧) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرَّازِي (ت ٣٢٧هـ) تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.
٢٨) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٢٩) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من العلماء بإشراف أ.د. مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارق،، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
٣٠) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
٣١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ١٩٩٧/١٩٩٨م.
٣٢) تلبيس إبليس، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، دار المنهاج، القاهرة، ط٢، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
٣٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٣٤) التيسير في التفسير، لأبي حفص عمر بن محمد بن أحمد النسفي (ت ٥٣٧هـ)، تحقيق: ماهر أديب حبوش، دار اللباب، إسطنبول، بيروت، ط١، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م.
٣٥) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطَّبَرِي (ت ٣١٠هـ)، مصورةٌ من تحقيق محمود محمد شاكر، الذي ينتهي بتفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم، دار التربية والتراث - مكة المكرمة، وكذا طبعة دار الحديث،

القاهرة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
٣٦) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القُرْطُبِيّ)، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القُرْطُبِيّ (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
٣٧) جامع المسائل، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ)، تحقيق: جـ ١ - ٦، ٨ (محمد عزير شمس)، جـ ٧ (علي بن محمد العمران)، جـ ٩ (عبد الرحمن بن حسن قائد)، دار عطاءات العلم (الرياض)، ٢، ١٤٤٠ هـ/٢٠١٩م.
٣٨) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق مصر، ١٣١١ هـ.
٣٩) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، أبو القاسم إسماعيل بن محمد القرشي الأصبهاني، الملقب بقوام السنة (ت ٥٣٥ هـ)، تحقيق: محمد بن ربيع المدخلي [جـ ١]، ومحمد بن محمود أبو رحيم [جـ ٢]، دار الراية، الرياض، ط٢، ١٤١٩ هـ/١٩٩٩م.
٤٠) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)، دار السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤ م.
٤١) الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة: محمد خليفة التونسي (نسبة إلى قرية تونس في صعيد مصر) (ت: ١٤٠٨هـ)، قدم له: عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
٤٢) خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، تحقيق: حسين إسماعيل الجمل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٤٣) الخلافيات بين الإمامين الشافعي وأبي حنيفة وأصحابه، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الخُسْرَوْجِردي الخراساني البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق ودراسة: فريق البحث العلمي بشركة الروضة، دار الروضة، مصر، ط١، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥.
٤٤) الدر الفريد وبيت القصيد، محمد بن أيدمر المستعصمي (٦٣٩ هـ - ٧١٠ هـ)، تحقيق: د. كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
٤٥) ديوان ابن أبي بكر المقري اليمني (مجموع القاضي الفاضل الإمام العلامة شرف الدين أبي الذبيح إسماعيل ابن أبي بكر المقري ت ٨٣٧هـ)، مطبعة نخبة الأخبار، ١٣٠٥هـ.
٤٦) ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٤٧) ديوان السموأل، صنعة أبي عبد الله نفطويه، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، ١٣٧٤ هـ/١٩٥٥م.
٤٨) ديوان امرئ القيس، امْرئ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي (ت: ٥٤٥ م)، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤م.
٤٩) ديوان النَّابغة الذُّبيانيّ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢.
٥٠) روح البيان، أبو الفداء إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي (ت ١١٢٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلُوسِيّ (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.
٥٢) روضة الطالبين وعمدة المفتين، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ)، حققه: قسم التحقيق في المكتب

الإسلامي بدمشق، بإشراف زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
٥٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البُستي (ت ٣٥٤ هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٤) زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
٥٥) الزهد، أبو السَّرِي هَنَّاد بن السَّرِي التميمي الدارمي الكوفي (ت ٢٤٣هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ.
٥٦) زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ)، دار الجيل، بيروت.
٥٧) السراج المنير في ترتيب أحاديث صحيح الجامع الصغير، للحافظ جلال الدين السيوطي، العلامة محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، رتَّبه وعلق عليه: عصام موسى هادي، دار الصديق- توزيع مؤسسة الريان، ط٣، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩ م.
٥٨) سفر اللَّاويين، سفر التثنية، سفر الخروج، سفر دانيال، سفر صموئيل، سفر المزامير، سفر يشوع، القس أنطونيوس فكري، مشروع الكنوز القبطية.
٥٩) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، نشر (ج ١ – ٤) ١٤١٥ هـ/١٩٩٥م، ونشر (ج ٦) ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م، ونشر(ج٧) ١٤٢٢ هـ/٢٠٠٢م.
٦٠) السُّنة، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي (ت ٣١١هـ)، تحقيق: د. عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
٦١) سُنَن أبي داود، أبو دَاوُدَ سُلَيْمَان بن الأَشْعَثِ السِّجِسْتَانِيُّ (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعَيب الأرناؤوط، ومحَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩م.
٦٢) سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
٦٣) سنن سعيد بن منصور، أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني (ت ٢٢٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية، الهند، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.
٦٤) السنن الصغرى: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
٦٥) السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
٦٦) السنن الصغير، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الخُسْرَوْجِردي الخراساني البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي .باكستان، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

٦٧) سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٦٨) سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، محمد بن إسحاق المطلبي الشهير بـ ابن إسحاق (ت ١٥١ هـ)، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٦٩) شرح ديوان الحماسة، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (ت ٤٢١ هـ)، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٧٠) شرح السنة، لمحيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفَرَّاء البَغَوِيّ (ت ٥١٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٧١) شرح كتاب الحماسة للفارسي (مطبوع مع: شروح حماسة أبي تمام دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقها)، أبو القاسم زيد بن علي الفارسيّ (ت ٤٦٧ هـ)، تحقيق: د. محمد عثمان علي، دار الأوزاعي، بيروت، ط١.
٧٢) الصبر والثواب عليه، أبو بكر عبد الله بن محمد البغدادي، المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٧٣) صحيح الجامع الصغير وزياداته، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي.
٧٤) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان)، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن التميمي الدارمي البُستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٧٥) صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت١٤٢٠هـ)، مكتَبة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض، ط١، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م.
٧٦) صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله)، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٧٧) صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، المطبعة المصرية بالأزهر، ط١، ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م.
٧٨) الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين، لأبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي (ت ١٤٢٢ هـ)، دار الآثار - صنعاء، اليمن، ط٤، ١٤٢٨ هـ/٢٠٠٧م.
٧٩) طبقات الحنابلة، أبو الحسين محمد بن أبي يعلى الفراء البغدادي الحنبلي (٤٥١ - ٥٢٦ هـ)، حققه وقدم له وعلق عليه: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩مز
٨٠) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت ٧٧١هـ)، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر، ط٢، ١٤١٣هـ
٨١) طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين النيسابوري السلمي (ت ٤١٢هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٨٢) الاعتصام، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الشهير بالشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
٨٣) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.
٨٤) علل الدارقطني من مسند أمِّ الفضل بنتِ حمزة إلى مسند خنساء بنت خدام، وهو آخر مسند في الكتاب لأبي الحسن

علي بن عمر البغدادي الدارقطني (ت: ٣٨٥هـ)، تحقيق: د/علي الصياح.
٨٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، مصر، ط١، ١٣٨٠ - ١٣٩٠هـ
٨٦) الفوائد والأخبار والحكايات عن الشافعي وحاتم الأصم ومعروف الكرخي وغيرهم، الْحَسَن بن الْحُسَيْن بن حمكان أَبُو عَلِيّ الهمذاني (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق: د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٨٧) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ط٢، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.
٨٨) كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
٨٩) كتاب المصاحف، أبو بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت ٣١٦هـ)، تحقيق: د. محب الدين عبد السبحان واعظ، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
٩٠) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد العبسي (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ
٩١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزَّمَخشَرِيّ (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ
٩٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢ م.
٩٣) كَشْفُ المَنَاهِجِ وَالتَّنَاقِيحِ فِي تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ المَصَابِيحِ، محمد بن إبراهيم بن إسحاق السلمي المُنَاوِي ثم القاهري، الشافعيّ (ت ٨٠٣ هـ)، تحقيق: د. مُحمَّد إِسْحَاق مُحَمَّد إِبْرَاهِيم، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
٩٤) لسان العرب، لمحمد بن مكرم، ابن منظور (ت: ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ
٩٥) متن الألفية (ألفية ابن مالك): محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي (ت٦٧٢ هـ)، المكتبة الشَّعْبِيّة، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٩٦) المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر الدينوري، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم)، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ١٤١٩هـ
٩٧) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٩٨) مجمل اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٩٩) مجموع الفتاوى، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تَيْمِيَةَ الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
١٠٠) المحبة لله سبحانه، أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيْمُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ الجُنَيْدِ، الخُتَّلِيُّ (ت نحو ٢٧٠هـ)، تحقيق: د. عادل بن عبد الشكور الزرقي، دار الحضارة، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

١٠١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
١٠٢) محمد إقبال شاعر وفيلسوف الإسلام، الشيخ محمد محمد كامل عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤ هـ/١٩٩٤م.
١٠٣) محمد ﷺ في الكتاب المقدس، البروفسورعبد الأحد داود، ترجمة فهمي شمًّا، مراجعة: أحمد محمد الصديق، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
١٠٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، دار عطاءات العلم (الرياض)، ط٢، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م.
١٠٥) المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي، أحمد بن محمد بن الصدِّيق بن أحمد، أبو الفيض الغُمَارِي الحسني الأزهري (ت ١٣٨٠ هـ)، دار الكتبي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.
١٠٦) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٠٧) مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود الطيالسي (ت ٢٠٤هـ)، تحقيق: د. محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط١، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م.
١٠٨) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ= ١٩٩٩م.
١٠٩) مسند الدارمي المعروف بـ(سنن الدارمي)، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، التميمي (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٢ هـ/ ٢٠٠٠م.
١١٠) مسند الشاميين، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
١١١) مشكاة المصابيح، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي (ت ٧٤١هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م.
١١٢) مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ، ويُسَمَّى: "المَقْصِدُ الأَسْمَى في مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَمَّى"، أبو الحسن إبراهيم بن عمر البِقَاعِيّ (ت ٨٨٥هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧م.
١١٣) المصنف، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ)، تحقيق: مركز البحوث بدار التأصيل، القاهرة، ط١، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.
١١٤) معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (ت ٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
١١٥) المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.
١١٦) المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢.

١١٧) المغازي، محمد بن عمر بن واقد الواقدي (ت ٢٠٧ هـ)، تحقيق: د مارسدن جونس، جامعة أكسفورد - لندن، ١٩٦٦م.
١١٨) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣- ١٤٢٠هـ.
١١٩) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالرَّاغِب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
١٢٠) مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرَّازِي، (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
١٢١) الموافقات: لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت: ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
١٢٢) موافقة الخُبْر الخَبَر في تخريج أحاديث المختصر، أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، تحقيق: عبد المجيد السلفي، وصبحي السيد جاسم السامرائي، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
١٢٣) الموسوعة التاريخية، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية على الإنترنت.
١٢٤) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب محمد المسيري، دار الشروق، ط١، ١٩٩٩م.
١٢٥) موطأ مالك برواية: أبي مصعب الزهري المدني، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت ١٧٩ هـ)، تحقيق: د بشار عواد معروف - محمود محمد خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
١٢٦) نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار، أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار ابن كثير - (دمشق، بيروت)، ط٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
١٢٧) النشر في القراءات العشر: أبو الخير محمد بن محمد بن محمد الجَزَرِيّ (ت:٨٣٣هـ)، مراجعة: علي بن محمد الضَّبَّاع، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٢٨) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البِقَاعِيُّ (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
١٢٩) النكت في القرآن الكريم، أبو الحسن علي بن فَضَّال بن علي المُجَاشِعِي القيرواني (ت ٤٧٩هـ)، تحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

فهرس محتويات الجزء الثاني

القضية الكبرى الثانية: سنن الفلاح والانتصار وسنن الفشل والغم وتولية الأدبار والانكسار (121-189)	5
المحور الخامس يحدثنا عن سنن النصر في الاستعداد للمعركة قبل المواجهة العسكرية، وتطبيق ذلك على معركة أحدٍ [آل عمران: 121-136].	13
القِسم الأول: ذكر الله ﷻ فيه عشر سنن للنصر في إعداد الجبهة الميدانية قبل المعركة، ويؤسس ذلك لوضع خطة محكمة لسد الثغرات الواقعة والمتوقعة [آل عمران: 121-129]	17
السُّنة الأولى: المشاركة الميدانية للقيادة المسلمة أحد أهمّ أسباب النصر، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 121].	17
السُّنة الثانية: وضع الخطة المناسبة، وتوزيع المهام والأدوار، واستيعاب جميع الطاقات: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: 121].	18
السُّنة الثالثة: الشعور بصحبة الله ﷻ للأحداث، والإكثار من ذكره واستشعار المدد الرباني، والمعية الإلهية ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾ [آل عمران: 121].	19
السُّنة الرابعة: تقييم الصف المسلم، والتأكد من عدم وجود شيء من الخلل النفسي ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: 122].	20
السُّنة الخامسة: معالجة نزعات الهمّ المُحبط المؤدية إلى الفشل.	23
السُّنة السادسة: الاستحضار الإيماني العقدي القلبي لمدد الملائكة المثبّتة للمسلمين ضد المعتدين ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ١٢٤ بلى﴾ [آل عمران: 124-125].	25
السُّنة السابعة: ازدياد التأييد الإلهي يتم بعاملَين: الصبر، والتقوى في ظل وجود التهديد المجرم من العدو ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عمران: 125].	26
السُّنة الثامنة: الإِعْرَاضُ عَن الأسباب بعد بذلها، وَالإِقْبَالُ بِالْكُلِّيَّةِ على مُسَبِّب الأسباب ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 126].	29

السنة التاسعة: تحديد الأهدافِ العسكرية للقتال ضد المعتدين، وإعلانها للناس لإدخال الرعب في العدو، وإيجاد قوة الردع ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ۝١٢٧ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۝١٢٨﴾ [آل عمران: 127-128].	29
السنة العاشرة: الثقة الكاملة بالسيادةِ المطلقة لله ﷻ على كل شيء، وتدبيرِه العادل، مع الاجتهاد في اتخاذ الأسباب الشرعية والمادية ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۝١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 128-129].	34
القسم الثاني، ذكر الله ﷻ لنا فيه سنن النصر غير المباشرة، وهي السُّنن التي توجب المحافظة على أسس المجتمع المسلم والجبهة الداخلية في أثناء الحرب، فالحشد القتالي والتعبئة العامة وحالات الطوارئ لا تلغي هذه الأسس، ووجود المعركة الحربية في أُحد لا يعني عدم المحافظة على الجبهة الداخلية في المجتمع، وامتد الكلام في هذا القِسم في الآيات [آل عمران:130-136].	36
السنة الأولى: اقتصادية: تحريم جمع المال من مصادر محرمة أساسٌ للفلاح، فالربا محرم مهما بدت الحاجة إليه ملحة سواء في الموازنة العامة أو الخاصة، حتى في أوقات الحرب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 130].	38
السنة الثانية: إيمانية عَقَدية: تذكُّرُ النجاة من النار، فهو الهدف الأعظم أهمية في الحياة، فلا ينبغي أن يكون النصر في ميدان المعركة هو الهدف الأوحد والمقصد الأسمى ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 131].	42
السنة الثالثة تشريعية: استنزال رحمة الله ﷻ يقتضي أن نطيعه ونطيع رسوله ﷺ، ويبصرنا الله ﷻ بها في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾ [آل عمران: 132].	43
السنة الرابعة اجتماعية إيمانية: المسارعة إلى المغفرة والجنة لتحقيق مرتبةَ التقوى [آل عمران: 133-136].	45
المحور السادس يفصِّل لنا أهمَّ السنن الإلهية في النصر والهزيمة عند الالتحام العسكري من خلال معركة أُحد، وامتد الكلام عن ذلك في [آل عمران: 137- 166]، وهذه السنن تدخل ضمن منظومة الأمن القومي، ينبغي أن تدرس في المراحل التعليمية.	57
القسم الأول يؤسس لنا قوانين ابتدائية مهمة لفهم سنن النصر والهزيمة، وامتد ذلك في [آل عمران 137-138].	59
القسم الثاني: يُبَصِّرنا بالسنن المتعلقة بمعالجة الآثار المترتبة على الهزيمة العسكرية [آل عمران: 139-142].	67
القسم الثالث: يحدثنا هذا القِسم عن السنن التي تعالج وقوع قتل القيادات والأفراد في الصفوف المؤمنة، وبيَّن الله ﷻ فيها كيف يستوعب الصف المؤمن النكبات التي تحل بهم أثناء المواجهات [آل عمران: 143-148].	29

القسم الرابع يحدثنا عن العامل الحاسم الذي يقلب النصر خسارة، والخسارة نصرًا، فحدد سنن النصر والخسارة بين ولاية الله الملك القهار ﷻ وطاعة الكفار [آل عمران: 149-152].	110
القسم الخامس: أخطاء قاتلة حين يصنع الانكسار بأيدي الأحبة [آل عمران: 152-155].	120
القسم السادس: شبح التقليد... هل تقودنا ثقافة الأعداء إلى الهزيمة؟ هذا القسم يُبَصِّرنا بأن من أهم السنن الكبرى للفشل والانكسار تقليد الكفار والتأثر السلبي بثقافتهم الدنيوية المادية [آل عمران: 156-158].	155
القسم السابع: سنن النصر المتعلقة بفن القيادة الناجحة، واستيعاب الأتباع، وتعامل الأتباع مع قيادتهم [آل عمران: 159-166] يا لقلب يتوق إلى النصر، ويا لروح تتطلع إلى الظفر! إن رحلة البناء والتقدم لا تستقيم إلا بقيادة حكيمة وأتباع أوفياء، يتشاركون دروب العزم ويحتضنون قيم التسامح.	164
المحور السابع يحدد لنا دور الأعداء الخارجيين في إحداث الفتنة و إيقاع المسلمين في سنن الفشل، و إبعادهم عن سنن الانتصار [آل عمران: 166-189].	211
القسم الأول: كَشْفُ الأَسْتَارِ عَنْ عَدُوِّ الدَّارِ: يكشف لنا الصنف الأول من الأعداء الخارجيين، وهم المنافقون، ويكشف دورهم الخبيث في تدمير الروح المعنوية للمسلمين، ليوقعوهم في سنن الهزيمة، ويكشف تركيزهم على تهويل مواجهة الموت، وتبشيع الشهادة في سبيل الله [آل عمران: 166-168].	215
القسم الثاني: مَقَامُ الشَّهَادَةِ فِي وَجْهِ دِعَايَةِ الخَوْفِ: يوضح مكانة الشهادة في سبيل الله ﷻ، وذلك للتغلبِ على الدعاية المنافقة التي تدمر الروح المعنوية للمسلمين؛ إذ إن حبَّ الشهادة يصنع الحياة الحقيقية، وينتزع الخوف [آل عمران 169-171].	231
القسم الثالث: سُنَنُ النهوض.. من قلبِ الجراح إلى بوابات الفضل: يكشف لنا هذا القسم عن السنن العملية المباشرة التي يتبعها المحسنون ليحظوا بشرف كرامات الشهادة، وبها يمكنهم أن يقلبوا موازين الحرب، ويحولوا مرارةَ الانكسار إلى حلاوة الانتصار [آل عمران: 172-174].	240
القسم الرابع: كشف منظومة الشيطان القائمة على التخويف: يكشف العدو الثاني، وهو الشيطان وأولياؤه بمؤسساتهم الاتحادية السياسية والعسكرية والثقافية، وهم الذين يعتمدون سياسة التخويف [آل عمران: 175-178].	249
القسم الخامس: الحِكَم الربانية في جولات الانكسار: يكشف لنا عن بعض الحكم الربانية العظيمة لانتصار سياسة التخويف الشيطاني، وانكسار المؤمنين في جولةٍ من المواجهة معها [آل عمران 179-180].	264
القسم السادس: كشف عداوة المحرفين من أهل الكتاب: توعية المؤمنين لاستيعاب العداوة العالمية بذكر الصنف الثالث من الأعداء الخارجيين، وهم المحرفون للتوراة والإنجيل من الذين أوتوا الكتاب.	

خاتمة سورة آل عمران: دستور أولي الألباب: توضح فَهْمَ أعظمِ العالم عقلًا لسنن هذه الحياة وحركتها، وهم أولو الألباب الراسخون الربانيون أصحاب الشهادة الكبرى، وامتدت الخاتمة في الآيات [آل عمران 190-200]، و انقسمت إلى قسمين.	327
القسم الأول: تُساعية أهداف أولي الألباب العظيمة: يوضح الله ﷻ لنا فيه تُساعية أهدافهم العظيمة التي يطمحون إلى تحقيقها، وكيف تنمي حياتهم وتزكي أرواحهم، وامتد هذا القسم في الآيات [آل عمران 190-195].	329
القسم الثاني: خُماسية النَّصْرِ ومِسكُ الخِتَام: يحدد الله ﷻ لنا فيه خماسيةَ الوصايا الربانية الختامية التي ترسم لأولي الألباب منهج نجاحهم في قيادةِ الأمة التي تدعو العالم إلى الخير، وتضمن لهم الانتصار بعد الانكسار خصوصًا عندما تنكسر قوتهم لسبب ما مثل حدث في معركة أحد، أو عندما يواجهون أهل الكتاب.	368
المصلدر والمراجع	390
المحتويات.	398

موقـع مؤسـســــة
بصائر المعرفة القرآنية

الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي

رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.

رئيس مشيخة الإقراء اليمنية

أستاذ دكتور (برفسور) في قسم القرآن والسنة / كلية الشريعة / جامعة قطر حاليًا، وجامعتي ذمار وحضرموت سابقًا.

أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه.

له أكثر من ٣٣ كتابًا ومؤلفًا في التفسير وعلوم القرآن والدراسات الإسلامية.

له أكثر من ٢٥ بحثًا علميًّا منشورًا في عدة مجلات علمية محكمة.

أسهم في تأسيس عدد من الكليات والجامعات الشرعية في اليمن.

شارك في عضوية تحكيم أكثر من ٣٠ مسابقة دولية للقرآن الكريم في العالم، ورأس بعضَها.

شارك في العديد من المؤتمرات العلمية في أنحاء متفرقة من العالم.

قدَّم عددًا من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في اليمن وقطر والبحرين والكويت وبريطانيا وفرنسا وتركيا وإندونيسيا وكينيا وغيرها من الدول.

تفسير سورة آل عمران وبصائرها (الوسيط) الجزء الثاني

يسرُّ "مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية" أن تضع بين يديك الجزء الثاني من هذا الإصدار الجديد (الوَسِيط في تفسير سورة آل عمران وبصائرها) ضمن مشروعها الرائد "تَسْوِير السور القرآنية"، ليكون نِبْرَاسَك في فَهْمِ سُنَنِ التغيير وقوانين النصر والهزيمة. يختص هذا الجزء بتناول القضية الكبرى الثانية في سورة آل عمران، وهي: "إدارة الأزمات وَاسْتِثْمَار سُنَنِ الانتصار بعد الِانْكِسَار؛ عَبْرَ التحليل القرآني الفريد لغزوة أحد".

بمنهجيةٍ تدبريةٍ مُحْكَمَة، ينقلك الكتاب من محراب العقيدة إلى ميدان المواجهة؛ مُسْتَعْرِضًا "سُنَنَ النصر العشر" في الإعداد للمعركة، وكيفية التعامل مع الْجِرَاح والآلام. يكشف هذا الجزء عن "سُنَنِ النهوض من الْكَبَوَات"، وَتَشْرِيح أسباب الهزيمة، وكيفية تَنْقِيَة الصف الداخلي من النفاق وَالْوَهْن، ومواجهة الحرب النفسية وَالدِّعَائِيَّة للأعداء الخارجيين.

وصولًا إلى "مِسْك الختام" الذي يرسم ملامح "أولي الألباب"؛ تلك القيادات الربانية التي تجمع بين الذكر والفكر، وبين الدعاء والعمل.

إنه كتاب يعيد تشكيل الوعي بالواقع، ويقدِّم وصفة قرآنية عملية لتحويل مِحَن الأمة إلى مِنَح، وهزائمها إلى انْطِلَاقَات حضارية جديدة راسخة.

الراعي الرسمي | الراعي الأول | راعي مشارك

بصائر المعرفة القرآنية — قرآن يبني لإنسانية ترتقي

جامعة قطر QATAR UNIVERSITY
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
COLLEGE OF SHARIA AND ISLAMIC STUDIES

تدبّر

تصميم وإخراج الكتاب:
+90 555 152 05 22
moh.ab.ad1071@gmail.com